الجامعة الأردنيّة ـ عمّان
كلية الدّراسات العليا ـ الدكتوراه
قسم اللغة العربيّة وآدابها

(أصداء الحروب الصليبيّة في أدب القاضي الفاضل)

إعداد :

حلمي إبراهيم محمّد عبد الفتّاح

إشراف :

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

(قدّمت هذه الرّسالة استكمالا لمتطلّبات نيل درجة الدكتوراه في
تخصص اللغة العربيّة وآدابها من كليّة الدّراسات العليا في الجامعة الأردنيّة)

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٦ / ١ / ١٩٨٨م وأجيزت)

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

(نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٦ / ١ / ١٩٨٨م وأجيزت)

الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

(نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٦ / ١ / ١٩٨٨م وأجيزت)

الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

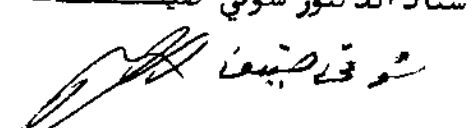

(نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٦ / ١ / ١٩٨٨م وأجيزت)

الأستاذ الدكتور إحسان عباس

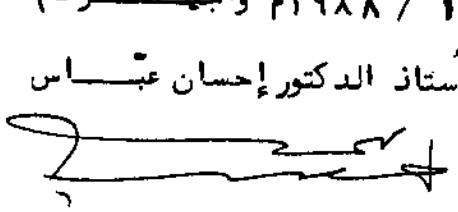

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــــــداء

إلى زوجتي يسرى ثمرة من ثمار صبرهـــا وتشجيعهـــــا لقـاء ما بذلتـه مـن عـون وتشجيع خفّف عنـي أعبـاء الدّراسة ومشـاق البحـث أهـدي هذه الرّســـالة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدّمـــــة

تعرّضت الدّولة الإسلاميّة في القرنين الخامس والسّادس الهجريين لهجمـــــة صليبيّة ،ربّما كانت من أخطر المحن الّتي واجهتها في صراعها مع أعدائها،إذ خرجت جموع الفرنج الّتي جمّعت من شتى أنحاء أوروبا مدعومة بطاقاتها الماديّة والعسكريـة سرا وعلانية ،قاصدة أراضي الدّولة الإسلاميّة ،متكئة على أوضاعها المتردية الضعيفـــة وخلافاتها الدّاخليّة . فتمكّنت تلك الحملة من السيطرة على فلسطين وأجزاء أخـــرى من بلاد الشام ،وأقامت فيها كيانا كان يهدّد عقيدة المسلمين ومصالحهم آنـــذاك مثلما يهدّدها الكيان الصّهيوني اليوم . أقول ذلك لأنّ مادّة بحثي هذا قد نشـأت في ظلّ أوضاع متشابهة ــ إلى حدّ كبير ــ مع أوضاعنا الحاضرة الّتي نعيشهـــــا وإن اختلفت أساليب العدوان ،ودوافع الاحتلال ،وأبطال الصّراع.

وقد عانى المسلمون من وجود الغزاة على أرضهم أيّما معاناة ،حتى هيّأ اللّه لهم القيادة الصالحة الّتي تصدّت للأعداء ممثلة في عماد الدّين زنكي ،وابنه نورالدّين ثمّ في صلاح الدّين الّذي وحّد كلمة المسلمين وصفوفهم تحت رايته، فتمكّن من استعـادة الأراضي الإسلاميّة المغتصبة من أيدي الغزاة من الفرنج ،بعد أنْ خاض معهـــم عدّة معارك توّجها بكسرتهم في معركة حطّين سنة (٥٨٣هـ) ،فأعاد للإســـلام والمسلمين العزّة والكرامـــة.

وقد ظهرت أصداء ذلك كلّه في أدب تلك الفترة وشعرها الّذي واكب الحروب الدّائرة بين المسلمين والغزاة ،إذ كان من الطبيعي أنْ يتصدّى الأدباء لمواجهـة الأعداء ومقاومتهم بالكلمة الموحية المؤثّرة ،لكي يبعثوا في المسلمين روح الجهـــاد ويستثيروا هممهم ،ويستحثّوهم على مواجهة الغزاة والتصدّي لهم ،مهوّنين عليهـــم التضحية والموت في سبيل اللّه ونصرة دينـــه.

وأما الفضل في فكرة بحثي هذا ،فيعود لأُستاذي الدكتور محمود إبراهيـــم إذ كان خلال إعدادنا لنيل درجة الدكتوراه ،يكلّفنا كتابة تقارير عن أعلام الأدب والفكر في عصر الحروب الصليبيّة ،بمصر والشام ،ويغرينا بالبحث عن آثارهم الأدبية ،لمعرفة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مواقفهم من الغزو الفرنجي لديار الإسلام ،وما قاموا به من تعبئة للمسلمين آنذاك .

ولمّا فكرت في إعداد رسالة أتقدّم بها لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي كان القاضي الفاضل أوّل من قفز من بين أدباء عصره في ذاكرتي ،لأنّه كان له جهد واضح إبّان الحروب الّتي كانت تدور بين المسلمين والغزاة من الفرنج ، فشرعت في استقصاء أخباره وآثاره من مظانها المختلفة ،المطبوعة منها والمخطوطة ، وجمعت ما تناثر منها في كتب التاريخ والأدب والتراجم ،وإذا بي أمام شخصيّة موهوبة ذات ثقافة واسعة متنوّعة ،وموقف بيّن من الحروب الصليبيّة الّتي كانت محور اهتمامه وأدبه ،نظرا لصلته الوثيقة بصلاح الدّين الّذي تزعم في زمنه حركة الجهاد ضدّ الصليبيين ، إذ كان الفاضل وزيره وكاتبه ومستشاره .

ولكنّ الشكّ — مع ذلك — ظلّ يراودني ،إذ رأيت أنّه من غير المعقول أنْ تهمل دراسة الفاضل وأدبه ، وهو على ما هو عليه من الشهرة والنتاج الغزير ،ومن أجل ذلك ،عكفت على البحث والتنقيب في فهارس المطبوعات والمخطوطات في الأردنّ وخارجه واتّصلت بمن لهم علاقة بهذا الأمر ،ولا سيّما في مصر ، فعلمت أنّ السيّد رشدي الأشهب(١) قد أعدّ رسالة ماجستير بعنوان : (القاضي الفاضل ، حياته وشعره)(٢) وظفرت كذلك بدراسة عن الفاضل في كتيّب للدكتور أحمد بدوي ،بعنوان (القاضي الفاضل : دراسة ونماذج) ،ترجم فيه للقاضي الفاضل ،وتحدّث فيه حديثا موجزا عن شعره ونثره . وقد اطّلعت على تراجمه الكثيرة في معظم كتب الأدب الحديثة الّتي تحدّثت عن عصر الحروب الصليبيّة بمصر والشّام ،كمؤلفات عبد اللطيف حمزة ،ومحمّد زغلول سلاّم ، ومحمّد سيد كيلاني ، وشوقي ضيف ، وغيرهم ، وهي دراسات تختلف في مضمونها ومعالجتها عن طبيعة بحثي ،فاطمأنت نفسي ، وعرضت فكرة بحثي هذا على أستاذي الدكتور محمود إبراهيم ،فنالت منه الرّضا والقبول ، وانتهينا إلى أنْ تكون الدّراسة بعنوان :(أصداء الحروب الصليبيّة في أدب القاضي الفاضل) .

---

(١) محاضر بجامعة الخليل في الضفة الغربيّة المحتلّة .
(٢) انظر: الدّليل الببلوغرافي للرسائل الجامعيّة في مصر ص : ٨٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد دفعتني إلى اختيار القاضي الفاضل موضوعا لدراستي هذه ،عوامل كثيرة منها : غزارة نتاجه الأدبيّ المتّصل بحروب المسلمين مع الفزاة من الفرنج ، وهو نتاج لم يطّلع الكثيرون إلاّ على جزء منه فقط ، لما له من قيمة تاريخيّة ،إذ واكب أحداث عصره الّتي جرت أثناء حركة الجهاد الإسلاميّ الّذي تزعمه صلاح الدّين ضدّ الفزاة في بلاد الشام . ومنها : ثقافته الواسعة المتنوّعة وفنّه الأدبيّ الّذي يمثّل مدرسة أدبيّة ،كان هو زعيمها في عصره ،وتركت أثرها في العصور اللاحقة ،ولأنّ أدبه يعطي صورة واضحة عن الأوضاع السياسيّة والفكريّة والثقافيّة والاجتماعيّة الّتي كانت قائمة زمن الحروب الصليبيّة. ثمّ إنّ وجود تشابه بين الظروف الّتي أُنتج فيها أدب القاضي الفاضل ،وبين الأوضاع والظروف الّتي نمّر بها في هذه الحقبة من التاريخ العربي الإسلاميّ ، قد جعلني شديد التعلّق بدراسته وبحثه ،لحاجة أمّتنا الملحّة في هذا العصر إلى مثل هذا الأدب الموجّه لخدمة قضاياها المصيريّة .

وقد جعلت دراستي هذه في أربعة فصول ،مهّدت لها بتمهيد ،وختمتها بخاتمة لخّصت فيها ما توصلت إليه من نتائج . أمّا التمهيد ،فقد تحدّثت فيه عن الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة الّتي كانت قائمة في القرن السادس الهجريّ بمصر والشّام ، لأرى مدى تفاعل القاضي الفاضل مع أحداث عصره ، وتأثيرها في شخصيّته ونتاجه .

وخصّصت الفصل الأوّل للحديث عن سيرة القاضي الفاضل وثقافته ،فرافقته في هذا الفصل منذ ولادته بعسقلان سنة (٥٢٩هـ) وحتى وفاته بالقاهرة سنة (٥٩٦ هـ) وتوقّفت عند اسمه ونسبه ، ونشأته الأولى ، وأطوار حياته الّتي مرّبها في عهدي الفاطميين والأيّوبيين ،وتحدّثت عن العوامل الّتي أسهمت في تكوينه الثقافي والفكري ثمّ ختمت هذا الفصل بالحديث عن شخصيّته وأخلاقه .

وأمّا الفصل الثاني ،فقد جعلته للحديث عن نثره الّذي واكب المعارك والحروب الدائرة بين المسلمين والفزاة من الفرنج ، من حيث المحتوى والمضمون ،فحاولت أنْ أرسم معالم شخصيّته واتجاهاته من خلال أدبه النثري ، وموقفه من هذه الحروب ودوره فيها . وقد قدّمت دراسة نثره على دراسة شعره ، لأنّ شهرته في مجال الكتابة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غلبت على شهرته في ميدان الشعر ،ولأنّ مشاركته في الحروب بنثره كانت أكثر من مشاركته في الشعر .

ووقفت الفصل الثالث من هذه الدراسة على شعره الّذي صوّر المعارك والحروب من حيث المحتوى والمضمون ، فتعرّفت إلى موقفه من قضايا عصره ومجتمعه مبرزا القضايا التالية : صورة البطل المسلم ،وطبيعة المعركة ، وعناصر الاستحثاث والاستنهاض ،وذلك بالقدر الّذي أسعفني به شعره .

وأمّا الفصل الرّابع والأخير من هذه الدراسة ، فقد تناولت فيه نثر الفاضل وشعره من الناحية الفنيّة في إطار العناوين التالية : المفردات اللغويّة والأساليب والمعاني والمؤثرات الثقافية والأخيلة والصور الشعريّة والبناء الفنّي لكلّ من رسائله وقصائده ثمّ أوضحت مكانته الأدبيّة بين من أرّخوا له وكتبوا عنه من القدماء والمحدثين.

وأمّا المصادر الأساسيّة الّتي استقيت منها مادة بحثي في دراستي للنثر ، فقد كانت كثيرة ومتنوّعة ، وفي مقدّمتها : رسائله المعروفة بـ (رسائل عن الحرب والسلام) الّتي اختارها ابن الديباجي المتوفي في حدود (٦٥٠هـ) ، وقد كانت مادّة هذه الرسائل أصلا لمعظم الّذين تحدّثوا عن الفاضل وشخصيته من القدماء (١). وأهمية هذا المصدر تكمن في أنّه قد حفظ معظم رسائل الفاضل الّتي كتبها عن صلاح الدّين إلى الخليفة وأمراء المسلمين في حروب صلاح الدّين وفتوحاته في بلاد الشام ،وما قام به من أجل

---

(١) يقول الدكتور محمّد نفش ،محقق هذه الرسالة مشيرا إلى أهميتها :((...ورجعنا إلى الكتب الّتي وردت فيها بعض هذه الرسائل لتحقيقها ،وهي : كتاب الرّوضتين لأبي شامة ،وصبح الأعشى للقلقشنديّ ، ووفيات الأعيان لابن خلّكان ،والدّرر النظيم ،ورجعنا إلى المخطوطات الموجودة في أنحاء جمهوريّة مصر العربيّة لنتخذ منها أصولا للتحقيق ،ولكن اتضح أنّ ما بها لا يتعدّى فقرات من رسائل أوردها جامعوا هذه المختارات للاستشهاد بها على مكانة القاضي الفاضل الأدبيّة العالية في ميداني الشعر والنثر ،مما يضفي أهميّة على المخطوط (من ترسّل القاضي الفاضل) ،الّذي يعدّ العمدة بين يدي الباحثين في الكتابة عن الأدب والتاريخ والحروب والإدارة لدى المسلمين في عصر الدّولة الأيّوبيّة)). رسائل عن الحرب والسلام ، ص : ٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توحيد المسلمين ضدّ الفرنج ،إضافة إلى أنّ جامع هذه الرسائل ، كان ممّن عاصروا القاضي الفاضل ، إذ كان في محلّ الوزارة للسلطان الكامل ابن العادل بن أيوب في الفترة بين (٦١٥—٦٣٥هـ)(١). ومنها : (النّكت العصريّة في أخبار الوزارة المصريّة) لعمارة اليمنيّ (ت: ٥٦٩هـ) ،وهو من المصادر الأساسيّة الّتي أفدت منها في حديثي عن أوضاع مصر قبيل دخول الزنكيين إليها ،وما كان يدور فيها بين وزرائها من فتن ودسائس ومؤامرات من أجل السيطرة على السلطة ،إذ شهد عمارة بنفسه ما جرى في مصر من أحداث في نهاية العصر الفاطميّ ، فأورد لنا طائفة من الأخبار قلّما نظفر بها في مصادر أخرى .

ومنها أيضا مؤلّفات العماد الأصفهاني (ت: ٥٩٧هـ) ،ولا سيّما كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، (قسم شعراء مصر) ،وهو من المصادر الأساسيّة الهامّة الّتي أوقفتني على ملامح الحركة الفكريّة والثقافيّة الّتي كان الفاضل زعيمها آنذاك ،وعرّفني ثقافة الفاضل الواسعة المتنوّعة الّتي كانت منهلا أساسيّا استقى منه العماد مادّة كتابه الخريدة ،كما عرّفني مكانة الفاضل الّتي تبوّأها في دولة صلاح الدّين ،ودوره في مقارعة الغزاة بفكره وقلمه . ومنها كذلك كتاب (الفيح القسّيّ في الفتح القدسي) ،الّذي كان سجلّا لفتوحات صلاح الدّين وتحرّكاته العسكريّة والحربيّة منذ سنة (٥٨٣هـ) ،وحتى سنة (٥٨٩هـ) ،إذ واكبها الفاضل في أدبه وتحدّث عنها ، فأفادتني في تحديد أزمنتها وما جرى فيها من حوادث ،كان العماد في بعضها شاهد عيان .

ومنها : (رحلة ابن جبير) لابن جبير (ت: ٦١٤هـ) ،وهو من المصادر الأساسيّة الّتي اتّكأت عليها في حديثي عن الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة ، الّتي كانت قائمة في عهد صلاح الدّين ،بمصر والشّام ،إذ اطّلعت من خلاله على اهتمام صلاح الدّين بالعلم والعلماء ، وطرائق التعليم في عصره ،وقدّم لي معلومات قيّمة عن طرق التجارة البريّة والبحريّة آنذاك . والمعروف أنّ ابن جبير كان قد شهد جانبا من الصراع الإسلامي الفرنجيّ ،فأورد لنا طائفة من الأخبار الّتي رآها بعينه ، كحديثه عن أسرى الفرنج الّذين أغاروا على بلاد الحجاز ،وهدّدوا المقدّسات الإسلاميّة فيها .

(١) انظر: صلاح الدّين الصفديّ ،الوافي بالوفيات ،إعتناء: س. ديدرينغ ،ط٢، ١٩٧٤: ٢/ ٣٥٥ ،وابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ،القاهرة: ٦/ ٢٢١—٢٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها أيضا : (كتاب الرّوضتين)لأبي شامة المقدسيّ (ت: ٦٦٥هـ) ،وأهميّة هذا المصدر في دراستنا هذه تكمن في أنّه حفظ الكثير من رسائل الفاضل الّتي كتبها عن صلاح الدّين إلى الخليفة العبّاسي وأُمراء المسلمين في أنحاء الدّولة الإسلاميّة حول المعارك والحروب الّتي دارت بين صلاح الدّين والخارجين على الوحدة الإسلامية والغزاة من الفرنج . وقد أورد هذا المصدر أخبارا كثيرة من كتاب (البرق الشامي)للعماد الأصفهانيّ ،قد لا نجدها في غيره من المصادر .

ومنها : (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي (ت: ٨٢١هـ) ،إذ حفظ لنا هذا المصدر الكثير من رسائل الفاضل الكاملة ،بكلّ ما اتّسمت به في مطالعها وخواتمها وطرائق التعبير . وأمّا في دراستي لشعر القاضي الفاضل ،فقد اعتمدت بصورة أساسيّة على ديوانه ،الّذي حققه الدكتور أحمد بدوي .

هذا ،وثمّة مصادر أخرى كثيرة استعنت بها عندما تحدّثت عن معالم البيئة السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة ، وسيرة الفاضل وثقافته ،وقد تنوّعت هذه المصادر ما بين تاريخيّة وجغرافيّة ،وتراجم وطبقات ،وكان من أهمها : كتابا (الكامل في التاريخ) و(التاريخ الباهر) لعزّ الدّين بن الأثير ، وكتاب (وفيات الأعيان)لابن خلّكان ،وكتاب (مفرّج الكروب)لابن واصل ،وكتاب (سير أعلام النبلاء) للذهبي ،وكتاب (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي، ومعجم البلدان لياقوت الحمويّ وغيرها من كتب التاريخ والسير والتراجم والبلدان .

وبعد ؛ فهذا هو موضوع دراستي ،وهذه هي الدّوافع إليها ، ومصادرها الأساسيّة . وانّي لآمل أنْ أكون قد وفّقت في اظهار أصداء الحروب الصليبيّة في أدب القاضي الفاضل ،وأنْ يكون في هذه الدّراسة ما ينبّه أبناء أمّتنا إلى ما يحدق بها من أخطار ،وما ينير لها الطريق وهي تتلمس دفعها .

وأخيرا ،ليسمح لي أُستاذي الفاضل الدكتور محمود إبراهيم أنْ أتوجّه إلى شخصه الكريم بوافر التقدير والإجلال ،لتفضّله بالإشراف على دراستي هذه ،وعلى ما منحني إيّاه من وقته وجهده وسعة صدره ،إذ رعى هذا البحث منذ أنْ كان فكرة إلى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنْ أصبح حقيقة واقعة . وقد كان لملاحظاته القيّمة وتوجيهاته السديدة أثر بيّـــــن في تصويبه وتقويمـــه ،فكان يوجّهني بعلمه وخبرته ،ويأخذ بيدي كلّما قاربت زلـــــلا فجزاه اللّه عنّي وعن العلم كلّ الجزاء .

((ربّنا عليك توكلنا ،وإليك أنبنا ،وإليك المصير))

حلمي إبراهيم عبد الفتّـــاح
الجامعة الأردنية ـ عمّـــان
١٩٨٧ م ـــــ ١٤٠٧ هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخـــــــــل :

أوّلا : الوضع السياسي في مصر والشام في القرن السادس الهجري

ثانيا : الوضع الاجتماعي والاقتصـــــــادي

ثالثا : الوضع الثقافـي والفكـــــــــري

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوضع السياســـــــي :

سيطرت على الأرض الإسلاميّة قبيل الزحف الصّليبيّ عدّة قوى(١) ،كان فـــــي مقدّمتها العبّاسيّون والسلاجقة ثمّ الفاطميّون . وكان التنافس والصراع على السيـــادة بين هذه القوى المتناحرة المتنابذة من أبرز سمات العصر السياسيّة ،إذ كانت كـــل واحدة منها تنافس الأخرى وتنازعها من أجل البقاء والسيطرة على أجزاء من البـــلاد الإسلاميّة . ولذا فإنّ الناظر في تاريخ الدّولة الإسلاميّة الّذي سبق الزحف الصّليبـــيّ يلمح بوضوح ذلك الصراع المؤلم الّذي كان ينخر في جسد الدّولة ، ويزيد في تفكّكهـــا وضعفها ،حتى غدت أرضها لقمة سائغة للغزاة الطامعين . أضف إلى ذلك أنّ الفتـــن الداخليّة في دولتي العباسيين والفاطميين قد صدعت هي الأخرى وحدة الصـــف الإسلاميّ ، فالدّولة العبّاسيّة كانت مشغولة بالسلاجقة الّذين سيطروا على خلفائها(٢) في حين أنّ السلاجقة الّذين كانوا يمثلون القوّة العسكريّة في الدّولة العبّاسيّـــــة شغلوا هم أيضا بنزاعهم الدّاخلي فيما بينهم حول السلطنة بعد وفاة ملكشـــــاه ودبّت الفوضى في دولتهـــم القويّة ،وتسلـــل اليهـــــــــــــــــــــا

---

(١) انظر: ابن خلدون ،تاريخ ابن خلدون ،ط٢ ،دار الكتاب ، بيروت، ١٩٦١م: ١/ ١٥٨ .

(٢) انظر: العماد الأصفهانيّ ،تاريخ دولة آل سلجوق ،ط٢ ،بيروت، ١٩٧٨ ، ص: ٢٢٨—٢٣٥ ،وابن القلانسي ،ذيل تاريخ دمشق ،تحقيق : سهيل زكّار، ص: ١٣٤ ،والحسيني ،أخبار الأمراء والملوك السلجوقيّة ، تحقيق : محمّد نور الدّين ،ط١ ، ١٩٨٥م، بيروت ،ص : ٢٤٣—٢٥٠ ،العمـــــريّ الانباء في تاريخ الخلفاء ،تحقيق : السامرائي ،ليدن ، ١٩٧٣م، صـــ: ٢١٦—٢٢١ ،وابن الأثير ،الكامل في التاريخ ،ط٢ بيـــــروت، ١٩٦٧م ٨/ ٢٩٢—٢٩٣ ، ٣٠٧—٣١١ ، ٣٥١—٣٥٤ ،ابن كثير ،البداية والنهاية ط١ ،الرياض، ١٩٦٦م :١٢/ ١٣٩—١٤٤ ،المقريزي ، السلـــــوك ،ط٢ ١٩٥٦م، القاهرة : ق١ ج١/ ٣٤—٣٧ ، ٣٩ ،ثم انظر تفصيل ذلك فـــي كتاب القزّاز ،الحياة السياسيّة في العصر العباسيّ الأخير ،النجـــــف ١٩٧١م ،ص: ٤٠—٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمزّق والانحلال (١). ومن المؤسف حقا أنّ هذا التمزّق قد تزامن مع إعداد أوروبا العدّة للقيام بالحملة الصليبيّة الأولى على ديار الإسلام، مستغلة أوضاع الدولة الإسلاميّة السيّئة (٢)، إذ كان السلاجقة يقاتل بعضهم بعضا تارة، والطامعين في أملاك الدّولة العباسيّة تارة أخرى، وعلى رأس هؤلاء الدولة الفاطميّة الّتي كانت تسعى إلى ضم بعض أراضي العبّاسيين إليها (٣). وليس بالمستغرب أنْ تكون بلاد الشام مسرحا للصراع بين هاتين القوّتين المتنازعتين، لأهميتها السياسيّة والدينيّة فالعبّاسيون يريدون الحفاظ عليها، لأنّها جزء من دولتهم، وقد حمل عنهم هذا العبء السلاجقة الّذين سيطروا على دولتهم، والفاطميون يرون فيها منطلقا لدعوتهم الشيعيّة ودرعا لدولتهم يحميهم من العبّاسيين وغيرهم، ولذا فإنّهم لم يتورّعوا عن التعاون مع الصليبيين، وهم يحاصرون أنطاكيّة، فأسفروا إليهم، ليكونوا لهم حلفاء على منافسيهم من السلاجقة، ويقتسموا أملاكهم في الشام فيما بينهم. قال ابن الأثير في حوادث سنة إحدى وتسعين وأربعمئة: ((... وقيل إنّ أصحاب مصر من العلويين لمّا رأوا قوّة الدّولة السلجوقيّة وتمكنها، واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزّة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم

---

(١) انظر: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٢٠٢ وما بعدها، الانباء، ص: ٢١٢، ٢١٤، ٢١٨ وتاريخ آل سلجوق، ص: ٨١، ١٢٥، ١٤٦، ١٤٩ — ١٥٠، ٢٢٨ — ٢٣٥ وأخبار الأمراء السلجوقيّة، ص: ١٥٥ وما بعدها، الكامل: ٨/ ١٦٤ — ١٦٨، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٠ — ١٩١، ٢٩١ — ٢٩٢، ٣٣٦ — ٣٣٨ البداية والنهاية: ١٢/ ١٣٩، ١٤٤ — ١٤٥، تاريخ ابن خلدون: ٣/ ١٠٠٠ — ١٠٠١، النجوم الزاهرة، ط١، ١٩٣٥م القاهرة: ٥/ ٩٣، ١١٠، ١٣٥، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٧، ١٨٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة ط٤، ١٩٨٢م: ١/ ١١٤ — ١٢٣، وللمزيد انظر كتاب: حامد زيّان، الصراع السياسي والعسكري، القاهرة ط١، ١٩٨٣م، ص ص: ٩ — ٢٥.

(٢) انظر: الحركة الصليبيّة: ١/ ١٢٤، وعبد المنعم حسنين، سلاجقة إيران والعراق ط١، ١٩٥٩م، القاهرة، ص: ٥٨.

(٣) انظر: الكامل: ٨/ ١٥٠، ١٦٨، ١٧٢، ٢٦٠، ابن ميسّر، المنتقى من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد، القاهرة، المعهد الفرنسي، ص: ٣٠، ٣٣، ٣٧، ٤٥

٣٥٥٧٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبيـــــن المسلميـــــــن)) .(١)

وهذا إن صح فإنّما يدلّ على جهل الفاطميين ،وعدم إدراكهم لفداحة الخطر الصليبي على الإسلام والمسلمين ،حتى كان تهاونهم في مواجهة الغزاة والتصـــدّي لهم من أهم الأسباب التي عجلت على سقوط دولتهم واندحارها (٢).

ومهما يكن من أمر،فإنّ انشغال أبناء الدّولة الإسلاميّة بنزاعهم الدّاخلـــي سواء أكان ذلك داخل صفوف السلاجقة أم بين السلاجقة والفاطميين ،قد مزّق وحدة المسلمين ،وزاد في تفكّكهم وضعفهم ،ومكّن الغزاة الصليبيين من السيطرة علـــى سواحل الشام كلها (٣)، فأقامـــوا فيها خلال فترة قصيرة إمارات قويّة (٤) عانـــى المسلمون منها الكثير الكثيـــــر.

= ٥٠، ٦٥—٦٦ ،البداية والنهاية :١٢/ ١٣٥ ،السلوك :ق١ج١/ ٣٤— ٣٩ ،النجوم الزاهرة :٥/ ٥٦ ،تاريخ ابن خلدون :٤/ ١٣٦—١٣٨.

(١) الكامل في التاريخ :٨/ ١٨٦ ،وانظر: السيوطي ،تاريخ الخلفاء ،ط٢، ١٩٥٩م: ص: ٤٢٧ ،الحركة الصليبيّة :١/ ١٩٨—١٩٩ ،المطوي ،الحروب الصليبيّة بيروت ،١٩٨٢م ص: ٣٥ ،ومحمود إبراهيم ،صدى الغزو الصليبي فـــي شعر ابن القيسراني ،عمّان ،١٩٧١م ،ص: ٢٢ ،والصراع السياسي والعسكري ص: ٤٥١ ،والمعاضيدي، الحياة السياسيّة في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي ،ط١ ،١٩٧٥م ،بغداد ،ص: ١٢٠ ،وسياسة الفاطميـــــن الخارجيّة ،ص: ١٥٧.

(٢) انظر: عمارة اليمني ،النكت العصريّة ،ص: ٨٨ والنجوم الزاهـــره :٥/ ١٤٨، ١٧٩ ، وتاريخ الدّولة الفاطميّـــة ، ص: ١٨٠.

(٣) انظر: المنتقـــى من أخبـــار مصـــر ،ص: ٦٤ ، والبدايـــة والنهايـــــة :١٢/ ٢٦٧ ،النجـــوم :٥/ ١٦٧.

(٤) انظر: ذيـــل تاريـــخ دمشـــق ،ص: ٢١٩ ،والمنتقـــى مـــن أخبـــار مصـــر ،ص: ٦٤ ، والكامـــل ٨/ ١٨٥، ١٨٩ ، ٢٥٨— ٢٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد مضى زمن قبل أنْ توجد قيادة قديرة صالحة للمسلمين في بلاد الشام ممثلة في عماد الدّين زنكي ،وابنه نورالدّين محمود ،ثمّ في صلاح الدّين الأيّوبيّ فقد تمكن عماد الدّين من استعادة معرّة النعمان من أيدي الغزاة سنة تسع وعشرين وخمسمئة ،وقلعة بَعْرين سنة إحدى وثلاثين وخمسمئة (١)،ثمّ مدينة الرُّها أوّل إمارة للصليبيين سنة تسع وثلاثين وخمسمئة (٢). وتمكّن نورالدّين محمود من استعادة الكثير من الحصون الصليبيّة التابعة لأنطاكيّة بعد هزيمتهم في معركة إنّب سنة أربع وأربعين وخمسمئة ،وغيرها من المدن (٣).

وأمّا الدّولة الفاطميّة الّتي عاش القاضي الفاضل في كنفها منذ ولادته في سنة تسع وعشرين وخمسمئة وحتى سقوطها سنة سبع وستين وخمسمئة ،فلم تكن حالها بأفضل من حال الدّولة العباسيّة منافستها ،إذ كان قد دبّ فيها الفساد والضعف ،لما كان يحاك فيها من دسائس ومؤامرات على مناصب الوزارة والحكم ،فقد كان بعض الخلفاء فيها يتولّون الحكم وهم صغار(٤)،ويستبدّ بتدبير أمورهم الوزراء . قال ابن الأثير: ((. . . وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد ،والخلفاء

---

(١) انظر: الكامل : ٨/ ٣٥٧ ،الذهبي ،العبر في خبر من غبر ،الكويت ١٩٦٣م: ٤/ ٧٥ ، ٨٤.

(٢) انظر: ذيل تاريخ دمشق ،ص: ٤٣٦—٤٣٧ ،الكامل : ٩/ ٨—٩ ، البداية والنهاية : ١٢/ ٢١٩.

(٣) انظر: ذيل تاريخ دمشق ،ص: ٤٧٣—٤٧٥ ،الكامل : ٩/ ٢٥ ،أبو شامة الرّوضتين ،تحقيق : محمد حلمي ،القاهرة ١٩٥٦م ،ج١ ق١/ ١٥٠ — ١٦٠ ،البداية والنهاية : ١٢/ ٢٢٦ ،والنجوم : ٥/ ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣٢٥ ، ٣٨١.
وانظر: صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ،ص: ١٨- ١٩،والحروب الصليبيّة ،للمطوي ،ص : ٧١.

(٤) انظر: ابن منقذ ، الاعتبار ،بيروت ١٩٨١م ،ص: ٧ ، وذيل تاريخ دمشق ص: ٥٠٦ ،ابن الجوزي ،المنتظم ط١، ١٣٥٨هـ ،حيدر آباد ، الدكن ١٠/ ١٩٦ ،الكامل : ٩/ ٤٤٠ ، ٦٨ ، ابن خلّكان ،وفيات الأعيان تحقيق : إحسان عبّاس ، بيروت: ١/ ٢٣٧ ، ٣/ ١١٠ ، ٤٩٢ ،أبو الفداء ،المختصر في أخبار البشر ،بيروت ١٩٦١م ،ج٢م ٤٠/ ،النجوم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معهم اسم لا معنى تحته[١]».

ومن الجدير بالذكر هنا، أنّ الخلفاء الفاطميين أنفسهم كانوا من أسباب تنازع الوزراء وتنافسهم على السلطة، وذلك بسياستهم الّتي اتّبعوها في تعيينهم، إذ كانوا يعهدون بالوزارة إلى من أطاح بسابقه، وتغلّب عليه، بدلا من أنْ يضربوا على يد الخارج على النظام منهم، ليقطعوا الخلاف ويحسموا الأمر، فعملوا بذلك على اشعال نار الفتن، وتوسيع شقّة الخلاف والنزاع ما بين وزرائهم، وعجّلوا في سقوط دولتهم. قال ابن شداد: «... وكانت عادة المصريين أنّه إذا غلب شخص صاحب المنصب، وعجز صاحب المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقّعوا للقاهر منهم، ورتّبوه ومكّنوه، فإنّ قوّتهم إنّما كانت بعسكر وزيرهم، وهو ملقّب عندهم بالسلطان، وما كانوا يرون المكاشفة، وأغراضهم مستتبّة وقواعدهم مستقرّة من أوّل زمانهم على هذا المثال[٢]».

هذا وكثيرا ما كان الخلفاء الفاطميون يتآمرون على وزرائهم، ويحرّضون على قتلهم من أجل تقوية نفوذهم وسلطانهم، ولكي يتخلّصوا من تسلطهم واستبدادهم بأمور السلطنة والحكم. ومن ذلك ما فعله الحافظ بوزيره رضوان حينما حرّض الجند على قتله، فهرب إلى الشام، وأمر الحافظ بنهب داره وحرمه، ثُمّ[٣] سجنه وقتله بعد عودته إلى مصر بأمان منه[٤]. وما فعله الظافر بوزيره ابن مصّال

= ٥/٢٨٨، ٢٩١، ٣١٩، ٣٣٤؛ تاريخ الخلفاء، ص: ٤٤٠؛ محمّد سرور، الدّولة الفاطميّة في مصر، القاهرة، ١٩٧٩م، ص: ١٤٣.

(١) الكامل: ٩/٤٢، وانظر: عليّ إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى ط٢، ١٩٤٩م، القاهرة، ص: ١٢٥.

(٢) ابن شداد، سيرة صلاح الدّين، تحقيق: الشيّال، ط١، القاهرة، ١٩٦٢م ص: ٣٦، والرّوضتين، تحقيق: حلمي، جـ١ ق١/٣٣١.

(٣) انظر: الاعتبار، ص: ٣٧، النجوم: ٥/٢٤٤-٢٤٥، ٢٨١، محمّد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطميّ، القاهرة، ١٩٧٠م، ص: ٢٨٢-٢٨٣.

(٤) انظر: الاعتبار، ص: ٤٠-٤١، ذيل تاريخ دمشق، ص: ٤٦٠-٤٦١، تاريخ ابن خلدون: ٤/١٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عند ما تغلّب عليه ابن السلاّر ،وقد عجز الخليفة عن حمايته ،فقال له: ((... اخرج إلى الحوف ،اجمع واحشد ، وأنفق فيهم ،ودافع ابن السلاّر))(١). وحينما قتل ابن مصّال وأحضر رأسه الى الخليفة الظافر، خلع على ابن السلاّر خلع الوزارة ،ولقّبه الملك العادل(٢) ثمّ تآمر عليه ،ودسّ له من قتله (٣).

وهكذا استمرّ النزاع بين الوزراء في مصر على السلطة حتى بلغ ذروته في عهد الخليفة العاضد بين شاور وضرغام بعد مقتل طلائع بن رزّيك سنة ثمان وخمسين وخمسمئة على يد شاور ،فخرج عليه ضرغام ،وهرب شاور إلى الشام مستنجدا عليه بنور الدّين محمود على أنّ يكون له ثلث خراج مصر(٤).

وقد صوّر لنا ابن الأثير حالة مصر الّتي كانت تعاني من ضعف خلفائها وحكّامها في العهد الفاطميّ الأخير ،فقال: ((... وكانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء حجاب ،والوزراء كالمتكلمين ،وقلّ أن وليها أحد بعد الأفضل إلاّ بحرب وقتل وما شاكل ذلك))(٥).

كلّ هذا كان يجري في مصر ،والصليبيون يتخطّفون المدن الإسلاميّة من أيدي المسلمين وخلفاء مصر ووزراؤهم مشغولون بنزاعهم وتآمرهم على شؤون الدّولة والحكم

---

(١) الاعتبار ،ص: ٨ ،وانظر: النجوم: ٥/ ٢٩٥ ،٤٤٦ ،والوزارة والوزراء ،ص: ٢٨٢— ٢٨٣.

(٢) انظر: الاعتبار ،ص: ٩ ،والمنتقى من أخبار مصر ،ص: ١٤٢ ،والوزارة والوزراء ،ص: ٢٨٤.

(٣) انظر: الاعتبار ،ص: ١٠ ،٢٢ ،ذيل تاريخ دمشق ،ص: ٤٩٥ ،مرآة الزمان ط١ ،ق١ جـ٨/ ٢١٤—٢١٥ ،الكامل: ٩/ ٢٥ ،النجوم: ٥/ ٢٨٨ ،تاريخ ابن خلدون: ٤/ ١٥٦.

(٤) انظر: النكت العصريّة ،ص: ٦٨ ،٧٧ ،الكامل في التاريخ: ٩/ ٨١ ،الرّوضتين تحقيق: حلمي ،جـ١ق١/ ٣٣٢ ،وفيات الأعيان: ٢/ ٤٤٤ ،وابن واصل مفرج الكروب ،تحقيق: الشيّال ،القاهرة ١٩٥٧م ،١/ ١٣٧—١٣٨. النجوم: ٥/ ٣١٧ ،٣٣٨ ومصر في العصور الوسطى ،ص: ١٣٤ ،وغيرها

(٥) الكامل في التاريخ: ٩/ ٤١ ،وانظر: النكت العصريّة ،ص: ٦٧ ،وحسين مونس نور الدّين محمود ،القاهرة ،ط١ ،١٩٥٩م ،ص: ٢٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذ كان همّ الواحد منهم وشغله الشاغل أنْ يجلس على كرسي الحكم، حتى إنّه قد يستنجد بالأعداء الغزاة، لا لشيء إلاّ ليحافظ على منصبه، وينفرد به.(١)

هذا وقد قدّر للقاضي الفاضل أنْ يعيش مرحلتي الصّبا والشباب في ظلّ هذه الدّولة الواهنة والغزاة الطامعون يطرقون أبوابها، ويتخطفون مدنها، حتى سقطت مدينة عسقلان، مدينة مولده وآخر معقل من معاقل الفاطميين في بلاد الشام في أيدي الصليبيين الّذين استغلّوا أوضاع مصر الدّاخليّة وخلافاتها، فاقتنصوا المدينة على غفلة من حكّامها. وقد آلمه ذلك أشدّ الألم، لأنّه كان يتطلّع إلى خلفاء مصر الفاطميين لاسترجاعها من أيدي الغزاة مع ما فقد من المدن الإسلاميّة والمقدّسات إلاّ أنّ هؤلاء كانوا غير قادرين على حماية أنفسهم حتى من دسائس وزرائهم، فقد تقلّب على حكم مصر منذ دخلها أربعة خلفاء(٢)، وسبعة وزراء كلّهم ماتوا قتلا.(٣)

---

(١) فقد استنجد ضرغام بالصليبيين ضدّ شاور، واستنجد بهم شاور ضدّ شيركوه في غير مرّة. انظر: سيرة صلاح الدّين، ص: ٣٨—٣٩، الكامل في التاريخ: ٩/ ٨٥، ٩٥، والرّوضتين، حلمي، جـ١ ق١/ ٣٦٤، ٤٢١، ٤٣٢، مفرّج الكروب: ١/ ١٣٩، ١٤٨، والنجوم الزاهرة: ٥/ ٣٤٧—٣٤٨، وابن الوردي، تتمّة المختصر ط١، ١٩٧٠م تحقيق: أحمد رفعت، القاهرة: ٢/ ١٠٤.

(٢) وهم: الحافظ، عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤—٥٤٤)، والظافر، إسماعيل أبو المنصور (٥٤٤—٥٤٩)، والفائز، عيسى أبو القاسم، (٥٤٩—٥٥٥)، ثمّ العاضد، عبد اللّه أبو محمّد، آخر خلفائهم في مصر، (٥٥٥ — ٥٦٧). انظر: المنتظم: ١٠/ ١٩٦، والمختصر، جـ٢م/ ٣٢—٥١، وتاريخ الخلفاء، ص: ٤٣٩—٤٤٣، والحنبلي، الأنس الجليل، النجف ١٩٦٨م: ١/ ٣١١، وفيات الأعيان: ٣/ ١٠٩—١١٢.

(٣) وهم: ابن مصّال، وابن السلاّر، وعبّاس، ورزّيك، وطلائع بن رزّيك، وضرغام ثمّ شاور السعدي. انظر: النكت العصريّة، ص: ٦٦—٦٧، والاعتبار ص: ٩٧، ٢٣، ٢٧، والرّوضتين، حلمي، جـ١ ق١/ ٣٣١ — ٣٣٢، النجوم: ٥/ ٣٤٥ — ٣٤٦ ثمّ انظر تفصيل أخبارهم في كتاب: الوزارة والوزراء، ص: ٢٧٩ — ٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذا فليس غريبا أنْ يربط ابن الأثير ما بين سقوط عسقلان بيد الفزاة سنة ثمان وأربعين وخمسمئة ،وبين نزاعات الوزراء في مصر وخلافاتهم من أجل السلطنة يقول: «... وفي هذه السنة ،ملك الفرنج عسقلان ،وكانت من جملة مملكة الظافر باللّه العلويّ المصريّ ، وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد ،والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته ،وكان الوزراء كلّ سنة يرسلون إليها من الذخائر والأموال والرجال من يقوم بحفظها ،فلمّا كان في هذه السنة ،قتل ابن السلاّر، واختلفت الأهواء في مصر ،وولي عبّاس الوزارة ،فاغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان ،وزحفوا إليه ،وقاتلوا عليه ،فلم يجدوا من يمنعهم ، فملكوه »(١)

وقد عمل ذلك كلّه على اضعاف الخلافة الفاطميّة وهدر طاقات مصر ،ممّا جعلها مطمعا للفزاة الصليبيين ،وعلى رأسهم عموري صاحب بيت المقدس الّذي حاول أنْ يضيّق الخناق على المسلمين في بلاد الشام ،ويضع حدّا لعمليات نورالدّين الحربيّة ،ويحرمه من الانتفاع بطاقات مصر المعطّلة عن جهاد الفزاة . ولذا أخذ نورالدّين يتطلّع إلى مصر الإسلاميّة الّتي كانت تعاني من الفوضى والتمزّق ،وسعى إلى توحيدها مع شقيقتها الشام ،لتقفا صفّا واحدا في جهاد الفرنج . قال نور الدّين مخاطبا صلاح الدّين الّذي كره العودة إلى مصر في المرّة الثالثة (٢) : «... إنْ تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ،فالمصلحة تقتضي أنْ أسير أنا بنفسي إليها ،فإنّنا إنْ أهملنا أمرها ملكها الفرنج ،ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره »(٣). وقد اعتبر نور الدّين فتح مصر وتوحيدها مع الشام جهادا دينيّا ،يحارب فيه خطرين في وقت واحد : الفاطميين الّذين زادوا في ضعفها وتمزّقها ،والصليبيين الّذين طمعوا فيها ،ولذا فقد أرسل أسد الدّين شيركوه إلى بغداد لينال موافقة الخليفة الّذي أقرّه على ذلك، وجعل له إمرة مصر إذا فتحها (٤) ، فوجّه إليها

(١) الكامل : ٩/٤٢٥.
(٢) انظر : سيرة صلاح الدّين ،لابن شداد ،ص: ٣٩،و الكامل : ٩/١٠٢ ،وغيرهما .
(٣) الرّوضتين ،حلمي ،ج١ ق٢ ،وانظر: الباهر ،القاهرة ١٩٦٣م ص : ١٤١ ،النجوم الزاهرة : ٥/٣٥٠.
(٤) انظر : نورالدّين محمود ،ص : ٢٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حملات ثلاث[١] بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدّين ،ولا سيّما بعد أن رأى تدخّل الغزاة في شؤونها ، استطاعت الثالثة منها أنْ تضع حدّاً للتدخّل الصّليبيّ في شؤون مصر الدّاخليّة ،وأنْ تقضي على تنازع الوزراء وتنافسهم على السلطة ،وقد تحقق ذلك بقتل شاور ثمّ بوزارة شيركوه وبعد ذلك بوزارة صلاح الدّين للخليفة العاضد في مصر[٢] .

وبذا أصبح نور الدّين القوّة الإسلاميّة الكبيرة ،ولا سيّما بعد أنْ وحّد القوى الإسلاميّة المتنازعة في بلاد الشام والجزيرة ،واتّخذ من دمشق قاعدة لعملياته الحربية .

---

(١) كانت الأولى منها سنة (٥٥٩هـ) ،تلبية لرغبة شاور الّذي استنجد بنورالدّين ليخلّصه من منافسه ضرغام ،انظر: سيرة صلاح الدّين ،ص: ٣٦ — ٣٧ ،الكامل: ٩/ ٨٤—٨٥ ،والباهر ،ص: ١١٩—١٢٠ ،الرّوضتين حلمي ،جـ١ ق١/ ٣٢٩—٣٣٦ ،مفرج الكروب: ١/ ١٣٨— ١٣٩ ، وفيات الأعيان: ٧/ ١٤٥—١٤٧ ،والمختصر ،جـ٥م٢/ ٥٧ ،السلوك ق١ جـ١/ ٤٠ ،النجوم: ٥/ ٣٤٧ ،والبداية والنهاية: ١٢/ ٢٤٨ ، وابن قاضي شهبة،الكواكب الدرية ،بيروت ،ط١،١٩٧١م ،ص: ٦٤—٦٥ ،والأنس الجليل: ١/ ٣١١ وما بعدها .

وأما الثانية ،فكانت سنة (٥٦٢هـ) لتدخل الغزاة بشؤون مصر ،واتفاقهم مع شاور ضد شيركوه ،انظر: سيرة صلاح الدّين ،ص: ٣٧— ٣٨ ، الكامل ،في التاريخ: ٩/ ٩٤—٩٦ ،والباهر ،ص: ١٣٢ — ١٣٣ والرّوضتين ،حلمي ، جـ١ ق٢/ ٣٦٣— ٣٦٦ ،وفيات الأعيان: ٧/ ١٤٧—١٤٨ ،مفرّج الكروب ١/ ١٤٨—١٥٢ ، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٥٢— ٢٥٣ ،النجوم: ٥/ ٣٧٣ .

وأما الثالثة ، فكانت سنة (٥٦٤هـ) بناء على طلب العاضد وشاور للتخلّص من الفرنجة وتدخلهم بشؤون مصر ،انظر: سيرة صلاح الدّين ،ص: ٣٨—٤٠ ،الكامل: ٩/ ٩٩—١٠٢ ،الباهر ،ص: ١٣٧ ،الرّوضتين حلمي ،جـ١ ق٢/ ٣٨٩—٣٩١ ،مفرّج الكروب: ١/ ١٥٨— ١٦٣ ، وفيات الأعيان: ٧/ ١٤٨—١٥١ ،المختصر جـ٥م٢/ ٦٢ ،البداية والنهاية: ١٢/ ٢٥٥—٢٥٦ ،النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٨١ ،السلوك: ق١ جـ١/ ٤٣ ،والكواكب الدريّة ،ص: ١٧٥—١٧٨ .

(٢) انظر: المصادر السابقة نفسها في حوادث سنة (٥٦٤هـ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكي يوثق نور الدّين الصّلات بين مصر والشام في ظلّ خلافة واحدة، أمر صلاح الدين بإلغاء الدّولة الفاطميّة في مصر، وإعلان الدّعوة لبني العبّاس(١). فأخذ صلاح الدّين يمهّد لقطع الدّعوة الفاطميّة بعد أن استمال المصريين إليه بما قام به من اصلاحات داخليّة. قال ابن واصل: «... ثمّ شرع صلاح الدّين في استمالة قلوب النّاس إليه، وبذل من الأموال ما كان أسد الدّين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئا يخرجه، فلم يمكنه منعه، فمال النّاس إليه، وأحبّوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر، والثبات فيه، وضعف أمر العاضد»(٢) وكانت الخطوة الأولى قلب النظام القضائي الشيعي في مصر، إذ استبدل بقضاة الشيعة قضاة شافعيين(٣) وتلا ذلك القضاء على خاصّة القصر الفاطميّ، وذلك بقمع فتنة السودان الّتي تزعمها مؤتمن الخلافة(٤) بتحريض من العاضد نفسه. قال ابن واصل: «... ولمّا وقعت هذه الوقعة، تلاشى أمر العاضد خليفة مصر».(٥)

---

(١) انظر: سيرة صلاح الدّين، ص: ٤٥، الكامل: ٩/ ١١١، الباهر، ص: ١٥٦، الرّوضتين، حلمي، جـ١ ق٢/ ٤٩٢، مفرّج الكروب: ١/ ١٩٨–٢٠٣، وفيات الأعيان: ٧/ ١٥٧، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٦١–٢٦٤، مرآة الزمان: ق١ جـ٨/ ٢٨٥، النجوم: ٥/ ٣٥٦، السلوك ق١/ ٤٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، البصرة ١٩٦٧م، م٤/ ١٢٩، الكواكب الدريّة، ١٦١–١٦٣.

(٢) مفرّج الكروب: ١/ ١٧٤، وانظر: الكامل: ٩/ ١٠٢، الباهر، ص: ١٤٣، والرّوضتين حلمي، جـ١ ق٢/ ٤٠٨، وفيات الأعيان: ٧/ ١٥٥، السلوك، ق١ جـ٨/ ٤٣، النجوم: ٥/ ٣٥٥، ٢٨١، وتاريخ ابن الفرات: ٤/ ١٢٩، وغيرها.

(٣) انظر: الكامل: ٩/ ١١٠، مفرّج الكروب: ١/ ١٩٨، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٦٣، المختصر، جـ٢م/ ٦٨، الكواكب الدريّة، ص: ١٩٤، وخطط المقريزي: ٢/ ٢٣٣.

(٤) انظر: الكامل: ٩/ ١٠٣، الرّوضتين، حلمي، جـ١ق٢/ ٤٥٠–٤٥٢، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٥٧–٢٥٨، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٥٤، السلوك ق١ جـ١/ ٥٧، ومصر في العصور الوسطى، ص: ١٤٣، ولينبول سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٠م، ص: ١٦٠.

(٥) مفرّج الكروب: ١/ ٩٧٨–٩٧٩، وانظر: الكواكب الدريّة ص: ٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذا حقق صلاح الدّين رغبة نور الدّين في اجتثاث أصول الفاطميين من مصر، وقطع دعوتهم فيها، بعد أنْ تغلّب على كلّ العقبات الّتي كانت تعترضه ودونما أيّة معارضة ذات شأن قال ابن الأثير: «... ففعلوا ذلك، فلم ينتطح فيها عنزان »(١) ولرغبة صلاح الدّين في تأمين حدود الدّولة الإسلاميّة في مصر، وتجنيبها عوامل التفرقة والضعف، ومن أجل أنْ يوحّد البلاد تحت إمرة نور الدّين، لمواجهة الخطر الصّليبيّ، وجّه أخاه تورانشاه الى اليمن بعد أن حصل على موافقة كلّ من الخليفة العبّاسيّ ونور الدّين، وذلك للانتفاع بطاقاتها البشريّة والماديّة، ولكي يؤمّن طريق الحجّ بقطع دابر اللصوص الّذين كانوا يتعرّضون للحجاج المسلمين. وقد تمّ ذلك سنة تسع وستين وخمسمئة(٢)

وقد حرص نور الدّين على تمكّن صلاح الدّين في مصر، لأنّه رأى فيه امتدادا لنفسه لا منافسا له، وهذا واضح في قول أبي شامة: «... وأرسل صلاح الدّين يطلب من نور الدّين أن يرسل إليه اخوته، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك، فتفسد البلاد. ثمّ إنّ الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسيّر نورالدّين العساكر، وفيهم اخوة صلاح الدّين، منهم تورانشاه بن أيّوب، وهو أكبر من صلاح الدّين. فلمّا أراد أن يسير، قال له: إنْ كنت تسير إلى مصر، وتنظر إلى أخيك أنّه يوسف الّذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد، فلا تسر إليه. فإنّك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقّه. وإن كنت تنظر إليه أنّه صاحب مصر، وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك فسر إليه، واشدد أزره، وساعده على ما هو بصدده »(٣) وتوفي نور الدّين سنة

---

(١) الكامل في التاريخ: ٩/ ١١١، والباهر، ص: ١٥٦، والمختصر جـ٢م/ ٦٩.

(٢) انظر: سيرة صلاح الدّين، ص: ٤٦، الكامل في التاريخ: ٩/ ١٢٢، الرّوضتين تحقيق: حلمي، جـ١ق٢/ ٥٥١-٥٥٢، مفرّج الكروب: ١/ ٢٣٧، ومرآة الزمان: ٨/ ٢٩٩، والبداية والنهاية: ١٢/ ٢٧٣-٢٧٤.

(٣) الروضتين، حلمي، جـ٢ ق٢/ ٤٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تسع وستين وخمسمئة (١)، بعد أن أقام دولة قويّة في بلاد الشام والجزيرة وديار بكر ومصر، فخلفه في مملكته طفل صغير لم يبلغ سن الحلم، فتنازعته أطماع أمراء أبيه، وكبار رجال دولته الذين ضعفوا عن مواجهة الصليبيين في بلاد الشام (٢). قال أبو الفداء: «... فلمّا مات نور الدّين، بويع من بعده بالملك لولده الصالح إسماعيل، وكان صغيرا، وجعل أتابكه الأمير شمس الدّين بن مقدّم، فاختلفت الأمراء، وحادت الآراء وظهرت الشرور ...، وطمعت الأعداء من كلّ جانب في المسلمين، وعزم الفرنج على قصد دمشق وانتزاعها من أيدي المسلمين فبرز إليهم ابن مقدّم الأتابك، فواقعهم عند بانياس فضعف عن مقاومتهم، فهادنهم مدّة، ودفع إليهم أموالا جزيلة عجّلها لهم» (٣).

ومن هذا يتضح لنا أنّ غياب نور الدّين عن الساحة في بلاد الشام قد جعل منها مطمعا للطامعين والغزاة، فكادت تعصف بها وبالجزيرة وديار بكر رياح التمزّق والفرقة بعد أن اختلفت أهواء الأمراء، وازدادت أطماعهم في وليّ عهدهم الصغير وقد حاول سيف الدّين غازي — ابن أخي نور الدّين — صاحب الموصل أن ينفصل بالفعل عن جسد الدّولة القويّ، ويستولي على أجزاء من مملكة عمّه (٤).

---

(١) انظر: سيرة صلاح الدّين، ص: ٤٧، الكامل: ٩/ ١٢٤، الرّوضتين، حلمي، جـ١ ق٢/ ٥٧٧، وفيات الأعيان: ٥/ ١٨٧، مرآة الزمان، ق١ جـ٨/ ٣٠٥، الكواكب، ص: ٢٢٨، السلوك، ق١ جـ١/ ٥٥، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٧٧، العبر، للذهبي: ٤/ ٢٠٥، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، مكتبة القدسي، ١٣٥٠هـ: ٤/ ٢٢٨، الأنس الجليل: ١/ ٣١٥، مفرّج الكروب: ٢/ ١٠.

(٢) انظر: سيرة صلاح الدّين، ص: ٤٧، الكامل: ٩/ ١٢٦–١٢٧، الرّوضتين حلمي، جـ١ ق٢/ ٥٩٠–٥٩٤، مفرّج الكروب: ٢/ ١١، وفيات الأعيان: ٧/ ١٦٥–١٦٦، البداية والنهاية: ١٢/ ١٨٥، السلوك، ق١ جـ١/ ٦٢، الكواكب الدريّة، ص: ٢٢٩–٢٣٠.

(٣) البداية والنهاية: ١٢/ ٢٨٥.

(٤) وهي: نصيبين، والخابور، وحرّان، والرّها، والرّقّة، وسروج، وغيرها من بلاد الجزيرة عدا جعبر، لمنعتها، عندما علم بوفاة عمّه. انظر: الكامل: ٩/ ١٢٧، الرّوضتين، حلمي، جـ١ ق٢/ ٥٩٠، مفرّج الكروب: ٢/ ٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممّا زاد الأمر سوءا في بلاد الشام والجزيرة ،أنّ صلاح الدّين في هذه الأثناء كان مشغولا بالتصدّي للصليبيين الّذين داهموا الإسكندريّة (١) وبالقضاء على الفتن والثورات الدّاخليّة الّتي كانت تطلّ برأسها بين الفينة والفينة من أجل إعادة الدّولة الفاطميّة الشيعيّة في مصر(٢) ، والقضاء على دولة صلاح الدّين الفتيّة الّتي كانت تمدّ العدّة لمواجهة الغزاة .

وبعد أن ثبّت صلاح الدّين الأمور في مصر ، وعمل على استقرار الأوضاع في البلاد المجاورة الّتي فتحها في حياة نور الدّين ،انطلق إلى الشام من أجل توحيد القوى الإسلاميّة فيها ،ومجاهدة الفرنج وهذا واضح في قول أبي شامة :«... ولو علم نور الدّين ماذا ذخر اللّه تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدّين من بعده ،لقرّت عينه ،فإنّه بنى على ما أسّسه نورالدّين من جهاد المشركين ،وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمّها »(٣).

وقد أدرك صلاح الدّين بعد وفاة نور الدّين ،وما كانت عليه البلاد بعده :«أنّه الوارث الحقيقي للدّولة الزنكيّة ،وأنّ من واجبه اعادة بناء الدّولة ،وتوحيد الكلمة ومواصلة السياسة الّتي بدأها نور الدّين »(٤)فقد كان أمله الّذي لازمه بعد وفاة عمّه شيركوه في مصر ،أن يحرّر المدن الإسلاميّة المغتصبة من الصليبيين . يقول ابن شداد نقلا عن صلاح الدّين :«... لمّا يسّر اللّه لي الدّيار المصريّة علمت أنّه أراد فتح

---

(١) انظر: سيرة صلاح الدّين ،ص: ٤٨—٤٩ ،الكامل : ٩/ ١٢٩—١٣٠ ،الرّوضتين حلمي جـ١ ق٢/ ٥٩٨ ،مفرّج الكروب : ٢/ ١١—١٦ ،البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٧ ، السلوك ،ق١ جـ١/ ٥٥—٥٦ .

(٢) وهي ثورة مؤتمن الخلافة والسودان سنة ٥٦٤هـ ،وفتنة عمارة اليمني سنة ٥٦٩ هـ انظر: الكامل : ٩/ ١٢٣—١٢٤ ،الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢/ ٦٠٥ مفرج الكروب: ١/ ٢١٢ ،السلوك ،جـ١ق١/ ٥٣ ،البداية والنهاية : ١٢/ ٢٧٥ ، الكواكب ،ص: ٢٢٤—٢٢٥ ،النجوم : ٦/ ٧٠—٧١ ،المرآة ،ق١ جـ٨/ ٣٠٣ ، وثورة الكنز سنة ٥٧٠هـ . انظر: المصادر السابقة نفسها في حوادث سنة ٥٧٠هـ .

(٣) الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢ /٥٨٢ .

(٤) دربد ،سياسة صلاح الدّين الأيّوبي ،بغداد ،١٩٨٦م ، ص: ١٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الساحل ،لأنّه أوقع ذلك في نفسي)) .(١) ومن أجل ذلك عزم صلاح الدّين على دخول الشام ، واضعا نصب عينيه توحيد هالمجاهدة الغزاة ،وهذا واضح في قوله : ((... ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم ،تفرّقت الكلمة ،وطمعت الكفار في البلاد إنّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلاّ جمع شملهم وإلف كلمتهم .)) (٢) وكذلك في قول القاضي الفاضل مخاطبا الدّيوان ببغداد عندما تسلّم صلاح الدّين حلب :((... وإنّه لا يؤثر إلاّ أنْ تكون كلمة اللّه هي العليا لا غير ،وثغور الإسلام لها الرعاية ولا ضير ،ولا نختار إلاّ أنْ تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوّها لا متحاسدة بعضوّها)) .(٣)

ومن أجل ذلك ،زحف إلى دمشق سنة سبعين وخمسمئة ،فاستقبلته طائعة (٤) والتفّ أهلها حوله إيمانهم بقيادته ومقدرته على مقارعة الفرنج . إلاّ أنّ متولي الأمور في حلب والموصل (٥) وقفوا في وجهه خوفا على سلطانهم ،فحاول التفاهم معهم حقنا لدماء المسلمين (٦) ،غير أنّهم أبوا ذلك . مما أرغمه على قتالهم ،ولم يتورّع

---

(١) مفرّج الكروب : ٢/ ١٨ .
(٢) مفرّج الكروب : ٢/ ١٨ .
(٣) الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ٤٨ .
(٤) انظر: سيرة صلاح الدّين ،ص: ٥٥ ،الكامل : ٩/ ١٣٠—١٣١ ،مفرّج الكروب: ٢/ ٢٠ ،الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢/ ٦٠٢ وما بعدها ،البداية والنهاية : ١٢/ ٢٨٨ ،مرآة الزمان ،ق١ جـ٨/ ٣٢٦—٣٢٧ ،المختصر م٢ جـ٥/ ٧٦—٧٨ ،الأنس الجليل :١/ ٣١٥ ،السلوك ،ق١ جـ١/ ٥٨ .
(٥) انظر: سيرة صلاح الدّين ،ص: ٥٥—٧٠ ،الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ق٢/ ٥٩٤، ٦٠٧، ٦٣٣ ، مرآة الزمان ،ق١ جـ٨/ ٣٢٨ ، ٣٣٣—٣٣٤ ، مفرّج الكروب :٢/ ١٧ ، ٣٦ ،وما بعدها ، الكامل ٩/ ١٣٠—١٧٤ ، السلوك ق١ جـ١ / ٦١ .
(٦) انظر: سيرة صلاح الدّين ،ص : ٥٤ ، ٧٠ ،الرّوضتين ، حلمي: جـ١ ق٢/ ٦٠٧ وما بعدها ، مفرّج الكروب: ٢/ ٢٤ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ١١٧ ، ١٤٢ ، ١٦٦ ، وفيات الأعيان : ٧/ ١٦٦ ، مرآة الزمان ،ق١ جـ٨/ ٣٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هولاءِ عن الاستعانة عليه بالفرنج والباطنيّة (١).

وبعد صراع مرير مع المواصلة والحلبيين في الشام والجزيرة وديار بكر دام تسع سنوات مع الحلبيين (٢)، وإحدى عشرة سنة مع المواصلة (٣)، استطاع صلاح الدّين أن يوحّد القوى الإسلاميّة في الشام والجزيرة ومصر واليمن تحت قيادة واحدة، وراية واحدة.

ولم يغفل صلاح الدّين خلال انشغاله بتثبيت سيطرته على مصر، وتأمين جبهته الداخليّة في الشام والجزيرة عن مواجهة الفرنج والتصدّي لهم. ففي سنة خمس وستين وخمسمئة اجتمع عليه طيلة خمسين يوما الفرنج والروم معا في دمياط (٤) في محاولة منهم لاحتلال المدينة فصمد لهم، وردّهم عنها خائبين بحسن قيادته ومساندة أميره نورالدّين الّذي هاجمهم في الشام، فعادوا كما وصفهم ابن الأثير إذ يقول: «... خرجت النعامة تطلب قرنين، فرجعت بلا أُذنين» (٥)

---

(١) انظر: الرّوضتين، حلمي، جـ١ق٢/ ٦١٠—٦١١، ٦١٤، ٦٤٨، ٦٥١، ٦٥٧، مفرّج الكروب: ٢/ ٢٤، ٣٨، ٤٤، ١١٥، مرآة الزمان، ق١ جـ٨/ ٣٣٥ وانظر أيضا: الصراع السياسي والعسكري، ص: ٨٢، ٩٨—١٠٠.

(٢) فقد استمر صراعه مع الحلبيين من سنة (٥٧٠—٥٧٩هـ). انظر تفصيل ذلك في كتاب: حامد زيّان، حلب في العصر الزنكي، ط١، القاهرة، ص: ٧٩ — ٨٨.

(٣) وأمّا صراعه مع المواصلة، فقد امتدّ من (٥٧٠—٥٨١ هـ). انظر تفصيل ذلك في كتاب: الجميليّ، دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدّين زنكي ط١، ١٩٧٠م بيروت، ص: ١٣٥—١٦٠.

(٤) انظر: سيرة صلاح الدّين، ص: ٤١—٤٣، الكامل: ٩/ ١٠٥، مرآة الزمان: ٨/ ٢٧٩، الرّوضتين حلمي، جـ١ق٢/ ٤٥٦—٤٦٠، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٦٠—٢٦١، السلوك، ق١ جـ١/ ٤٣، النجوم: ٦/ ٧، ١٥.

(٥) الكامل: ٩/ ١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا ومن الجدير بالذكر هنا، أنّ صلاح الدّين في هذه الفترة لم يكن يكتفي بالتصدّي والدفاع فحسب، إنّما كان يهاجم الصليبيين، ويغير على مدنهم وحصونهم المنيعة في قلب المنطقة المحتلة(١)، ويتلف مزروعاتهم حتى لا ينتفعوا بها، ويستنزف قوّتهم ويضعف روحهم المعنويّة.

وفي سنة سبعين وخمسمئة حصر الفرنج مدينة الإسكندريّة في ثلاثين ألفا بكامل عدّتهم، فألحق بهم صلاح الدّين هزيمة نكراء، وغنم أموالهم وأسلحتهم بعد قتال دام ثلاثة أيّام قاتلوا فيها قتالا شديدا (٢).

ومن خلال تتبعنا لمعارك صلاح الدّين الّتي خاضها مع الغزاة قبيل مرحلة التحرير، نلاحظ أنّه كان يقاتل في جبهتين، إذ قاتل الخارجين على الوحدة الإسلامية في الشام والجزيرة وديار بكر في محاولة منه لضمّ القوى الإسلاميّة وتوحيدها وجاهد الصليبيين، وأغار على مدنهم لكي يضعف معنوياتهم ويستنزف قوّتهم، وربّما هادنهم أحيانا (٣) حتى يفرغ من تأمين الجبهة الدّاخليّة لينطلق في جهادهم من قاعدة صلبة. وقد تمكّن فعلا من تحويل الأمّة الإسلاميّة في مصر والشام والجزيرة

---

(١) فقد أغار على الرّملة وعسقلان وغزة سنة (٥٦٦هـ)، والكرك والشوبك سنة (٥٦٨) فألحق بالفرنج هزيمة كادت توقع مليكهم في الأسر. انظر: سيرة صلاح الدّين ص: ٤٥، الكامل: ٩/ ١١٠، ١٢١، الرّوضتين، حلمي، جـ١ ق٢/ ٤٨٦، ٥٠٦— ٥٢٧ والبداية والنهاية: ١٢/ ٢٦٣، والنجوم: ٥/ ٣٨٥، وسياسة صلاح الدّين، ص: ١٠٢.
كما التقى معهم قبل هزيمتهم في حطّين في معارك متعدّدة، ألحقت بهم الهزيمة تلو الهزيمة. انظر المصادر السابقة في حوادث سنة (٥٧٣) و(٥٧٥) و(٥٧٨)، (٥٨٠)، (٥٨٣).

(٢) انظر: سيرة صلاح الدّين، ص: ٤٨—٤٩، الكامل: ٩/ ١٢٩—١٣٠، الرّوضتين حلمي، جـ١ ق٢/ ٥٩٨—٦٠٠، مفرّج الكروب: ٢/ ١١—١٦، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٨٧—٢٨٨، النجوم: ٥/ ٣٤٩، السلوك، جـ١ ق٢/ ٥٥ خطط المقريزي: ٢/ ٢٣٣، وغيرها.

(٣) انظر: الكامل: ٩/ ١٣٩، الرّوضتين، حلمي، جـ١ ق٢/ ٦٤٣، مفرّج الكروب: ٢/ ٣٥—٣٦، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٩١، ٣١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وديار بكر وغيرها بعد توحيدها تحت قيادته ، من مرحلة الدّفاع إلى مرحلة الهجوم والمواجهة المباشرة .

ففي سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة توجّه صلاح الدّين إلى الكرك والشوبك لأنّ صاحبهما نقض الهدنة الّتي كانت بين الفرنج وصلاح الدّين باعتدائه على قافلة تجاريّة إسلاميّة وأسر من فيها ، فأحرق مزروعاتهما وشلّ اقتصادهما . قال العماد: ((... وسلب قرار القرى وسكونها ، وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها)) (١) .

وفي السنة نفسها التقى المسلمون مع الغزاة في أوّل لقاء مواجهة في معركة حطّين الحاسمة فأنزلوا بهم هزيمة نكراء قال أبو شامة: ((... فمن شاهد القتلى قال : ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى ، قال : ما هناك قتيل)) . (٢) واستولوا على صليب الصلبوت ، وأسروا ملك بيت المقدس ، وصاحب الكرك (٣) (أرناط) ، فكانت هذه المعركة كما وصفها ابن واصل : ((مفتاح الفتوح الإسلاميّة ، وبها تيسّر فتح بيت المقدس)) (٤) .

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفيح القسّي ، تحقيق محمّد صبح ، القاهرة ، ص ٥٩ ، وانظر : سيرة صلاح الدّين ص : ٧٤–٧٥ ، الكامل : ٩/١٧٦ ، الروضتين ، بيروت : ٢/٧٥ ، مفرّج الكروب : ٢/١٨٦ ، السلوك ، ج١ ق ١/٩٣ .

(٢) الروضتين ، بيروت : ٢/٧٨ .

(٣) انظر : العماد ، الفيح القسّي ، ص: ٧٧–٨٤ ، سيرة صلاح الدّين ، ص: ٧٥–٧٩ ، الكامل : ٩/١٧٧–١٧٨ ، الروضتين ، بيروت : ٢/٧٨ ، مفرّج الكروب : ٢/١٨٨ ، وما بعدها ، مرآة الزمان ، ق ١ ج٨/٣٩٢ ، وفيات الأعيان : ٧/١٧٤–١٧٧ ، البداية والنهاية : ١٢/٣٢٠–٣٢١ ، المختصر ، م٢ ج٥ /٩٥–٩٨ ، السلوك ، ق ١ ج ١/٩٣ ، خطط المقريزي : ٢/٢٣٤ ، الأنس الجليل : ١/٣٢٢ ، وغيرها .

(٤) مفرّج الكروب : ٢/١٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد هذه المعركة الخالدة توالت ضربات صلاح الدّين على الفرنج ملحقة بهم الهزيمة تلو الهزيمة ، فسقطت في يده معظم حصونهم وقلاعهم المنيعة في الشام(١). فقد استردّ من يد الغزاة ست قلاع حصينة من أحصن قلاعهم وأمنعها بالشام في ست جمع متتالية ، وهي : جُبَيْل (٢) ، واللاذقيّة (٣) ، وصِهْيَون (٤) وبِكَاس (٥) ، والشُّغر ، ثمّ سرمينيّة (٦). قال ابن الأثير: ((... واتّفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينيّة مع كثرتها ، كان في ست جمع مع أنّها في أيدي أشجع النّاس وأشدّهم عداوة للمسلمين)) .(٧)

---

(١) انظر: الفتح ، ص: ٨٩ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٢—١١٣ ، ١٩٨ ، سيرة صلاح الدين ، ص: ٧٩ ، ٨٠—٨١ ، ٨٣ ، الكامل : ٩/١٨٧—١٨١ ، الرّوضتين بيروت : ٢/٧٨—٩٢ ، مفرّج الكروب : ٢/٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩—٢١٠ ، مرآة الزمان ، ق ١ جـ ٨/٣٩٢ ، البداية والنهاية : ١٢/٣٢٢ ، المختصر م ٢ جـ ٥ /٩٨—١٠١ ، السلوك ق ١ جـ ١/٩٤—٩٦ .

(٢) جُبيل : بلد من سواحل دمشق ، وهو بلد مشهور في شرقي بيروت ، معجم البلدان : ٢/١٠٩ .

(٣) اللاذقيّة : مدينة في ساحل بحر الشام تعدّ في أعمال حمص ، ملكها الفرنج سنة (٥٠٠هـ) معجم البلدان : ٥/٦ .

(٤) صِهْيَون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص غير مشرف على البحر ، وهي قلعة حصينة مكينة في طرف جبل ، خنادقها أودية واسعة هائلة عميقة ، ليس لها خندق محفور إلاّ من جهة واحدة مقدار طوله ستون ذراعا ، وهو نقر في حجر ، ولها ثلاثة أسوار سوران دون مربضها وسور دون قلعتها . معجم البلدان : ٣/٤٣٦—٤٣٧ .

(٥) بِكَاس والشُّغر : قلعتان من أعمال حلب على شاطئ العاصي ، بينهما واد كالخندق يقال له الشُّغر . انظر : معجم البلدان : ١/٤٧٤ .

(٦) سَرمينيّة : بلدة من أعمال حلب . انظر : معجم البلدان : ٣/٢١٥ .

(٧) الكامل : ٩/١٩٣ ، وانظر : الفتح ، ص: ٢٤٧ ، وسيرة صلاح الدّين ، ص: ٩٢ ، ثم انظر المدن والحصون الأخرى التي حرّرها صلاح الدّين من أيدي الصليبيين بعد هزيمتهم بحطّين في المصادر التالية : الفتح ص : ٢٥٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٨٥—٢٨٨ ، سيرة صلاح الدّين ، ص: ٩٥—٩٨ ، الكامل : ٩/١٩٦—١٩٩ ، الرّوضتين ، بيروت ٢/١٣٤ — ١٣٥ ، مفرّج الكروب : ٢/٢٧٠—٢٧٥ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا استمرت انتصارات السلطان على الغزاة منذ هزيمتهم في حطين حيث تهاوت مدنهم ومعاقلهم المنيعة في بلاد الشام عامّة ، ومملكة بيت المقدس مما عدا صور . فأدى ذلك إلى قيام حملة صليبيّة ثالثة بقيادة ثلاثة من أقوى أمراء أوروبا في ذلك الحين ، وهم: ملك ألمانيا ، وملك فرنسا ، وملك إنجلترا المعروف بريتشارد قلب الأسد(١)، فتشجعت بهم بقايا الصليبيين بصور ، ونازلت مدينة عكّة الإسلاميّة وحصرتها برّا وبحرا ، وذلك في سنة خمس وثمانين وخمسمئة . قال ابن الأثير: ((... فساروا إليها بفارسهم وراجلهم ، وقضهم وقضيضهم ، ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر الضّيق والسعة ، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ، ولتكون عدّة لهم))(٢). ولمّا تمكنوا من الوصول إليها بعد معارك ومناوشات مع الجيش الإسلاميّ ، أمعنوا في تحصين أنفسهم ، وتقوية معسكرهم المحيط بها . قال ابن الأثير: ((... وشرعوا في حفر الخندق ، وعمل السور من التراب الّذي يخرجونه من الخندق ، وجاءوا بما لم يكن في الحساب))(٣)، وضيّقوا الخناق على المدينة ومن بها ، وقطعوا الاتصال بينها وبين المسلمين المحاصرين لهم ، وهم يحاصرونها ، اللهمّ إلاّ عن طريق حمام الزاجل والعوّامين(٤). ومع ذلك فقد تمكّن المسلمون من حرق أبراجهم ودبّاباتهم ، وخاضوا معهم معارك ضارية طيلة فترة الحصار ، والامدادات متواصلة للمسلمين المحاصرين داخل

---

(١) انظر: الفتح ص: ٣٣٠، ٣٣١، ٤٢٤، ٤٧٤، ٤٨٤، سيرة صلاح الدّين ١٥٦ وما بعدها ، الرّوضتين ، بيروت: ٢/ ١٤٢، سعيد عاشور الحركة الصليبيّة ، ط٤ ، ١٩٨٢م ، القاهرة: ٢/ ٨١١-٨١٢، الحروب الصليبيّة في المشرق ، للمطوي ، ص: ٨٧، الدوميّ ، صلاح الدّين الأيّوبيّ بطل حطّين ، بيروت ، ص: ١١٨-١١٩، علوان ، صلاح الدّين الأيّوبي ، ط٥ ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص: ٨٠-٨١.

(٢) الكامل في التاريخ: ٩/ ٢٠١.

(٣) المصدر نفسه: ٩/ ٢٠٤.

(٤) انظر: الفتح ص: ٣٦٠، سيرة صلاح الدّين ، ص: ١٣٥-١٣٦، الكامل: ٩/ ٢١٠، الرّوضتين ، بيروت: ٢/ ١٥٢ - ١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المدينة من السلطان ،وللغزاة من البحر وأوروبا[١]، حيث وصل إليهم ملك فرنسا وملك إنجلترا، فعملا على رفع روحهم المعنوية ، وزادا في شراستهم وشدة حصارهم للمدينة ومضايقتها . ومما زاد الأمر سوءا أن هذين الملكين قد وصلا في أصعب مرحلة عاشها المسلمون في فترة الحصار ،إذ رحل في هذه الفترة صاحب سنجار وصاحب الجزيرة ،وصاحب الموصل عائدين إلى بلادهم ،بعد ما ملّت جنودهم الحصار[٢] تاركين السلطان ليواجه جحافل أوروبا الكثيفة .

وعلى الرّغم من قلّة الموارد ،وشدّة الحصار الّذي دام زهاء سنتين ،استطاع المسلمون المحاصرون بعكّة أن يصمدوا في وجه الغزاة إلى أن ضعف سورها ،وتداعى للسقوط ،وكادت مواردهم تنفد[٣]، فطلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم على أن يغادروا المدينة . قال ابن الأثير:« . . . فلمّا رأى المشطوب أنّ صلاح الدّين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضررا، خرج إلى الفرنج وقرّر معهم تسليم البلد ،وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم ،وبذل عن ذلك مئتي ألف دينار ،وخمسمئة أسير من المعروفين ،وإعادة صليب الصلبوت ،وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه . »[٤].

---

(١) انظر : الفيح ،ص: ٤١٩ وما بعدها ،سيرة صلاح الدّين ،ص: ١٢٩، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥ ،الكامل ٩/ ٢٠٥ وما بعدها ،الرّوضتين ، بيروت ٢/ ١٥٠، ١٥٢، ١٦٠ ،مفرّج الكروب ٢/ ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٥ وما بعدها ،مرآة الزمان: ٨/١ ٤٠١—٤٠٢ ،والسلوك: ق ١ ج ١/ ١٠٢.

(٢) انظر : سيرة صلاح الدّين ،ص: ١٥١—١٥٢، الكامل :٩/ ٢١٢—٢١٣، الرّوضتين ،بيروت ٢/ ١٦٥ ، ومفرّج الكروب :٢/ ٣٤٠ — ٣٤٢، والحركة الصليبيّة :٢/ ٨٣١.

(٣) انظر: الفيح ،ص: ٥٠٣—٥٠٤ ،سيرة صلاح الدّين ،ص: ١٦٦ ،الرّوضتين بيروت :٢/ ١٨٤—١٨٥ ،ومفرّج الكروب :٢/ ٢٥٦.

(٤) الكامل : ٩/ ٢١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تمّ ذلك دون علم السلطان وموافقته ، فقد كان يعدّ العدّة للهجوم على الغزاة (١). قال أبو شامة : « . . . ولمّا وقف السلطان على ذلك ، أنكره وأعظمه ، وعزم أن يكتب لهم في إنكار ذلك عليهم ، فهو في مثل هذه الحال ، وقد جمع أُمراءه وأصحاب مشورته ، فما أحسّ المسلمون إلاّ وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد ، وصاح الفرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين » (٢).

وعلى الرّغم من الأمان الّذي أعطاه الفرنج لأهل البلد ، فقد قاموا بقتل الأسرى . قال ابن شداد : « . . . ثمّ أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب اللّه شهادته في ذلك ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ، وأوثقوهم ، وحملوا عليهم حملة الرّجل الواحد ، فقتلوهم صبرا وطعنا وضربا بالسيف ، والبَرَك الإسلاميّ يشاهدهم ولا يعلم ماذا يصنعون ، لبعدهم عنهم » (٣).

هذا وبعد سقوط عكّة في يد الغزاة اتّخذ الصراع بينهم وبين المسلمين شكلا آخر ، فقد تحوّلوا بإمداداتهم المتواصلة ، وطاقاتهم البشريّة الهائلة من مرحلة الدّفاع إلى مرحلة الهجوم والإغارة على المدن الإسلاميّة المحرّرة في محاولات منهم لاستعادة مملكة بيت المقدس وما سقط من المدن في يد صلاح الدّين بعد موقعة حطّين . وحتى يضمنوا ذلك ، أخذوا يتطلّعون إلى السيطرة على الساحل الفلسطينيّ الممتد من عكّة إلى غزّة ، ليظلّوا على اتّصال بالبحر ، ومن ثمّ يقصدون بيت المقدس .

ولذا فقد زحفوا بكلّ ثقلهم إلى مدينة عسقلان سنة سبع وثمانين وخمسمئة فتصدّى لهم المسلمون وألحقوا بمؤخرتهم هزيمة نكراء (٥) ، ولكنهم مع ذلك واصلوا

---

(١) انظر : مفرّج الكروب : ٢ / ٣٥٦ .
(٢) الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ١٨٨ .
(٣) سيرة صلاح الدّين ، ص : ١٧٤ ، وانظر : الفيح ، ص : ٥٢٨ ، الكامل : ٩ / ٢١٥ ، الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ١٨٩ ، مفرّج الكروب : ٢ / ٣٦٤ ، مرآة الزمان ق ١ جـ ٨ / ٤٠٨ .
(٤) انظر : الفيح ، ص : ٥٣١ ، سيرة صلاح الدّين ، ص : ١٧٥ ، الكامل : ٩ / ٢١٥ ، الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ١٩٠ ، مفرّج الكروب : ٢ / ٣٦٥ — ٣٦٧ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٤٥ ، السلوك ، ق ١ جـ ١ / ١٠٥ .
(٥) انظر : الفيح ص : ٥٣٢ — ٥٣٣ ، سيرة صلاح الدّين ، ص : ٧٥ ، الكامل : ٩ / ٢١٥ ، الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ١٩٠ — ١٩١ ، مفرّج الكروب : ٢ / ٣٦٧ — ٣٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زحفهم بمحاذاة البحر بثبات وعزم . قال ابن شداد :(... ولقد شاهدتهم وينغرز في ظهر الواحد منهم النشّابة والعشرة ،وهو يسير على هيئته من غير انزعاج .)(١) فأخذوا حيفا وقيسارية بعد معارك ضارية أفقدتهم الكثير من رجالهم(٢)، حتى وصلوا أرسوف ،فوجدوا المسلمين بانتظارهم،ودارت بينهما معركة حاسمة كانت الغلبة فيها إلى جانب المسلمين في بداية الأمر ،ثمّ احتطوا هزيمة موجعة لولا شجاعة السلطان وثباته في ساحة القتال ،حتى اجتمع النّاس إليه(٣). قال ابن شداد : (... ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجّالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد ،وخرج إليهم رجّالتهم ،وحملوا على المسلمين حملة واحدة من الجوانب كلّها ،فدفع النّاس بين أيديهم.)(٤)

وقد عمد صلاح الدّين إلى تخريب المعاقل والحصون المؤدية إلى القدس حتى يفوّت عليهم فرصة الانتفاع بها ،فيقطعوا الطريق بين مصر والشام.فقد خرّب حصن عسقلان ،وقلعة الرّملة واللّد(٥) ثمّ عاد إلى بيت المقدس، وجد في تحصينه وتقويته ،ليحول بينهم وبينه . قال ابن الأثير:(... وكان صلاح الدّين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره ،وتجديد مارثّ منه ،فأحكم الموضع الّذي طمك البلد منه واتقنه ، وأمر بحفر خندق خارج الفصيل*)(٦)،حتى قال ريتشارد قلب الأسد عندما

---

(١) سيرة صلاح الدّين ،ص : ١٧٩ — ١٨٠.

(٢) انظر: الفيح ،ص: ٥٣٧—٥٣٨ ،سيرة صلاح الدّين ، ص: ١٧٩—١٨٠ ، الكامل: ٩/ ٢١٥.

(٣) انظر: سيرة صلاح الدّين ،ص: ١٨٤ ،مرآة الزمان ،ق ١ جـ٨/ ٤٠٩—٤١٠.

(٤) سيرة صلاح الدّين ،ص: ١٨٣ ،والرّوضتين ،بيروت : ٢/ ١٩٠.

(٥) انظر : الفيح ،ص: ٥٥٠—٥٥١ ،سيرة صلاح الدّين ،ص : ١٨٧ ، ١٨٩ ،الكامل: ٩/ ٢١٦ ،الرّوضتين ،بيروت :٢/ ١٩٢ ،مرآة الزمان ،ق ١جـ٨/ ٤١٠ البداية والنهاية :١٢/ ٣٤٥—٣٤٦ ،السلوك ،ق ١ جـ١/ ١٠٦.

(*) الفصيل : حائط قصير دون الحصن او دون صور البلد . (القاموس: فصل).

(٦) الكامل في التاريخ : ٩/ ٢١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علم بذلك ؛(... هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدّين حيّا ، وكلمة المسلمين مجتمعة .)(١) إلّا أنّهم زحفوا إليها سنة ثمان وثمانين وخمسمئة بعد أن أعادوا عمارة عسقلان ، واستولوا على قلعة الدّاروم ، فردّهم اللّه عنها ، وهم يجرّون أذيال الخيبة بعد وقائع كثيرة ألحقت بهم القتل والهزيمة .(٢)

وهكذا استمرّ الصراع ما بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام إلى أن اتّفق الطرفان على وضع الحرب فيما بينهما لمدّة ثلاث سنوات ، وذلك في سنة ثمان وثمانين وخمسمئة (٣) ، بطلب من الفرنج أنفسهم ، لرغبة ملكهم بالعودة إلى بلاده . ثمّ عاد صلاح الدّين إلى دمشق بعد إبرام الصلح ، ولكنّ القدر لم يمهله طويلا ، إذ انتقل إلى جوار ربّه سنة تسع وثمانين وخمسمئة (٤) بعد ما أعاد الإسلام قويّا عزيزا ، وحرّر بيت المقدس والمدن الإسلاميّة المغتصبة من براثن الغزاة الصليبيين ، فطويت بذلك صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد الإسلاميّ ، وقد ظهرت أصداء هذا كلّه في أدب القاضي الفاضل الّذي رافق سلطانه في عدد من معاركه الّتي خاضها ضدّ الخارجين على الوحدة الإسلاميّة ، وضدّ الطامعين في ديار الإسلام ، فذاق معه حلاوة الظفر ومرارة الهزيمة .

---

(١) الكامل : ٩ / ٢١٧ ، وانظر : الفيح ، ص : ٥٦٥ وما بعدها ، سيرة صلاح الدّين ، ص : ١٨٩ ، الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ١٩٤ ، السلوك ، ق ١ جـ ١ / ١٠٨ — ١٠٩ .

(٢) انظر : الفيح ص : ٥٩١ ، سيرة صلاح الدّين ، ص : ٢١٧ — ٢١٨ ، الكامل : ٩ / ٢١٧ ، الرّوضتين ، بيروت ٢ / ١٩٩ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٣٤٩ ، السلوك ق ١ جـ ١ / ١٠٩ ، وغيرها .

(٣) انظر : الفيح ، ص : ٦٠٣ ، سيرة صلاح الدّين ، ص : ٢١٩ وما بعدها ، الكامل : ٩ / ٢٢١ — ٢٢٢ ، الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ١٩٩ — ٢٠٣ ، مفرج الكروب : ٢ / ٤٠٢ — ٤٠٥ ، وفيات الأعيان : ٧ / ١٩٩ — ٢٠٠ ، وغيرها .

(٤) انظر : سيرة صلاح الدّين ، ص : ٢٤٦ ، الكامل : ٩ / ٢٢٥ ، مرآة الزمان ، ق ١ جـ ٨ / ٤٢١ الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ٢١٢ ، مفرج الكروب : ٢ / ٤١٦ ، البداية والنهاية : ١٣ / ٢ ، وفيات الأعيان : ٧ / ٢٠٣ ، العبر ، للذهبي : ٤ / ٢٧٠ ، الأنس الجليل : ١ / ٣٩٣ ، تتمّة المختصر ٢ / ١٦٠ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولمّا توفي السلطان ــ رحمه اللّه ـ ترك مملكة مترامية الأطراف شملت مصر والشام واليمن والجزيرة وديار بكر ،وغيرها . قال ابن الأثير:((. . . لمّا مات صلاح الدّين بدمشق ،كان معه ولده الأكبر الأفضل نور الدّين عليّ ،وكان قد حلف له العساكر جميعهم. فلمّا مات ،ملك دمشق وبيت المقدس وبعلبك وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الدّاروم ،وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقرّ ملكه بها ،وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها ،وعلى جميع أعمالها وكان بحماة محمود بن تقيّ الدّين عمّه فأطاعه ،وصار معه ، وكان بحمص شيركوه بن محمّد بن شيركوه فأطاع الملك الأفضل ،وكان الملك العادل بالكرك))(١)

ولكن ما لبث أن قام الصراع بعد موته فيما بين أبنائه وإخوته على السلطنة ،قال القاضي الفاضل: ((. . . أمّا هذا البيت ،فإنّ الآباء منه اتفقوا فملكوا ،وأنّ الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا ،وإذا غرب نجم ،فما الحيلة في تشريقه ،وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه إلاّ تمزيقه))(٢).

ومن الجدير بالذكر هنا، أنّ الفرنج قد استغلوا منازعات الأيّوبيين لاستعادة ما فقدوه على يد صلاح الدّين ،فطلبوا المدد من أوروبا لمساعدتهم في ذلك. قال أبو شامة :((. . . وكانوا كاتبوا ملك الألمان ،وقالوا : إنّ عظام أبيه إلى الآن في صور وكأنّه في الأسر منتظرا الافراج ،فإنّه لا يقبر إلاّ بالبيت المقدّس إذا استخلص. والآن ما كان غلا منه قد استرخص، فإنّ المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهوا عن كلّ سنّة وفرض))(٣).

---

(١) الكامل في التاريخ: ٩ / ٢٢٦—٢٢٧ ،وانظر: الرّوضتين ،بيروت: ٢ / ٢٢٤—٢٢٦.

(٢) الرّوضتين ،بيروت: ٢ / ٢٣١—٢٣٢. وأمّا عن الصراع بين أبناء صلاح الدّين على السلطة وعمهم العادل، فانظر: الرّوضتين ،بيروت: ٢ / ٢٢٨—٢٣٢ الكامل: ٩ / ٢٣٤— ٢٣٥ ،مفرّج الكروب: ٣ / ٥٠—٥٣ ،مرآة الزمان ق ١ جـ ٨ / ٤٤١ ،البداية والنهاية: ١٣ / ١١—١٢ ،زبدة الحلب تحقيق سامي الدهان : ٣ / ٨٨٠—٨٨١.

(٣) الرّوضتين ،بيروت: ٢ / ٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد زحف الفرنج فعلا إلى سواحل الشام ،فلقيهم الملك العادل قرب عكّة وهزمهم هزيمة مكّنته من انتزاع مدينة يافا من أيديهم . قال ابن كثيرفي حوادث سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة :((... وفي هذه السنة ،انقضت مدّة الهدنة الّتي كان عقدها الملك صلاح الدّين للفرنج ،فأقبلوا بحدّهم وحديدهم ،فتلقّاهم العادل بمرج عكّة فكسرهم ،وغنمهم ،وفتح يافا عنوة))(١) إلاّ أنّهم أخذوا بيروت من أيدي المسلمين من غير قتال .(٢)

وعندما أدرك أبناء صلاح الدّين تطاول الغزاة على ديار المسلمين واعتداءهم على حصن تبنين ،وحّدوا كلمتهم ،ودافعوا عنه دفاعا مستميتا حتى ردّوا الغزاة عنه وأرغموهم على الصلح مرّة أخرى .(٣)

ولمّا توفي الملك العزيز عثمان صاحب مصر سنة خمس وتسعين وخمسمئة ،نشب الخلاف على الحكم من جديد ما بين الملك الأفضل الوصي على ابن أخيه الصغير بمصر ،وبين عمّه العادل حاكم دمشق ،بعد أن تحالف الأفضل مع أخيه الظاهر صاحب حلب،واتّفقا على انتزاع دمشق من عمهما العادل . فزحف إلى مصر في السنة التالية ،وأخرج الأفضل منها ،واستبدّ بحكمها (٤)،فعمل بذلك على وحدة الجبهة الإسلامية من جديد ،بعد أن قضى على الحملة الصليبيّة الألمانيّة قضاء تامّا ووحّد صفوف بني أيّوب ،ممّا أعاد للدّولة الأيوبيّة قوّتها وهيبتها .

---

(١) البداية والنهاية : ١٣/ ١٤ .
(٢) انظر : الكامل : ٩/ ٢٣٨ ،الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ٢٣٣ ،البداية والنهاية ١٣/ ١٥ ،مرآة الزمان ، ق١ جـ٨/ ٤٥٥ .
(٣) انظر : الكامل : ٩/ ٢٣٨ ،والبداية والنهاية : ١٣/ ١٦ .
(٤) انظر: الكامل : ٩/ ٢٤٤ ،٢٤٩—٢٥٠ ،الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ٢٣٧،البداية والنهاية : ١٣/ ٢١—٢٢ ،المختصر ،م٢ جـ٥/ ١٢٤—١٢٧ ،السلوك ق١ جـ١ / ١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوضع الاجتماعي والاقتصادي:

لمّا كانت جوانب الحياة متداخلة مترابطة لا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض فإنّ معالم الحياة السياسيّة في الدّولتين الفاطميّة والأيوبيّة لا بدّ أن تتراءى في الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة الّتي كانت قائمة في هاتين الدّولتين .

فقد تأثّرت حياة النّاس في عهد الدّولة الفاطميّة الأخير بصورة واضحة بالأوضاع السياسيّة الّتي كانت تسودها الدسائس والفتن الداخليّة في قصور الخلفاء ووزرائهم المتنازعين على السلطة ، ممّا أوقع البلاد في ضائقات مالية ، وضنك من العيش وأثقل كاهل الشعب بالضرائب ، لسدّ نفقات الدّولة الّتي هدرت جلّ طاقاتها الاقتصاديّة في نزاعاتها الدّاخليّة (١) ، وفي دفع الأموال للفرنجة . من أجل ذلك اضطربت الحياة الاجتماعيّة في عهدهم ، وعمّت الفوضى حياة النّاس ، فاختلّت أمورهم ولا سيّما عندما كانت الفتن والثورات الداخليّة تعمّ البلاد .

ومن الجدير بالذكر هنا، أنّ المجتمع المصريّ كان يضمّ عناصر من جنسيات مختلفة من عرب ، وترك وفرس، وروم ، وأرمن ، وشركس، وقبط(٢) . والناظر في بنية المجتمع المصريّ في تلك الفترة ، يلحظ أنّه يقوم على طبقتين رئيستين هما : الطبقة الخاصّة ، وهم : الخلفاء والوزراء والكتّاب ، وكبار رجال الدّولة من قضاة وقادة ، وغيرهم والعامّة ، وهم: سواد الناس من أهل الحرف والصنائع والفلّاحين والجند والرّقيق، وغيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى(٣) . وكانت الطبقة الأولى تتحكم في ثروة البلاد وتنعم بها وللرّعية ما زاد عن حاجاتها . وقد سجل لنا المؤرّخون الكثير من مظاهر الترف والبذخ الّتي عاشها الخلفاء ووزراؤهم في مصر ، وما أحاطوا أنفسهم به من أبّهة وعظمة وإسراف وكيف أنّهم بدّدوا أموال الرّعية ، وسخّروها لمآربهم الذاتية وشؤونهم الخاصّة .

---

(١) أحمد صادق ، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، ط١ ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص: ٢٧٤—٢٧٥ .

(٢) انظر : محمّد سلاّم ، الأدب في العصر الأيّوبيّ ، القاهرة ١٩٦٧م ، ص: ٥٠—٥٢ .

(٣) انظر : تاريخ مصر الاجتماعي ، ص : ٢٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد انفق الخلفاء الفاطميون أموالا طائلة في تقليد وزرائهم ،وفي مناسباتهم الخاصّة الكثيرة الّتي احتفلوا بها على مدار العام. ويكفينا للتدليل على ذلك أنْ نورد ما خلعه العاضد آخر خلفائهم على آخر وزرائهم السلطان صلاح الدّين الأيوبيّ لنرى مدى بذخهم وترفهم الّذي لا طائل تحته مع أنّ العدوّ كان يقرع أبواب دولتهم ويتربّص بهم. قال أبو شامة :((. . . وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنسي بطرز ذهب وثوب دبقي بطراز ذهب ،وجبّة تحتها سقلاطون(١) بطرازي ذهب ،وطيلسان دبيقي بطراز دقيق ذهب ،وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ،وسيف محلّى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ،وفرس حجر(٢) صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالدّيار المصريّة أسبق منها ، وطوق ،وتخت وسرفسار(٣) ذهب مجوهر ،وفي رقبة الحجر مشدّة بيضاء وفي رأسها طالعة مجوهرة ، وفي رأسها مشدّة بيضاء بأعلام ذهب ، . . .))(٤).

هذا ولم يكن الوزراء في مصر أقلّ بذخا وترفا واسرافا من خلفائهم آنذاك ،ومن ذلك ما بذله الملك طلائع بن رزّيك في زفاف أخته إلى الخليفة العاضد من الذهب والمال. قال عمارة :((. . . وحمل إلى الخليفة في زفاف اخته بيوت مال أقلّها قناطير الذهب)).(٥)

وقد ساعدهم على حياة البذخ والترف هذه عوامل متعدّدة منها : ازدهار التجارة والصناعة ، ووفرة الغلاّت الزراعيّة(٦)، فأحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة والبذخ على حساب الرعيّة وسواد النّاس الّذين كانوا يكدّون ويشقون لينعم بعرقهم السّادة والوزراء الّذين اتّخذوا من منصب الوزارة في العصر الفاطميّ الأخير وسيلة

---

(١) السقلاطون : نوع من الثياب منسوب الى الروم. (القاموس والتاج : سقط) .
(٢) الحجر: مايتخذ من اناث الخيل للنسل . (القاموس: حجر) .
(٣) السرفسار: لجام من ذهب ، وهي غير عربيّة .
(٤) الروضتين ،حلبي ،ج ١(ق ٢/ ٤٣٩ .
(٥) النكت العصريّة ، ص : ٥٤ ، وأنظر تفصيل ذلك في كتاب الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص: ٥١-٩٣ .
(٦) انظر: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، ص : ٢٥٥-٢٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لجمع الأموال من أيدي الناس لحماية أنفسهم من الدسائس والفتن(١)، وأهملوا شؤون الدّولة ومرافقها العامّة. قال المقريزي في حوادث سنة سبع وستين وخمسمئة ((... وفيها عمّت بلوى الضائقة بأهل مصر، لأنّ الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا وعدما فلم يوجدا، ولهج النّاس لما عمّهم من ذلك، وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنّما ذكرت حرمة الرّجل الغيور، وإن حصل في يده، فكأنّما جاءت بشارة الجنة له))(٢) فقد كنز الخلفاء والوزراء الأموال الطائلة في قصورهم وحجبوها عن الرعيّة الّتي كانت تصطلي بالحرمان والجوع، وتعاني من كثرة الضرائب والإهمال. وأوضح مثال على هذا ما وجده السلطان صلاح الدّين في قصر العاضد عندما استولى عليه. قال ابن الأثير: ((... وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلوا الدّنيا من مثله، ومن الجواهر الّتي لم توجد عند غيرهم))(٣)، وقال المقريزي: ((... ومقدار ما يحدس أنّه من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر، ونحاس، وطبوس(٤)، وأثاث، وقماش، وسلاح ما لا يفي به ملك الأكاسرة، ولا تتصوّره الخواطر، ولا تشتمل على نيله الممالك، ولا يقدر على حسابه إلاّ من يقدر على حساب الخلق في الآخرة))(٥). كلّ هذا في خزائن الخلفاء الفاطميين آنذاك، والوطن مهدد، والأموال تجمع من أيدي النّاس لردّ الغزاة عن مصر واخراجهم منها(٦).

---

(١) انظر: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص: ٨٢ وما بعدها.
(٢) السلوك، ق١ جـ١/ ٤٦.
(٣) الكامل: ٩/ ١١٢، وانظر: الرّوضتين، حلمي، جـ١ ق٢/ ٤٩٥، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٦٦.
(٤) الطبوس: الأسود من كلّ شيء. (القاموس وتاج العروس: طبس).
(٥) السلوك، ق١ جـ١/ ٤٦—٤٧.
(٦) انظر: الروضتين، حلمي، جـ١ ق١/ ٥٠٦، ٥٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولمّا تسلم صلاح الدّين القيادة في مصر، وضع يده على تلك الأموال الكثيرة المعطّلة في خزائن الخلفاء ووزرائهم، وسخرها في جهاد الفرنج واصلاح أوضاع البلاد وأحوالها، فعادت على المسلمين بمصر والشام بالخير والرّفاء بما قام به من اصلاحات كثيرة في ميادين التعليم والصناعة والزراعة، وخلّص الدّولة من كلّ مظاهر الترف والبذخ بتوجيهها لجهاد عدوّها المتربّص بها، بعد أن ضرب للرعيّة أمثلة حيّة من واقع حياته العملي، فكان خير قدوة لها في زهده وتقشفه، وحرصه على أموال المسلمين. قال العماد: ((... كان لا يلبس إلاّ ما يحلّ لبسه وتطيب به نفسه كالكتّان والقطن والصوف، وكان من جالسه لا يعلم أنّه مجالس السلطان))(١). ويكفينا للتدليل على صدق هذا القول أنّ السلطان صلاح الدّين الّذي امتلك مصر والشام واليمن والجزيرة وديار بكر، ودوّخ الصليبيين لم يترك بعد وفاته مالا ولا عقارا ينمّ عن بذخ أو ترف. قال ابن شداد: ((... فإنّه ملك ما ملك، ومات ولم يخلّف في خزانته من الذهب والفضة إلاّ سبعة وأربعين درهما ناصريّا، وجرما واحدا ذهبا صوريّا ولم يخلّف ملكا ولا دارا، ولا عقارا، ولا بستانا، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئا من أنواع الأملاك))(٢).

وبالقضاء على الفاطميين، استطاع صلاح الدّين أن يخلّص مصر من عوامل الفساد والانحراف، وأن يعدّها لمواجهة الصليبيين. يقول المقريزيّ: ((... كانت المنكرات ظاهرة في عيد النوروز، والفواحش صريحة في يومه، ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير، ويتسلّط على النّاس في طلب رسم رتبه على بيوت الأكابر، ويتجمّع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدهم الخليفة، وبأيديهم الملاهي وترتفع الأصوات، وتشرب الخمور في الطرقات، ويتراش النّاس بالماء والخمر، وبالماء ممزوجا بالقاذورات فإنّ غلط مستور، وخرج من داره لقيه من يرشّه ويفسد ثيابه، ويستخفّ بحرمته، فإمّا فدى نفسه، وإمّا فضح))(٣).

---

(١) الرّوضتين، بيروت: ٢/٢١٧.
(٢) سيرة صلاح الدّين، ص: ٨، وانظر: الرّوضتين، بيروت: ٢/٢١٧: وغيرهما.
(٣) خطط المقريزي: ١/٤٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد شهدت مصر والشام زمن صلاح الدّين ازدهارا اقتصاديّا ساعدت عليه مجموعة من العوامل ،منها : موقع مصر والشام ما بين الشرق والغرب ،فكانتا بذلك سوقا لتجارة أوروبا والهند وآسيا . ومنها أيضا : إسقاط الضرائب عن التجارة الدّاخلية والخارجيّة بمصر والشام ،إذ عمل ذلك على تنشيط التجارة وازدهارها . قال صلاح الدّين في منشور أصدره بهذا الصدد :((... وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر ،وجميع التجّار المتردّدين إليها ،وإلى ساحل المقسم والعنبة بأبواب المكوس صادرها ووارداتها ، فيرد التاجر ويسفر ،ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجّر برّا وبحرا ،مركبا وظهرا ،سرّا وجهرا ،لا يحلّ ما شدّه ،ولا يحاول ما عنده ،ولا يكشف ما ستره ،ولا يسأل عمّا أورده وأصدره ،ولا يستوقف في طريقه ولا يشرق بريقه ،ولا يؤخذ منه طعمة ،ولا يستباح له حرمة))(١). ومنها : القضاء على نظام الاقطاع الّذي كان سائدا في مصر في العهد الفاطمّي ،فساعد ذلك كلّه على تنشيط الاقتصاد والزراعة(٢). ثمّ إنّ تأمين الطرق التجاريّة الدّاخليّة والخارجيّة كان شغل السلطان الشاغل ،وهذا واضح في محاولاته الكثيرة للقضاء على إمارة الكرك الّتي كانت تعرقل طريق التجارة الداخليّة ما بين مصر والشام والحجاز ،إذ كانت بمثابة همزة وصل بينها . قال ابن جبير: ((... من ذلك خروج صلاح الدّين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ،وهو من أعظم حصون النصارى ،وهو المعترض في طريق الحجاز ،والمانع لسبيل المسلمين على البرّ))(٣). وبذا غدت الطرق التجاريّة على عهده آمنة ،لا يعترض القوافل فيها معترض. وفي هذا يقول ابن جبير: ((... وسرنا في الصحراء نبيت منها حيث جنّ علينا الليل ،والقوافل العديدة العدّة والقوصيّة صادرة واردة ،والمغازة معمورة أمنا))(٤).

---

(١) الرّوضتين ،حلمي ،ج١ ق٢/ ٥٢٣ ،وانظر أيضا: ص: ٤٤٣ ،٥٢٧ . ثم انظر ما فعله مع أهل دمشق ،مفرّج الكروب: ٢/ ٢٠٠ .

(٢) انظر : مصر في العصور الوسطى ، ص:٤٤٩ .

(٣) ابن جبير ،رحلة ابن جبير ،بيروت ،ص: ٢٠١ .

(٤) المصدر نفسه ،ص: ٢٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عمل ذلك كلّه على ازدهار الحركة التجاريّة وتنشيطها داخل حدود الدّولة الإسلاميّة وخارجها . يقول ابن جبير: ((. . . واختلاف القوافل التجاريّة من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكّة كذلك وتجّار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض))(١).

وقد فتح صلاح الدّين بلاده للتجارة الخارجيّة ، وعمل على زيادة الأسواق التجاريّة وتوسيعها حتى كانت مثار إعجاب الرحالة العرب الّذين شاهدوها . فمن ذلك ما نقله لنا ابن جبير عن سوق حلب بالشام ، إذ يقول : ((. . . وأمّا البلد ، فموضوعه ضخم جدّا ، حفيل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى ، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنيّة ، كلّها مسقوف بالخشب ، فسكناها في ظلال وارفة ، فكلّ سوق منها تقيّد الأبصار حسنا ، وتستوقف المتوفّز تعجّبا))(٢). وما نقله لنا أيضا الرحّالة ناصرخسرو عن سوق مدينة طرابلس، حيث يقول : ((. . . وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة ، حتى لتظنّ أنّ كلّ سوق قصر مزيّن))(٣). أضف إلى ذلك الموارد الاقتصاديّة الأخرى الّتي كانت تجلب إلى خزينة الدّولة من افتداء الأسرى والجزية ، وما إلى ذلك (٤).

وقد نالت الصناعة اهتماما كبيرا من السلطان صلاح الدّين ، ولا سيّما صناعة أدوات القتال ، والسفن ، والملابس، والمنسوجات ، والزجاج والورق ، وغيرها . يقول ناصر خسرو في معرض حديثه عن مدينة طرابلس : ((. . . وفي السوق مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير ، يأخذ منه النّاس حاجتهم ، ويصنعون منها

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص : ٢٠١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٧٨ .
(٣) ناصرخسرو ، سفرنامة ، ترجمة الخشاب ، بيروت، ط٣ ، ١٩٨٣م ، ص : ٤٨ وصلاح الدّين ، ص: ١٧٣ .
(٤) انظر : رحلة ابن جبير ، ص: ٤٦ ، مصر في العصور الوسطى ، ص: ٤٤٩ ، سياسة صلاح الدّين ، ص: ٤٢٩—٤٢٧ ، وصلاح الدّين للدومي ص : ١٧٠ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الـــــورق الجميـــــل))(١) .

وعلى الرّغم من الحروب المستمرّة الّتي خاضها السلطان ،إلاّ أن ذلك لـــــم يحل دون قيامه بالاصلاحات الدّاخليّة الكثيرة في كلّ من مصر والشام ،إذ كان كلّمـــــا عاد إليهما بعد عناء الجهاد يتفقد أوضاعهما الدّاخليّة ،ويقيم المشاريع العمرانيّـــــة فقد بنى المدارس ،والمشافي والحصون ،والقلاع ،والأسوار ،والخوانق والرباطـــــات وغيرها (٢) من المنشآت الّتي نالت اعجاب ابن جبير،إذ يقول: ((. . . ومما شاهدنـــاه من مفاخر هذا السلطان ،المارستان الّذي بمدينة القاهرة ،وهو قصر من القصـــــور الرّائقة حسنا واتّساعـــــا))(٣).

---

(١) سفرنامة ،ص: ٤٨ ،وانظر: مصر في العصور الوسطى ،ص: ٤٤٢—٤٤٨ ،وصلاح الدّين ص: ١٧٣ ،وكتاب: Lanepoole, History of Egypt in the Middle Ages, London: 1900, P: 140-141.

(٢) انظر: الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢/٦٨٦—٦٨٨ ،٦٨٩ ،وغيرهـــــا، مفرّج الكروب: ٢/٥٥٢ ،٥٥٤ ،ورحلة ابن جبير،ص: ٥٠—٥٣ .

(٣) رحلة ابن جبيـــــر ،ص: ٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوضع الثقافيّ والفكـــــريّ:

ازدهرت الحركة الفكريّة والثقافيّة في هذه الفترة ازدهارا كبيرا على الرّغـــــم من الحروب المستمرّة الّتي خاضتها الدّولة ضدّ الصليبيين في عهد الزنكيين والأيوبيين حتى كان العصر الأيّوبي كما وصفه أحد الدّارسين :((. . . عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلاميّة والعربيّة ،كما كان عصر إحياء سياسيّ))(١)

وقد ساعد على ازدهار الثقافة عوامل متعدّدة منها : أنّ صلاح الدّيـــــن الأيّوبيّ الّذي حكم مصر والشام ،كان محبّا للعلم والعلماء ،مكرما لهم مغدقا عليهـــم، وقد أسند إليهم المناصب الرفيعة في دولته ،واتّخذ منهم مستشارين ووزراء ،وخيـــر مثال على ذلك ما وصل إليه القاضي الفاضل ، والعماد الأصفهانيّ(٢)،وابن شـــداد(٣)

---

(١) الأدب في العصر الأيّوبيّ ،ص : ٧٥ .

(٢) وهو: أبو عبد اللّه محمّد بن صفيّ الدّين ،الملقّب عماد الدّين الكاتـــب الأصفهانيّ (٥٩٧هـ) ،تفقّه بالمدرسة النظاميّة ،كان فقيها شافعيّـــا أتقن الخلاف وفنون الأدب ،وكان جيّد النظم ،كثير القول ،له التّرسّـــل المليح ،والكتابة البليغة ،خرج إلى الشام وخدم نور الدّين ثمّ تولى الكتابة لصلاح الدّين مع القاضي الفاضل ،وهو صاحب ((خريدة القصر)) و ((الفيح القسّـــي)) و ((البرق الشاميّ)) ،وغيرها . انظر: وفيات الأعيـــان ٥/١٤٧—١٥٣ ،ابن الساعي ،الجامع المختصر ،مصطفى جواد ،بغـــداد ١٩٣٤م: ٩/٦١—٦٤ ،الرّوضتين ،بيروت: ٢/٢٤٥ وغيرهـــا البداية والنهاية: ١٣/٣٠—٣١ ،العبر ،للذهبي : ٤/٢٩٩ ،شـــذرات الذهب: ٤/٣٣٢ ،مرآة الزمان ،ق٢ جـ٨/٥٠٤ ،السبكي ،طبقـــات الشافعية ،تحقيق ،الحلو،ط١ : ١٩٧٠م: ٦/١٧٨—١٨٣ ،النعيمـــي الدّارس في تاريخ المدارس،دمشق ١٩٤٨م: ١/٤٠٨—٤١٣ ،الحيـــاة العقليّة في عصر الحروب الصليبيّة ،ص: ٢٧١ ،وغيرها .

(٣) وهو : أبو المحاسن ،يوسف بن رافع بن تميم الأسدي (٦٣٢هـ) ،فقيه شافعـــيّ ولد بالموصل اتّصل بصلاح الدّين وولاّه قضاء العسكر ،ثم الحكم بالقـــدس الشريف بعد تحريره ،وبعد وفاة السلطان اتّصل بابنه الظاهر صاحب حلـــب وهو من شيوخ ابن خلّكان ،وله كتاب سيرة صلاح الدّين ،المعـــروف بالنوادر السلطانية . انظر: وفيات الأعيان : ٧/٨٤—١٨٠ ،ذيل الرّوضتين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغيرهم من مناصب . قال ابن شداد :((. . . وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار ، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده ويبالهم من إحسانه)) (١) . وقد بنى لهم المدارس والمراكز العلميّة ، وقرّبهم منه ، حتى صارت مصر والشام في عهده موئلا للعلماء والأدباء والفقهاء الّذين وفدوا إلى دولته من المشرق والمغرب والأندلس ، لما وجدوا فيها من التقدير والتشجيع والإكرام . ومن أشهر الّذين قدموا إلى مصر والشام على عهده : العماد الأصفهانيّ ، وابن شداد ، والهرويّ (٢) ، والبغداديّ (٣) وغيرهم فحطهم ذلك إلى تخصيص جلّ أوقاتهم وجهودهم للتعليم والتأليف ، ولا سيّما بعد ما أجرى عليهم ما يضمن لهم حياة كريمة . قال ابن جبير :((. . . ومن مناقب هذا البلد ومفاخره المائدة في الحقيقة إلى سلطانه ، المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبّد ، يغدون من الأقطار النائية ، فيلقى كلّ واحد منهم مسكنا يأوي إليه

= ص: ١٦٣ ، غاية النهاية في طبقات القرّاء : ٢/ ٣٩٥-٣٩٦ ، تتمّة المختصر ٢/ ٢٣٦ ، الأنس الجليل : ٢/ ١٠١-١٠٢ ، طبقات الشافعيّة : ٦/ ٩٣ ، الشذرات ٥/ ١٥٨-١٥٩ .

(١) سيرة صلاح الدّين ، ص : ٣١ .

(٢) وهو : أبو الحسن ، عليّ بن أبي بكر بن عليّ الهرويّ (٦١١هـ) ، ولد بالموصل وطاف البلاد ، وأكثر من الزيارات ، تقدّم عند الملك الظاهر بن صلاح الدّين صاحب حلب ، وأقام عنده ، وبنى له مدرسة بظاهر حلب . انظر : وفيات الأعيان : ٣/ ٣٤٦-٣٤٧ .

(٣) وهو : عبد اللطيف بن يوسف بن محمّد بن عليّ البغداديّ (٦٢٩هـ) من فلاسفة الإسلام وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والتاريخ ، والطب . أنظر : ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق ، نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥م ، ص: ٦٨٥ ، القفطي إنباه الرواة ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، ١٩٥٢م القاهرة ، ٢/ ١٩٣-١٩٦ ، السيوطي ، بغية الوعاة ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ط١ ، ١٩٦٤ القاهرة : ٢/ ١٠٦- ١٠٧ ، الشذرات : ٥/ ١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومدّرسا يعلمه الفن الّذي يريد تعلّمه ، وإجراء يقوم به في جميع أحواله))(١) .

وممّا يؤكد لنا حبّه للعلماء وتشجيعه لهم ما فعله مع عبد اللطيف البغدادي الّذي حظي عنده ، ونال تقديره ، وهذا واضح في قول البغدادي نفسه : ((... فكتب لي صلاح الدّين بثلاثين دينارا في كلّ شهر على ديوان الجامع ، وأطلق لأولاده رواتب حتى تقرر لي في كلّ شهر مئة دينار))(٢) .

هذا وقد عرف عن صلاح الدّين كذلك أنّه كان يحرص على مجالسة العلماء ويسعى إليهم مصطحبا معه بعض أبنائه ، ليسمع منهم ، فقد سمع الحديث وموطأ مالك من شيخ الحديث في عصره الحافظ السّلفيّ (٣) بالإسكندريّة (٤) ، ومن الشيخ البندهيّ المسعودي(٥) بالقاهرة قال أبو شامة : ((... وقد عيّن لسماع الأحاديث النبويّة بقراءة الإمام تاج الدّين البندهي المسعوديّ ميقاتا))(٦) . فلا عجب

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص: ٤٦ .

(٢) عيون الأنباء ، ص: ٨٨٦ .

(٣) وهو: أبو طاهر ، الحافظ أحمد بن محمّد بن أحمد السّلفيّ الأصفهانيّ (٥٧٦هـ) ، أحد الحفّاظ المكثرين ، دخل ثغر الإسكندريّة سنة (٥١١هـ) ، وقصده النّاس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله ؛ كان مغرما بجمع الكتب ، حتى جمع منها عددا ضخما . أنظر: وفيات الأعيان: ١/ ١٠٥ـ١٠٧ ، الرّوضتين ، بيروت : ٢/ ١٦ ، طبقات الشافعيّة: ٦/ ٣٢ـ٤٤ ، البداية والنهاية: ١٢/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨ ، العبر للذهبي : ٤/ ٢٢٧ـ٢٢٨ ، الشذرات: ٤/ ٢٥٥ ، تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٢٩٨ .

(٤) انظر بالرّوضتين ، حلمي ، جـ١ ق٢/ ٦٨٩ ، مفرّج الكروب ٢/ ١١٢ ، وغيرها .

(٥) وهو : أبو عبد اللّه ، محمّد بن عبد الرّحمن بن مسعود ، الملقّب تاج الدّين البندهيّ (٥٨٤هـ) فقيه شافعيّ ، كان أديبا فاضلا ، اعتنى بالمقامات الحريريّة فشرحها . انظر ترجمته في : وفيات الأعيان : ٤/ ٣٩٠ـ ٣٩٢ الشذرات: ٤/ ٢٨٠ـ٢٨١ ، العبر ، للذهبي ، ٤/ ٢٥٣ ، لسان الميزان : ٥/ ١٥٦ ، وغيرها .

(٦) الرّوضتين ، بيروت: ٢/ ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذن أن تنتشر المراكز العلميّة والثقافيّة في مصر والشام حتى امتدّت من مدينة الإسكندريّة إلى حلب، وكان من أشهرها: القاهرة، والإسكندريّة، وقوص، وأسيوط بمصر، ودمشق وحلب ثم بيت المقدس[١] بعد تحريره من أيدي الغزاة في بلاد الشام. وقد كان السلطان نفسه ذا ثقافة واسعة متنوّعة. قال ابن شداد: ((. . . كان حافظا لأنساب العرب ووقائعهم، عارفا بسير أحوالهم، حافظا لأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدّنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضرة مالا يسمع من غيره))[٢]، وكان يحبّ الشعر الجيّد ويتذوّقه. قال المقريزي: ((. . . كان يستحسن الشعر الجيّد، ويردّده في مجلسه، ومدحه كثير من الشعراء، وانتجعوه من البلدان))[٣]، هذا وكثيرا ما كان السلطان يعبّر عن إعجابه بشعر أحدهم، وشغفه به. ومن ذلك ما أورده العماد الأصفهانيّ، إذ يقول: ((. . . فذكر جماعة من الشعراء، وعنده ديوان الأمير مؤيّد الدّين أسامة، وهو به مشغوف، وقد استحسن قصيدة له طائيّة لوعاش الطائيان لأقرابفضلها))[٤]، ويقول العماد كذلك في صلاح الدّين: ((. . . لا يجري في مجلسه ومأنسه إلاّ ما هو من الحكم والكلم الفائق الرّائق، يحب الشعر الجيّد، ويحبوه بشعار جوده))[٥]. هذا إلى جانب ثقافته الدينية الواسعة وحبه لسماع القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف. قال ابن شداد: ((. . . وكان يحب سماع القرآن العظيم حتى إنه كان يستخير إمامه، ويشترط أن يكون عالما بعلوم القرآن متقنا لحفظه))[٦]

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب: الحياة العلميّة، ص: ٤٢—٧٤، وكتاب: عبد الجليل عبد المهدي، الحركة الفكريّة في ظل المسجد الأقصى، مكتبة الأقصى عمّان، ١٩٨٠م، ص: ٤٩ وما بعدها.

(٢) سيرة صلاح الدّين، ص: ٣٤.

(٣) السلوك، ق ١ جـ ١/ ١١٣.

(٤) البنداريّ، سنا البرق الشاميّ، تحقيق: رمضان، بيروت، ط ١، ١٩٧١م: ١/ ١٨٦ والحركة الفكريّة، ص: ٦٠.

(٥) العماد، خريدة القصر، تحقيق: شكري فيصل، دمشق، بداية قسم شعراء الشام، ص: ٧٨.

(٦) سيرة صلاح الدّين، ص: ٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال أيضا :((. . . وكان يحبّ أن يقرأ الحديث بنفسه ،وكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرؤها هو))[١] . فعمل ذلك كلّه على تنشيط الحركة الثقافيّة والفكريّة في عهده لما قام به من تشجيع ،ورعاية للعلم والعلماء حتى كان ـ رحمه اللّه ـ من بناة النهضة العلميّة وحماة أربابها في عصره[٢] .

وقد كان لموقع مصر والشام في طريق الحج أثر واضح في نهضة الحركة الفكرية وازدهارها ،إذ كانت مصر جسرا يربط ما بين المغرب والأندلس وبلاد الشام والحجاز فالدّاخلون إلى الحجاز وبلاد الشام من أبناء المغرب والأندلس، كانوا ينزلون بمصر ومن ثمّ إلى الحجاز فبلاد الشام مرورا بالعراق عائدين إلى بلادهم. وقد حرص هؤلاء الوافدون على لقاء المشايخ ورجال العلم فيها[٣] ،وقد يعجبهم المقام في ظلّ صلاح الدّين ،فيستقرون بمصر والشام. وقد نشأ عن ذلك حركة علميّة وفكريّة نشطة وامتزاج حضاريّ وثقافي فيما بين المشرق والمغرب ما زلنا نشاهد آثاره حتى يومنا هذا .

وكانت المجالس الأدبيّة الّتي يعقدها الشعراء في ذلك العصر مظهرا بارزا من مظاهر النشاط الأدبي والفكري ،مثلما كانت مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية قال ابن خلّكان في معرض حديثه عن ابن سناء الملك: ((. . . واتّفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ،وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ،ودخل في ذلك الوقت إلى مصر ابن عنين فاحتفلوا به ،وعملوا له دعوات وكانوا يجتمعون على أرغد عيش،وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام ،وجرت لهم محافل سطرت عنهم))[٤] . هذا في مصر وأمّا في بلاد الشام،فلم تحل الحروب الدائرة بين الغزاة الصليبيين وصلاح الدّين دون إقامة المجالس الأدبيّة والعلميّة ولا سيّما في بيت المقدس بعد تحريره ،إذ توافد إليه العلماء والأدباء والفقهاء من كلّ حدب

---

(١) سيرة صلاح الدّين ،ص: ٥١٠ .

(٢) انظر: حتي،تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ،ترجمة كمال اليازجي ،بيروت ١٩٥٩م: ٢/٢٤٠ .

(٣) انظر: رحلة ابن جبير ،ص : ٥٥٠ .

(٤) وفيات الأعيان : ٦/٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصوب ،ليشاركوا في تنشيط الحركة الفكريّة والثقافيّة فيه. وبعد استعادته مباشرة حاول الكثيرون من العلماء والخطباء أن يكون لهم شرف إلقاء أوّل خطبة جمعة فيه بعد تحريره ،وفي هذا يقول العماد :((... وتذاكر العلماء ،وتناظر الفقهاء وتحدّث الرواة ،وروى المحدّثون ولخّص المفسّرون ،وفسّر الملخّصون ،وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء ،وكثر المترشّحون للخطابة ،المتوشّحون بالإصابة ،المعروفون بالفصاحة ،الموصوفون بالحصافة ،فما فيهم إلاّ من خطب الرتبة ،ورتّب الخطبة وأنشأ معنى شائعا ،ووشى لفظا رائقا))(١).

ولم يكن السلطان صلاح الدّين بعيدا عن مجالس العلم والأدب،إنّما كان يشهدها ،ويشارك فيها مشاركة فعّالة ،فكانت هذه المجالس من أقوى العوامل على تنشيط الحركة الفكريّة وازدهارها في عهده بمصر والشام ،لما بذله من تشجيع ماديّ ومعنويّ للعلماء والأدباء . وفي هذا يقول البغداديّ مصوّرا بعض مجالس السلطان العلميّة بالقدس:((... وأوّل ليل حضرته ،وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم ،وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويتفقّه ،ويأتي بكلّ معنى بديع))(٢).

ومن أبرز مظاهر النشاط الأدبي والفكري بمصر والشام في عهد صلاح الدّين وخلفائه وجود تلك الأعداد الكبيرة من الفقهاء والأدباء والعلماء البارزين ،وفي

---

(١) الفيح ،ص: ١٣٨ ،وانظر: إتحاف الأخصّا في فضائل المسجد الأقصى ،لشمس الدّين المنهاجي السيوطي (مخطوط) ،مركز الوثائق والمخطوطات،الجامعة الأردنية ،رقم: (٧٦) ورقة ٧١، ٧٢ ،وإتحاف الأخصّا بتاريخ وفضائل المسجد الأقصى للهيثميّ ، (مخطوط)، مركز الوثائق ،الجامعة الاردنية رقم: (٥٩٧) ،ورقة ٢١١ ،وإتحاف الأخصّا ،تحقيق أحمد رمضان ،١/٢٦٢—٢٦٣.

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء ،ص: ٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمتهم : القاضي الفاضل ،والعماد الأصفهاني ،وابن سناء الملك[١] ،وابن الأثير[٢] وابن شداد ،وغيرهم . ويوسعنا أن نتصوّر تلك الأعداد من الأدباء الّذين عاشوا في تلك الفترة من خلال مَنْ ذكرهم العماد الأصفهانيّ في كتابه ((خريدة القصر وجريدة العصر))[٣] .

ومن مظاهر الحركة الفكريّة في هذا العصر أيضا شيوع الرحلة في طلب العلم من المغرب والأندلس إلى حواضر مصر والشام للأخذ عن علمائها ولا سيّما السّلفيّ الّذي قال فيه ابن خلّكان :((... وقصده النّاس من الأماكن البعيدة ،وسمعوا عليه وانتفعوا به ،ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله))[٤] ،ويقول القاضي عياض: ((... وجددت القيروان عصرها في ربط صلتها بالمشرق والمغرب،وخرج طلاّب

---

(١) وهو : أبو القاسم ،هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد بن سناء الملك ،(٦٠٨هـ) ،شاعر مشهور ،وصاحب ديوان الشعر البديع والنظم الرائق ،له ديوان سماه ((دار الطراز)) ،قال العماد: ((... أحرز في صناعة النثر والنظم غاية)) . الخريدة ـ قسم شعراء مصر ١/٦٧ ،وانظر: وفيات الأعيان : ٦/٦١-٦٢ ،وياقوت الحموي معجم الأدباء ،بيروت : ١٩/٢٦٥-٢٧١ ،وغيرها .

(٢) وهو : أبو الفتح ،ضياء الدّين نصر الله بن أبي الكرم الشيبانيّ ، (٦٣٧هـ) ، الأديب صاحب (المثل السائر) ،و(الوشي المرقوم) ،وزر للملك الأفضل بن صلاح الدّين . انظر : وفيات الأعيان: ٥/٣٨٩-٣٩٧ ،ذيل الرّوضتين: ص: ١٦٩ ،الشذرات: ٥/١٨٧ - ١٨٨ ،الغوطي الحوادث الجامعة ،بغداد ١٩٥١م ،ص : ١٣٦ ،وغيرها .

(٣) حقق القسم الخاص منه بشعراء مصر الدكتور أحمد أمين ،والدكتور شوقي ضيف والدكتور إحسان عبّاس،سنة ١٩٥١م ،وهو في جزئين . وحقق القسم الخاص بشعراء الشام ،الدكتور شكري فيصل وهو في جزئين وبداية .

(٤) وفيات الأعيان : ١/١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلم منها إلى المشرق والمغرب معلّمين ومتعلّمين ،وكثرت الرحلات العلميّة إلى بغداد والشام ومكّة والمدينة من المغرب والأندلس))[١] . وقد لقي الوافدون منهم إلى مصر والشام كلّ رعاية وعناية من السلطان ،فأمّن لهم ما يحتاجونه لمواصلة الدراسة والبحث . قال ابن جبير :((. . . واتّسم اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ،ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ،ووكّل بهم أطبّاء يتفقدون أحوالهم ،وتحت أيديهم خدّام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم الّتي يشيرون بها من علاج وغذاء))[٢] .

لذا لم يكن غريبا أن يخاطب ابن جبير أبناء المغرب والأندلس حاثّا إيّاهم على الدخول إلى المشرق حيث العلم والتشجيع والإكرام الّذي رآه في دولة السلطان صلاح الدّين ،كما يتضح في قوله: ((. . . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ،ويتغرّب في طلب العلم ،فيجد الأمور المعينات كثيرة ،فأوّلها فراغ البال من أمر المعيشة ،فهذا المشرق أبوابه مفتوحة لذلك ،فادخل أيّها المجتهد بسلام))[٣] .

وازدهرت حركة التأليف في هذا العصر ،فألّفت كتب كثيرة في الحضّ على الجهاد وفضائله ،قال ابن شداد :((. . . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرّب إليه يحثّه على الجهاد ،ويذكر شيئا من أخبار الجهاد ،ولقد ألّف له كتب عدّة في الجهاد ،وأنا ممّن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه ،وكلّ آية وردت فيه ،وكلّ حديث روي في فضله ،وشرحت غريبها))[٤] . كما ألّفت كتب أخرى في سيرته ،وفتوحاته ومن ذلك كتاب: (النّوادر السلطانيّة ،أو سيرة صلاح الدّين) لابن شداد

---

(١) القاضي عياض ،ترتيب المدارك وتقريب المسالك ،تحقيق : أحمد بكير ،مكتبة طرابلس ،ليبيا ،١/ ١٣ — ١٤ ،وانظر: أحمد أمين ،ظهر الإسلام ،القاهرة ١٩٦٢م ،١/ ٣٠٤ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص : ٤٦ .

(٣) رحلة ابن جبير ، ص: ٢٠٠ .

(٤) سيرة صلاح الدّين ، ص : ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكتاب (الفيح القسّي) و (البرق الشاميّ) للعماد الأصفهانيّ، وما جادت به قريحة القاضي الفاضل من رسائل ومؤلفات كما سنرى فيما بعد.

إلاّ أنّ الدارس يلاحظ أنّ كثيرا من المؤلّفين في هذه الفترة قد فتنوا بالسجع فأكثروا منه في مؤلّفاتهم الّتي جاءت زاخرة بهذا اللون من الزخرفة بصورة خاصّة وبالمحسنات اللفظيّة والبديعيّة الّتي سيطرت على مؤلّفات هذه الفترة بصورة عامّة حتى كانت سمة واضحة من سماته الفنيّة، بل مقياسا من مقاييس الإبداع والجودة فيه ويكفينا للتدليل على هذه الظاهرة أن نقرأ مؤلّفات العماد الأصفهانيّ، ورسائل القاضي الفاضل، وغيرهما من أدباء العصر.

وقد لقيت المكتبات العامّة والخاصّة في هذا العصر عناية كبيرة من الوزراء والأدباء وكبار رجال الدّولة الأيوبيّة، وفي مقدّمتهم القاضي الفاضل الّذي امتلك مكتبة ضمّت في ثناياها مئة ألف مجلّد على ما ذكره ابن الجوزي(١)، ومكتبة العماد الأصفهانيّ(٢) الّتي كوّن معظمها من خزانة القصر الفاطميّ، ومكتبة الوزير القفطي(٣) الّتي قدّرت بخمسين ألف دينار على ما ذكره ابن شاكر(٤)، حتى قال فيه ياقوت الحمويّ

---

(١) انظر: مرآة الزمان، ق١ جـ٨/ ٤٧٣.

(٢) انظر: الروضتين، حلمي، جـ١ ق٢/ ٥٠٨.

(٣) وهو: أبو الحسن عليّ بن يوسف بن إبراهيم الشيبانيّ القفطيّ (٥٦٨—٦٤٦هـ) ولد بقفط إحدى مدن صعيد مصر، حيث درس العلوم العربيّة والإسلاميّة، وقد ولي الوزارة للملك الظاهر بن صلاح الدّين صاحب حلب، وكان جمّاعة للكتب، حريصا عليها، له تصانيف وأشعار وآداب وذكاء وفطنة، من أشهرها إنباه الرواة على أنباء النحاة وغيره. وانظر: معجم الأدباء: ١٥/ ١٧٥—٢٠٤، ومعجم البلدان بيروت ١٩٧٩م: ٤/ ٣٨٣، ابن شاكر، فوات الوفيات، إحسان عباس بيروت، ١٩٧٤م: ٣/ ١١٧—١١٨، وفيات الأعيان: ٤/ ٦٤، شذرات الذهب: ٥/ ٢٣٦، النجوم: ٦/ ٣٦١ بغية الوعاة: ٢/ ٢١٢— ٢١٣، والحياة العقليّة، ص: ٢٧٣ — ٢٧٥، وغيرها.

(٤) فوات الوفيات، ٣/ ١١٨، وانظر: شذرات الذهب: ٥/ ٢٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((... وكان جمّاعة للكتب حريصا عليها جدّا ، لم أر مع اشتمالي على الكتب ، وبيعي لها ، وتجارتي فيها أشدّ اهتماما منه بها ، ولا أكثر حرصا منه على اقتنائها ، وحصّل منها مالم يحصل لأحد))(١) من أجل ذلك ، راجت تجارة الكتب في حواضر مصر والشام وتنافس النّاس على اقتنائها وشرائها بأثمن الأسعار(٢) . ومما يدلّ على عناية القوم بالكتب والمكتبات أنّ السلطان صلاح الدّين أهدى للقاضي الفاضل والعماد الأصفهانيّ معظم الكتب الّتي وجدها في مكتبة القصر الفاطميّ حينما أدرك شغفهما بجمع الكتب واقتنائها(٣).

ويلاحظ أنّ الكثيرين من أدباء هذه الفترة كانوا يجمعون ما بين فني النثر والنظم ، إضافة إلى القدرة على النقد الأدبي ، وذلك واضح من مؤلّفاتهم الأدبيّة ومن أشهر هؤلاء : القاضي الفاضل ، والعماد الأصفهانيّ ، وابن كاسيبويه(٤) ، وابن مماتي(٥)

---

(١) معجم الأدباء : ١٥/ ١٨٧ — ١٨٨ .

(٢) انظر : الأدب في العصر الأيوبي ، ص : ٨٦ .

(٣) انظر : الرّوضتين ، حلمي ، جـ١ ق٢/ ٥٠٧ ، ٦٨٧ — ٦٨٨ .

(٤) وهو : القاضي المؤتمن ابن كاسيبويه ، من كتاب مصر المشهورين الّذين كتبوا في الدّيوان الفاضليّ ، ووزر للملك عز الدّين فرّخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، كان كاتبا شاعرا . انظر ترجمته وأخباره في كتاب الخريدة قسم شعراء مصر : ١/ ٥٤ — ٥٥٦ .

(٥) وهو : أبو المكارم ، أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذّب بن مينا بن زكريا الأسعد ابن مماتي المصريّ الكاتب ، الشاعر (٦٠٦هـ) ، نصرانيّ أسلم في الدّولة الصلاحيّة ، وتولّى نظر الدواوين بمصر ، وهو أحد الكتاب في الديوان الفاضليّ ، وهو ذو الفضل الجليّ ، والشعر العليّ ، والنظم السويّ كما وصفه العماد . صاحب مصنّفات كثيرة ، نظم سيرة صلاح الدّين وكليلة ودمنة ، وله ديوان شعره الخريدة ، قسم شعراء مصر ١/ ١٠٠ ، وفيات الأعيان : ١/ ٢١٠ — ٢١٣ ، معجم الأدباء : ٦/ ١٠٠ — ١٢٦ ، البداية والنهاية : ١٣/ ٥٣ ، الشذرات : ٥/ ٢٠ ، إنباه الرواة : ١/ ٢٣١ — ٢٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن رفاعة (١) .

وقد شهدت العلوم على اختلاف ميادينها ازدهارا ملحوظا في هذه الفترة وتنوّعت ما بين فقه ،وحديث ،وقراءات ،وتفسير ، وعلوم لغويّة : من نحو ،ولغة ،وبلاغة وعروض ،وعلوم أدبيّة من شعر ،ونثر ،ونقد ،وعقليّة من طب ،وحساب ،وهندسة وتاريخيّة في إطاري التاريخ العام والتاريخ الخاص. فكان من الطبيعيّ والحالة هذه أن ينتعش التأليف ويزدهر ،فكثرت المؤلّفات التي تعالج مختلف فنون المعرفة . ففي مجال الشريعة والفقه وأصول الدّين ،نبغ عدد من العلماء في هذا العصر: كان من أشهرهم: الشهرزوري (٢) ،والمقدسي (٣)

---

(١) وهو : عبد الرحمن بن هبة اللّه بن حسن بن رفاعة المعروف بكاتب الأمير ناصر الدّولة من كتّاب الدّيوان الفاضليّ ،قال في حقه القاضي الفاضل ((إنّه أفضل من بمصر نظما ونثرا)) . وقال العماد :((جمع من رسائله عشر مجلدات)) . انظر ترجمته وأخباره في خريدة القصر ،قسم مصر ١/٥٦ وما بعدها .

(٢) وهو : أبو الفضل ،محمّد بن عبد اللّه بن القاسم الشهرزوريّ ، (٥٧٢هـ) فقيه شافعيّ ،ترقّى في بلاد الشام حتى وزر لنور الدّين ،ولما تولّى صلاح الدّين أقرّه على ما كان عليه ، وكان أديبا شاعرا ،وكان عظيم الرياسة ،خبيرا بتدبير الملك ،لم يكن في بيته مثله . انظر وفيات الأعيان : ٤/٢٤١ — ٢٤٥ ،مرآة الزمان ق١ جـ٨/٣٤٠ — ٣٤٢ ، الرّوضتين ،حلمي جـ١ ق٢/٦٧١ ،وغيرها ، الشذرات: ٤/٢٤٣ ،طبقات الشافعيّة: ٦/١١٧—١٢١ . البداية والنهاية : ١٢/٢٩٥ ،الحياة العقليّة ،ص: ١٥٩ ،وغيرها .

(٣) وهو : أبو الحسن ،عليّ بن عليّ بن مفرّج اللخميّ المقدسيّ ، (٥٨٥هـ) ،فقيه مالكيّ ، من أكابر الحفّاظ المشاهير في الحديث ،صحب السّلفيّ وانتفع به ،انظر وفيات الأعيان : ٣/٢٩٠ — ٢٩٢ ، العبر ٥/٣٨ ،الشذرات : ٥/٤٧ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن عصرون (١)، والهكاري (٢)، والخبوشاني (٣)

---

(١) وهو : أبو سعيد، عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون (٥٨٥ هـ) فقيه شافعي من أعيان الفقهاء في عصره، درّس بدمشق وحلب، وصنّف كتبا كثيرة في المذهب، قال العماد: ((ختمت به الفتاوى))، وقال أبو شامة: ((كان شيخ المذهب، وقد ختمت به الفتيا))، وهو الذي سار ببشارة إعلان الدعوة العباسية بمصر من جهة نور الدين. انظر: الخريدة — قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٥١، الروضتين، حلمي، جـ١ ق٢/ ٤٤٢، ٤٨١، ٥٠٢، ٥٤٩، ٦٧٣، وطبعة بيروت: ٢/ ١٥٠، مفرّج الكروب ٢/ ٦٧، طبقات الشافعية: ٧/ ١٣٢ — ١٣٧، الشذرات ٤/ ٢٨٣، المرآة، ق١ جـ٨/ ٢٦٦، و ق٢/ ٦٩٢، الدارس، للنعيمي ١/ ٣٩٩ — ٤٠٣.

(٢) وهو : أبو محمد، عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد الهكاري (٥٨٥هـ) كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية معوّلا عليه في الآراء والمشورات، اشتغل في الفقه بالمدرسة الزجاجية في بداية أمره، ورتّب مع قرقوش وزارة صلاح الدين بعد عمّه، وجمع عليه الآراء. انظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٤٩٧ — ٤٩٨، الروضتين، حلمي، جـ ١ ق٢/ ٤٠٧، البداية والنهاية: ١٢/ ٣٣٤، تتمّة المختصر: ٢/ ١٥٣، النجوم الزاهرة: ٦/ ١١٠، وغيرها.

(٣) وهو : أبو البركات، محمد بن الموفق بن سعيد بن علي بن الحسن بن عبد الله، الخبوشاني الشافعي (٥٨٧هـ)، كان فقيها شافعيا فاضلا كثير الورع أحد الأئمة علما ودينا وورعا، أوكل إليه صلاح الدين بناء المدرسة الشافعية بمصر. انظر: وفيات الأعيان: ٤/ ٢٣٩ — ٢٤٠، ورحلة ابن جبير، ص: ٥٥، النجوم الزاهرة: ٦/ ١١٥، الروضتين، بيروت: ٢/ ١٩٥، مفرّج الكروب: ٢/ ٥٥، مرآة الزمان ق١ جـ٨/ ١٠٤، العبر: ٤/ ٢٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسهـــــــرورديّ (١)، والعراقيّ الخطيـــــب (٢)، وابن الزكـي (٣)، والغزنـــــوي (٤)

---

(١) وهو: أبو الفتوح، يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي، (٥٨٧هـ)، كـــان من علماء عصره، فقيه شافعيّ متهم بعقيدته، قتل بحلب في دولـــــة الظاهر غازي، له في النظم والنثر أشياء لطيفة. قال ابن خلّكـــــان: ((... رأيت الناس مختلفين في أمره، فمنهم من ينسبه إلى الزندقـــة والإلحاد، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح)). انظر: وفيات الأعيـــان ٦/٢٦٨-٢٧٤، معجم الأدباء: ١٩/٣١٤-٣٢٠، العبـــــر ٤/٢٦٣، النجوم: ٦/١١٤.

(٢) وهو: أبو إسحاق، إبراهيم بن منصور بن المسلّم الفقيه الشافعيّ المعـــروف بالعراقيّ الخطيب (٥٩٦هـ) كان فقيها فاضلا، شرح كتاب المهـذب في عشرة أجزاء. وفيات الأعيان: ١/٣٣-٣٦، العبـــــر ٤/٢٩١. طبقات الشافعيّة: ٧/٣٧-٣٩.

(٣) وهو: أبو المعالي، محمّد بن عليّ بن يحيى بن عليّ بن عبد العزيز، القرشيّ الدمشقيّ، الفقيه الشافعيّ (٥٩٨هـ) كان ذا فضائل عديدة من الفقـه والأدب، تولى قضاء دمشق، وهو صاحب الخطبة الأولى ببيت المقدس بعد فتحه سنة (٥٨٣هـ) انظر: وفيات الأعيان: ٤/٢٢٩-٢٣٧، البداية والنهاية: ١٣/٣٢-٣٣، تتمّة المختصر: ٢/١٨١، الرّوضتيـــن ببيروت: ٢/٤٦، ٤٧، ١٠٨، ١٠٩، ١٩٤، وذيل الرّوضتين، ص: ٣١.

(٤) وهو: أحمد بن محمّد بن محمود الغزنويّ، (٥٩٣هـ)، من غزنة إحـــدى بلاد الهند، درس الفقه على مشهوري أساتذة المذهب حتى بلغ شـأوا بعيـــدا، وأخذ عنه جماعة مات بحلب، له مؤلّفـــات عديـــدة في الفقه منهـا ((أصول الفقه))، وغيره. أنظر: ابن قطلوبغا، تـــاج التراجم، مطبعة العاني، بغداد، ص: ١٠، معجم البلدان: ٤/٢٠١، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: ٤/٣١١، والحياة العقليـــة ص: ١٧٩، وغيرهـــــا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن عساكر(١)،وابن شداد ،والطريثيثي(٢) وغيرهم كثير. ونبغ في علوم الحديث والقراءات والتفسير جمهرة من العلماء كان من أشهرهم : ابن عساكر(٣)،والسلفي

---

(١) وهو : أبو منصور ،عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الملقب فخر الدين ،المعروف بابن عساكر ،(٦٢٠هـ) فقيه شافعي ،كان إمام وقته في علمه ودينه ،درس بالقدس زمنا وبدمشق ،وهو ابن أخي الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق . انظر: وفيات الأعيان ٣/ ١٣٥ ،ذيل الروضتين ،ص: ١٢٦ وما بعدها ،مرآة الزمان ق ١ جـ٨/ ٦٣٠— ٦٣١ ،فوات الوفيات: ٢/ ٣٦٧ ،تتمة المختصر: ٢/ ٢٠٦ ،طبقات الشافعية: ٨/ ١٧٧.

(٢) وهو : أبو المعالي ،مسعود بن محمد بن مسعود بن طاهر النيسابوري الطريثيثي ،الفقيه الشافعي الملقب قطب الدين ،(٥٧٨هـ) كان عالما صالحا ،جمع للسلطان صلاح الدين عقيدة تجمع ما يحتاج إليه من أمور دينه ،وصنف كتاب : (الهادي) في الفقه . انظر: وفيات الأعيان: ٥/ ١٩٦—١٩٧ ،مرآة الزمان ، ق ١ جـ٨/ ٣٧٢ — ٣٧٣ ،طبقات الشافعية: ٧/ ٢٩٧—٢٩٨ ،الشذرات: ٤/ ٢٦٣ . العبر للذهبي : ٤/ ٢٣٥ — ٢٣٦.

(٣) وهو : أبو القاسم ،علي بن الحسن بن هبة الله بن الحسين المعروف بابن عساكر الدمشقي الملقب ثقة الدين (٥٧١هـ) ،كان محدث الشام في وقته ،ومن أعيان الفقهاء الشافعية ،غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبة إلى أن جمع منه مالم يتفق لغيره ،وكان حافظا دينا جمع بين معرفة المتون والأسانيد ،وهو صاحب التاريخ الكبير المعروف بـ(تاريخ دمشق) ،له شعر لا بأس به: صنف عدة مصنفات انظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٣٠٩ — ٣١١ ،مرآة الزمان ،ق ١ جـ٨/ ٣٣٦، تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٣٢٨— ١٣٣٤ ،البداية والنهاية: ١٢/ ٢٩٤ معجم الأدباء: ١٣/ ٧٣—٧٧ ،العبر ،للذهبي: ٤/ ٢١٢ — ٢١٣، الشذرات: ٤/ ٢٣٩ ، المنتظم: ١٠/ ٢٦١ ،الدارس: ١/ ١٠٠ — ١٠١، الروضتين ، حلمي ،جـ١ ق٢/ ٦٦٧ ، طبقات الشافعية: ٧/ ٢١٥ — ٢٢٣ ،والحياة العقلية ،ص: ١٢٨— ١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والغزنويّ ،والمقدسيّ ،والشاطبيّ (١) ،والبوصيريّ (٢) ،وعبد الغني المقدسيّ (٣) ،والجمال المصري (٤)

---

(١) وهو : أبو محمّد القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرّعينيّ الشاطبيّ الضرير المقرئ (٥٩٠هـ) ،صاحب القصيدة الّتي سمّاها (حرز الأماني ووجهة التهاني)في القراءات،وعدّتها ألف ومئة وثلاثة وسبعون بيتا ،كان فاضلا في النّحو ،والقراءة ،وعلم التفسير ،دخل مصر سنة (٥٧٢هـ) ،وكان نزيل القاضي الفاضل ورتّبه بمدرسته . انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٧١—٧٣ ،معجم الأدباء: ١٦/ ٢٩٣—٢٩٦ ،البداية والنهاية: ١٣/ ١٠ ،طبقات الشافعيّة: ٧/ ٢٧٠ — ٢٧٢ ،ذيل الرّوضتين ،ص: ٧ ،غاية النهاية: ١/ ٢٠—٢٣ ،بغية الوعاة ٢/ ٢٦٠ ،العبر ،للذهبي : ٤/ ٢٦١ ،والحياة العقليّة ص: ٩٨—١٠٤ ،وغيرها .

(٢) وهو : أبو القاسم ،هبة اللّه بن عليّ بن مسعود بن ثابت بن هاشم الأنصاريّ الخزرجيّ المصريّ التّوّلد ،(٥٩٨هـ) ،له سماعات عالية وروايات تفرّد بها ولم يكن في آخر عصره في درجته مثله ،كان أديبا كاتبا . انظر: وفيات الأعيان: ٦/ ٦٧— ٦٨ ،العبر: ٤/ ٣٠٦ ،الشذرات: ٤/ ٣٣٨ ،النجوم: ٦/ ١٨٢ .

(٣) وهو : أبو محمّد عبد الغني بن عبد الواحد بن عليّ بن سرور المقدسيّ الجماعيليّ (٦٠٠هـ) ،كان أوحد زمانه في علم الحديث سمع بأصبهان ،ودمشق والاسكندريّة ،ودرّس الحديث بدمشق بعد أن تتلمذ على السّلفيّ وغيره ،له اكثر من أربعين مؤلّفا في الحديث والفقه . انظر: ذيل الرّوضتين ،ص: ٤٦—٤٧ ،البداية والنهاية: ١٣/ ٣٨ ،تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٣٧٢ ،الشذرات: ٤/ ٣٤٥ .

(٤) وهو : يونس بن بدران بن فيروز المصريّ ،(٦٢٣هـ) ،قاضي قضاة دمشق ،درّس التفسير والفقه بالمدرسة العادليّة ،اختصر كتاب(الأم) للشافعيّ اعتنى به الوزير ابن شكر فجعله وكيل بيت المال. انظر: ذيل الرّوضتين ص: ١٤٨ ، البداية والنهاية : ١٣/ ١١٤ ،طبقات الشافعيّة ٨/ ٣٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن شداد ،والسخاوي[١] ،وابن الصلاح[٢] ،وغيرهم. ومما له دلالته الواضحة هنا أنّ العلماء الّذين نبغوا في هذا العصر من المحدّثين دون غيرهم قد جاوزوا ثلاثمئة محدّث[٣].

وأمّا في علوم اللغة العربيّة والنّحو فقد نبغت في هذه الفترة جمهرة من العلماء من أشهرها: المعافري[٤]

---

(١) وهو: أبو الحسن ،عليّ بن محمّد بن عبد الصّمد بن عبد الأحد الهمدانيّ المصريّ السخاويّ، المقرئ النّحويّ الملقّب بعلم الدّين ،(٦٤٣هـ) ، تتلمذ على الشاطبيّ وأتقن عليه علم القراءات ،والنّحو ،واللغة ،ثمّ انتقل إلى دمشق وتقدّم بها ،على علماء فنونه واشتهر ،قال أبو شامة: ((... وختم بموته موت مشايخ الشام)) ، وقال ابن خلكان: ((... رايته بدمشق ،والنّاس يزدحمون عليه في الجامع لأجل القراءة والنّحو واللغة)) ،شرح القصيدة الشاطبيّة في القراءات ،والمفصّل للزمخشريّ. انظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٣٤٠-٣٤١ ،ذيل الرّوضتين ص: ١٧٧ ،معجم الأدباء: ١٥/ ٦٥-٦٦ ،الشذرات: ٥/ ٢٢٢ ،تتمة المختصر: ٢/ ٢٥٦ ،طبقات المفسرين: ٧٢ - ٧٣ ،إنباه الرواة ٢/ ٣١١.

(٢) وهو: أبو عمرو ،عثمان بن عبد الرّحمن بن عثمان بن موسى الكرديّ الشهرزوريّ مفتي الشام، (٦٤٣هـ) ،فقيه شافعيّ ،كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال. أنظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٢٤٣-٢٤٥، ذيل الرّوضتين ،ص: ١٧٥ - ١٧٦ ،مرآة الزمان ،ق٢ جـ٨/ ٧٥٧- ٧٥٨ طبقات الشافعيّة: ٨/ ٣٢٦ ،الدّارس: ١/ ٢٠-٢٢ ،البداية والنهاية: ١٣/ ١٦٨ الشذرات: ٥/ ٢٢١ ،الحياة العقلية ،ص: ١٠٤ - ١٠٧، وغيرها.

(٣) انظر: الحياة العقليّة ،ص: ١٢٤.

(٤) وهو: أبو طالب ،عبد الجبّار بن محمّد بن عليّ المعافريّ المغربيّ ،كان إماما في اللغة وفنون الأدب دخل مصر ،وقرأ عليه ابن برّي، وغيره. انظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٢١٥ - ٢١٦ ،بغية الوعاة ٢/ ٧٢ ،وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن ظفر[1]، وملك النحاة[2]، وابن برّي[3]، والبلطي[4]

---

(١) وهو: أبو عبد الله، محمّد بن ظفر الصقليّ المعروف بحجّة الدّين، أحد الأدباء الفضلاء، قال العماد: ((كان إمام وقته في التفسير والأدب))، له مؤلّفات كثيرة في اللغة والنّحو والأدب والتفسير والتاريخ والفقه مات سنة (٥٦٨هـ). انظر: الخريدة ـ قسم شعراء الشام ٣/٤٩، معجم الأدباء: ١٩/٤٨–٤٩، بغية الوعاة: ٢/٥٩.

(٢) وهو: أبو نزار، الحسن بن صافي بن عبد الله بن نزار النّحويّ المعروف بملك النّحاة (٥٦٨هـ)، برع في النّحو حتى صار أنحى أهل صنعته درّس النّحو بدمشق، كان فهما فصيحا معجبا بنفسه حتى لقّب نفسه بملك النّحاة، له مصنّفات كثيرة في النّحو والأدب والفقه والعروض والقراءات، وغيرها، وله ديوان شعره. انظر: وفيات الأعيان ٢/٩٢ – ٩٤، معجم الأدباء: ٨/١٢٢–١٣٨، مرآة الزمان ق١ جـ٨/٢٩٥، إنباه الرواة: ١/٣٠٥، بغية الوعاة: ١/٥٠٤، البداية والنهاية: ١٢/٢٧٢، تتمّة المختصر: ٢/١٩٩، النجوم: ٦/٦٨٥.

(٣) وهو: أبو محمّد، عبد الله بن برّيّ بن عبد الجبّار المقدسيّ المصريّ (٥٨٢هـ) كان إماما مشهورا في علم النّحو واللغة، علّامة عصره، وحافظ وقته، وكان له التصفّح في ديوان الإنشاء، لا يصدر كتاب عن الدّولة إلى ملك من الملوك إلّا بعد أن يتصفّحه، كان عارفا بكتاب سيبويه وعلله، لم يكن في الديار المصريّة مثله. انظر: وفيات الأعيان ٣/١٠٨–١٠٩، معجم الأدباء: ١٢/٥٦–٥٧، بغية الوعاة ٢/٣٤، إنباه الرواة/٢/١١٠، الشذرات: ٤/٢٧٢، العبر ٤/٢٤٧ – ٢٤٨، البداية والنهاية: ١٢/٣١٩، المرآة: ٨/٥٢١.

(٤) وهو: أبو الفتح، عثمان بن عيسى بن منصور بن محمّد البلطيّ النّحويّ (٥٩٩هـ)، دخل مصر على عهد صلاح الدّين فرتب له جانبا من جامع مصر يقرئ به النّحو والقرآن حتى مات، وكان عالما، إماما، نحويّا لغويّا، أخباريّا، مؤرّخا، شاعرا، عروضيّا، قلّما سئل عن شيء من العلوم الأدبيّة إلّا وأحسن القيام به. إنباه الرواة: ٢/٣٤٤، بغية الوعاة: ٢/١٣٥، معجم الأدباء: ١٢/١٤١ – ١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والكنـــدي[١]، والزواوي[٢]، وغيرهـــــم.

هذا ولم تقتصر عناية علماء العربيّة على فرع واحد من فروعها، إذ إنّها تناولت كلّ هذه الفروع من أدب، وبلاغة، وعروض، ونقد، وغيرها، كما يتبيّن من كتابات القاضي الفاضل، والعماد الأصفهانيّ، وابن سناء الملك وابن مماتي، وابن الأثير صاحب (المثل السائر)[٣] و(الوشي المرقوم)[٤] والبغداديّ صاحب (قوانين البلاغة)[٥] وغيرهـــــم.

وفي علم الحساب والكيمياء نبغ بلمظفر نصر[٦]، حتى قال فيه ابن أبي أصيبعة ((... وكان مغرى بصناعة الكيمياء والنظر فيها والاجتماع بأهلها، وكتب بخطّه من الكتب الّتي صنفت فيها شيئا كثيرا جدّا))[٧]، والجدير بالذكر هنا، أنّ العلمـــاء

---

(١) وهو: أبو اليمن، زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكنـــديّ الملقب تاج الدّين (٦١٣هـ) كان أوحد عصره في فنون الأدب، نحـــويّ لغويّ، مقرئ، محدّث، انتهت إليه القراءات. وعلم النّحو واللغات. وفيات الأعيان: ٢/٣٣٩-٣٤٢، معجم الأدباء: ١١/١٧١-١٧٥، ذيـــل الرّوضتين، ص: ٩٥-٩٨، بغية الوعاة: ١/٥٧٠، إنباه الرواة: ١/١٥، غاية النهايـــة: ١/٢٩٧.

(٢) وهو: أبو الحسين، يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواويّ النحـــويّ (٦٢٨هـ) كان أحد أئمة عصره في النّحو واللغة، أديب شاعر، وكـــان غاية في حفظ كلام النّحـــاة. انظر: وفيات الأعيان: ٦/١٩٧، معجـــم الأدباء: ٢/٣٥-٣٦، ذيل الرّوضتين، ص: ١٦٠، البداية والنهايـــة ١٣/١٢٩، بغية الوعاة: ٢/٣٤٤، تتمة المختصر: ٢/٢٣١.

(٣) كشـــف الظنـــون: ٢/١٥٨٦.

(٤) المصدر نفســـه: ٢/٢٠١٢.

(٥) المصدر نفســـه: ٢/١٣٦١.

(٦) وهو: بلمظفر نصر بن محمود بن المعرف، كان ذكيّا فطنا كثير الاجتهـــاد والحرص في العلوم الحكميّة، له نظر في صناعة الطّب والأدب، ويشعـــر. له من الكتب (تعاليق في الكيمياء) وكتاب في علم التنجيـــم انظر: عيون الأنباء، ص: ٥٧١، والحياة العقلية، ص: ٣٠١.

(٧) عيون الأنباء، ص: ٥٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسلمين في هذه الفترة قد انتفعوا بعلم الكيمياء ،وسخّروه لجهاد عدّوهم كما يتضح من أخبار الشاب الحلبي[١] الّذى أحرق أبراج العدّو في عكّة بقذفها بموادّ كيماويّة شديدة الاشتعال أعدّها هـ[٢]

وفي علم الفلك نبغ علماء كان من أشهرهم: القفطيّ[٣] ،والجمّاعيليّ[٤] ،وابن خليفة[٥] وغيرهم ،وبرع في الطبّ أطباء مهرة متخصّصون كان من أشهرهم: ابن المطران[٦] ،والسديد

---

(١) وهو: عليّ بن عريف النحاسين من أهل دمشق. انظر: الرّوضتين ،بيروت ٢/١٥٣ — ١٥٤.

(٢) انظر: سيرة صلاح الدّين ،ص: ١٣٦ ،مرآة الزمان ،ق١ جـ٨/٤٠٢ ،الرّوضتين بيروت: ٢/١٥٣ — ١٥٤.

(٣) وهو: عبد اللّه الجمّاعيليّ (٦٢٠هـ) ،كان إماما في علم الخلاف ،والفرائض والأصول ،والفقه ،والنّحو ،والحساب ،والهيئة ،والنجوم السيّارة والمنازل انظر: محمّد كرد عليّ ، خطط الشام ،ط٤ ،١٩٢٦ ،دمشق ٤/٤٧ ،والحياة العقليّة ،ص: ٣٠٥.

(٤) وهو: أبو الحسن عليّ بن خليفة بن يونس بن خليفة ،ولد بحلب ،وتوجّه إلى الدّيار المصريّة عندما فتحها صلاح الدّين ،فخدمه وخدم أولاده درس العربيّة ،والحكمة ، والمنطق ،والطب ،والحساب ،والهيئة انظر: عيون الأنباء ،ص: ٧٣٦—٧٤٠ ،والحياة العقليّة ،ص: ٣٠٥.

(٥) وهو: موفق الدّين أسعد بن الياس بن جريس المطران ،كان أمير أهل زمانه في صناعة الطبّ وعملها ،نشأ بدمشق ،وقرأ النّحو واللغة والأدب على الشيخ تاج الدّين الكنديّ. وهو صاحب المقالة الناصريّة في حفظ الأمور الصحيّة التي جعلها باسم السلطان صلاح الدّين. انظر: عيون الأنباء ،٦٥١ ،مرآة الزمان: ٨/٤١١ ،النجوم: ٦/١١٣ ،الرّوضتين بيروت: ٢/١٩٥.

(٦) وهو: أبو المنصور عبد اللّه بن السديد (٥٩٢هـ) ،كان عالما بصناعة الطبّ ،خبيرا بأصولها وفروعها ،خدم الخلفاء المصريين ثم صلاح الدّين فحظي عنده. عيون الأنباء ،٥٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن جميع[١]، وابن الحاجب[٢]، وابن المدور[٣]، وغيرهم كثير[٤]، وكتب في التاريخ العام والخاص جماعة منهم: أسامة بن منقذ[٥]، والعماد الأصفهاني وابن شداد، والبغدادي، وغيرهم.

والناظر فيما وصلنا من تراجم لعلماء هذا العصر يرى أنّ الواحد منهم لم يكن يكتفي بتحصيل علم واحد، ينقطع له دون غيره من جوانب الثقافة الأخرى، بل كان يسعى إلى تثقيف نفسه بمعظم فنون المعرفة الشائعة في عصره، لكي يكون على اتصال وثيق بمعارف عصره المتنوّعة، فكان يجمع إلى علم الفقه علم الحديث، والقراءات، واللغة، والنّحو، والكتابة، والتاريخ، والطبّ، وما إلى ذلك من العلوم كما رأينا

---

(١) وهو: هبة اللّه بن زين بن حسن بن إفرائيم بن يعقوب بن جميع الإسرائيلي من الأطباء المشهورين، والعلماء المذكورين، كثير الاجتهاد في صناعة الطبّ، خدم السلطان صلاح الدّين، ونال الحظوة عنده، وقد اعتمد عليه في صناعة الطبّ. انظر: عيون الأنباء، ص: ٥٧٦.

(٢) وهو: أحمد بن الحاجب ولد بدمشق ونشأ بها، كان طبيبا مشهورا فاضلا في صناعة الطبّ، جاء الى مصر، وخدم السلطان صلاح الدّين، فظلّ في خدمته حتى مات فعاد إلى حماة طبيبا للملك المنصور بن تقيّ الدّين فمات بها بعد السلطان بعامين. انظر: عيون الأنباء، ص: ٦٥٩ — ٦٦٠، الحياة العقلية، ص: ٣١٩.

(٣) وهو: أبو البيان ابن المدوّر (٥٨٠هـ)، كان يهوديّا، قرّاء عالما بصناعة الطبّ خدم الخلفاء المصريين ثم التحق بخدمة صلاح الدّين. انظر: عيون الأنباء، ص: ٥٨٠.

(٤) انظر: عيون الأنباء، ص: ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، وغيرها.

(٥) وهو: أبو المظفر، أسامة بن مرشد بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكنانيّ (٥٨٤هـ) سكن دمشق ثم انتقل إلى مصر، ثم عاد إلى الشام فأقام بها حتى ملك صلاح الدّين فاستدعاه وقد جاوز الثمانين، له من التصانيف: (الإعتبار) وديوان شعره، و(لباب الآداب). انظر: وفيات الأعيان: ١/ ١٩٥ — ١٩٩، الكامل: ٩/ ١٩٨، معجم الأدباء ٥/ ١٨٨ — ٢٤٥، الشذرات ٤/ ٢٧٩، الدّارس ١/ ٣٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في تراجم من سبق ذكرهم . ولعلّ السبب في هذا يعود إلى أنّ التصدّي لكتاب الله وتفسيره كان يتطلب من الرجل أن يلمّ بأنماط مختلفة من المعارف والعلوم. ويمكن تصوّر هذه المعارف من خلال قول صاحب كشاف اصطلاحات الفنون ،إذ يقول: ((إن العلوم الّتي يحتاج إليها المفسّر خمسة عشر علما هي : اللغة ،والنّحو، والتصريف والاشتقاق ،والمعاني ،والبيان ،والبديع، وعلم القراءات،وأصول الدّين ،وأصول الفقه وأسباب النزول ،والقصص،والناسخ والمنسوخ ، والفقه ،والحديث)) [١]، ولهذا فقد اتّسمت ثقافة علمائنا في هذا العصر بشيء من الموسوعيّة.

وممّا تقدّم ،يمكننا أن نرى وبوضوح أنّ الحياة الفكريّة والثقافيّة في مصر والشام في هذا العصر قد شهدت ازدهارا كبيرا ونشاطا واسعا على الرّغم من الحروب المستمرّة الّتي خاضها المسلمون مع الصليبيين . وفي هذه الظاهرة يقول أحد الدارسين :((. . . إنّ الشرق قد اعتاد أن تسير الأحداث العنيفة فيه جنبا إلى جنب مع الثقافة والفن)) [٢]. إلاّ أنّ الغالب على ثقافة هذ العصر ،هو الثقافة الدينيّة وما يتصل بها من لغة ،ونحو ،وأدب.

وبعد فهذه هي أهم ملامح البيئة السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة الّتي عاش في كنفها القاضي الفاضل ،وتفاعل معها ،فأثرت فيه ،وتأثّرها ،فعبّر عنها خير تعبير في نثره وشعره.

---

(١) الفاروقي ،كشاف اصطلاحات الفنون ،تحقيق:لطفي عبد البديع ،القاهرة ١٩٦٣م،ص: ٣٥ ،وانظر: الحياة العقليّة ،ص: ١٠٨ .

(٢) الأدب في العصر الأيّوبي ،ص: ٧٦ ،عن كتاب لينبول صلاح الدّين ،ص: ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأوّل : سيرة القاضي الفاضـــــــــــــــــل :

أوّلا : اسمه ونسبـــــــــــــــه

ثانيا : مولـــــــــــــــــده

ثالثا : ثقافتـــــــــــــــــه

رابعا : شخصيّتـــه وأخـــــلاقه

خامسا : أطوار حيـاتـــــــــــه:

١ــ في ديوان الانشاء متدرّبـــــــــــا

٢ــ في دواوين الفاطميين عامـــــــــلا

٣ــ في كنف صلاح الدّيـــــــــــــن

٤ــ في ظلّ خلفاء صلاح الدّيـــــــــن

سادسا : وفاتـــــــــــــــه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اسمه ونسبـــــــــه :

أجمع الّذين ترجموا للقاضي الفاضل من المؤرّخين على أنّ كنيته أبو عليّ[١] ، واسمه عبد الرّحيم ، واسم أبيه عليّ وجدّه الحسن . قالوا :((أبو عليّ عبد الرّحيم بن عليّ بن الحسن))[٢] . ولكنهم اختلفوا اختلافا جزئيّا في اسم والد جدّه . فمنهم من يرى أنّه الحسن ، وفي مقدّمة هؤلاء معاصره العماد الأصفهانيّ إذ يقول :((أبو عليّ عبد الرّحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد عليّ بن الحسن بن الحسن بن أحمد ابن البيسانيّ[٣])) ومنهم من يرى أنه الحسين ، ومن هؤلاء النّويريّ إذ يقول :((أبو عليّ عبد الرّحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد عليّ بن الحسن بن الحسين بن أحمد اللخميّ[٤])) في حين نجد أنّ السبكي قد أسقط كلمة الحسن الثانيّة من سلسلة نسبه واكتفى بالقول إنّه :((عبد الرّحيم بن عليّ بن الحسن بن أحمد[٥])) ، وقد أيّده فيما ذهب إليه المقريزي في الخطط[٦] على أنّه أورد لنا نسبه

(١) ذهب ابن الساعي إلى أنّ كنيته أبو محمّد . وهذا مخالف لإجماع المؤرّخين انظر : الجامع المختصر : ٩ / ٢٨ .

(٢) انظر : الخريدة (قسم شعراء مصر) : ١ / ٣٥ ، مرآة الزمان ، ق٢ جـ٨ / ٤٧٢ ، المنذريّ ، التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق بشارة عوّاد ، العراق ١٩٦٩م : ٢ / ٢٠٩ ، وفيات الأعيان : ٣ / ١٥٨ ، النويريّ ، نهاية الأرب ، القاهرة : ٨ / ١ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ط١ ، ١٩٨٥ ، ٢١ / ٣٣٨ ، العبر : ٤ / ٢٩٣ ، طبقات السبكي : ٧ / ١٦٦ ، طبقات الأسنويّ : ٢ / ٢٨٢ البداية والنهاية : ١٣ / ٢٤ ، السلوك : ١ / ١٥٤ ، الخطط : ٢ / ٣٦٦ الدلجي ، الفلاكة ، مصر ، ١٣٢٢هـ ، ص : ٨٩ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ١٥٦ تتمّة المختصر : ٢ / ١٧٣ ، الدّارس : ١ / ٩٠ ، شذرات الذهب : ٤ / ٣٢٤ محمد زعلول سلام ، الأدب في العصر الأيّوبيّ ، القاهرة ، ١٩٦٧م ص : ١٩٢ ، شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات ، القاهرة ، ١٩٨٥م ص : ٤١٠ ، وغيرهم .

(٣) الخريدة (قسم مصر) : ١ / ٣٥ ، وانظر التكملة : ٢ / ٢٠٩ — ٢١٠ ، وفيات الأعيان ٣ / ١٥٨ ، سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٣٣٨ — ٣٣٩ ، السلوك : ١ / ١٥٤ .

(٤) نهاية الأرب : ٨ / ١ ، وانظر : النجوم الزاهرة : ٦ / ١٥٦ ، الدارس : ١ / ٩٠ .

(٥) طبقات الشافعيّة : ٧ / ١٦٦ .

(٦) انظر : الخطط : ٢ / ٣٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفاضل وفقا لما أورده جمهور مؤرخيه في كتابه السلوك[١].

ويبدو لي من مقارنة ما أوردته المصادر السابقة أنّ تصحيفا قد وقع في رواية النويريّ ما بين كلمة الحسن الّتي أجمع عليها معاصرو القاضي الفاضل وقريبو العهد منه ،وبين كلمة الحسين الّتي أوردها النويريّ بسبب تحريف النسّاخ كما نرجّح .

هذا وقد أوصلتنا بعض المصادر إلى سلسلة نسب القاضي الفاضل . يقول المنذريّ ،وهو قريب عهد من الفاضل حين يتحدّث عنه إنّه :((. . . القاضي الأجلّ الفاضل أبو عليّ عبد الرّحيم ابن القاضي الأجلّ الأشرف أبي الحسن عليّ بن الحسن ابن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد العسقلانيّ))[٢]. ويقول ابن خلّكان إنّه : ((أبو عليّ عبد الرّحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدّين أبي المجد عليّ ابن القاضي السعيد أبي محمّد[٣] الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخميّ العسقلاني المولد المصري الدار))[٤]. ويقول الذهبي :((أبو عليّ عبد الرّحيم بن عليّ ابن الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرّج اللخميّ ،الشاميّ ،البيسانيّ الأصل،العسقلانيّ المولد ،المصريّ الدّار))[٥].

وممّا تقدّم نلاحظ أنّ القاضي الفاضل قد نسب إلى لخم ،وبيسان،وعسقلان وهذا أمرٌ لا خلاف فيه لأنّه لا يقودنا إلى الشكّ في نسبه ،فالّذين نسبوه إلى لخم

---

(١) انظر : السلوك : ١/١٥٤.

(٢) التكملة : ٢/٢٠٩ — ٢١٠.

(٣) ذهب بعض المحدثين إلى أنّ محمّد هو اسم جدّه لأبيه . وهذا خطأ لم يقل به أحد ممن ترجموا للقاضي الفاضل من القدماء. ويبدو لي أنّهم أسقطوا كلمة أبي فجاءت محمّد بدلا من ابن أبي محمّد . انظر: بروكلمان ،تاريخ الأدب العربي ترجمة السيّد يعقوب بكر ،ط٢ ،القاهرة ،١٩٨٣م ،ص: ٩، وأحمد بدوي ،القاضي الفاضل ،القاهرة ،١٩٥٩م ،ص: ٩ ،والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبيّة ،القاهرة ،١٩٧٩ ،ط٢ ،ص: ٣٥٦،ومقدمة ديوان القاضي الفاضل ص: ١ ،ورسائل عن الحرب والسلام ،لابن الدبيّاجي ،تحقيق محمّد نغش القاهرة ،١٩٨٤ ،ط٢ ،ص: ٥ ،وكتاب:

The Encyclopedia of Islam. Vol. 11, P: 607.

(٤) وفيات الأعيان : ٣/١٥٨.

(٥) سير أعلام النبلاء : ٢١/٣٣٨ — ٣٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ردّوه إلى أصله حين نسبوه إلى قبيلته لخم، وهي قبيلة عربيّة صليبة خرجت من الجزيرة العربيّة مع المسلمين الفاتحين إلى فلسطين واستقرت فيها[١]. فهو إذن عربي صليبة والّذين نسبوه إلى عسقلان، قد نسبوه إلى مدينة المولد. وأمّا الّذين ردّوه إلى بيسان، فقد نسبوه إلى بلدة إلاقامة. يقول المنذريّ: ((... وكان والده القاضي الأشرف تولّى الحكم ببيسان، فنسبوا إليها وغلبت عليهم))[٢]، ويقول الذهبيّ: ((... وفي انتسابه إلى بيسان تجوّز، فما هو منها، بل قد ولي أبوه القاضي الأشرف أبو الحسن قضاءها))[٣]. ثمّ إنّ حياة القاضي الفاضل كما رأينا قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بهذين المكانين ولذا فليس غريبا أنْ ينسب إليهما، حتى إنّ بعض مؤرّخي الفاضل كانوا يكتفون بذكر شهرته واسمه ونسبه، فيقولون: ((القاضي الفاضل عبد الرّحيم البيسانيّ))[٤]. وهذا يعود إلى تلك الشهرة الواسعة الّتي حظي بها القاضي الفاضل آنذاك، لدرجة أنّ القلقشنديّ في معظم الأحيان كان يكتفي بذكر شهرته، فيقول: القاضي الفاضل[٥].

ومن استقراء كل ما سبق، نطمئن إلى أنّ اسم القاضي الفاضل ونسبه هما كما يلي: أبو عليّ عبد الرّحيم بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخميّ البيسانيّ العسقلانيّ، وذلك لاجماع معاصريه من المؤرّخين الّذين خالطوه واتّصلوا به اتّصالا وثيقا ولا سيّما العماد الأصفهانيّ.

---

(١) معجم قبائل العرب (لخم).
(٢) التكملة: ٢/٢١١.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١/٣٣٩.
(٤) انظر: النكت العصريّة، ص: ٥٣، الكامل: ٩/٢٥١، المرآة، ق٣ جـ٨/ ٤٧٢، مفرّج الكروب: ٣/١٠٩، الرّوضتين، حلمي جـ١ ق٢/٤٠٣، الجامع المختصر: ٩/٢٨، الالمام بالأعلام ١/١٦١، معجم البلدان: ١/٥٥٢.
(٥) انظر: صبح الأعشى في مواضع كثيرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مولـــــــده :

اتفق معظم الّذين تحدّثوا عن زمن ولادة القاضي الفاضل من المؤرّخيـــــن وأصحاب التراجم على أنّه قد ولد في يوم الاثنين الموافق الخامس عشر من جمـــادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمئة . يقول ابن خلّكان :((. . . وكانت ولادته يوم الاثنين في خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمئة))(١) ، في حين نجد أنّ ابن واصل عند ما يتحدّث عن زمن وفاة الفاضل يقول :((. . . وكان مولد القاضي الفاضل علـــى ما بلغني سنة ست وعشرين وخمسمئة ، فكان عمره نحو سبعين سنة))(٢) . وقد أيّـــده في ذلك أبو الفداء(٣) ، وابن الوردي(٤) ، والنـــويري(٥) .

ومن خلال تتبعنا لهذه الرواية ، نرى أنّ ابن واصل المتوفّى سنة سبع وتسعين وستمئة ، هو أوّل من ذكر هذا التاريخ ، إذ لم يؤيّده أحد من الّذين كانوا قريبي عهد من الفاضل ، وعنه أخذ أبو الفداء ، وابن الوردي ، والنويري . أضف إلى هذا ، أن هـــؤلاء أوردوا الخبر بأسلوب يوحي بالشك فمنهم من قدّمه بقوله :(بلغني) ، ومنهم من قـــال : (قيل) ، وهذا يجعلنا أكثر اطمئنانا لرواية ابن خلّكان الّتي أجمع عليها معاصرو القاضي الفاضـــــل .

وأمّا ابن كثير ، فقد تجاوز هاتين الروايتين فقال :((. . . ولد سنة ثنتيـــن وخمسمئة))(٦) . وهذه رواية ينفرد بها ابن كثير من بين الّذين ترجموا للقاضي الفاضـــل

---

(١) وفيات الأعيان : ٣ / ١٦١ ، وانظر : مرآة الزمان ق ٢ جـ٨ / ٤٧٢ ، التكملـــة ٢ / ٢١٠ ، الجامع المختصر : ٩ / ٢٩ ، سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٣٣٩ ، طبقـــات السبكي : ٧ / ١٦٧ ، طبقات الأسنوي : ٢ / ٢٨٢ ، والدّارس : ١ / ٩٠ ، شـــذرات الذهب : ٤ / ٣٢٤ ، وانظر كذلك : تاريخ الأدب العربي ، ص : ٩ ، القاضـــي الفاضل ، ص : ٩ وكتـــاب : The Encyclopedia of Islam, P: 607.

(٢) مفرّج الكـــــروب : ٣ / ١١٠ .
(٣) انظر المختصـــــر ، م٢ جـ٥ / ١٢٨ .
(٤) انظر تتمّة المختصـــــر : ٢ / ١٧٣ .
(٥) انظر الإلمام بالأعـــــلام : ١ / ١٧٠ .
(٦) البداية والنهايـــــة : ١٣ / ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يورد ها أحد من المؤرّخين غيره ، وهي تفيد أنّ القاضي الفاضل قد عاش حتى جاوز التسعين ، وهذا مخالف لأقوال جمهرة المؤرّخين الّذين أجمعوا على أنّه لم يتجاوز السبعين عاما من عمره .

وأمّا الّذين تحدّثوا عن مكان ولادته ، فقد توزّعت آراؤهم بين مدينتين هما : عسقلان ، وبيسان . فالمنذري(١) وابن خلّكان(٢) ، والذّهبي(٣) ، والسبكي(٤) والأسنوي(٥) وابن تغرى بردي(٦) وابن الوردي(٧) ، والنعيمي(٨) يجمعون على أنّه قد ولد بعسقلان . وقد خالفهم في ذلك سبط ابن الجوزي ، إذ يقول ((ولد ببيسان))(٩) . وهو بهذا يخالف جمهرة المؤرّخين ، مما يجعلنا نرجّح

---

(١) انظر التكملة : ٢/٢١٠ .
(٢) انظر وفيات الأعيان : ٣/١٥٨ .
(٣) انظر سير أعلام النبلاء : ٢١/٣٣٩ .
(٤) انظر طبقات الشافعيّة : ٧/١٦٦ .
(٥) انظر طبقات الأسنويّ : ٢/٢٨٢ .
(٦) انظر النجوم الزاهرة : ٦/١٥٦ ، والخطط : ٢/٣٦٦ ، والسلوك : ١/١٥٣ .
(٧) انظر تتمّة المختصر : ٢/١٧٣ .
(٨) انظر الدّارس : ١/٩٠ ، وانظر كذلك : القاضي الفاضل ، ص: ٩ ، والحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ، ط٢ ، ١٩٨٤م ، ص: ٢٠٧ ، الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصليبيّة ، ط٢ ، ١٩٧٩م ، ص: ٣٥٦ ، عصر الدول والإمارات ، ط١ ، ١٩٨٥م ، ص: ٤١٠ ، وكتاب: The Encyclopedia of Islam, P: 607
(٩) مرآة الزمان ، ق٢ جـ٨ / ٤٧٢ ، وانظر : الأدب في مصر الأيّوبي ص: ١٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرواية الأولى التي ذكر أصحابها أنّ عسقلان هي مدينة المولد ،وأنّ بيسان هي بلدة الإقامة حيث كان والده قاضيا فيها . يقول المنذريّ كما سبق أن أوردنا ((وكان والده القاضي الأشرف تولّى الحكم ببيسان ،فنسبوا إليها وغلبت عليهم)) (١) .

(١) التكملة : ٢/ ٢١١ ،وانظر: وفيات الأعيان : ٣/ ١٦١ ،وسير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٣٩ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثقافتـــــــــــه:

يرى صاحب ((الصّناعتين)) أنّ الأديب مطالب بأدوات كثيرة قبل أن يقحـــم نفسه في ميدان الكتابة والكتّاب يقول: ((ينبغي أن تعلم أنّ الكتابة الجيّدة تحتـــاج إلى أدوات جمّة، وآلات كثيرة، من معرفة العربيّة لتصحيح الألفاظ وإصابة المعانـــي وإلى الحساب، وعلم المساحة، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلّة، وغير ذلـــك))(١). ويقول ابن رشيق: ((والشاعر مأخوذ بكلّ علم، مطلوب بكلّ مكرمة، لاتساع الشعر واحتماله كلّ ما حمل: من نحو، ولغة، وفقه، وخبر، وحساب، وفريضة. واحتياج أكثر هذه العلـــوم إلى شهادته، وهو مكتف بذاته، مستغن عمّا سواه، ولأنّه قيد للأخبار وتجديد للآثار))(٢).

ومن خلال تتبعنا لما أورده الّذين أرّخوا للقاضي الفاضل، ولأخبار شيوخـــه الّذين اتّصل بهم وتتلمذ عليهم، نستطيع أن نقول: إنّه قد امتلك هذه الأدوات إذ نـــال حظّا من الثقافة والمعرفة الدّينيّة، واللغويّة، والأدبيّة، وغيرها من معارف عصره. وهـــذا فضلا عن أنّه كان ذا موهبة وذكاء، وعقل متفتح. فقد حفظ القرآن الكريم، وديوان الحماسة(٣) قبل أن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، ودرس الفقه، والحديث، والتفسير، وعلوم اللغـــة والأدب. يقول الذّهبيّ: ((حفظ القرآن، وكتب ختمة، وقرأ الجمع بين الصحيحين علـــى ابن فرح، عن رجل، عن الحميديّ، وصحب أبا الفتح محمود بن قادوس المنشئ))(٤). ويقول السبكي: ((سمع الحديث من الحافظ أبي القاسم بن عساكر، وأبي محمّد العثمانـــيّ وأبي طاهر بن عوف، وغيرهـــم))(٥). ويضيف المقريزي: ((ويشتغل بعلـــوم

---

(١) العسكريّ (أبو هلال): الصّناعتين، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيـــم، مصر، ١٩٧١م، ص: ١٦٠، وانظر، صبح الأعشى: ١/ ١٤٠-١٤٧.

(٢) ابن رشيق، العمدة، ط٤، تحقيق، محيي الدّين عبد الحميد، بيروت، ١٩٧٢، ١/ ١٩٦.

(٣) انظر: الوشي المرقوم، ص: ٩، الرّوضتين، حلمي، جـ١ ق٢/ ٤٨٨، وفيات الأعيان ٧/ ٢٢٠، طبقات الأسنويّ: ٢/ ٢٨٣.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٤٤، وانظر: البداية والنهاية: ١٣/ ٢٤.

(٥) طبقات الشافعيّة: ٧/ ١٦٧، وانظر طبقات الأسنويّ: ٢/ ٢٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأدب، وتفسير القرآن))[١]. وفي أدبه وشعره ما يؤكّد لنا سعة حفظه لأشعار العرب وأقوالهم، ولا سيّما ديوان المتنبّي الّذي كان الفاضل معجبا به[٢]، وديواني أبي تمّام والبحتري[٣]، وغيرهم.

ومن هذا كلّه، يتضح لنا أنّ القاضي الفاضل كان ذا شخصيّة واسعة الاطلاع متنوّعة الثقافة، غنيّة بالمعارف والعلوم المختلفة المتنوّعة الّتي كانت معروفة في عصره.

وقد عرف عنه شغفه الشديد بجمع الكتب وتحصيلها من الأماكن البعيدة. قال سبط ابن الجوزيّ: ((... وكانت كتبه مئة ألف مجلّدة))[٤]. ويقول الذّهبيّ: ((بلغنا أنّ كتبه الّتي ملكها بلغت مئة ألف مجلّد. وكان يحصّلها من سائر البلاد))[٥]. وأمّا ابن كثير، فقد قال: ((وقد اقتنى من الكتب نحوا من مئة ألف كتاب، وهذا شيء لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك))[٦]. ويقول المقريزي نقلا عن عبد اللطيف البغداديّ، وهو ممّن عاصروا القاضي الفاضل: ((وكان يقتني الكتب من كلّ فن ويجتلبها من كلّ جهة، وله نسّاخ لا يفترون، ومجلّدون لا يبطلون. قال لي بعض من يخدمه في الكتب: إنّ عددها قد بلغ مئة ألف وأربعة وعشرين ألفا، وهذا قبل موته بعشرين سنة))[٧].

ومن الجدير بالذكر، أنّ السلطان صلاح الدّين كان يضع بين يديه ما يشاء من الكتب كلّما فتح بلدا. ومن ذلك ما أورده أبو شامة في حوادث سنة تسع وسبعين وخمسمئة في فتح آمد إذ يقول: ((... وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف

---

(١) الخطط: ٢/٣٦٧، وانظر: الدّارس: ١/٩١، والشذرات: ٤/٣٢٥.
(٢) انظر الوشي المرقوم، ص: ١٠.
(٣) انظر شذرات الذهب: ٤/٣٢٦.
(٤) مرآة الزمان: ٨/٤٧٣، وانظر: العبر: ٤/٢٩٣، والدّارس: ١/٩٢.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٢١/٣٤١، وانظر أيضا: طبقات السبكي: ٧/١٦٧، وطبقات الأسنويّ: ٢/٢٨٤، ووفيات الأعيان: ١/١٤٤.
(٦) البداية والنهاية: ١٣/٢٤.
(٧) الخطط: ٢/٣٦٧، وشذرات الذهب: ٤/٣٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألف وأربعون ألف كتاب . فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل ، فانتخب منها حمل سبعين حمارة)) (١) . وأعطاه أيضا ما أراده من مكتبة القصر الفاطميّ بعد أن استولى عليها (٢) .

وممّا يشهد بسعة ثقافته ، ما أورده معاصره العماد الأصفهانيّ عن نتاجه الأدبي الوفير الّذي كتبه في فترة الحروب الصليبيّة ، ولم يكرر فيه لفظا ولا دعاء ، إنّما كان في كلّ عمل أدبي ينشئه يبتكر شيئا جديدا من مخزونه الثقافيّ الواسع ، يقول ((. . . وما ألفيته كرّر دعاء ذكره في مكاتبة ، ولا ردّد لفظاً في مخاطبة ، بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة ، مبتدعة لا مفتكرة ، بالعرف والعرفان معرّفة لا نكرة)) (٣) . ويضيف مؤكّدا ذلك فيقول : ((. . . إن شاء أنشأ في يوم واحد ، بل في ساعة واحدة ، ما لو دوّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة)) (٤) .

ولعلّ هذه الثقافة الواسعة المتنوّعة التي ألمّ بها القاضي الفاضل ، ولا سيّما اللغويّة منها ، هي الّتي كانت وراء فكرة المقامات الّتي شرع في كتابتها على ما ذكره ابن حجّة الحمويّ إذ يقول : ((. . . ثبت عن القاضي الفاضل أنّه شرع في معارضة المقامات ، وعارض منها كلّ فصل بفصل أحسن منه)) (٥) .

إلا أن هذه المقامات لم تصل إلينا ، ولم أجد آية إشارة إليها فيما بين يديّ من المصادر الّتي ترجمت للقاضي الفاضل إلاّ في هذا المصدر الذي توفّي صاحبه

---

(١) الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ٣٩ ، وانظر : البداية والنهاية : ١٢ / ٢٦٦ .
(٢) انظر : الرّوضتين ، حلمي ، جـ١ ق ٢ / ٥٠٧ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٢٦٦ ، النجوم الزاهرة : ٥ / ٣٣٦ ، وصبح الأعشى : ١ / ٤٦٧ ، وغيرها .
(٣) الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ٢٤٢ ، وانظر سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٣٤٠ .
(٤) الخريدة (قسم مصر) : ١ / ٣٦ ، وانظر أيضا الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ٢٤٢ .
(٥) ابن حجّة الحمويّ ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، ص : ٤٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سنة (٨٣٧هـ)، فربّما فقدت فيما فقد من تراثنا، بسبب ما تعرّضت له أمّتنا الإسلاميّة من نكبات وفتن. وقد تبدّت هذه الثقافة الواسعة فيما وصلنا من نتاجه الأدبيّ ورسائله[1] الّتي استرعت أنظار مؤرّخيه لكثرتها. يقول ابن خلّكان: ((أخبرني أحد الفضلاء الثّقات المطّلعين على حقيقة أمره، أنّ مسوّدات رسائله في المجلّدات والتعليقات في الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مئة مجلّد، وهو مجيد في أكثرها))[2].

وبوسعنا كذلك أن نلمح أثر هذه الثقافة الواسعة المتنوّعة من مجموع ما وصلنا من شعره ونثره[3].

---

(١) قام الأستاذ بروكلمان بإحصاء رسائل القاضي الفاضل، ورصد أماكن وجودها المحفوظة فيها وهي:
أ ـ (الدّر النظيم من ترسّل عبد الرحيم)، حققه الأستاذ أحمد بدوي، القاهرة ١٩٥١م.
ب ـ (رسائل عن الحرب والسلام)، حققه الدكتور محمّد نغش، القاهرة، ١٩٨٤م.
ج ـ (الفاضل من كلام القاضي الفاضل)، مخطوط، دار الكتب المصرية، رقم: (٣٨٨٢)، أدب.
د ـ (الرسائل الأدبيّة للقاضي الفاضل)، مخطوط، مكتبة الأزهر، رقم: (٧٠٣٥)، أدب.
هـ ـ (الرسالة الحجازيّة)، مخطوط، بالفاتيكان.
و ـ (كتاب مكاتبة، مختصر من متبلّج الأنوار ومتأرّج النوّار في المكاتبات إلى الملوك والوزراء والعلماء مما جمعه ابن ممّاتي من قول القاضي الفاضل) مخطوط، بالفاتيكان.
ز ـ (رسائله إلى الخليفة في بغداد)، مخطوط، باريس، وأورد مجموعة من رسائله ومكاتباته المفردة. انظر: تاريخ الأدب العربي: ٦/١٠-١١. هذا وله رسائل أخرى كثيرة في معظم كتب التاريخ والأدب، خاصّة في المصادر التالية: الخريدة، الرّوضتين، مفرّج الكروب، صبح الأعشى، نهاية الأرب، مسالك الأبصار، والأنس الجليل، وغيرها.

(٢) وفيات الأعيان: ٣/١٥٨.

(٣) انظر أمثلة من ذلك في كتاب: القاضي الفاضل، ص: ٥٢-٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان القاضي الفاضل بالإضافة إلى ذلك، ذا موهبة في تذوّق الشعر ونقده. يقول الدكتور محمّد زغلول سلاّم: ((لم يكن القاضي الفاضل كاتبا وشاعرا فحسب بل كان ناقدا كذلك، يجلس في مجالس السلطان صلاح الدّين، ويناقش الشعراء الذين يأتون لمدح السلطان، فيقرظهم)) (١).

وحين كان ينقد شعر معاصريه، كان ينبّههم إلى عيوبهم، ويبيّن مواطن الإبداع والجودة في أشعارهم بأسلوب يدلّ على المعرفة والقدرة على الحجاج. ومن ذلك ما أخذه على صديقه ومعاصره ابن سناء الملك إذ قال في إحدى قصائده التي مدح بها صلاح الدّين:

يزخرف منها وجهها فهو جنّة ... ويخضرّ منها نضرة فهو سندس
صليني وهذا الحسن باق فربّما ... يعزّل بيت الحسن منه ويكنس (٢)

ذلك لأنّ لفظة (يكنس) لفظة ثقيلة مستكرهة غير منسجمة في موقعها. وهذا واضح في قوله: ((والقصيدة فائقة في حسنها، بديعة في فنها، وقد ذلّت السين وانقادت، فلو أنّها الرّاء لما زادت، وبيت ((يعزّل ويكنس)) أردت أن أكسه من القصيدة فإنّ لفظة الكنس غير لائقة في مكانها)) (٣). وعندما دافع ابن سناء عن استعماله لهذه اللفظة محتجا بابن المعتز، كتب إليه القاضي الفاضل قائلا: ((ولا حجّة فيما احتجّ به عن الكنس في بيت ابن المعتز، فإنّه غير معصوم من الغلط، ولا يقلّد إلاّ في الصواب فقط وقد علم ما ذكره ابن رشيق في عمدته من تهافت طبعه، وتباين وضعه، فذكر من محاسنه مالا يعلّق معه كتاب، ومن بارده وغثّه مالا تلبس عليه الثياب)) (٤). ومن ذلك أيضا ما أورده سبط ابن الجوزي، إذ قال:

---

(١) الأدب في العصر الأيوبي، ص: ٢٠٨.
(٢) ديوان ابن سناء الملك: ١/ ٤٢٧، وانظر: صبح الأعشى: ٢/ ٢٥٠.
(٣) ديوان ابن سناء: ١/ ٤٢٧ نقلا عن فصوص الفصول، وانظر: صبح الأعشى: ٢/ ٢٥٠.
(٤) ديوان ابن سناء: ١/ ٤٢٩ نقلا عن فصوص الفصول، وانظر: صبح الأعشى: ٢/ ٢٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((وسمع قائلا يقول بيت شعر، وهذا هو:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع درّ على صالحه

فقال: لو قلعت عينا هذا الشعر لأبصر)) (١).

هذا، ومن الصعب علينا أن نتقبّل رواية الذّهبيّ عن ضعف الفاضل في النّحو، وذلك إذ يقول: ((... وكان قليل النّحو، لكنّه له دربة قويّة)) (٢)، إذ لا يمكن أن يكون الفاضل في هذا المنصب الرفيع، وهذه الثقافة الواسعة المتنوعة التي كان أساسها القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر القديم، خفيف البضاعة من النّحو، وهو الذي كان يناقش علماء اللغة في مسائل اللغة والنّحو (٣)، قبل أن يلحقهم بالخدمة ويشركهم معه في ديوان الإنشاء وغيره. ثمّ إنّ ما وصلنا من شعره ونثره، يكشف لنا عن عالم متمكّن من اللغة، وهي أداة أساسيّة في المناصب التي شغلها.

وقد عرف الفاضل أيضا بتشجيعه للعلم والعلماء وعنايته بهم. يقول الذّهبيّ: ((ولأصحاب العلم عنده نَفَاق، يحسن إليهم)) (٤). ويقول المقريزيّ: ((ولأصحاب الأدب عنده نفاق، يحسن اليهم، ولا يمنّ على أحد، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء)) (٥). وقد كان من أثر ذلك أن نشطت الحركة الفكريّة والثقافيّة في دولة السلطان صلاح الدّين حتى غدت مصر والشام قبلة للعلماء والأدباء وأصحاب النباهة والفكر، يقصدونهما من كلّ حدب وصوب. يقول عبد اللطيف البغداديّ، وهو ممّن عاشوا في ظلّ هذه

---

(١) مرآة الزمان: ٨/٤٧٢. وانظر أمثلة أخرى من نقده لابن سناء الملك في ديوانه، جـ١/٩٣—٩٤، ١١٤، ١٢١، ١٢٩، ٢١٧، ٣٥١، ٣٧٨ — ٣٧٩ جـ٢/٤٦٤، ٤٧٦—٤٧٧، ٨٢٩— ٨٣٠، حيث ينقل عن فصوص الفصول لابن سناء.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١/٣٤٣، وانظر: الخطط: ٢/٣٦٧، الدّارس: ١/٩١، وشذرات الذهب: ٤/٣٢٥.

(٣) انظر: الافادة والاعتبار، ص: ٨—٩، وعيون الأنباء، ص: ٦٨٧.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١/٣٤٣.

(٥) الخطط: ٢/٣٦٧، وانظر: الدّارس: ١/٩١، وشذرات الذهب: ٤/٣٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدّوله : ((ولمّا دخلت دمشق ،وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم إحسان الصّلاحيّ جمعا كثيرا))[١] . ويقول العماد الأصفهانيّ منوّها بدور الفاضل في ازدهار الحركة العلميّة والفكريّة بدولة صلاح الدّين :((... وعزّ العالم وذلّ الجاهل ،وأفاض الأفاضل في الشكر ،وراض الأماثل قرّح القرائح في النّظم والنثر وعاد الرّجاء مفتوح الرّتاج ،ممنوح النتاج ،حالي التاج بيواقيت الفوز ،عليّ السراج في مواقيت العزّ ، أرج الآفاق بذائع البدائع ،رائج الأسواق بضائع البضائع ،بوجود المولى الفاضل ،وجوده المولى إلى الأفاضل))[٢] . ويقول ((منشررفات العلم وناشر راياته))[٣] ، فهو الّذي قرّب العماد الأصفهانيّ[٤] ، وابن سناء الملك[٥] ، والأسعد ابن مماتي[٦] ،وعبد اللطيف البغداديّ[٧] ، وغيرهم من المفكرين والعلماء .

يقول العماد الأصفهانيّ كذلك وهو يذكر حوادث سنة ست وسبعين وخمسمئة ((وفي هذه السنة بمصر ،عرّبت كتاب كيمياء السعادة ،تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلّدين ،وفزت من تعريبه وعلم ما فيه بسعادتين ،وذلك بأمر فاضليّ لزمني امتثاله ،وشطني في إتمامه إقباله))[٨] . ويقول في ترجمته لمحمّد بن محمّد بن هبة اللّه

---

(١) الإفادة والاعتبار ،ص : ٧٠

(٢) الخريدة (قسم مصر) : ١/ ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه : ١/ ٣٦ .

(٤) انظر الخريدة (قسم مصر) : ١/ ٥٥ .

(٥) انظر عيون الأنباء ،ص: ٦٨٧ ،والسلوك : ١/ ١٣٩ .

(٦) انظر معجم الأدباء : ٦/ ١١٣ .

(٧) انظر الإفادة والاعتبار ،ص: ٨-٩ ،وعيون الأنباء ،ص: ٦٨٧-٦٨٨ .

(٨) الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ٢٠ ،وانظر أمثلة اخرى من تشجيعه للعلماء في المصدر نفسه : ٢/ ٢٣٤ ،بدائع البدائة ص: ٤ ،وانظر كذلك كتاب : القاضي الفاضل ،ص: ٤٢ — ٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلويّ: ((أهدى إليّ ديوان شعره بمصر القاضي الفاضل ،في جملة ما أسداه إليّ من الفواضل))[١]. وقد عرف علماء العصر قدره ورعايته لهم ،فأخذوا يؤلّفون الكتب باسمه ،ويهدونها إليه[٢]، اعترافا بفضله عليهم ،وتشجيعه لهم. وقد يعرضون عليه مؤلّفاتهم ليساعدهم في تسميتها ،فيساعدهم في ذلك[٣].

وممّا يذكر في مضمار الثقافة أنّ القاضي الفاضل أنشأ مدرسة لتدريس المذهبين الشافعيّ ، والمالكيّ[٤]، والعلوم العربيّة الأخرى ،وتخيّر لها من الأساتذة المشاهير في عصره من أمثال الشاطبيّ ،وتلميذه أبي عبد الله محمّد بن عمر القرطبيّ ،والشيخ عليّ ابن موسى الدهّان ،وعبد الرّحمن بن سلامة الإسكندرانيّ ،وغيرهم[٥]، وزوّدها بمكتبة حافلة بالكتب المختلفة المتنوّعة ،حتى كانت من أعظم مدارس مصر وأشهرها[٦] في ذلك العصر. يقول ابن خلّكان في ذلك: ((وبنى مدرسة بدرب ملوخيّة. ورأيت بخطّه أنّه استفتح التدريس بها يوم السبت مستهلّ المحرّم من سنة ثمانين وخمسمئة))[٧]. وكأنّما

---

(١) الخريدة (قسم مصر): ١/ ١٢١.

(٢) فقد أهدى إليه جعفر بن شمس الخلافة كتابه المعروف بـ(الآداب النافعة) انظر: الآداب النافعة،ص: ٣ ،وأهدى إليه محمّد بن هبة الله البرمكيّ أحد فقهاء عصره أرجوزة في الفرائض بعنوان: (روضة المرتاض، ونزهة الفرّاض) انظر: طبقات الشافعيّة: ٧/ ٢٣—٢٤.

(٣) ذكر العماد الأصفهانيّ في مقدّمة كتابه (الفيح القسّي) أنّه سمّاه (الفتح القدسي) قبل أن يعرضه على القاضي الفاضل. فلمّا عرضه عليه ، قال له: سمّه (الفيح القسّي في الفتح القدسي). انظر: الفيح. ص: ٥٧ — ٥٨. وعرض عليه الأسعد بن مماتي كتابه (الشيء بالشيء يذكر) فسمّاه الفاضل: (سلاسل الذهب). انظر: معجم الأدباء: ٦/ ١١٧.

(٤) انظر الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢٤١ ،وخطط المقريزي: ٢/ ٣٦٦.

(٥) انظر الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢٤١ ،وخطط المقريزي: ٢/ ٣٦٦.

(٦) انظر الخطط: ٢/ ٣٦٦.

(٧) وفيات الأعيان: ٣/ ١٦٢ ،مرآة الزمان: ٨/ ٤٧٣ ،الدارس: ١/ ٩٢ ،شذرات الذهب: ٤/ ٣٢٧ ،وخطط المقريزي: ٢/ ٣٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدرك الفاضل أنّ مجاهدة الغزاة الصليبيين تحتاج إضافة إلى السلاح عقيدة راسخة موحّدة ،من شأنها أن تجمع العقول وتقضي على عوامل الفرقة والتمزّق ه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيّـــة والأخـــــلاق :

نستطيع أن نتبيّن بعض معالم القاضي الفاضل الجسميّة والنفسيّة من خـــلال ما أورده عنه معاصروه الّذين اتّصلوا به وخالطوه ، ومن خلال ما أورده عنه مؤرّخوه الّذيـن تحدّثوا عنه . يقول عبد اللطيف البغداديّ ، وهو ممّن شاهدوا الفاضل واتّصلوا بـــه في أثناء حديثه عن لقائه الأوّل بالقاضي الفاضل في القدس ((. . . فدخلنا عليه ، فرأينا شيخا ضئيلا كلّه رأس وقلـــب))(١) . ويقول الذّهبيّ : ((. . . ضعيف البنية ، رقيـــق الصـــورة))(٢) . وأمّا الأسنويّ ، فيقول : ((. . . وكان دميم الخلقة ، أسمر ، وبه حدبـــة ظاهرة ، يغطيها بالطيلسان))(٣) . ويقول العماد الأصفهانيّ :

ناحِلُ الجِسمِ ذو خِطابٍ بِهِ يَصـــــــــــفُرُ للدّهرِ كُلُّ خَطبٍ جَسيمِ (٤)

ويؤكّد لنا الفاضل نفسه فيما كتبه إلى سلطانه صلاح الدّين ، أنّه كان يعانـي من معاودة المرض لجسمه بين الفينة والفينة ، وكأنّي به يريد أن يعتذر عن عدم تمكنـــه من مصاحبة سلطانه بسبب مرضه ، وضعف جسمه إذ يقول : ((. . . كتبت ، وقد عاد النقرس إلى تقييدهما ، وجنبي طريح ، وما فيّ صحيح إلاّ سقمي فإنّه صحيح ، وإذا لقيت الّذيـــن آمنوا أنّي ، وإذا خلوت إلى شيطان المرض أصيح))(٥) . ويقول في رسالة أخرى : ((. . . وقد دبّ الفناء فيّ عضوا عضوا ، وأخذني الزمان جزوا جزوا ، وكلّ يوم يذهب منّي شيء بعـــد شيء ، ويكثر شبهي بالميت ويبعد عن الحي))(٦) .

---

(١) البغداديّ ، الافادة والاعتبار ، تحقيق : سلامة موسى ، القاهرة ، ص : ٨ ـــ ٩ ، وانظر : عيون الأنباء ص : ٦٨٧ ، والخطط : ٢ / ٣٦٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٣٤٣ ، وانظر الخطط : ٢ / ٣٦٧ ، والدارس : ١ / ٩١ ، الشذرات : ٤ / ٣٢٥ .

(٣) طبقات الشافعيّـــة : ٢ / ٢٨٤ .

(٤) ديوان العماد الأصفهانيّ ، ص : ٣٩٤ .

(٥) المختار من إنشاء القاضي الفاضل ، ص : ٢٧ (مخطوط) .

(٦) المصدر نفســـــه : ص : ٢٧ ، وانظـــــر مســـالك الأبصـــار ٧ / ٢٨٧ (مخطـــوط) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومّما تقدّم ،نلاحظ أنّ القاضي الفاضل كان أسمر اللون ،قصير القامة ،نحيل الجسم ،ضئيل الجسد ،معتل الصّحة ،له حدبة يحجبها عن أعين النّاس. أمّا من الناحيّة الخلقيّة والنفسيّة ،فقد أثبت له مؤرّخوه وشعراء عصره الّذين مدحوه مجموعة من الصفات الخلقيّة الحميدة. يقول معاصره العماد الأصفهانيّ :((... فهو مع ما يتولاّه من أشغال المملكة الشاغلة ،ومهامه المستغرقة في العاجلة ،لا يغفل عن الآجلة ،ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلاته ،وحفظ أوراده ووظائفه ،وبثّ أصفاده[1] وعوارفه ،ويختم كلّ يوم ختمة من القرآن المجيد ،ويضيف إليه ما شاء من المزيد[2])). ويقول ابن السّاعي : ((... وكان خيّرا كثير الصلاة والحجّ والمجاورة[3])). ويؤكّد السبكي ذلك فيقول :((... صاحب أوراد من صلاة وصيام وغيرهما[4])). وينوّه المقريزيّ بحسن تدينه وتقواه فيقول :((... وكان له الدّين والعفاف والتقى والمواظبة على أوراد الليل والصيام وقراءة القرآن[5])). ومما سبق نلاحظ أنّ عزيمته القويّة قد مكّنته من التغلّب على مرضه وضعف جسده.

وأمّا بذله في سبيل اللّه ،فقد كان عظيما ،فقد أنفق القاضي الفاضل الكثير من ثروته الواسعة الّتي جمعها من تجارته واقطاعه[6] في وجوه البرّ وافتداء الأسرى المسلمين من أيدي الأعداء. يقول ابن الأثير: ((... وكان ديّنا كثير الصدقة والعبادة ،وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى[7])). ويقول سبط ابن الجوزي مؤكدا

---

(١) الأصفاد: جمع صفد ،وهو العطاء. (لسان العرب والقاموس المحيط: صفد).

(٢) الخريدة (قسم مصر) : ١/ ٣٦ ،وانظر: الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢٤٢ ،سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٤٢ ،والنجوم الزاهرة: ٦/ ١٥٧.

(٣) الجامع المختصر : ٩/ ٢٩.

(٤) طبقات الشافعيّة: ٧/ ١٦٧ ،وانظر: البداية والنهاية: ١٣/ ٢٤ ،وطبقات الأسنويّ: ٢/ ٢٨٤ ،والشذرات: ٤/ ٣٢٥.

(٥) الخطط : ٢/ ٣٦٧.

(٦) انظر سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٤٣ ،طبقات الشافعيّة: ٧/ ١٦٧ ،الشذرات: ٤/ ٣٢٥.

(٧) الكامل في التاريخ : ٩/ ٢٥١ ،وانظر: طبقات الأسنويّ: ٢/ ٢٨٤ ،والدّارس: ١/ ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك:((... ووقف على الأسارى وقفا عميما ،فاستنقذ به خلقا عظيما))[١]. وبذكر ابن العماد أنّه كان يتخيّر من ماله ما يحبّ ليتصدّق به على المحتاجين ،وأهل الفضل وذلك إذ يقول: ((... كان له بمصر رَبْع عظيم يؤجّر بمبلغ كثير ،فلمّا عزم على الحجّ ركب ومرّ به ووقف فقال: اللهمّ إنّك تعلم أنّ هذا الرّبْع ليس شيء أحب إليّ منه. اللهمّ فاشهد أنّي وقفته على فكاك الأسرى))[٢]. فلقد كان مع هذه الثروة الضخمة ،زاهدا في الدّنيا متقشفا لا يبالغ في متع الحياة ومظاهر العظمة ،ذلك لأنّ الزهد مع الغنى كان أسمى عنده من الزهد مع الفقر ،كما يتضح في قوله:

وما كانَ فَضْلُ الزُّهْدِ في العيشِ عن غِنىً يُقَاسُ بِفَضْلِ الزُّهْدِ في العَيْشِ عن فَقْرِ[٣]

ويقول الذّهبيّ في زهده: ((... وكان متقللا في مطعمه ومنكحه وملبسه لباسه البياض،ويركب معه غلام وركابي ،ولا يمكن لأحد أن يصحبه))[٤]. ويقول المقريزيّ: ((... وكان قليل اللذّات ،كثير الحسنات،وكان متقللا في مطعمه ومنكحه وملبسه لباسه البياض،ولا يبلغ جميع ما عليه دينارين ،ويركب معه غلام وركابي ،ولا يمكن أن يصحبه أحد ،ويكثر من زيارة القبور وتشييع الجنائز وعيادة المرضى))[٥]. ويقول محمّد بن هبة اللّه المورقي[٦] ،وهو ممن عاصروه:

بأنّهُ الحَبْرُ النّسيجُ وَحْدِهِ في عِلْمِهِ وَدِيْنِهِ وزُهْدِهِ[٧].

---

(١) المرآة: ق٢ جـ٨/٤٧٣ ،وانظر الخطط: ٢/٣٦٧ ،وسير أعلام النبلاء: ٢١/٣٤٣.

(٢) شذرات الذهب: ٤/٣٢٦.

(٣) ديوان القاضي الفاضل: ٢/٤٩٩.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١/٣٤٣ ،وانظر الدّارس: ١/٩١ ،والفلاكة ،ص: ٨٩.

(٥) الخطط: ٢/٣٦٧ ،وانظر الدّارس: ١/٩١ ،والفلاكة ص: ٨٩ ،والشذرات: ٤/٣٢٥.

(٦) انظر ترجمته وأخباره في طبقات الشافعيّة: ٧/٢٣.

(٧) انظر المصدر نفسه: ٧/٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا الفطنة والذكاء وسرعة البديهة ، فقد كانت سمات واضحة في شخصيّة القاضي الفاضل ، كما شهد بذلك معاصروه الّذين عايشوه واتّصلوا به اتّصالا وثيقا وفي مقدّمة هؤلاء صديقه العماد الأصفهانيّ الّذي استهلّ ترجمته للقاضي الفاضل بقوله :((صاحب الديوان ، العديم الأقران ، وواحد الزمان ، العظيم الشان ، ربّ القلم والبيان ، واللّسن واللسان ، والقريحة الوقّادة ، والبصيرة النقّادة ، والبديهة المعجزة))(١) . والأمثلة على ذكائه وسرعة بديهته كثيرة ، منها ما أورده الذهبيّ إذ يقول :((كان القاضي الفاضل أحدب ، فحدثني شيخنا أبواسحاق الموصليّ أنّ القاضي الفاضل ذهب في الرّسليّة إلى صاحب الموصل ، فأحضرت فواكه ، فقال بعض الكبار منكتا : خياركم أحدب ، يورّي بذلك ، فقال الفاضل : خسّنا خير من خياركم))(٢) . ويقول معاصره عبد اللطيف البغدادي حين رآه يكتب ويملي ويناقش في وقت واحد عند ما قابله أوّل مرّة بالقدس : ((. . . فدخلنا عليه ، فرأيت شيخا ضئيلا كلّه رأس وقلب ، وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوّة حرصه في إخراج الكلام ، وكأنّه يكتب بجملة أعضائه . وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى :((حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها)) أين جواب إذا ؟ وأين جواب لو في قوله تعالى :((ولو أنّ قرآنا سيرت به الجبال))؟ وعن مسائل كثيرة ، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والإملاء))(٣) .

ويشيد أبو الفتح البلطيّ بذكاء القاضي الفاضل ، فيقول :

ذو المَنْطِقِ الصَّائِبِ ... في حَوْمَةِ الفَصْلِ

ذكاؤهُ الثاقِبُ ... يَجِلُّ عَن مِثْلِ (٤)

---

(١) الخريدة (قسم مصر) : ١ / ٣٥ ، وانظر تتمّة المختصر : ٢ / ١٧٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٣٤٢ .

(٣) الإفادة والاعتبار ، ص : ٨ — ٩ ، وعيون الأنباء ، ص : ٦٨٧ .

(٤) معجم الأدباء : ٧ / ١٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الصفات الأُخرى التي أثبتها مؤرّخوه له ،الحلم والعفو. يقول البغـدادي: ((. . . وكان فيه سوء خلق يكمد به نفسه ولا يضرّ أحدا بـه ،ولم يكن له انتقام مـن أعدائه إلاّ بالإحسان أو الاعراض عنهم)) (١). ويضيف ابن كثير إلى هذه الصفة صفة أُخرى فيقول: ((. . . كان رحيم القلب، حسن السيرة ،طاهر القلب والسريرة)) (٢). إلاّ أنّ القاضي الفاضل لم يكن يتسامح مع من يعبث بأمن الدّولة والمسلمين ،وإنْ كان من أقرب المقرّبين إليه ،إذ كان يقف منه موقفا لا هوادة فيه ولا رحمة. ومن ذلك موقفه الحازم من صديقه الحميم عمارة اليمني (٣) الذي تآمر على الدّولة وراسل الفرنج في محاولة منه لإعادة الدّولة الفاطميّة. ويحدّثنا معاصره ابن الساعاتي عن سداد رأيه وحسن تدبيره

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٤٣ ،وانظر الخطط: ٢/ ٣٦٧ ،الفلاكة ص: ٨٩ ،الدّارس: ١/ ٩١–٩٢ ،الشذرات: ٤/ ٣٢٥ ،والأسنوي: ٢/ ٢٨٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٤.

(٣) وهو: أبو محمّد عمارة بن عليّ بن زيدان بن أحمد الحكميّ اليمنيّ (٥٦٩هـ) فقيه شاعر أديب، دخل مصر على زمن الفائز بن الظافر ، وكان متعلقا بدولة الفواطم الشيعيّة لِما لها من أيد عليه عند ما دخل مصر ،فنصحه صديقه الفاضل أنْ يكف عن ذلك. غير أنّه تورّط مع سبعة من المتآمرين على الدّولة السنيّة بمصر ،وراسلوا الفرنج في محاولة منهم لإعادة الدّولة الفاطميّة الشيعيّة وإقامة ابن العاضد على عرشها ،ولما فضح أمره كتب إلى الفاضل مستعطفا إلاّ أنّه لم يصغ إليه مع صداقته الحميمة لتآمره على المسلمين ،ووافق سلطانه على شنقه فشنق سنة ٥٦٩هـ. وهو صاحب كتاب (النكت العصريّة في أخبار الوزارة المصريّة) وكتاب: (تاريخ اليمن). انظر ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان: ٣/ ٤٣١ – ٤٣٦ ،الكامل في التاريخ: ٩/ ١٢٣ ،والخريدة (قسم الشام) ٣/ ١٠١ ،ومقدّمة النكت العصريّة النجوم الزاهرة: ٦/ ٧ ،البداية والنهاية ١٢/ ١٧٦–٢٧٧ ،المختصر: ٢/ ٧٤ ،مفرّج الكروب: ١/ ٢٤٤ – ٢٤٧، ٢٥١ ،وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للأمـــــور ، فيقـــــول :

إذا مُعْضِلٌ في المُلْكِ أعيـــا دَواؤهُ غَدا حاسِماً أسْبابهُ حازِماً طَبّـــا
تَحَمَّلَ عِبءَ المُلْكِ مُضْطَلِعاً بِـــهِ وقامَ على العافِينَ كالبَحْرِ إذ عَبّـــا (١)

ويقول ابن الـــــذروي :

لِرَأيكَ هذا النَّصْرُ للدّينِ يَنْتَمِـــي فلا يَنْتَحِلْهُ كُلُّ عَضْبٍ ولَهْـــذَمِ (٢)
وإنْ كانَ فيه للأسِنَّةِ والظُّبَـــى مُساعَدَةٌ فالفَضْلُ للمُتَقَـــدِّمِ (٣)

ويقول العماد : ((. . . وهو ضابط الملك بآرائه ، ورابط السلك بالآئه))(٤) .

وأمّا الوفاء والإخلاص في العمل ، فقد كانتا صفتين ملازمتين له حيثما كـــان موقعه سواء أكان هذا الموقع في ظلّ الدّولة الفاطميّة الشيعيّة ، أم في كنف الدّولـــة الأيّوبيّة السنيّة . ولذا فقد استطاع الفاضل أنْ يحافظ على منصبه في دولة الغواطـــم على الرّغم من شيوع الفتن والدسائس فيها غير أنّ إخلاصه للدّولة الأيّوبيّة كان منقطـــع النظير . وقد صدق العماد حين قال فيه : ((. . . الصّادق الشيم ، السابق بالكـــرم ذو الوفاء والمروّة ، والصفاء والفتوّة ، والتقى والصلاح ، والنّدى والسماح))(٥) ولم أجـــد

---

(١) ديوان ابن الساعاتـــي : ٢٠٨/٢ .
(٢) السيـــف الحاد القاطـــع . انظر : (لسان العرب : عضـــب وهـــذم) .
(٣) الرّوضتيـــن ، بيروت : ١٢٥/٢ .
(٤) الخريدة (قسـم مصـــر) : ٣٦/١ ، وانظر الرّوضتيـــن بيروت : ٢٤٢/٢ ، وفيـــات الأعيـــان ١٥٩/٣ ، سيـــر أعلام النبـــلاء : ٣٤١/٢١ والنجوم الزاهرة : ١٥٦/٦ ، وغيرهـــا .
(٥) الخريدة (قسم مصـــر) : ٣٦/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحداً من الذين عاصروه وعرفوه من المؤرخين والشعراء يذمه في أخلاقه. وحين هجاه ابن عنين[٢] الشاعر الهجاء، اقتصر على ذكر عيب جسدي فيه[٣].

---

(١) انظر: ديوان العماد الأصفهاني، ص: ٢٤، ١٣٢—١٣٦، ٢٠٩، ٢٢١، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٦١—٣٦٢، ٣٨٣، وديوان ابن سناء الملك في مواضع كثيرة، وديوان ابن الساعاتي: جـ١/ ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، جـ٢/ ٢٤، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣٣، ٧٠، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٨، وغيرها مختار من ديوان عماره، ملحق بالنكت العصرية، ص: ٢١٨—٢٢٠، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٥٧، ٣٧٤—٣٧٥، وديوان ابن النبيه، ص: ٨٠، ٨١، ٨٢، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، وديوان ابن قلاقس، ص: ٣١، ٥٣، ٩٥— ٩٦، ١٠٧، وغيرها، وانظر ايضا الروضتين، بيروت: ٢/ ٦، ١٤، ٢٥، ٢٤٣، ٢٥١، ٢٦٧، ٢٧١، الخريدة (قسم مصر): ٢/ ١٧٤، ١٨٣، القاضي الفاضل، ص: ٧٤—٨٧.

(٢) وهو: أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري الملقب شرف الدين، كوفي الأصل، دمشقي المولد (٦٣٠هـ) شاعر مشهور كان مولعا بالهجاء وثلب أعراض الناس، نفاه صلاح الدين من دمشق بسبب وقوعه في أعراض الناس، له ديوان شعر مطبوع. انظر وفيات الأعيان: ٥/ ١٤ — ١٨، البداية والنهاية: ١٣/ ١٣٧— ١٣٨، ومقدمة ديوانه، ص: ٣ — ١٦.

(٣) انظر ديوان ابن عنين، ص: ١٨٢، ١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢١٩، الشذرات: ٤/ ٣٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أطوار حياتـــــــــه :

مع تلك الشهرة الواسعة الّتي وصل إليها القاضي الفاضل من الناحيتيـــــن الأدبيّة والسياسيّة ،إلاّ أنّ الغموض يكتنف نشأته الأولى في ظلّ والديه ،وكنف أسرتـــه وذلك لأنّ معظم الّذين ترجموا للفاضل اهتموا بالحديث عنه بعد أن اتّصل بصـــلاح الدّين الأيّوبيّ . والجدير بالذكر هنا،أنّ الفاضل في نتاجه الأدبـي ،لم يتحدّث عـــن هذه الجوانب من حياته فيما وصل إلينا من كتاباتـــه .

على أنّنا نستطيع أن نلمح في بعض المصادر أنّ القاضي الفاضل كان أحـــد ثلاثة أخوة[١] عاشوا بعسقلان قبل سقوطها بيد الفرنج ،وأنّه قد نشأ في بيت علـــم وأدب وتديّن ،إذ كان والده قاضيا لمدينة عسقلان في عهد خليفة مصر الحافـــظ[٢] فعني به والده ونشّأه تنشئة دينيّة وأدبيّة ،فحفّظه القرآن الكريم وديوان الحماســـة[٣] وديواني الطّائيين على ما ذكره ابن العماد[٤] ،قبل أن يصل إلى الخامسة عشرة من عمـره وربّما كان يسعى من وراء ذلك إلى أن يكون الفاضل قاضيا مثله ،لولا أنّه لم يكـــن على وفاق مع والي عسقلان آنذاك . وربّما كان هذا هو السبب في أنّـه أرسل ابنـــه إلى مصر ليتعلّم الكتابة فيها ،وبشق طريقه بعيدا عن خصوم أبيه . قال ضياء الدّيـــن ابن الأثيـــــر : ((... حدّثني عبد الرّحيم بن عليّ البيساني — رحمه اللّـــه — بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمئة ،وكان إذ ذاك كاتب الدّولة الصلاحيّـــة

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٣٤٣ ،شذرات الذهب : ٤ / ٣٢٤ ـــــ ٣٢٥ مفرّج الكروب : ٣ / ٨٤ — ٨٥ ،السلوك : ١ / ١٢٧ .

(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ،ص: ١٤٤ ،الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق١ / ١٢٨ ، وفيات الأعيان : ٧ / ٢٢٠ ،طبقات الأسنويّ : ٢ / ٢٨٣ .

(٣) انظر الوشي المرقوم ،ص: ٩ ،وفيات الأعيـــان : ٧ / ٢٢٠ ،الرّوضتيـــــن حلمي ،جـ١ ق٢ / ٤٨٨ ،طبقات الأسنويّ : ٢ / ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٤) انظر شذرات الذهـــب : ٤ / ٤٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقال: كان فن الكتابة بمصر في زمن الدّولة العلويّة غضا طريّا ،وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا ،ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا ،وكان من العادة أنّ كلا من أرباب الدّواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلّم الكتابة ويتدرّب ويرى ويسمع. قال: فأرسلني والدي ،وكان إذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان ،إلى الديار المصريّة في أيّام الحافظ،وهو أحد خلفائها ،وأمرني بالمسير إلى ديوان المكاتبات،وكان الّذي يرأس به في تلك الأيام رجلا يقال له (ابن الخلاّل)[1] فلمّا حضرت الدّيوان ،ومثلت بين يديه وعرّفته من أنا وما طلبتي ،رحّب بي وسهّل ،ثم قال لي : ما الّذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت : ليس عندي شيء سوى أنّي أحفظ القرآن الكريم ،وكتاب (الحماسة) . فقال في هذا بلاغ،ثم أمرني بملازمته. فلمّا تردّدت إليه وتدرّبت بين يديه ،أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة فحللته من أوّله إلى آخره ،ثم أمرني أن أحلّه مرة ثانية فحللته[2]».

ولكن حماس الفاضل وحبّه للكتابة والأدب دفعاه إلى الاستزادة والتوسّع فلم يكتف بالتدرّب على ابن الخلاّل ،بل تردّد على علم آخر من أعلام الكتابة والأدب في عصره بمصر ،كان يسميه ذا البلاغتين ، وكان يشارك أُستاذه ابن الخلاّل في ديوان

---

(١) وهو : الموفق أبو الحجّاج يوسف بن محمّد المعروف بابن الخلاّل (٥٦٦هـ)، صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ العبيديّ ومن بعده ،ولم يزل في ديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة وتسلّم مقاليد الأمور أسد الدّين شيركوه ،فانقطع في بيته ،وتولّى الدّيوان نيابة عنه القاضي الفاضل تلميذه الّذي تخرّج على يديه. انظر ترجمته وأخباره في الخريدة (قسم مصر) : ١/ ٢٣٥—٢٣٧ ،وفيات الأعيان ٧/ ٢١٩—٢٢٥. نكت الهميان ،ص: ٣١٤—٣١٦ ،البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٤ ،وغيرها.

(٢) الوشي المرقوم ،ص: ٩ ،وفيات الأعيان : ٧/ ٢١٩—٢٢٠ ،الرّوضتين ،حلمي جـ١ ق ٢/ ٤٨٨ ،طبقات الأسنوي: ٢/ ٢٨٢—٢٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنشاء ،وهو ابن قادوس[١] . قال أبو شامة :((. . . وبلغني أنّ القاضي الفاضل كان يعظّم أبا الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس كاتب الإنشاء بالحضرة المصريّة ،وأصله من دمياط ،وكان يسميه ذا البلاغتين ،وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه . وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلاّ في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر ،ومن منزله إلى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والأدب والشعر))[٢] .

ومما تقدّم ،نتبيّن مدى شغف الفاضل بالعلم وطلبه وحرصه على توسيع مداركه ومعارفه . ولذا فليس غريبا أن يجمع من ترجموا له وتحدّثوا عنه على حبّه للكتابة وتعلّقه بها . يقول الذّهبيّ : ((. . . كان ذا غرام بالكتابة والكتب أيضا))[٣] .

ويبدو لي من خلال أشعاره الّتي وصلتنا ،أنّه لم يكن مرتاحا لما وصل إليه بالقاهرة في ديوان المراسلات ،إذ إنّه كان متبرما شاكيا من قلّة رزقه ،مع براعته واتقانه لفن الكتابة . وهذا واضح في قوله :

أرى الكتّاب كلّهم جميعا ... بأرزاق تعمهم سنينا

ومالي بينهم رزق كأنّي ... خلقت من الكرام الكاتبينا (٤)

وفي قوله أيضا :

تعس الكاتب الشقيّ فما أشـ ... ـقاه بالأمر بين هذي الخليقة

خير أيّامه ولا خير فيها ... يوم يلقى من بكرة وجه ليقة (٥)

والدراريع[٦] فخره وهو منها ... في ثياب من صدره مشقوقة (٧)

---

(١) وهو : أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس (٥٥١هـ) ،كاتب الإنشاء بالدّيار المصريّة ،وهو من شيوخ القاضي الفاضل في الكتابة والأدب والشعر . انظر : الخريدة (قسم مصر) : ١/ ٢٢٦—٢٣٤ ،الرّوضتين حلمي ،جـ١ ق٢/ ٢٦٠ ،البداية والنهاية : ١٢/ ٢٣٥ ،صبح الأعشى : ١/ ٩٢، والنكت العصريّة ،ص: ٣٥ ،وحسن المحاضرة : ٢/ ١٤٦ .

(٢) الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢/ ٢٦٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٢١/ ٣٤٣ ،وانظر : خطط المقريزي : ٢/ ٣٦٧ ،شذرات الذهب ٤/ ٣٢٥ ،الدّارس : ١/ ٩١ .

(٤) ديوان القاضي الفاضل : ٢/ ٣٨٦ .

(٥) الليقة : صوفة الدواة إذا بلت بالحبر . (لسان العرب : ليق) .

(٦) الدّراعة : ثوب من صوف أو جبّة مشقوقة المقدّم (لسان العرب : درع) .

(٧) ديوان القاضي الفاضل : ٢/ ٣٧٠—٣٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفاضل في دواوين الفاطميين :

لمّا أحسّ الفاضل أنّ ثقافته قد نضجت ، وأنّه امتلك أدوات فنّه الّذي أحبّه أخذ يفكر في وظيفة يشغلها في دواوين الدّولة تؤمن له ولأسرته عيشا كريما ، وتحقق له بعض ما كان يصبو إليه ، ولا سيّما بعد وفاة والده وقدوم إخوته إليه بعد سقوط عسقلان بيد الفرنج (١) ، من أجل ذلك شخص الفاضل إلى مدينة الإسكندريّة حيث واليها والناظر في أمورها ، ابن حديد ، فاستكتبه وقرّر له راتبا يتقاضاه (٢) . قال ابن خلّكان : ((ثمّ توجّه القاضي الفاضل إلى ثغر الإسكندريّة ، وحضر عند ابن حديد قاضي البلد وناظره ، فعرّفه بوالده ، فعرفه بالسمعة واستكتبه)) (٣) ، ويقول المقريزيّ : ((... وخدم الموفق يوسف بن محمّد بن الخلّال صاحب ديوان الإنشاء في أيّام الحافظ لدين اللّه ، وعنه أخذ صناعة الإنشاء ، ثمّ خدم بالإسكندريّة مدّة)) (٤) .

وفي هذه الأثناء تجلّت مواهب القاضي الفاضل في رسائله الّتي كان يكتبها عن ابن حديد إلى القاهرة ، فاستطاع بمهارته وحذقه وتمكنه في فن الكتابة أن يشدّ انتباه العادل رزّيك (٥) إلى رسائله ، فبعث في طلبه وعيّنه رئيسا لديوان الجيش

---

(١) انظر وفيات الأعيان : ٧/٢٢١ .

(٢) انظر نهاية الأرب : ٢٧/٢٠٢ (مخطوط) .

(٣) وفيات الاعيان : ٧/٢٢١ .

(٤) الخطط : ٢/٣٦٦ ، وانظر : وفيات الأعيان : ٣/١٦٢ ، سير أعلام النبلاء : ٢١/٣٣٩ ، وتاريخ الأدب العربي ٦/٩ ، وكتاب :
The Encyclopedia of Islam, P: 607

(٥) وهو : العادل رزّيك ابن طلائع بن رزّيك ، ولي الوزارة للعاضد آخر خلفاء الفاطميين بعد وفاة أبيه طلائع سنة (٥٥٦هـ) ، حتى خرج شاور السعديّ فقتله سنة (٥٥٨هـ) . انظر : النكت العصريّة ، ص : ٥٣ وفيات الأعيان : ٢/٤٤٠ وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالقاهرة . قال عمارة اليمنيّ : ((. . . ومن محاسن أيّامه وما يؤرّخ عنها ، بل هي الحسنة التي لا توازى ، واليد البيضاء الّتي لا تجازى ، خروج أمره إلى والي الإسكندريّة بتسيير القاضي الأجلّ الفاضل أبي عليّ عبد الرّحيم بن عليّ البيسانيّ إلى الباب واستخدامه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش ، فإنّه غرس منه للدّولة ، بل للملّة شجرة مباركة متزايدة النماء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها)) (١) . وبذا تسنّى للفاضل أن يعود إلى القاهرة مرّة ثانية بعد أن مكث في الإسكندريّة زهاء ثماني سنوات (٢) تلبية لرغبة وزير الدّولة الفاطميّة آنذاك ، ابن رزّيك ، الّذي اصطفاه لنفسه ، ومكّنه من تحقيق بعض ما كان يصبو إليه ، لأنّ الفاضل كان يسعى إلى الاتصال بالحكّام لينال مركزا يستحقه ويليق به . وكأنّي بالفاضل قد أحسّ وهو بالإسكندريّة بأنّه قد وضع في غير مكانه الّذي كان يطمح إليه . ولذا نراه يخاطب ابن رزيك في إحدى قصائده ، فيقول :

وكان ليَ الدّهرُ الغَشُومُ محارِباً ... وقد وَضَعَت أوْزارَها عِنْدَكَ الحَرْبُ
ضرائبُ فَضْلٍ قد سَعِدتُ بِقُرْبِها ... فما فاتَ عيني من ضروبِ العُلا ضَرْبُ
فيا هُمَّ حَرْبٌ ثمّ لا صُلْحَ بَعْدَها ... ويا دَهْرُ صُلْحٌ مالنا بعدَهُ عَتْبُ (٣)

وقد ظنّ الفاضل أنّ الدّنيا قد صفت له ، وأنّه قد حقق ما أراد عندما اتّصل بابن رزّيك وزير مصر ، إلاّ أنّ الفتن والمؤامرات الّتي كانت تحاك في مصر من أجل الوزارة عصفت بتلك الأماني بعد أنْ قتل ابن رزّيك الّذي أحبّه على يد شاور

---

(١) النّكت العصريّة ، ص: ٥٣ — ٥٤ ، وانظر: وفيات الأعيان : ٣ / ١٦٢ ، سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٣٣٩ — ٣٤٠ ، طبقات الأسنويّ : ٢ / ٢٨٣ — ٢٨٤ ، الخطط ٢ / ٣٦٦ ، البداية والنهاية : ١٢ / ٢٦ ، الدارس : ١ / ٩٠ — ٩١ .

(٢) انظر : القاضي الفاضل ، ص: ١٤ ، ورسائل عن الحرب والسلام ، ص: ٦ .

(٣) ديوان القاضي الفاضل : ١ / ١٥٩ — ١٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السعديّ ،فرثاه الفاضل رثاء حارا عبّر فيه عن تعلّقه به ووفائه له حتى بعد موته اعترافا بفضله عليه ،ومن ذلك قوله:

وكانَ حقكُمُ لو كانَ لي قِبَلٌ أنْ ينصر السّيفُ لا أنْ ينصر القَلَمُ (١)

ولمّا تبيّن الفاضل أنّ وفاءه للوزارة السابقة ولآل رزّيك سيحول دون تحقيق طموحاته ،حاول أن يتصل بالوزارة الجديدة لكي يحقق هذه الطموحات، ويحافظ على مركزه الّذي وصل إليه . وما لبثت صلاته مع الكامل ابن شاور أن أصبحت متينة فتوسط له هذا عند أبيه ،فعيّنه مساعدا للموفق ابن الخلّال في ديوان الإنشاء. يقول أبو شامة في ذلك: ((... ثمّ اتّصل بالكامل ابن شاور ،فاستكتبه وزاحم به كتّاب القصر))(٢). وقد استطاع أن يحوز على ثقة شاور وأبنائه ،فقرّبوه منهم ،واتّخذوه مستشارا مؤتمنا لأسرارهم دون غيره من كتّاب الديوان . قال عمارة اليمنيّ: ((... حدّثني القاضي الأجلّ الفاضل عبد الرّحيم بن عليّ البيسانيّ ،قال: أنا أذكر ،وقد خلونا في خيمة وليس معنا أحد ،إنّما هو شاور وابنه الكامل ،وأخوه نجم))(٣). فليس غريبا والحالة هذه أن يسجن الفاضل مرارا مع آل شاور عند ما خرج عليهم ضرغام(٤).

وقد مكنته صلته بآل شاور واخلاصه لهم في أصعب المراحل التي مرّوا بها في نزاعهم مع ضرغام أن يكون الرّجل الثاني في ديوان الإنشاء بعد ابن الخلّال بمصر إذ كان ينوب عنه في حالة مرضه حتى توفي ،فقام مقامه ،وكتب بين يدي العاضد آخر خلفاء الفواطم ،فهو الّذي كتب منشوري الوزارة عن العاضد لشيركوه وصلاح الدّين بعد قتل شاور(٥).

---

(١) ديوان القاضي الفاضل : ٢/٤٠٦.

(٢) الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢/٤٠٣ ،وانظر: الخطط: ٢/٣٦٦ ،والبداية والنهاية : ١٢/٢٥٩. وفيه أنّ آل شاور هم أوّل من استقدموا الفاضل من الإسكندريّة . وهذا مخالف لجمهرة المؤرّخين .

(٣) النّكت العصريّة ،ص: ٧٩ ،وانظر: الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢/٤٠٠.

(٤) انظر: الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢/٤٢٠.

(٥) انظر: صبح الأعشى : ١٠/٨٠—٩٨،ومسالك الأبصار ٧/٢٨٦ ،التعريف بالمصطلح الشريف،ص: ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرّغم من تلك المكانة الرفيعة الّتي وصل إليها القاضي الفاضل في دواوين الفاطميين ،إلاّ أنّه لم يكن راضيا بدولتهم الّتي كانت تعاني من الفوضى والاضطراب نتيجة لما يحاك فيها من دسائس ومؤامرات من أجل المناصب،في حين كان العدوّ يتربّص بها وينتزع أملاكها في بلاد الشام. ويتضح ذلك في تحريضه لنور الدّين على الاستيلاء على مصر،ولا سيّما حينما تيقن من ضعفها وعجزها عن حماية نفسها . يقول الفاضل في ذلك:

وما بعدَ مِصرٍ للفتى مُتطلّبٌ وما بعدَ هذا المالِ مالٌ فيكتَسَبْ
ولـوأنّه في البأسِ يمضي أو النّدى لهانَ ولكنْ في الأغاني وفي الطّرَبْ (١)

ويأتي أسد الدّين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدّين على رأس حملة أرسلها نور الدّين محمود لكي يضع حدّا للتدخّل الصليبيّ في شؤون مصر الدّاخليّة وليخلّصها من حياة الفوضى ومؤامرات الوزراء . وحين يتولى شيركوه الوزارة للعاضد آخر خلفاء مصر بعد قتل شاور ،يطلب من الدّيوان كاتبا،فيكون الفاضل. قال أبو شامة: ((. . . ولما استقلّ أسد الدّين بالوزارة ، طلب من القصر كاتب إنشاء ،فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرّحيم بن عليّ البيسانيّ))(٢)، ويقول المقريزيّ:((. . . فلمّا ملك أسد الدّين شيركوه ،احتاج إلى كاتب ،فأحضره وأعجبه إتقانه وسمته ونصحه فاستكتبه))(٣). ومما يؤكد لنا إعجاب شيركوه بالقاضي الفاضل ،أنّه أمر في غير مرّة بقراءة منشور الوزارة الّذي كتبه له عن العاضد عند ما تولّى الوزارة لِما رأى فيه من براعة ووعي وحسن تناول للأمور الّتي عالجها فيما كتبه(٤).

---

(١) ديوان القاضي الفاضل : ٢/٤١٧.
(٢) الرّوضتين ،حلمي ،ج١ ق٢/ ٤٠٣.
(٣) خطط المقريزيّ: ٢/٣٦٦ ،وانظر: الدّارس: ١/٩١ ،والشذرات:٤/٣٢٥.
(٤) انظر الرّوضتين ،حلمي ج١ ق٢/ ٤٣٦ — ٤٣٧ ،بيروت : ١/١٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفاضل في كنف صلاح الدّيـــن :

بعد أن مات شيركوه ، خلفه في وزارة العاضد ابن أخيه صلاح الدّيـــن الأيّوبيّ ، ففوّض إلى الفاضل الوزارة وديوان الجيش[١] ، وقرّبه منه فاتّخذه كاتبه ووزيره ومستشاره في الحلّ والترحال ، ومنحه ثقته حتى أصبح من خاصّته المحبّبة إلى نفسه ، لا يقدم على فعل شيء إلاّ بمشورته ورأيه . قال سبط ابن الجوزي : ((وكان الفاضل حاكما على الجميع وهو المشار إليه بالسّيف والقلم ، لا يصدر السلطان إلاّ عن رأيه ، ولا يمضي في الأُمـــور إلاّ بمضاتـــــه))[٢] . ويقول المنذريّ : ((... وتقلّب في الأُمور الدّيوانيّة بالدّولـــة المصريّة ، ثمّ وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدّين ، وكان الغالب على أُموره ، وتقدّم عنده كثيرا وركن إليه ركونا تامّـــا))[٣] . ويقول ابن الساعي : ((... وكان صلاح الدّيـــن يحترمه ويعظّمه ويرجع إلى قوله واشارتـــه))[٤] . وأمّا ابن فضل اللّه العمري فيقـــول : ((... كان الفاضل ــ رحمه اللّه ــ هو الدّولة الصلاحيّة . كان كاتبها ووزيرها ، وصاحبها ومشيرها ، والحامل لكلها ، والحاكم في كلّها ، والمجهز لبعوثها ، والمبرّز عند إقعـــاء ليوثهـــا ...))[٥] . ويقول السبكيّ : ((... وكان صديق السلطان صلاح الدّيـــن وعضده ووزيره ، وصاحب ديوان إنشائه ، ومشيره ، وخليطه ، وسميره))[٦] . وأمّـــا ابن كثيـــر فيقـــول : ((... وكان أعزّ عليه من أهله وولده))[٧] . ويقول المقريزيّ : ((... فجعلـــه وزيره ومشيره بحيث كان لا يصدر أمرا إلاّ عن مشورته ، ولا ينفذ شيئا إلاّ عن رأيـــه ولا يحكم في قضيّة إلاّ بتدبيـــره))[٨] .

---

(١) انظر : صبح الأعشـــى : ١/٩٧ .
(٢) مرآة الزمـــان ، ق١ جـ٨/ ٤٣٤ .
(٣) التكملة : ٢/٢١٠ ، وانظر وفيات الأعيان : ٣/١٥٨ ، سير أعلام النبـــلاء : ٢١/٣٤٢ ، الدّارس : ١/٩١ .
(٤) الجامع المختصـــر : ٩/٢٩ .
(٥) مسالك الأبصـــار : ٧/٢٨٧ (مخطوط) .
(٦) طبقات الشافعيّـــة : ٧/١٦٧ .
(٧) البداية والنهاية : ١٣/٢٤ وانظر أيضا جـ١٢/٢٩١ ، والشذرات : ٤/٣٢٥ .
(٨) الخطط : ٢/٣٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممّا تقدّم ،ندرك أنّ الفاضل قد نال مكانة مرموقة لدى سلطانه صلاح الدّين مثلما نال ثقته المطلقة الّتي لم يحظ بها أحدٌ في مملكته الواسعة من رجال دولته وآل بيته . ولا ريب في أنّه كان لهذه الثّقة أسباب كثيرة منها : أنّ القاضي الفاضل كان عونا لصلاح الدّين فيما قام به من اصلاحات سياسيّة ومالية وحربيّة (١) ،إذ سانده في تحقيق حلمه الّذي لازمه منذ ولي الوزارة في مصر بعد عمّه ، ألا وهو توحيد القوى الإسلاميّة المتنازعة في بلاد الشام والجزيرة ،وتحرير المقدّسات الإسلاميّة من أيدي الغزاة . يقول معاصره العماد الأصفهانيّ حين يتحدّث عنه: ((. . . سلطانه مطاع والسلطان له مطيع ،والسلطان — رحمه اللّه — من مفتتحات فتوحه ومختتماتها ومبادئ أُمور دولته وغاياتها ما افتتح الأقاليم إلاّ بأقاليد آرابه وآرائه)) (٢) . ويقول ابن كثير:((. . . وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلاد ،هذا بحسامه وسنانه ،وهذا بقلمه ولسانه وبيانه)) (٣) . ويضيف المقريزيّ قائلا :((. . . واستعان به على ما أراد من إزالة الدّولة الفاطميّة ،حتى تمّ مراده)) (٤) . ومنها أنّ القاضي الفاضل كان يتحمّل عن سلطانه أعباء الدّولة وتدبير أُمورها في حالة انشغاله بمحاربة الصليبيين في بلاد الشام إذ كان ينوب عنه مع أحد أفراد أُسرته (٥) ،ويجهز له الجيوش والأساطيل ،ويمدّه بنصحه ومشورته ،حتى وهو بعيد عنه . قال العمريّ :((. . . وكان إذا تأخر السلطان في بلد ناب عنه فيه ،أو كان رداً لمن ينوب من إخوة السلطان وبنيه ،ويكون هو القائم

---

(١) انظر ما قام به الفاضل من إصلاحات مالية وغيرها في الرّوضتين ،حلمي جـ١ ق٢/ ٥٢٦—٥٢٧ ،وطبعة بيروت: ٢/ ٤، ٧، ٥٥ ،ثم أنظر The Encyclopedia of Islam, P: 607. والقاضي الفاضل،ص : ٢١ ،وغيرهما .

(٢) الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ٢٤١ .

(٣) البداية والنهاية : ١٣/ ٢٤ .

(٤) الخطط : ٢/ ٣٦٦ .

(٥) فقد ناب عنه بمصر مع أخيه العادل ،ومع ابن أخيه تقيّ الدّين ثمّ مع ابنه العزيز ، ((فجمع العزيز بمقامه هيبة ومحبة)) . انظر الرّوضتين ،حلمي جـ١ ق٢/ ٧٠٧ ،وطبعة بيروت: ٢/ ٥١، ١٥٢، ١٨٢ ،وانظر مفرّج الكروب: ٢/ ١٥٢ ،وغيرهما .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالملك ،القائل بالحياة والهلك))[١] . ويقول أبو شامة في حوادث سنة ست وثمانين وخمسمئة حين كان السلطان محاصرا لعكّة :((. . . وكان القاضي الفاضل ـ رحمه اللّه ـ في هذه الأوقات بالدّيار المصريّة ،يرتّب للسلطان أُموره ،من تجهيز العساكر وتعمير الأسطول ،وحمل المال ونقل اليسير إلى عكّة ،والسلطان بمكاتبه في مهماته ،وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيرا ،وناصحا ومسليا وباحثا عن مصالح الإسلام متفقصيا))[٢] . ومنها أيضا ،أنّ القاضي الفاضل كان مخلصا لسلطانه في نصحه ومشورته ،فكان يخفف عنه حزنه ويبث فيه روح الثقة والصبر والجلد . ففي سنة أربع وثمانين وخمسمئة ،كان السلطان على حصار صفد ،فظهرت طائفة من أنصار الفاطميين بمصر تدعو لإعادة الدّولة الفاطميّة ،فأزعج ذلك السلطان وأهمه . فقال له الفاضل :((. . . يجب عليك أنْ تشكر اللّه على هذه النعمة ،فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعيتك ،أليس لم يلب دعوتهم أحد وأنّه لم يكن لهم من يمدّهم ؟ فطب نفسا ،وزد بمنزلتك عند اللّه تعالى أُنسا . فقال السلطان : كان الملوك قبلي تخافهم وتهرب منهم الرعيّة . . . فقال له : أنت أولى بشكر اللّه على هذه المعارفة ، . . . فاغرورقت بالدموع عيناه وبالسماح يداه ،وأقسم أنّه ما عاش لا يردّ قاصدا ولا يصدّ وافدا))[٣] . ومنها ما كان الفاضل يتمتع به من صفات حميدة تمثلت في كفايته وإخلاصه وتدينه وتقواه وحسن تصريفه للأُمور وسداد رأيه . قال أبو شامة ((. . . واستمرّ في الدّولة ،ولم يزدد في كلّ يوم إلاّ تقدّما بصدقه ودينه ،وحسن رأيه))[٤] . ولهذا كلّه أحبّه السلطان صلاح الدّين وتعلّق به تعلقا عظيما حتى إنّه لم يكن يقوى على فراقه والبعد عنه ،إلاّ إذا كانت مصلحة الدّولة تقتضي ذلك فكان يفرح للقائه ،ويتشوّق لحضوره إنْ غاب عنه قال العماد الأصفهانيّ في حوادث سنة ست وثمانين وخمسمئة :((. . . ووصل القاضي الفاضل من مصر إلى المعسكر المنصور في ذي الحجّة ،وكان السلطان متشوّقا لقدومه ،وطالت مدّة البين لغيبته عنه سنتين . على

---

(١) مسالك الأبصار : ٧/٢٨٧ . (مخطوط) .
(٢) الرّوضتين ،بيروت : ٢/١٦٥ ،وانظر البداية والنهاية : ١٢/٣٣٤—٣٣٥ .
(٣) الرّوضتين ،بيروت : ٢/١٣٧—١٣٨ ،والكامل : ٩/١٩٧ ،ومفرّج الكروب ٢/٢٧٩ — ٢٨٠ والبداية والنهاية : ١٢/٣٣١ .
(٤) الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ق ٢/٤٠٣ ،وانظر : الخطط : ٢/٣٦٦ ،شذرات الذهب : ٤/٣٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنّ أُمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبّة ،وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبّة . وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ،دائم الاعتماد .والاستناد على إحسانه وإلى أركانه ،فإنْ استقدمه خاف على ما وراءه من المهام ،وإنْ تركه نال وحشة التفرّد بالقضايا والأحكام . وكان يكاتبه بشرح الأحوال يستشيره ،والنجّابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشاره في المهمّات. فوصل إلى القدس ، واعتاق بتوالي الأمطار ثمّ وصل في ذي الحجّة ،ورجع الفضل ،واجتمع الشمل ،واستأنس الملك بصاحب تدبيره وتأسس ركنه برأي مشيره)) (١) .

وقد كان السلطان شديد الحرص على الفاضل ،إذ كان يحرص عليه حرصه على نفسه وأهله ، وربّما بأكثر من ذلك. وهذا واضح في موافقته الّتي بعث بها إلى القاضي الفاضل حينما استأذنه في أداء فريضة الحجّ سنة سبعين وخمسمئة إذ يقول: ((... وصلني كتاب القاضي الفاضل ،وهو يذكر أنّه مصمم على الحجّ (اللّه يجعله مبارك ميمون) . ولكن لا أفسح له فيه إلاّ بعد ثنتين ،واحدة: (أنّه لا يركب بحر) يسير من العسكر إلى أيلة ،ومنها يتوجّه ،ويقيم العسكر على أيلة ليلة وعلى إرم ليلة ودون إرم ليلة ،وقاطع إرم ليلة ،فيكون هو قد بعد وما يبقى عليه خوف إنْ شاء اللّه ـ تعالى ـ . وثانية: تأخذ يده وتحلّفه برأسي أنْ لا يجاور...))(٢).

وممّا يؤكّد لنا حبّ السلطان العميق للفاضل واصغاءه لنصحه ومشورته أنّه عطّل حجّه بناء على رأي الفاضل ،لأنّ الفرنجة كانوا ما يزالون في ديار الإسلام (٣) ، فوافقه السلطان ولم يحج .

وكان السلطان يتفاءل به ،ويرى البركة في وجهه. قال صلاح الدّين مخاطبا الفاضل حينما قدّم إليه العماد الأصفهانيّ : ((... مالي عنك مندوحة ،أنت كاتبي ووزيري ،وقد رأيت على وجهك البركة)) (٤) . ولذا كان يحرص على أنْ يصطحبه معه

---

(١) الفتح القسّي ،ص: ٤٦١–٤٦٢ ،وانظر: الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ١٨٢ .
(٢) الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ٧ .
(٣) انظر : الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢٠٥ ،وانظر أمثلة أخرى من اصغاء السلطان لنصحه في المصدر نفسه: ٢/ ٥١ ،ومفرّج الكروب: ٢/ ١٥٢ ،وغيرهما .
(٤) النّجوم الزاهرة : ٦/ ٧٤ ،وانظر شذرات الذهب : ٤/ ٣٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في بعض معاركه الّتي خاضها في بلاد الشام مع الصليبيين ، وإنْ تأخّر عنه لعذر أو مرض، كان يزوره ويودّعه ، حتى يستأنس برأيه ويكون آخر من يراه قبل خروجه إلى الجهاد . قال أبو شامة :((... ثمّ همّ بالغزاة ، فبدأ بزيارة القاضي الفاضل ، وكان مقيما بجوسق ابن الغرّاش بالشرف الأعلى في بستانه ، فاستضاء برأيه فيما يريد فعله وكان لا يأتي أمرا إلاّ من بابه ، فأقام عنده إلى الظهر ، ثمّ ودّعه ورحل))(١).

ومن هذا كلّه ، يتضح لنا أنّ نفس الفاضل قد هدأت واطمأنت في كنف صلاح الدّين الّذي منحه ثقته كاملة ، ورفعه إلى أعلى المناصب في دولته ، إذ كان مستشاره في السلم والحرب، ولسانه المعبّر عنه إلى الملوك والأمراء داخل الدّولة وخارجها ، فوجد الفاضل في كنفه نفسه ، وحقق على يديه ما كان يصبو إليه من المناصب وما كان يطمح فيه من جمع الشمل الإسلاميّ وتحرير المقدّسات الإسلاميّة من الصليبيين فحق للفاضل أنْ يقول في رثائه :

وَقَرّتْ به عَيْنايَ دَهْراً فَحَقّقَهُ ... إذا أصْبَحَتْ عَيْنايَ باكِيَتَيْهِ (٢)

ولقد أخلص لصلاح الدّين ودولته أيّما إخلاص، وخدمهما بكلّ ما لديه من مواهب ، بقلمه ، وفكره ، ونصحه ، ونفسه . ولذا فليس غريبا أنْ يخاطب صلاح الدّين جنده وكبار رجال دولته مؤكّدا لهم دور الفاضل وأهميته فيما حققه من انتصارات على الصليبيين وذلك إذ يقول :((لا تظنوا أنّي ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم الفاضل))(٣).

ويلقى السلطان وجه ربّه بدمشق ، وبجواره صديقه ووزيره القاضي الفاضل الّذي كفّنه(٤) ، وأشار بأنْ يدفن معه سيفه الّذي حارب به(٥) ، وتمنّى مخلصا أنْ يغدي نفسه(٦) .

---

(١) الرّوضتين ، بيروت: ٢/ ١٢٥ ، مفرّج الكروب: ٢/ ٢٥٥ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣٣٠ ، وانظر كذلك أمثلة أخرى على ذلك في الرّوضتين ، حلمي جـ١ ق٢/ ٧٠١-٧٠٢ ، وبيروت: ٢/ ٥٢ ، ٥٤ ، ٨٧ ، ١٣٥ ، ١٨٢ .

(٢) ديوانه : ٢/ ٤١١ .

(٣) مرآة الزمان : ق٢ جـ٨/ ٤٧٢ ، وانظر النجوم الزاهرة: ٦/ ١٥٧ ، وشذرات الذهب ٤/ ٢٢٧ .

(٤) انظر سيرة صلاح الدّين ، ص: ٢٤٧ ، والرّوضتين ، بيروت: ٢/ ٢١٥ .

(٥) انظر الرّوضتين ، بيروت: ٢/ ٢١٥ .

(٦) انظر ديوان القاضي الفاضل: ٢/ ٤١١ ، وسيرة صلاح الدّين ، ص: ٢٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفاضل في ظلّ خلفاء صلاح الدّين :

بقي الفاضل بدمشق بعد وفاة سلطانه صلاح الدّين مع ابنه الملك الأفضل لكي يكمل معه رسالته الّتي بدأها مع أبيه ،إلاّ أنّ الأفضل أعرض عنه ولم يلتفت إليه ولا سيّما بعد أن استوزر ضياء الدّين ابن الأثير ،الّذي حسّن له ابعاد رجال أبيه فتركه الفاضل وشخص إلى مصر حيث الملك العزيز عثمان الّذي أحسن استقباله وبالغ في احترامه وتقديره. قال ابن واصل :((... ولمّا رأى القاضي الفاضل من الملك الأفضل ووزيره ضياء الدّين ابن الأثير (١) ،مالا يعجبه ،عزم على مفارقة الملك الأفضل والتوجه إلى الديار المصريّة ،واستأذن الملك الأفضل في ذلك ،فأذن له . ولمّا وصل القاضي الفاضل إلى الديار المصريّة ،خرج الملك العزيز عماد الدّين إلى استقباله وأعظمه غاية الإعظام ،وأحلّه محلّ الوالد ،وصار لا يصدر أمرا إلاّ عن رأيه ومشورته (٢))).

ولازم الفاضل العزيز وظلّ مؤثرا له محبّا حتى دبّ النزاع بينه وبين أخيه الأفضل صاحب دمشق ،فحاول الفاضل أنْ يصلح بينهما (٣) ،ولكن سرعان ما ساءت الأحوال واختلّت الأمور ،فآثر الفاضل اعتزال السياسة ولزم بيته ،لأنّ ما فعله خلفاء صلاح الدّين يتعارض مع مبادئه وتطلعاته الّتي عاش حياته من أجلها . فقد تفرّقت الكلمة ، واختلفت الأهواء واختلّت الأمور. قال المقريزيّ في حوادث سنة إحدى وتسعين وخمسمئة : ((... وكان القاضي الفاضل قد تنزّه عن ملابسة الدّولة ومخالطة أهلها ،واعتزل لما رأى من اختلال الأمور (٤)) .

---

(١) ذكر ابن الساعي أنّ الفاضل وزر للأفضل بن صلاح الدّين ،وهذا مخالف لجمهرة المؤرّخين ،انظر: الجامع المختصر: ٩/ ٢٨. وانظر كذلك الأدب في العصر الأيّوبيّ ،ص: ١٩٦.

(٢) مفرّج الكروب: ٣/ ١١—١٢ ،وانظر: الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢٢٨ ،والخطط ٢/ ٢٣٥ ، والسلوك: ١/ ١١٥.

(٣) انظر: مفرّج الكروب: ٣/ ٥٢ وانظر زبدة الحلب: ٣/ ٨٨٠ — ٨٨١ ،الرّوضتين بيروت : ٢/ ٢٣٠.

(٤) السلوك: ق١ ج١/ ١٢٧ ،وانظر الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على أنّ الفاضل بقي محتفظا بمكانته ومنزلته في ظلّ خلفاء صلاح الدّين بصورة عامّة ،وعند الملك العزيز بصورة خاصّة ،إذ كان يستشيره ويستنير برأيه كلّما احتاج إلى ذلك. يقول ابن خلّكان : ((. . . وبعد وفاة صلاح الدّين ،استمّر على ما كان عليه عند ولده الملك العزيز في المكانة والرفعة ونفاذ الأمر)) (١) .

وقد بقيت صلته بالعزيز قويّة متينة حتى توفي فبكاه الفاضل بكاء حارا ،إذ قال معزّيا عمه العادل : ((. . . والمملوك في حال تسطيره هذه الخدمة ،جامع بين مرضي قلب وجسد ،ووجع أطراف وغليل كبد ،فقد فجع المملوك بهذا المولى ،والعهد بوالده غير بعيد ،والأسى في كلّ يوم جديد ، وما كان يندمل ذلك القرح ،حتى أعقبه هذا الجرح)) (٢) .

ومع أن الفاضل اعتزل السياسة ،إلاّ أنّ كبار رجال الدّولة الأيّوبيّة في مصر كانوا يلجأون إلى رأيه ومشورته كلّما استجدّ أمر في الدّولة ،فهو الّذي أشار عليهم بالأفضل ليكون وصيّا على ابن أخيه العزيز بعد وفاته (٣) .

ومما سبق ،يتضح لنا أنّ الفاضل في ظلّ خلفاء صلاح الدّين كان معزّزا مبجّلا ،صاحب رأي ومشورة ،وبقي كذلك حتى لقي ربّه ،قال أبو شامة :((. . . وكانت الدّولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أنْ توفي)) (٤) .

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/١٦٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٣/٢٥٣ .
(٣) انظر مفرّج الكروب: ٣/٨٩ ،وانظر السلوك: ١/١٤٦ .
(٤) الرّوضتين ،بيروت : ٢/٢٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفاتـــــــــه :

اتّفق معظم الّذين تحدّثوا عن وفاة القاضي الفاضل من المؤرّخين على أنّهـــا كانت في شهر ربيع الآخر من سنة ست وتسعين وخمسمئة بالقاهرة[١]، ولكنهم اختلفـــوا اختلافا جزئيا في اليوم الّذي توفي فيه، فمنهم من يرى أنّه توفي في يوم الثلاثـــاء الموافق السادس من ربيع الآخر، وفي مقدّمة هؤلاء العماد الأصفهانيّ الّذي يقـــول ((... وفي هذه السنة، تمّت الرزيّة الكبرى والبلية العظمى، وفجيعة أهل الفضـــل بالدّين والدّنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء فـــي داره بالقاهرة، سادس ربيع الآخر يوم الثلاثاء))[٢]، ومنهم من يرى أنّه توفي في يـــوم الأربعاء السابع من ربيع الآخر، وعلى رأس هؤلاء المنذري[٣]، وقد أيّده في ذلك ابـــن خلّكان، إذ يقول مؤكّدا ما ذهب إليه المنذريّ: ((... وذلك في ليلة الأربعاء سابـــع شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمئة بالقاهرة فجأة، وزرت قبره مرارا، وقرأت تاريخ وفاته على الرّخام المحوّط حول القبر كما هو هاهنـــا))[٤]. وفي هذا ما يدلّ دلالـــة واضحة على أنّه توفي — رحمة اللّه — في يوم الأربعاء السابع من ربيع الآخـــر

---

(١) انظر الكامل : ٩/ ٢٥١، مرآة الزمان ق ٢ جـ٨/ ٤٧٢، تكملة المنذري ٢/ ٢٠٩، الرّوضتين، بيروت: ٢/ ٢٤١، ذيل الرّوضتين، ص: ١٧، الجامع المختصـــر ٩/ ٢٨، وفيات الأعيان : ٣/ ١٦٢، مفرّج الكروب: ٣/ ١٠٩، سير أعـــلام النبلاء: ٢١/ ٣٤٤، العبر: ٤/ ٢٩٣، دول الإسلام: ٢/ ١٠٥، طبقـــات الشافعيّة: ٧/ ١٦٧، طبقات الأسنويّ: ٢/ ٢٨٤، المختصـــر م٢ جـ٥/ ١٢٨، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٤، الإلمام: ١/ ١٧٠، الخطط: ٢/ ٣٦٦، السلوك: ١/ ١٥٤، النجوم الزاهرة: ٦/ ١٥٦، الـــدّارس: ١/ ٩٢، الأنس الجليل: ١/ ٤٠٠، الفلاكة ص: ٨٩، تتمّة المختصـــر ٢/ ١٧٣، الشذرات: ٤/ ٣٢٤، نهاية الأرب: ٢٧/ ٢، وغيرهـــا.

(٢) الرّوضتين، بيروت: ٢/ ٢٤١، وانظر سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٤٤، والبدايـــة والنهايـــة: ١٣/ ٢٤.

(٣) انظر التكملـــة : ٢/ ٢٠٩ — ٢١٠.

(٤) وفيات الأعيـــان : ٣/ ١٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى هذا أجمع معظم مؤرّخيه.(١)

في حين نجد أنّ ابن واصل يذهب إلى أنّه توفي بعد ذلك بعشرة أيّام، إذ يقول: ((... وتوفي القاضي الفاضل عبد الرّحيم بن عليّ البيسانيّ في سابع ربيع الآخر))(٢). وهذا مخالف لجمهرة المؤرّخين الّذين أجمعوا على أنّه السابع من ربيع الآخر، ولم يتجاوزوا هذا التاريخ. ويبدو لي أنّ تصحيفا قد وقع في رواية ابن واصل بين لفظة (شهر) ولفظة (عشر)، لأنّ واحدا على الأقلّ ممّن سبقوه من المؤرّخين لم يذكر أنّه توفّي في غير السادس أو السابع من ربيع الآخر كما رأينا ممّا يجعلنا نطمئن إلى رواية ابن خلّكان الّتي أجمع عليها معظم المؤرّخين. وبهذا يكون القاضي الفاضل — رحمة اللّه — قد عاش سبعة وستين عاما جاهد خلالها عن عقيدته ووطنه بقلمه وفكره ولسانه. وممّا يذكر هنا، أنّ القاضي الفاضل الّذي عاش عزيزا مكرّما في ظلّ صلاح الدّين وخلفائه، أحسّ أنّه سينتقص من قدره ومكانته على يد ابن شكر(٣) وزير العادل، إذ كانت بينهما وحشة، فتمنّى الفاضل أن يموت قبل أن ينال أحد من كرامته. قال سبط ابن الجوزيّ: ((لمّا تيقّن الفاضل استيلاء العادل على القاهرة، دعا على نفسه بالموت خوفا من ابن شكر وزير العادل، فإنّه كانت بينه وبينه وحشة، فخاف أن يستدعيه ويهينه، فقام تلك الليلة يبكي، ويصلّي فأصبح ميّتا))(٤) ويقول أبو شامة: ((وحكي عن الملك المحسن بن

---

(١) انظر طبقات الأسنويّ: ٢/٢٨٤، الخطط: ٢/٣٦٦، الأنس الجليل: ١/٤٠٠، الدّارس: ١/٩٢، والتكملة: ٢/٢٠٩، وغيرهم.

(٢) مفرّج الكروب: ٣/١٠٩، وانظر المختصر: م٣ جـ٥/١٢٨.

(٣) وهو: أبو محمّد صفي الدّين عبد اللّه بن عليّ بن عبد الخالق بن شكر (٦٢١هـ)، كان وزيرا مهيبا عالما فاضلا، مات بالقاهرة، وله بها مدرسة، وكان مؤثرا لأهل العلم والصالحين. كان يقول: ((ما في قلبي حسرة إلّا ابن البيساني، وما تمرّغ على عتباتي — يعني القاضي الفاضل)). انظر ذيل الرّوضتين، ص: ١٤٧، فوات الوفيات: ٢/١٩٣—١٩٥، البداية والنهاية: ١٣/١٠٩، وخطط المقريزيّ: ٢/٣٧١.

(٤) مرآة الزمان: ٨/٤٧٢—٤٧٣، وانظر: سير أعلام النبلاء: ٢١/٣٤١، النجوم الزاهرة: ٦/١٥٧، الدّارس: ١/٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صلاح الدّين أنّه قال : اتّفق يوم وفاة الفاضل يوم دخـــول العادل القاهـــــرة دخل من باب النّصـــــــر ،وخرجنا بجنازتـــه من باب زويلـــــة))[١]

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

---

(١) الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢٤٤ ،وانظر المرآة: ٨/ ٤٧٣ .

الفصل الثاني : النثر من حيث المضمـــــــــون :

أوّلا : الحافز الدّينـــــي

ثانيا : الدعوة إلى الوحدة الإسلاميـة

ثالثا : صورة البطل المسلم

رابعا : صورة الجيش الصليبي

خامسا : صورة المعركـــــة :

١ــ المعارك البريّـة

٢ــ حرب الحصون والقلاع

٣ــ المعارك البحريّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحافـــز الدّينـــي :

قلّ أنْ شهد المسلمون في تاريخ حروبهم حربا أخطر من حروبهم مـــع الصليبيين ،وهي حرب شاركت فيها جميع الشعوب الأوروبية تقريبا ،كما هو واضح في قول الفاضل مخاطبا صلاح الدّين في رسالة وجهها إليه في حصار عكّة :((. . . لمّا اجتمعت كلمة الكفر من أقْطَار الأرض ،وأطراف الدُّنْيـا ،ومغْرِب الشمس ،ومزخـر البحْـــرِ ما تأخّر منهم متأخـــر ،ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ،وخرجوا مـــن ذات أنفسهم الخبيثة ،لا أموال تنفق فيهم ،ولا ملوك تحكم عليهم ،ولا عصا تسوقهـــم ولا سيف يزعجهم مهطعين إلى الدّاعي ،ساعين في أثر الساعي ،وهم من كلّ حـــدب ينسلون ،ومن كلّ برّ وبحر يقبلون ،كنت يا مولانا ، كما قيل ـ أبقاكَ اللّه ـ :

وَلَسْتَ بِمِلْكٍ هَازِمٍ لِنظِيـــرِهِ ولكنّكَ الإسْلامُ للشِّرْكِ هَـــازِمُ*))(١)

ويقول في موضع آخر :((فالعداوة محدقة بكم من كلّ مكان ،والكفر مجتمـــع على الإيمـــان))(٢) .

وممّا تقدّم ،يتبيّن لنا أنّ الصراع الّذي قام بين المسلمين والفرنج قد اتّخـــذ شكل صراع دينيّ كما صوّره القاضي الفاضل فيما وصلنا من أدبه النثريّ الّذي واكـــب المعارك الدائرة بين الطرفين . ومضمون رسالته السابقة إلى صلاح الدّين يؤكّـــده مضمون رسالة أُخرى كتبها عن صلاح الدّين إلى الخليفة العبّاسيّ ، وجـــاء فيها : ((. . . والفرنج ،فهم يعرِفون منّا خصماً لا يملّ الشرّ حتى يملّوا ،وقرناً لا يزال يحرم السّيف حتى يحلّوا ،حتى إنّا لمّا جاورناهم في هذا الأمد القريب ،علمـــوا

(*) العكبريّ ،ديوان أبي الطيّب المتنبّي ،بيروت ١٩٧٨ ، وفيـه :
وَلَسْتَ مَلِيكاً هَازِماً لِنَظِيرِهِ ولكنّكَ التوحِيدُ للشرْكِ هَازِمُ . جـ٣ / ٣٩١ .

(١) الرّوضتين ،بيروت : ٢ / ١٦٨ .

(٢) الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢ / ٥٨٧ ،وانظر أمثلة أُخرى ،ص: ٦١٩ ،والرسائل ص : ٩٧ ،وصبح الأعشـــى : ١٣ / ٨٥ ، وغيرهـــا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنّ المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصّليب))[١]. وإذ يتخذ الغاضل من الصليب رمزا للفرنج، فإنّه يقول عند فتح القدس عام ٥٨٣هـ: ((وتبوّأ أهل القرآن بعد أهل الصُّلْبانِ للقتال عن دين اللّه مقاعد))[٢]. وقد صدر الغاضل فيما كتبه عن حسّ إسلاميّ في المفهوم الشمولي العام الّذي يتجاوز الأعراق والبقاع الجغرافيّة المحدودة، وربط انتصارات المسلمين بالإرادة الإلهيّة كما هو واضح في رسالة له إلى دار الخلافة في بغداد بعد استعادة صلاح الدّين لمدينة عكّة، وقد جاء في تلك الرسالة ((... ودخلناه شاكرين للّه تعالى هذه الموهبة الجسيمة، عارفين للّه تعالى قدْرَ هذه النعمة العميمة، والحمد للّه الّذي رفع كلمة الإيمان وعلاّها، ومحا آية الكفر بالإسلام وجلاّها))[٣]، وكما هو واضح في قوله أيضا، حينما سقط حصن الكرك المنيع في يد صلاح الدّين :((... وقرّعْنا الحديدَ بالحديدِ إلى أنْ ضَجّت النِّصَال من النِّضَالِ، واللّهُ المَشْكُورُ على ما انطوى من كلمةِ الكُفْرِ، وانتشَرَ من كلمةِ الإسلام وإنّ بلادَ الشامِ اليومَ لا تَسْمَع فيها لَغْوَاً ولا تأثيماً، إلاّ قِيلاً سَلاماً سلاماً))[٤].

وما يحلّ بالفرنج من الهزائم يرى فيه الفاضل عقابا لهم من اللّه تعالى، بسبب ما ارتكبوه بحق المسلمين من الأعمال الوحشيّة، حينما دخلوا بلادهم في بداية الغزوّ الصليبي. يقول إثر سقوط بيت المقدس في رسالة وجهها إلى بغداد:((.. وكانت

---

(١) الرسائل، ص: ١٠٩، والرّوضتين، حلمي، جـ١ق٢/ ٦٢٣، وصبح الأعشى ١٣/ ٩٠، وللمزيد من الأمثلة على ذلك، انظر: الرسائل، ص: ٩٥، والرّوضتين حلمي، جـ١ ق٢/ ٦١٧، والوثائق السياسيّة، ط٢: ٤/ ٢٦١، وغيرها.

(٢) الرسائل، ص: ١٦٧، صبح الأعشى: ٦/ ٥٠١، والأنس الجليل: ١/ ٣٤٥، والفاضل من كلام القاضي الفاضل (مخطوط)، ورقة: ٢٢، وانظر مفرّج الكروب: ٢/ ٥٦٨.

(٣) الرسائل، ص: ٤٢، وانظر أمثلة أخرى على ذلك في المصدر نفسه، ص: ٩٧ والرّوضتين، حلمي، جـ١ق٢/ ٦١٩، وطبعة بيروت: ٢/ ١٦٧، صبح الأعشى: ١٣/ ٥٨٥.

(٤) الرّوضتين، بيروت: ٢/ ١٣٦، وصبح الأعشى: ٧/ ٢٤، وللمزيد انظر: الرسائل، ص: ١٠٤، ١٧٢، الرّوضتين، بيروت ٢/ ١٠٠، وصبح الأعشى: ٦/ ٥٠٢-٥٠٣، والأنس الجليل: ١/ ٣٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قُدرةُ اللّهِ تُصَرِّفُ فيه العِنانَ باليمين، عقوبة من اللّهِ ليسَ لِصَاحِبِ يدٍ بها يَدان، وعَثَرَتْ قَدَمُهُ، وكانت الأرضُ لها خليفَةً))(١).

وحين يتحدّث عن جهاد صلاح الدّين وما قام به في حروب الفرنج، يؤكّد الفاضل أنّ صلاح الدّين لا يسعى من وراء ذلك إلى حماية الأرض والمقدّسات الإسلامية فحسب، وإنّما هو يجاهد في سبيل اللّه، لاعلاء كلمته على الأرض ونشر دينه. يقول: ((... وكان الخَادِمُ لا يَسْعَى سَعْيَه لهذهِ المَنْقَبَةِ العُظْمَى، ولا يُقَاسِي البُؤسَى إلاّ رجاءَ هذهِ النُّعْمَى، ولا يُنَاجِزُ من استمطله في حَرْبِهِ، ولا يُعَاتِبُ بأطْرَافِ القَنَا مَن تَمادَى في عَتْبِهِ، إلاّ لتكونَ الكلمةُ مجموعةً، والدّعوةُ إلى ساعِها مرفُوعةً، فتكونَ كلمةُ اللّهِ هي العُلْيا، وليفوزَ بجوْهَرِ الآخرةِ لا بالعَرَضِ الأدنى من الدُّنْيا))(٢).

ويمضي الفاضل إلى ماهو أبعد من ذلك، حين يرى أنّ اللّه هو الذي اختار صلاح الدّين من بين ملوك الأرض لنصرة دينه(٣) ومقارعة أعدائه، وخصّه بهذه الفضيلة دون غيره من الحكّام لما اتّصف به من صفات حميدة وحبّ للجهاد في سبيل اللّه يقول: ((... وكانت نِعْمَةً من اللّهِ يَمُنُّها على المملوك أن انْتَخَبَهُ من بين أهلِ أرْضِهِ وانتَخَبهُ لإقامةِ ما أماتَ الباطِلُ من فَرْضِهِ، وَيَسَّره لما يَسَّره من نُصْرةِ الحقّ وأهلِهِ وبَشَّره بما بَشَّره من لواءِ النّصرِ ومَدّ من ظِلّهِ، وألهمه الهِمّةَ التي افتَرَع منها بِكراً، ومنحه النُّصْرَةَ فما يستطيع العدوُّ صَرْفاً ولا نَصْراً))(٤).

ومّما تقدّم، تتجلّى لنا نظرة القاضي الفاضل إلى جهاد صلاح الدّين للصليبيين، فهو محوط بعناية اللّه ورعايته لأنّه سيف

---

(١) الرسائل، ص: ١٦٢—١٦٣، وصبح الأعشى: ٦/ ٤٩٩، وانظر الإلمام بالأعلام: ١/ ١٦٧.

(٢) الرسائل، ص: ١٦٠، والرّوضتين، بيروت: ٢/ ١٠١، والمفرّج: ٢/ ٢٤٠، وصبح الأعشى: ٦/ ٤٩٨، وانظر أمثلة أخرى: الرسائل، ص: ٥٦، الرّوضتين حلمي، جـ١ ق٢/ ٦١٦—٦١٧، والمفرّج: ٢/ ٢٦—٢٩.

(٣) انظر الرّوضتين، بيروت: ٢/ ١٦٧.

(٤) صبح الأعشى: ٦/ ٥٠٨— ٥٠٩، وانظر أمثلة أخرى في الرسائل، ص: ٣٧ اوصبح الأعشى: ١٠/ ٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من سيوف اللّـــه (١) المسلّطة على الأعداء ،وجنده هم أنصار التوحيد الّذين يقارعـــون أنصار الشرك لرفع راية الإسلام واستعادة المقدّسات الإسلاميّة المغتصبة. ومن ذلـــك قوله من بشارة بفتح عسقلان :((... ومن قصص الفتح أنّها لمّا واجهتها جيوش الإســلام الناصريّة ،وأنصار التوحيد الصلاحيّة ،وأحاط بكفّارها سخط اللّه ،وحقّوا أنْ ينجـــز لهم وعيـــدَهُ (٢) ،...)).

وحين يتحدّث عن معارك صلاح الدّين الّتي خاضها مع الصليبيين وفتوحاتـــه الّتي قام بها ،كان الفاضل يستلهم الكثير من المعاني الإسلاميّة في نثره حتى يستثير همّة المسلمين ،ويستحثهم على مواجهة الغزاة ونصرة الدّين . ولذا فإنّ اللّه ،كما يـــرى الفاضل يمدّ صلاح الدّين بالملائكة (٣) لتساعده في حروبه مع الأعداء.

وصلاح الدّين المجاهد في سبيل اللّه يقود الجيوش بنفسه ،وينتقل بالمسلمين من نصر إلى نصر بعزمه وإرادته القويّة ،حتى استنقذت المقدّسات الإسلاميّة من أيـــدي الصليبيين ،وحررت البلاد ،فأقيمت شعائر الإسلام ،وعاد الدّين قويّا عزيزا مثلمـــا كان من قبل ،ومن ذلك قوله : ((... وهذه أمصار ومُدُن ،وقد تُسمّى البلاد بلادا وهي مَزارِع وفُدُن ،كلٌّ هذه ذواتُ معاقِل ومقاقِر ، وبحار وجَزائِر ،وجَوامِع ومَنائِر ،وجُمُوع وعساكِـــر يتجاوزها الخادم بعدَ أنْ يُحْرزها ،ويتركها وراءه بعدَ أنْ ينتهزَها ،ويحْصُدَ منها كُفْـــراً ويَزْرَع إيمانا ،ويحطّ من منائر جوامِعِها صُلْباناً ،ويرْفَع أذاناً ، ويُبَدّل المذابِحَ منائـــــر والكنائسَ مساجـــــد (٤))) ،ويقول القاضي أيضا بعد تحرير بيت المقدس من بشارة وجهها إلى دار الخلافة مهنئا : ((... وأصبحت الأرض المقدّسة الطاهرة ،وكانت الطامِـــث والربّ الفرد الواحِد ،وكان عندهم الثّالث ،فبيوت الكُفْرِ مهدُومة ،ونيُوب الشّركِ مهتُومة (٥))).

---

(١) انظر الرسائل ،ص: ٣٨. ثمّ انظر أمثلة أخرى في المصدر نفسه ،ص: ١٦ ،وصبح الأعشى : ١٠/ ٩٥ ،وغيرها .

(٢) الرسائل ،ص: ١٤٨.

(٣) انظر الرسائل ،ص: ١٩ ،١٦٤ ،وصبح الأعشى : ٦/ ٤٩٩.

(٤) الرسائل ،ص: ١٦٧ ،وصبح الأعشى : ٦/ ٥٠٠—١٠٥ ،والأنس الجليل: ١/ ٣٤٥.

(٥) الرسائل ،ص: ١٦٣ ،وصبح الأعشى : ٦/ ٤٩٩ ،والأنس الجليل : ١/ ٣٤٣. ثمّ انظر للمزيد من ذلك أمثلة أخرى في الرسائل،ص: ١٥٩ ،وفيات الأعيـــان: ٧/ ١٨٢ ،وصبح الأعشى : ٦/ ٤٩٧ ،والأنس الجليل : ١/ ٣٤٢ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحرصا من القاضي الفاضل على الاستثارة الدينيّة ،ركّز على المعاني والشعائر الدينيّة الإسلاميّة التي رسّخها صلاح الدّين بعد هزائم الغزاة. ومن ذلك قوله في فتح القدس: ((. . . وأوعزَ الخادِمُ بِرَدِّ الأقصى إلى عَهْدِهِ المعْهُود وأقامَ له من الأئمة من يُوَفّيه وِرْدَه ،وأُقيمَت الخُطْبَةُ يومَ الجُمعةِ، فكادت السمواتُ يتفطّرن (١) للسُّجُومِ (٢) لا للوُجُوم (٣) ،والكواكبُ منها يَنْتثِرن للطَّرَبِ لا للرُّجُوم ،ورُفِقَت إلى اللّهِ كلمةُ التوحيد ،وكانت طرائِقُها مسدُودَة ،وظهرت قُبورُ الأنبياء ،وكانت بينهم بالنَّجاسات مَكْدُودة (٤) وأُقيمَت الخمسُ،وكان التثليثُ يُقْعِدُها ،وجَهرت الألسنةُ باللّه أكبر ،وكان سِحْرُ الكُفْرِ يعقدها)) (٥) ،ومنها قوله حينما سقطت عسقلان في يد صلاح الدّين ((. . . وقد نُصِبَت أعلامُ الإسلامِ على أبراجِها وأسوارِها ،وعُمِّرَت بموحِّديها ،وخلت من مشركيها وكُفّارِها ،وكبّرَ المكبِّرُ والمؤذِنُون في أقطارِ أرجائِها ،وزالت سِمة الصُّلْبان عن جهاتِها وأنحائِها ،ورحلَ النّاقوسُ عن فِنائِها ،وعُوِّضَ جامِعُها منه بمنبرها)) (٦).

وقد اتّبع القاضي الفاضل في أدبه النثري الّذي واكب المعارك والحروب الصليبيّة طرائق متنوّعة لايقاظ المشاعر الدّينيّة في نفوس المسلمين ،فكان يربط ما بين هزائم الصليبيين أمام صلاح الدّين ،وبين هزيمة المشركين الّذين اجتمعوا على مدينة رسول اللّه ــ صلى اللّه عليه وسلّم ــ في معركة الأحزاب، كما يتبين من قوله في رسالة إلى بغداد هنّأبها الخليفة بردّ الغزاة وأنصارهم عن مدينة حماة سنة ٥٧٣هـ: ((... ثمّ انصرفوا مجموعا لهم بين تنكيس الصُّلُب وتحطيم الأصلاب ،مفرّقة أحزابهم عن المدينة

---

(١) يتفطّرن : يتشققن . (لسان العرب : فطر) .

(٢) السّجوم: سجمت السحابة الماء سجوما : أى قطر ماؤها وسال قليلا أو كثيرا (اللسان : سجم) .

(٣) الوجوم: السكوت والعبوس المطرق من شدّة الحزن . (اللسان : وجم) .

(٤) مكدودة : مغلوبة . (اللسان : كدد) .

(٥) الرسائل ،ص: ١٧٣ــ١٧٤ ،مفرّج الكروب: ٢/ ٢٣٩ــ٢٤٠ ،صبح الأعشى ٦/ ٥٠٣ ،والأنس: ١/ ٣٤٧ .

(٦) الرسائل ،ص: ١٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحروسة كما افترقت عن المدينة الشريفة النبويّة الأحزاب)) (١).

ومن هذه الطرائق أيضا ،أنّه كان يربط ما بين الشخصيات الإسلاميّة المعاصرة له ،وبين الشخصيّات التّي كان لها شأن خاصّ في تاريخ الإسلام ،كربطه بين صلاح الدّين وعمر بن الخطّاب . فحين عادت عسقلان إلى حمى الإسلام سنة ٥٨٤هـ قال: ((. . . وأشبه حاضِر فتحٍ يوسُفِها ماضي فتحِ عُمَرِها)) (٢). ومنها أيضا الربط الدّائم بين الصخرة المشرّفة في القدس،والحجر الأسود في مكّة المكرّمة. يقول:((. . . ولمّا قدِمَ الدّين عليها عرف منها سُوَيْداءَ قلبِهِ ،وهنّأ كفُوَّها الحجر الأسود بِبَتِّ عِصْمَتِها من الكافِرِ بِحرْبِهِ)) (٣) ،ويقول أيضا: ((. . . والبيت الحرام الّذي فَكّ أخاه من الأسر)) (٤) وهذا أمر درج عليه معظم الأدباء والشعراء الّذين واكبوا المعارك الّتي خاضها المسلمون ضدّ أعداء الدّين والعقيدة ،ومجدّوا الفتوح والانتصارات الإسلاميّة ،إذ كانوا يربطون بين معارك عصرهم والمعارك السابقة الّتي انتصر فيها الإسلام ،ويربطون أبطالهم بالشخصيّات الإسلاميّة التاريخيّة ، وذلك لاستثارة ايحاءات فكريّة وعاطفيّة في نفوس المسلمين عامّة ،والمجاهدين خاصّة ،لما لهذه الروابط من أثر بيّن في تعزيز الجهاد والتضحية (٥).

وفي إطار الدعوة إلى الوحدة وضمّ القوى الإسلاميّة ،كان الفاضل يؤمن إيمانا راسخا بأنّه لا شيء يوحّد هذه الدويلات الممزّقة المتناحرة في ديار الإسلام ،ويجمعها على قتال عدوّها الطامع بها غير العقيدة والدّين ،ولا سيّما أنّ الطرف الآخر قد اتّخذ من عقيدته وسيلة للتجميع والاستثارة ،كما هو واضح في قول القاضي الفاضل من رسالة كتبها إلى بغداد :((. . . ولا خفاءَ أنّ الفرنج بعدَ حُلُولنا بهذه الخطّة

---

(١) الرّوضتين، حلمي ،ج١ ق٢ /٧٠٧والوثائق : ٥ / ١٢٠ ،وانظر أمثلة أخرى في صبح الأعشى : ١٠ / ٨٣ .

(٢) الرسائل ،ص : ١٤٨ .

(٣) نفسه ،ص: ١٦٠ ،وصبح الأعشى : ٦ / ٤٩٨ ،والأُنس الجليل :١ / ٣٤٢ ،وغيرها .

(٤) الرسائل ،ص: ٢١٥ .

(٥) انظر : حول هذه الفكرة ،صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص : ٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قاموا وقعدوا واستنجدوا أنصار النصرانيّة في الأقطار ،وسيّروا الصّليب ومن كسي مذابحهم بقمامة ،وهددوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة ،وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يتصوّرونه ممّن يسمّونهم القدّيسين))(١). وقد اتّخذ القاضل من مواقف الفرنج تلك وسيلة للتحريض على قتالهم ،كما نستبين من قوله محرّضا صلاح الدّين على قتالهم وتطهير البلاد من شرّهم:((... والجهاد فأنت رضيع ثديه ،وناشئه حجره وظهور الخيل مواطنك ،وظلال الجبل مساكنك ،وفي ظلمات مشاكله ،تُجلى محاسنك وفي أعقاب نوازله تتلى ميامنك ،فشمّر له عن ساق من القنا ،وخض فيه بحرا من الظُّبا واحلل فيه عقدة كلمات اللّه سبحانه وثيقات الحُبى ،وأسل الوهاد(٢) بدماء العدا ،وارفع بروسهم الرّبا(٣) حتى يأتي اللّه بالفتح))(٤).

ولعلّ هذا الشعور الدّيني العميق الّذي حفل به أدب القاضي الفاضل النثريّ ،يفسّر قوله حين هاجم الصليبيون بيروت سنة ٥٩٣هـ ،بعد وفاة صلاح الدّين ((... فانظروا إلى أنكم إلاسلام كلّه قد برز إلى الشرك كلّه ،وأنكم ظلّ اللّه ،فإن صححتم تلك النسبة ،فإنّ اللّه لا ناسخ لظلّه ، واصبروا إنّ اللّه مع الصابرين ،ولاتهنوا وإن ذهب الناصر ،فإنّ اللّه خير الناصرين))(٥). وهذا الحسّ الدّينيّ نفسه هو الّذي جعله يربط بين الحالة النفسيّة الصعبة الّتي عاشها المسلمون في حصار عكّة وبين الذنوب المستشرية في النفوس مؤكّدا أنّ العقيدة الصحيحة هي أساس النصر على الأعداء . ويتضح ذلك من قوله في رسالة بعثها من مصر إلى صلاح الدّين وهو على عكّة:((... إنّما أُتينا من قِبَل أنفسنا ،ولو صدقنا لعجّل اللّه لنا عواقب صدقنا ولو أطعناه لما عاقبنا بعدوّنا ،ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره ،لفعل لنا مالا نقدر عليه إلاّ به ،فلا يختصم أحد إلاّ نفسه وعمله ،ولا يرج إلاّ ربّه))(٦).

---

(١) الرّوضتين ،حلمي ،جـ١ ق٢/ ٦٢٤ ،والوثائق: ٤/ ٢٦٣.
(٢) الوهاد : جمع وهد ،وهو المكان المنخفض من الأرض.(اللسان : وهد).
(٣) الرّبا : جمع ربوة ،وهي المكان المرتفع من الأرض. (اللسان : ربو).
(٤) صبح الأعشى : ١٠/ ٩٧.
(٥) الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢٣٢ ،وانظر أمثلة أُخرى في الرسائل ،ص: ١٠٤.
(٦) البداية والنهاية : ١٢/ ٣٣٩. وانظر للمزيد من ذلك ،الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ١٦٧ — ١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدّعوة إلى الوحدة الإسلاميّة:

واجه المسلمون في عصر الحروب الصليبيّة زمن صلاح الدّين الأيّوبيّ خطرين عظيمين في وقت واحد لا يقلّ أحدهما عن الآخر في خطورته . إذ التقى على حربهم كلّ مَن يدينون بالولاء للصليب مدعومين بطاقات أوروبا الماديّة والبشريّة ، في حين كان حكّام الدويلات الإسلاميّة الممزقة في بلاد الشام والجزيرة وديار بكر ، منشغلين بأنفسهم وربّما تحالفوا مع الفرنج ضدّ صلاح الدّين ، والمتآمرون على الإسلام من الدّاخل يسعون إلى التخلّص من الدّولة السلجوقيّة السنيّة في مصر الّتي كانت تقف في مواجهة الغزاة وهذا واضح في قول الفاضل مخاطبا الخليفة العبّاسيّ في بغداد :((. . . والمملوك بين عدوّ إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظا ، ولا ينوون لما استحفظوا حفظا وعدوّ كفر ، فما يجاورهم إلاّ بلاده ، ولا يقارعهم إلاّ أجناده))[١] . ومن المؤلم حقّا أنّ المتآمرين على الدّولة السلجوقية من أنصار الدّولة الفاطميّة بمصر ، قد شاركوا في وقت من الأوقات مشاركة فعليّة في قتال المسلمين بالسيف ، إذ وقفوا إلى جانب الصليبيين حينما هاجموا دمياط سنة ٥٦٥هـ . يقول الفاضل من رسالة وجهها إلى بغداد ، حينما اجتمع الفرنج وأعوانهم من المصريين على صلاح الدّين في موقعة دمياط :((. . . ونحن نقاتل المدوّين : الباطن والظاهر ، ونصابر الضررين : المنافق والكافر ، حتى أتى اللّه بأمره ، وأيّدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين ومن الفرنج ، وملك الرّوم ومن الجنويين ، ومن أجناس الرّوم ، لأنّ أنفارهم تنافرت[٢] ، وأنصارهم تناصرت ، وأناجيل طواغيتهم[٣] رفعت ، وصلب صلبوتهم أخرجت))[٤] .

---

(١) الرّوضتين ، حلمي ، جـ١ ق٢/ ٦٤٨ ، وانظر الوثائق : ٤/ ٢٨٥-٢٨٦ .

(٢) تنافروا : تقدّموا وتناصروا . (اللسان : نفر) .

(٣) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو ما يعبد من دون اللّه . (اللسان : طغو) .

(٤) الرسائل ، ص: ٩٧ ، والرّوضتين ، حلمي ، جـ١ ق٢/ ٦١٩ ، وصبح الأعشى : ١٣/ ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممّا زاد من خطورة الوضع ،بعد وفاة نورالدّين ،تفرّق الكلمة في بلاد الشام قبل توحيدها على يد صلاح الدّين بعد قدومه من مصره يقول الفاضل في رسالة كتبها عن صلاح الدّين إلى الخليفة العبّاسيّ :((... ثمّ عدنا إلى البلاد ،فتوافت إلينا الأجناد ،بما المملكة عليه من تشعّب الآراء وتوزّعها ،وتشتت الأمور وتقطعها وأنّ كلّ قلعة قد حصل فيها صاحب ،وكلّ جانب قد طمع إليه طالب ،والفرنج قد بنوا قلاعا يتحيّفون[1] بها الأطراف الإسلاميّة ،ويضايقون بها البلاد الشاميّة ،وأمراء الدّولة النّوريّة قد سجن أكابرهم ،وعوقبوا في الإنشار[2] ،وصودروا على الجمل الكبار))[3].

ومن أجل ذلك كان الفرنج يحرصون على إذكاء نار الفتن والخصومة بين أمراء الشام الخارجين على صلاح الدّين حينما حاول توحيد القوى الإسلاميّة في بلاد الشام ،ويمدّون لهم يد العون والمساعدة ،حتى تستمر حالة الضعف والتمزّق ولكي يحافظوا على استمرار كيانهم وبقائهم على أرض الإسلام . وهذا ما يؤكّده أحد مورّخيهم وليم الصّوريّ ،إذ يقول :((... ومن الخير أن نبذل المساعدة للملك الطفل (إسماعيل)[4] لا مراعاة لصالحه بل لتشجيعه باعتباره عدوّا لصلاح الدّين))[5].

وإذ أدرك القاضي الفاضل قبل وفاة نورالدّين أنّ الدّاء كان يكمن في تفرّق كلمة المسلمين واختلاف أهوائهم ،فقد أخذ يلحّ على المسلمين فيما كتبه إليهم من رسائل لكي يوحّدوا كلمتهم وصفوفهم ،وينبذوا مظاهر التفرّق والضعف ،ليقفوا في وجه عدوّهم المتربّص بهم . وهذا واضح في رسالته الّتي بعث بها إلى نور الدّين ،حين خشيّ تفرق

---

(١) الحيف: الجَوْرُ والظلم . (اللسان : حيف) .

(٢) الإنشار: التفريق والإبعاد . (اللسان : نشر) .

(٣) الرسائل ،ص: ١٠٦ ،وصبح الأعشى : ١٣/ ٨٩ .

(٤) وهو : الملك الصالح إسماعيل بن نورالدّين محمود بن عماد الدّين زنكي ،صاحب حلب الّذي ورث الحكم عن أبيه ،توفي سنة (٥٧٧هـ) . انظر ترجمته وأخباره في الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢١ ،ووفيات الأعيان : ٥/ ١٨٨ ، والبداية والنهاية : ١٢/ ٣٠٨—٣١٠ ،وغيرها .

(٥) العريني : الشرق الأدنى في العصور الوسطى ،ص: ٥٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكلمة بين قادة المسلمين . يقول :((. . . فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النّعم الّتي تعبت الأيّام فيها إلى أنْ أعطت قيادها ، فكونوا يدا واحدة ، ولا تختلفوا فتنكلوا ، ولا تتنازعوا فتفشلوا))(١) .

لقد آمن القاضي الفاضل إيمانا مطلقا أنّ القوّة الحقيقيّة للإسلام والمسلمين إنّما تكمن في وحدة الصّف وتوحيد القوى الإسلاميّة في مواجهة الغزاة والتصدّي لهم ذلك لأنّ الوحدة والقوّة توأمان . فحين فتح صلاح الدّين حلب سنة (٥٧٩هـ)، كتب عن السلطان صلاح الدّين إلى الخليفة :((. . . وإنّه لا يؤثر للإسلام وأهله إلاّ أنْ تكون كلمة الله هي العُليا لا غير ، وثغور المسلمين لها الرّعاية ولا ضير ، ولا نختار إلاّ أنْ تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوّها لا متحاسدة بعتوّها ، ولو أنّ أمور الحرب تصلحها الشركة ، لما عزّ عليه أنْ يكون كثير المشاركين ، ولا أساءه أنْ تكون الدّنيا كثيرة المالكين ، وإنّما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلاّ الوحدة ، فإذا صحّ التدبير ، لم يحتمل في اللقاء إلاّ المدّة))(٢) .

ومن أجل ذلك ، كان الفاضل يربط دائما بين اندماج المدن الإسلاميّة في الوحدة ، واسترجاع المقدّسات الإسلاميّة من أيدي الفرنج(٣) ، لإيمانه الراسخ بأهميّة الوحدة واجتماع الكلمة ، فالوحدة والقوّة كلّ واحدة منهما تدعم الأُخرى ، وتأخذ برقبتها .

ويعبّر الفاضل عن حزنه وألمه لتفرّق كلمة المسلمين واختلاف أهوائهم والخطر الصليبيّ محدق بهم ، والأمر مرهون بوحدتهم ، فيقول :((. . . يسرّني أنْ يمدّ الله ظلّهم ، وأنْ يجمع شملهم ، كما يسوءني أنْ تختلف آراؤهم ، ولا تنتظم أهواؤهم))(٤) . ولذا

---

(١) الرّوضتين ، حلمي ، ج١ ق٢ / ٥٨٧ ، وانظر أيضا ماكتبه إلى أبناء صلاح الدّين بعد وفاته حين عزّى الملك الظاهر بوفاة أبيه ، في مرآة الجنان ط٢ ٣ : ٤٦٢/ ٤٦٣ ، والوثائق : ٤ / ٨٧ ، وغيرها .

(٢) الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ٤٨ .

(٣) انظر : الرسائل ، ص : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، والرّوضتين ، حلمي ج١ ق٢ / ٦٢٣ ، ومفرّج الكروب : ٢ / ٢٨ ، والوثائق : ٤ / ٢٥١ ، وغيرها .

(٤) نهاية الأرب : ٨ / ٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد حمل الفاضل بشدّة على الحكّام والأُمراء المسلمين الخارجين على الوحدة الإسلاميّة الذين لم ينهضوا للذود عن حمى الإسلام، وحمّلهم المسؤولية في تمكين الفزاة واستقرارهم في ديار الإسلام ووقوفهم في وجه جمع القوى الإسلاميّة ووحدة الصف حرصا منهم على مصالحهم الخاصّة. فهو يقول مخاطبا الخليفة عن صلاح الدّين بشأن الموصل: ((... ولو أعين به لعظمت على الإسلام عائدته، وظهرت في رفع منارة فائدته لأنّ اليد كانت تكون به على عدوّ الحق واحدة، والهمّة لآلات النصر واجدة))(١)، ويقول في موضع آخر منبّها على خطورة الموقف المتخاذل الّذي وقفه أُمراء الشام من صلاح الدّين حينما زحف إلى الشام محاولا توحيدهم: ((... ونظرنا للإسلام ولنا وللبلاد الإسلام في العاقبة، وعرفنا أنّ البيت المقدّس إنْ لم تيسّر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إنْ لم يجرّد العزم في قلعة، وإلّا ثبتت عروقه، واتّسعت على أهل الدّين خروقه، وكانت الحجّة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة))(٢).

ذلك لأنّ هؤلاء المنشقين الخارجين على الوحدة الإسلاميّة هدروا طاقات الأمّة وعطّلوها عن مواجهة الفزاة. وهذا واضح في قول الفاضل مخاطبا الخليفة: ((... فقد صرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كنّا بصدده، وعن فرض لو وصلنا يومه بغده، لكان الإسلام قد أعفى من شركة الشرك، وانفكّ من ربقة أهل الإفك، ولكانت الأسماء الشريفة قد قرعت منابر طالما عزلت الصّلب خطباءها، ولكان الدّين الخالص قد خلص إلى بلاد صار المشركون متوطنيها، والمسلمون غرباء فيها))(٣).

ويتحدّث الفاضل عن الوحدة الإسلاميّة وآثارها على الإسلام والمسلمين، وعن الفزاة الّذين قويت شوكتهم بسبب تفرّق المسلمين وتقاعس بعضهم عن نصرة الإسلام فيقول في رسالة كتبها إلى الخليفة عن صلاح الدّين في أمر الموصل أيضا: ((... هذه الجزيرة الصغيرة، منها تنبعث الجزيرة الكبيرة. وهي دار الفرقة ومدار المشقّة، ولو

---

(١) الرسائل، ص: ١١٩. وانظر أمثلة أُخرى في الرّوضتين، حلمي، ج١ ق٢/ ٦٢٢، والمفرّج: ٢/ ٢٨، وغيرهما.

(٢) الرسائل، ص: ١٠٧، وصبح الأعشى: ١٣/ ٨٩، وغيرهما.

(٣) الرّوضتين، بيروت: ٢/ ٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انتظمت في السلك ،لا نتظم جميع عسكر الإسلام في دار الشرك ، ولكان الكفر يلقي بيديه وينقلب على عقبيه ،ويفشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ،ويغزى من مصر برّا وبحرا ،ومن الشام سرّا وجهرا ،ومن الجزيرة مدّا وجزرا)) (١) .

ولكي يستثير القاضي الفاضل نفوس هؤلاء الأُمراء المتقاعسين عن نصرة الإسلام في حربه مع الغزاة ،أخذ يقارن بين موقفهم المتخاذل ،مع أنّهم أصحاب حق ،وبين موقف الصليبيين الذّين اجتمعوا من شتى بقاع الأرض على حرب الإسلام والمسلمين بدافع الدّين والعقيدة مضحّين بكلّ ما يمتلكون لنصرتها . ومن ذلك قوله من رسالة بعثها إلى الخليفة أثناء حصار عكّة : ((. . . وإنّ البابا الّذي لهم برومية قد حرّم عليهم مداعمهم ومشاربهم ،وقال : من لا يتوجّه إلى القدس مستخلصا ،فهو عندي محرّم لا منكح له ولا مطعم ،فلأجل هذا يتهافتون على الورود ،وبتهالكون على يومهم الموعود وقال لهم : إنّي واصل في الرّبيع ،جامع على الاستنفار شمل الجميع . وإذا نهض هذا . . . ،فلا يقعد عنه أحد ،ويصل معه بأهله وولده ،كلّ من يقول لله أهل وولد فهذا شرح حال هؤلاء وتعصّبهم في ضلالتهم ،ولجاجتهم في غوايتهم ،بخلاف أهل الإسلام ،فإنّهم يتضجّرون ولا يصبرون بل يتقلّلون ولا يجتمعون)) (٢) .

ولقد كان القاضي الفاضل ،لسداد رأيه وحسن تدبيره ،من أكثر أُدباء عصره إحساسا بأهمية القيادة الواحدة الّتي تجمع شمل الأمّة الإسلاميّة ،وتوحّد صفوفها وكلمتها أمام أعدائها الّذين كانوا يشكّلون خطرا حقيقيّا على الإسلام وأهله . وخاصّة إذا بقي وضع البلاد الإسلاميّة المتاخمة لحدود الغزاة على هذه الحالة المؤلمة من الفرقة والتمزّق والضعف . ولذا فإنّه لا ينسى وهو يتحدّث عن الأُمراء المنشقّين الخارجين على وحدة الصف الإسلامي أنْ ينوّه بواجب الخليفة المسلم لحسم الخلافات الدّاخليّة القائمة داخل الدّولة الإسلاميّة باعتباره الحاكم الأوّل ،فيها حتى يعيد للإسلام هيبته وقوّته أمام أعدائه الّذين يهدّدونه في عقر داره ،ومن ذلك قوله في رسالة وجهها

---

(١) الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ٤١ ،والمفرّج : ٢/ ١٣٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات : ٤/ ٢٢٩ — ٢٣٠ ،والوثائق : ٥/ ٢٠٨ ،وانظر أمثلة أُخرى في الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ١٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى الخليفة العبّاسي[١] في بغداد حينما عادت آمد[٢] إلى حمى الإسلام، ووقفت إلى جانب صلاح الدّين في حربه مع الصليبيين: ((. . . والخلف الّذي أمير المؤمنين — صلوات اللّه عليه — مطالب بحسمه كان يحسم، والظلم الّذي سيفه مجرّد لقطع دابره كان يقصم ويخصم، وجيوش هذا الدّين كانت تجتمع على الكافرين فتفرّق فرقهم وتجلّي بأنوار الإتفاق غسقهم[٣]، والشواغل كانت ترتفع، والمواقع كانت تمتنع))[٤].

ولمّا كانت الوحدة هي القوّة الضاربة على أيدي الفرنج، فإنّ الفاضل كان يبتهج أيّما ابتهاج لانضمام أيّة مدينة[٥] إسلاميّة إلى الجماعة المجاهدة في سبيل اللّه، بعد أن تتخلّص من قيادتها المتخاذلة المتقاعسة، وتسلّم مقاليدها لصلاح الدّين الأيّوبي، لتقف إلى جانبه في مجاهدة الفرنج. فحين تحقق حلم المسلمين بعد زوال الدّولة الفاطميّة عام (٥٦٧هـ)، بوحدة مصر مع شقيقتها الشام، ووقوفها إلى جانبها بكلّ طاقاتها الماديّة والبشريّة، كتب بذلك مبشرا إلى ديوان الخلافة في بغداد والفرحة تملأ قلبه، فقال: ((. . . وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد بل الدّنيا والشهر، بل الدّهر، حرما حراما، وأضحى الدّين واحدا بعد ما كان أديانا

---

(١) وهو: الناصر لدين اللّه، أبو العبّاس أحمد بن المستضيء باللّه، تولّى الخلافة بعد أبيه سنة (٥٧٥هـ)، وقد طالت فترة خلافته حتى سنة (٦٢٣هـ) كان ذكيا شجاعا مهيبا، توفي سنة (٦٢٣هـ). أنظر: الكامل: ٩/١٤٨، ٣٦٠، والبداية والنهاية: ١٢/٣٠٥، و١٣/١٠٦-١٠٧.

(٢) آمد: بلد قديم حصين مبني بالحجارة السود على نشز دجلة، محيطة بأكثره، مستديرة به كالهلال، وهي أعظم مدن ديار بكر وأجلّها قدرا، وأشهرها ذكرا. معجم البلدان: ١/٥٦.

(٣) الغسق: ظلمة الليل. (اللسان: غسق).

(٤) الرسائل، ص: ١١٩.

(٥) انظر ما عبّر به الفاضل عن فرحته بانضمام حلب وآمد، وغيرهما إلى الوحدة الإسلاميّة في الرّوضتين، بيروت: ٢/٤٣، والرسائل، ص: ١١٩، ١٧٨، وصبح الأعشى: ٦/٥١١-٥١٥، والأعلاق الخطيرة: جـ١ق١/١٧٢، والوثائق ٤/٢٩٦، ٣٠٩، وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخرّوا عليها إلاّ صمّا وعميانا))[١]، وقال في رسالة أُخرى كتبها إلى نور الدّين في الموضوع ذاته :((. . . فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطنا بعد أنْ كان غريبا، وضرب في البلاد بجرانه[٢]، بعد أنْ كان الكفر يجثم عليه نحيلا عجيبا[٣])) .

وبسبب من حرص الفاضل على مظاهر الوحدة بين المسلمين ، فإنّه كان يعزو كلّ ما حققه صلاح الدّين من انتصارات على الصليبيين في بلاد الشام إلى الخليفة العبّاسيّ ، الحاكم الروحي للمسلمين عامّة ، على الرّغم من ضعفه وتقصيره وعدم مشاركته لصلاح الدّين مشاركة فعليّة في حربه مع الفرنجة ، اللهمّ ، إلاّ بالدعاء[٤] . ومن أجل ذلك تألّم كثيرا حينما كوتب صاحب المغرب[٥] بلفظة (أمير المؤمنين)[٦] في رسالة خطّها أحد كتّاب صلاح الدّين ، ونظر إلى ذلك على أنّه شرخ في وحدة المسلمين ، وخروج على خليفتهم ، فكتب إلى صلاح الدّين معاتبا :((. . . ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب، جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ، ولا شوكة فيه ولا يحلّ اتباعه ، مرخصين الغالي ، منحطّين عن العالي ، شاقّين عصا المسلمين ، مفرّقين

---

(١) الرّوضتين ، حلمي ، جـ١ ق٢/٤٩٦–٤٩٧ ، والمفرّج : ٢/٤٧٠ .

(٢) الجران : الاستقرار والاستقامة . (اللسان : جرن) .

(٣) الروضتين ، حلمي ، جـ١ ق٢/٥٦٣ ، والمفرج : ٢/٤٧٦ .

(٤) انظر الرّوضتين ، بيروت : ٢/١٦٨ .

(٥) وهو : أبو يوسف ، يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ القيسيّ (٦١٠هـ) ، صاحب المغرب. انظر أخباره وترجمته في وفيات الأعيان ٧/٣ ، والرّوضتين ، بيروت: ٢/١٧٠ .

(٦) انظر : صبح الأعشى : ٦/٥٢٧ ، وقد زعم أنّ الفاضل هو الّذي أضفى هذا اللقب على صاحب المغرب، وهو بهذه الرواية يخالف جمهرة المؤرخين . في حين نرى أنّ صاحب الرّوضتين يؤكّد أنّ الفاضل لم يكتب إلى صاحب المغرب ، وإنّما كتب إلى وزيره. انظر الرّوضتين ، بيروت ٢/١٧٠ ، وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلمة المؤمنين ، مطيعين لمن لا تحلّ طاعته ، متقلّدين لمن لا تصحّ ولايته ، فيفسد عقود الإسلام ، وينفتح باب يعجز وارده عن إصداره ، بل تمضي وتستشف الأمور وتكشف الأحوال ...)) (١) .

---

(١) الروضتين ، بيروت : ٢/ ١٧٥ ، والوثائق : ٤/ ٣٥٥ ، وفي ما سبق ما يؤكّد تأكيدا قاطعا أنّ الفاضل لم يخاطب صاحب المغرب بهذا اللقب ، كما زعم صاحب الصبح .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة البطل المسلم في نثر الفاضل :

يدهش الدّارس حين ينظر في تاريخ الدّولة الإسلاميّة بعيد وفاة السلطان نور الدّين محمود الّذي بذل كلّ ما في وسعه لجمع شتات الأمّة الإسلاميّة المتناثر إذ لا يرى المسلمين عامّة مجتمعين على قتال أعدائهم ،لأنّ بلاد الشام قد وقعت بعد وفاته في قبضة حكّام محليين متخاذلين متقاعسين ،همّ الواحد منهم أن يثبّت دعائم حكمه ويستقرّ فيه في إطار مطامح فرديّة صغيرة ،وتلك صورة مخالفة للصورة الّتي عرفناها عن نور الدّين ، وهو الحاكم الّذي :((كان يمثّل أمل أمّة ،وتطلّعات جماعة إذ رأوا فيه إحياء لشخصيّة الخليفة الراشديّ ،في وقت اشتدّت فيه حاجة المسلمين إلى مثل هذا الحاكم ،بعد أنْ بلوا من سوء الحكّام وأنانيتهم ما أذلّهم وأفقدهم أرضهم وأوطانهم)) (١) .

وظلّ المسلمون في بلاد الشام والجزيرة وديار بكر يتطلّعون إلى قيادة تملأ الفراغ الكبير الّذي تركه نور الدّين ،إلى أنْ تولّى الأمور صلاح الدّين الأيّوبيّ ،وعمل ثانية على توحيد الصفوف وتوجيه الطاقات إلى مقاومة الصليبيين ،ممّا جعله موضع إعجاب وتقدير من شعراء عصره وكتابه عامّة ،وفي مقدّمتهم القاضي الفاضل الّذي رأى في صلاح الدّين الحاكم الّذي تجسّدت فيه مزايا القائد الإسلاميّ من تقوى وعدل وحكمة وشجاعة وحسن قيادة ،وغير هذه من الفضائل والصفات الّتي أثبتها الّذين تحدّثوا عنه ،كابن شدّاد (٢) ،والعماد الأصفهانيّ (٣) وغيرهما من المؤرّخين اللاّحقين ،فلا عجب إذن أن تصبح شخصيّة صلاح الدّين هي الشخصيّة المحوريّة فيما كتبه القاضي الفاضل في مواكبة الحروب الصليبيّة في تمجيد بطله المقاتل في سبيل اللّه لإعلاء كلمته في الأرض ،ومن ذلك قوله :((. . . والّذي أجراه اللّه على يد المملوك من الممالك الّتي دوّخها ،وسنن الضلال الّتي نسخها ،وعقود الإلحاد الّتي فسخها ،

---

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ،ص: ١٥٦ .
(٢) انظر سيرة صلاح الدّين ،ص : ٧ — ٣٤ .
(٣) انظر الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ٢١٧ — ٢٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنابر الباطل الّتي رحضها ، وحجج الزندقة الّتي دحضها ، فللّه عليه المنّة فيه ، إذ أهّله لشرف مشهده ، وما فعله إلاّ لوجه(١)(٢)) .

والمعروف أنّ صلاح الدّين ضحّى براحته ، وهجر أهله ووطنه ، مؤثرا حياة الخشونة والجهاد على الرّاحة والدّعة ، وزهد في الدّنيا ، حتى إنّه حينما انتقل إلى جوار ربّه مع سعة ملكه لم يخلّف مالا ولا عقارا(٣) . وفي هذا يقول الفاضل أيضا عن صلاح الدّين في إحدى رسائله إلى الخليفة في بغداد :((. . . وقد علم أنّ الخادم بيوت أمواله ببيوت رجاله ، وأنّ مواطن نزوله مواقف نزاله ، ومضارب خيامه لا أكنّة ظلاله وأنّه لا يدّخر من الدّنيا إلاّ شكّته(٤) ، ولا ينال من العيش إلاّ مسكته(٥)) .

وفي معرض حديث الفاضل عن الحوافز العظيمة لصلاح الدّين في سبيل جمع الصف ومواجهة المحتلّين ، يؤكّد أنّ المكاسب الدنيويّة ، وسعة الملك ليست هدفا يسعى إليه من وراء جهاده . وهذا واضح في إحدى رسائله إلى الخليفة إذ يقول :((. . . ولو اتّسع ما ساقه هذا الصّدر(٦) أخيرا من النزول عمّا فتحه من البلاد الّتي هو متقلّدها ، واستخلصه من الأعمال الّتي ما زال يطلب ضالّتها ، وينشدها لأجابه الخادم ، ولكنّه مدفوع إلى إرادة التكثير بالرّجال لا بالأعمال وبأيدي الجهاد لا برقاب البلاد ، فسبيل الخادم أنْ يبني ولا يهدم ، وتوفّر جوانبه ولا تثلم(٧)) .

---

(١) الرّحض : الغسل والتطهير . (اللسان : رحض) .
(٢) الرّوضتين ، حلمي ، ج١ق٢ / ٦٢٣ ، وانظر أمثلة أخرى في الرسائل ص: ١٦٠ ، والمعرّج : ٢ / ٢٤٠ ، وصبح الأعشى : ٦ / ٤٩٨ ، والأنس الجليل : ١ / ٣٤٢ .
(٣) انظر سيرة صلاح الدّين ، ص: ٢٤٧ ، والرّوضتين ، بيروت : ٢ / ٢١٧ .
(٤) الشّكّة : ما يلبس من السلاح أو يحمل ، (اللسان : شكك) .
(٥) الرسائل ، ص: ٦٧ ، وانظر أمثلة أخرى ، ص: ١٢٠ .
(٦) الصّدر : الرجوع والانصراف عن كلّ شيء . (اللسان : صدر) .
(٧) الرسائل ، ص: ٦٦ — ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكّد الفاضل أنّ بطله صلاح الدّين قد تحمّل عبء الجهاد وحده دون غيره من الحكّام المسلمين الّذين وقفوا منه موقف المتفرّج المراقب من بعيد في وقت كانت الحاجة فيه ملحّة لوقوفهم إلى جانبه في مواجهة الفرنج والتصدّي لهم. فهو يقول في إحدى رسائله إلى صلاح الدّين وهو على عكّة: ((... وليس لك من المسلمين كافّة مساعد إلاّ بدعوة، ولا مجاهد معك إلاّ بلسانه، ولا خارج معك إلاّ بهمّ، ولا خارج بين يديك إلاّ بالأجرة، ولا قانع منك إلاّ بزيادة تشتري منهم الخطوات شبرا بذراع، وذراعا بباع، تدعوهم إلى اللّه وكأنّما تدعوهم إلى نفسك وتسألهم الفريضة وكأنّك تكلّفهم النافلة وتعرض عليهم الجنّة وكأنّك تريد أن تستأثر بها دونهم)) (١).

ولكي يعلي الفاضل من شأن بطله، كان يقارن بينه وبين من يتفرّد عنهم من الحكّام المسلمين الّذين تخاذلوا عن مواجهة الغزاة ونصرة الدّين. ومن ذلك قوله: ((... ولو أن أحدا ممّن يدّعي الملك ميراثا أو يعدّ البلاد له تراثا، دفع إلى مدافعة هذا العدوّ الكافر، وإلى منافرة هذا الفريق النافر، لعرّفته الأيّام ما هو جاهله ولقلّدته الحرب ما هو قائله، ولحمّلته الأحوال ما تخور تحته محامله)) (٢).

وصلاح الدّين، كان كما يرى الفاضل الرجل الّذي يمثّل تطلّعات الأمة الإسلاميّة وآمالها الّتي عاشت معها طيلة الاحتلال الصليبيّ للبلاد. ومن أجل ذلك استحق أن يتولّى قيادة المسلمين في حربهم ضدّ الغزاة، لأنّ مزايا الحاكم والقائد قد اجتمعت فيه دون غيره من حكّام العصر (٣).

ولا ينسى الفاضل وهو يتحدّث عن بطله أن يتوقف عند شجاعته وإقدامه فيقدّمه لنا فارسا شجاعا، يتقدّم الجيوش بنفسه

---

(١) الرّوضتين، بيروت: ٢/١٦٨، وأنظر أمثلة أخرى، ص: ١٦٦.

(٢) الرسائل، ص: ٦٧. وانظر أمثلة أخرى كثيرة من ذلك في المصدر نفسه ص: ٥٠، ٦٧، ١٢٠، ١٢١، والرّوضتين، بيروت: ٢/٤١، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٦، ١٧٧، ومفرّج الكروب: ٢/٦.

(٣) انظر الرسائل ص: ٥٠، ١٢٠، ١٢١، ٢١٥، ٢١٦، الرّوضتين، بيروت ٢/٤١، ١٦٧، ١٧٦، وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ميادين القتال[١] حتى كان الرعب منه مظهرا من مظاهر شجاعته وهيبته ،وهو رعب كان يبعث الخوف في نفوس أعدائه ،قبل أن يلتحم معهم في معركة. ولذا فإنّ المدن الصليبية قد تسلّم إليه أبناءها وتنطوي تحت رايته[٢] ،تخوّفا وتهيّبا كما يتراءى للفاضل: ((... فالحمد لله الّذي جعل النصر لائذا بأعطاف اعتزامه ،وأنامل الرعب السائر إلى الأعداء محرّكة عذبات أعلامه))[٣]. وذلك لأنّه جمع إلى التقوى والاعتماد على الله الشجاعة والإقدام في معاركه وجهاده. وحين تجتمع هذه العناصر معا ،فلابدّ من بلوغ النصر ،كما صوّر ذلك الفاضل في حديثه عن مهاجمة صلاح الدّين لحصن بيت الأحزان المنيع ببنائه وبمن فيه ،إذ يقول :((... وعلم أنّ أمرا أوّله الاستخارة وأوسطه الاستشارة ،وخاتمته الجسارة. فإنّ الجامع بينها لا يندم))[٤].

ويشيد الفاضل بإرادة بطله صلاح الدّين ،فيقدّمه لنا ماضي العزم ،قويّ الإرادة ،وذلك حين يقول إثر فتح بيت المقدس من رسالة إلى بغداد :((... وهو مجدّ في استفتاح بقيّة الثغور ،واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور))[٥]. ولم تكن المصائب تنال من عزمه وقوّة إرادته ،إذ كان يحتملها برحابة صدر ،وثقة مطلقة بنصر الله في النهاية. ومن مظاهر صبره وقوّة عزيمته وثقته بالنصر حتى بعد تعرّضه لنكسات خطيرة ما قام به بعد هزيمة الرملة بفترة وجيزة ،إذ أعاد تنظيم صفوفه ،وأغار على مدن الصليبيين وقلاعهم الحصينة في عمق الأرض المحتلّة. يقول الفاضل في ذلك :((... وأمّا نوبة العدوّ في الرملة ،فقد كانت عثرة ،علينا ظاهرها ،وعلى العدوّ باطنها ،ولزمنا ما نسي من اسمها ،ولزمهم ما بقي من عزمها ،لا دليل أدلّ على

---

(١) انظر صبح الأعشى : ٦/ ٥١٤ ،والرسائل ،ص: ١٩ ،٩٢ ،٩٣ ،١٦٨ ،١٦٩ ، وغيرها.

(٢) انظر الرسائل ،ص: ١٩ ،١٦٩ ،والرّوضتين ،حلمي : جـ١ق٢/ ٤٩٠ ،والوثائق ٥/ ١١٤.

(٣) صبح الأعشى : ٦/ ٥١٥ ،وانظر أمثلة أخرى في المصدر نفسه: ٦/ ٥١٣ ، والرسائل ،ص: ١٩ ،١٤٨ ،١٦٨ ،١٧٧ ،والرّوضتين، بيروت: ٢/ ١٣٢ ،وغيرها.

(٤) الرسائل ،ص: ١٢٨.

(٥) الرسائل ،ص: ١٧٤ ،وانظر أيضا للمزيد ،ص: ١٦٦ ،١٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القوّة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها[١] إلى الشام، نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور))[٢].

وممّا له قيمة خاصّة في حديث الفاضل عن صلاح الدّين، أنّه كان يصدر فيه عن واقع وحقيقة، لا عن أوهام ومبالغات، وهو الإنسان القريب منه، المطّلع اطّلاعا وثيقا على أعماله وتحرّكاته. ولم يبتعد الفاضل عن الحقيقة حين تحدّث عن صبر صلاح الدّين على مواصلة القتال على الرغم من كثرة الأعداء، وقلّة موارده الماديّة والعسكريّة، وضجر جنده في حصار عكّة. فهو يقول في رسالة له كتبها إلى الخليفة العباسيّ في تلك الظروف الصعبة: ((... ولولا أنّ في التصريح ما يعود على عدالته بالتجريح، لقال ما يبكي العين، وينكي القلوب، وتنشق له المرائر، وتشق له الجيوب ولكنّه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب: ربّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي))[٣].

وصورة صلاح الدّين في نثر الفاضل ليست صورة القائد العسكريّ الشّجاع فحسب، إذ هو كذلك رجل حكم وسياسة[٤] وحسن تأت للأمور في علاقاته مع القوى السياسيّة الأخرى، كما يتضح من عمله في فترة من الفترات على إقامة علاقات طيّبة مع المدن الإيطاليّة، بغية توقّف هذه المدن عن دعم الصليبيين في بلاد الشام قبيل معركة حطّين[٥]. ومن مظاهر هذه الحنكة السياسيّة أنّه استغلّ سوء العلاقات ما بين الدّولة البيزنطيّة والفرنج، فحسّن علاقاته مع البيزنطيين، حتى صاروا عيونا له عليهم

---

(١) وذلك في سنة (٥٧٣هـ)، يوم الجمعة من جمادى الآخرة. انظر الرّوضتين بيروت: ١/ ٢٧١، ٢٧٣.

(٢) مفرّج الكروب: ٢/ ٦٥، وانظر الرّوضتين: ١/ ٢٧٦.

(٣) صبح الأعشى: ٧/ ١٢٩، وانظر أمثلة أخرى، في الرّوضتين ٢/ ١٦٦–١٦٧.

(٤) انظر الرسائل، ص: ١٩، ٢٠، ٥٠، ٨٣، والرّوضتين، بيروت: ٢/ ١٩، وغيرهما.

(٥) انظر الرسائل، ص: ١٠٤–١٠٥، الرّوضتين، حلمي: ج١ق٢/ ٦٢١– ٦٢٢، والمفرّج: ٢/ ٤٩٠ – ٤٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يطّلعون على تحرّكاتهم وخططهم قبل تنفيذ هـا[١]. وقد استغلّ الخلافات الداخليّة في صفوف الفرنج من أجل أن يفرّق كلمتهم ، وبضعف جبهتهم الدّاخليّة. وفي هذا يقول الفاضل: ((... فإنّ في تخاذلهم نصرة للإسلام وشغل بعضهم ببعض وافتراق كلمتهم المجموعة ، وقطعا للميرة[٢] عن الشام ، وأمنا لجانب كثير من جوانب البحر))[٣]، ويقول أيضا مشيدا بحنكة بطله السياسيّة وحسن تدبيره للأمور: ((... ولقد سخر اللّه (سبحانه) في صدره بحر الحكمة ، وسنح على لسانه جوهره فهو إنْ سلك سلك جددا[٤]، وإن أشار أشار سددا ، وإن قال قال رشدا ، وإن تفاوتت رتب أعضاء الخلق ، فقد ظهر قلبا ولسانا ويدا))[٥]. ومن مظاهر سداد راية وحكمته خطته الّتي رسمها لتحرير بيت المقدس إثر معركة حطّين ، إذ استولى على معظم مدن الغزاة وقلاعهم الساحليّة بفلسطين ، لكي يقطع عنهم أيّة امدادات خارجيّة ويحصرهم في بيت المقدس ، يقول الفاضل في بشارته القدسيّة الّتي بعثها إلى الخليفة: ((... ولمّا لم يبق إلاّ القدس وقد اجتمع إليها كلّ شريد منهم وطريد واعتصم بمنعتها كلّ قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنّها من اللّه مانعتهم ، وأنّ كنيستها إلى اللّه شافعتهم. فلمّا نازلها الخادم رأى بلدا كبلاد ، وجمعا كيوم التناد ، وعزائم قد تألّبت وتولّفت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأنْ تموت بغصّته ، ...))[٦].

ولقد أدرك الكثيرون من رجال الفرنج أنفسهم ما تميّز به صلاح الدّين من صفات ، كما يتضح من قول مؤرّخهم وليم الصوريّ: ((... إنّ كلّ زيادة في قوّة صلاح الدّين تثير فينا الخوف والرّعب ، لأنّه كان رجلا حكيما إذا أشار ، مقداما في

---

(١) انظر الرسائل ، ص: ١٠٢ ، ١٠٣ ، الرّوضتين ، حلمي: جـ١ ق ٢ / ٦٢١ ، والمفرّج ٢ / ٤٩٠ — ٤٩١.

(٢) الميرة: بكسر الميم جلب الطعام. (القاموس والتاج : مير).

(٣) الرّوضتين ، بيروت: ٢ / ١٧٨.

(٤) الجدد: الأرض المستوية. (اللسان: جدد).

(٥) الرسائل ، ص: ٦٧ — ٦٨.

(٦) المصدر نفسه ، ص: ١٦٨، والرّوضتين ، حلمي: جـ١ ق ٢ / ٥٢٦ — ٥٢٧، وصبح الأعشى: ٦ / ٥٠٠ — ٥٠١ ، والأنس الجليل: ١ / ٤٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحرب إذا نهض لها ، بالغ السخاء إذا أعطـــى))[١] .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

---

(١) الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ص: ٥٢ — ٥٣ .

صورة الجيش الصّليبيّ :

طبيعة الصراع القائم بين المسلمين والصليبيين على أرض الإسلام ، جعلت من الفرنج على اختلاف أنماطهم جنودا مقاتلين.(١) ولمّا كان الفاضل في كتاباته يسعى إلى تعبئة المسلمين لمواجهة العدوّ ، فقد استخدم في أدبه جميع وسائل التحريض والاستثارة والتعبئة النفسيّة ، متّخذا من موقف الصليبيين حافزا على الاستثارة والتنبيه إلى الخطر الّذي يتهدّد بلاد الإسلام. ففي رسالة له كتبها إلى صاحب المغرب وصلاح الدّين على عكّة ، يقول :((... فرع الكفّار بالشام استصرخ بأصل الكفّار من المغرب فأجابوهم رجالا وفرسانا وشيبا وشبّانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرّا وبحرا ، ومركبا وظهرا وركبوا إليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كلّ يلبّي دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدّة ملوك أقفلت العجمة على أسمائها))(٢).

وكانت ضخامة جيوش الفرنج ممّا ركّز عليه القاضي الفاضل في كتاباتهم من أجل تصوير خطرهم في حجمه الحقيقي ، ومن أجل تعظيم دور المسلمين في محاربتهم وهذا واضح — على سبيل المثال — في وصفه للأسطول الفرنجيّ الّذي هاجم الإسكندريّة عام (٥٦٩هـ) ، إذ يقول من رسالة وجّهها إلى بغداد شارحا الموقف للخليفة :((... ومن هؤلاء الكفّار : هذا صاحب صقليّة(٣) ، كان حين علم بأنّ صاحب الشام ، وصاحب القسطنطينيّة قد اجتمعا في نوبة دمياط ففلبا وهزما وكسرا ، أراد أن يظهر قوّته المستقلّة بمفردها ، وعزمته القائمة بمجرّدها ، فعمّر أسطولا استوعب فيه ماله ورجاله ، فله إلى الآن مدّة خمس سنين يكثر عدّته ، وينتخب عدّته ، يجتلب مقاتليه إلى أن وصل منها في السّنة الخالية إلى إسكندريّة أمر رائع ، وخطب هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله ، وما هو إلّا إقليم

---

(١) انظر الرّوضتين ، بيروت : ٢/١٤٩ ، ومفرّج الكروب : ٢/٣٠٦ — ٣٠٧ .
(٢) الرّوضتين ، بيروت : ٢/١٧٢ .
(٣) وهو غليام الثاني . انظر حاشية الرسائل ، ص : ١٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل أقاليم نقله ،وجيش ما احتفل ملك قطّ بنظيره ،لولا أنّ اللّه خذله))[١] .

ويكرر الفاضل الحديث عن كثرة الجيوش المعادية . فهم في حصار عكّة أمم لا تحصى من كثرة رجالهم[٢] ، وهم حين لقيهم صلاح الدّين ببيت المقدس يذكّرون بيوم الحشر ،لكثرة عددهم[٣] . وحين هاجموا دمياط :((... وصلوا إليها بالعدد المجمهر ،والحشد الأوفر ،وخصوصا في نوبة دمياط فإنّهم نازلوها بحرا في ألف مركب مقاتل وحامل ،وبرّا في مئتي ألف فارس وراجل ، ...))[٤] .

ومما تقدم ،نلاحظ أنّ الفرنج اعتمدوا على أعدادهم الكثيرة ،محاولين بذلك أن يضعفوا روح المقاتلين المسلمين المعنويّة ،ظنا منهم أنّ العدد هو أساس النصر على المسلمين المتسلّحين بسلاح العقيدة .

هذا وكثيرا ما كان الفاضل يفصّل في بعض رسائله الحديث عن امدادات الصليبيين العسكريه والماديّة المتدفّقة عليهم من أوروبا ،ولا سيّما بعد سقوط معظم مدنهم في يد المسلمين إثر هزيمتهم في حطّين . ويظهر الفاضل تعجّبه من تكاتف الفرنج على الرّغم من أنّهم أصحاب باطل ،ومن تخاذل المسلمين أحيانا مع أنّهم أصحاب حق وقد تكرر ذلك في رسائل الفاضل الّتي وجهها إلى الخليفة وأمراء المسلمين ،ولا سيّما خلال حصار عكّة الّذي عانى منه المسلمون أيّما معاناة بسبب انحصارهم وضيق إمداداتهم ومن ذلك قوله من رسالة وجّهها إلى بغداد شارحا الموقف حول عكّة :((... ومن خبر الكفّار أنّهم إلى الآن على عكّة يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه ويخرج للمسلمين منهم أمرّ من أجاجه[٥] . قد تعاضدت ملوك الكفر على أنْ ينهضوا إليهم من كلّ فرقة منهم طائفة ،ويقلّدوا لهم من كلّ قرن يعجز بالكرة واصفه

---

(١) الرسائل ،ص: ١٠٣—١٠٤ ،والمفرّج : ٢/ ٤٩١ ،وصبح الأعشى : ١٣/ ٨٨ ، وانظر الإلمام بالأعلام: ١/ ١٦٣—١٦٤ .

(٢) انظر الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ١٣٦ ،وصبح الأعشى : ٧/ ٢٥ .

(٣) انظر الرسائل ،ص: ١٦٨ ،وصبح الأعشى : ٧/ ٥٠١ ،والأنس الجليل ١/ ٣٤٥ ،وغيرها .

(٤) الرسائل ،ص: ٩٧ ،وانظر أمثلة أخرى ،ص: ١٠٣—١٠٤ .

(٥) الأجاج : الماء المالح . (القاموس: أجج) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا قتل المسلمون واحدا في البرّ بعث البحر عوضه ألفا ، وإذا ذهب بالقتل صف منهم أخلف بدله صفّا ، فالزرع أكثر من الجدّاد (١) ، والثمرة أنمى من الحصّاد)) (٢) ، وقوله أيضا : ((... ونادوا في نواديهم بأنّ البلاد بلادهم ، وأنّ إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم ، وأنّه من خرج من بيته مهاجرا لحرب الإسلام وهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر سفّر من يقاتل عوضه ، أو يعين بماله وعدّته قدرة ، فجاءوا لابسين الحديد ، بعد أن كانوا لابسين الحداد ، وتواصلت منهم الأمداد)) (٣) .

وقد يعمد الغاضل من أجل استثارة المسلمين ، إلى إشادة بجلد الفرنج في القتال ، وغيرتهم ، القويّة على عقيدتهم . فمن ذلك قوله من رسالة وجّهها إلى الخليفة : ((... وقد بلي الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت ، واستجابوا للصوت وفارقوا المحبوبين ، الأوطان والأوطار ، وهجروا المألوفين ، الأهل والديار وركبوا اللجج (٤) ، ووهبوا المهج . كلّ ذلك طاعة لقسيمهم ، وامتثالا لأمر مركبهم وغيره لتعبدهم ، وحميّة لمعتقدهم ، وتهالكا على مقبرتهم ، وتحرّقا على قمامتهم ، لا يطلبون مع شدّة الإملاق مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالا ، بل يتساقطون على نيران الظّبى تساقط الفراش ، ويقتحمون الرّدى متدرّعين الصبر ، متثبتي الجأش ، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرّزات ، وسرن إلى الشام في البحر والبرّ متجهزات ، ...)) (٥) .

ولم ينكر الغاضل ما كان يتحلّى به الفرنج من عزيمة وإرادة وصبر على القتال وشدائده . ومما قاله في ذلك : ((... وصدورهم لا يملؤها إلاّ الطّعنة ، وكانوا قد اجتهدوا في القتال ، وصبروا على مرّ النّضال والنّصال ، حتى

---

(١) الجدّة : وجه الأرض . (القاموس المحيط ، وتاج العروس : جدد) .
(٢) صبح الأعشى : ٧/١٢٨ .
(٣) الرّوضتين ، بيروت : ٢/١٤٩ ، والمفرّج : ٢/٣٠٧ ، وللمزيد من الأمثلة ، انظر : الرّوضتين ، بيروت : ٢/١٧٠ ، ١٨٥ ، مفرّج الكروب : ٢/٤٩٧ ، ٥٠١ ، وصبح الأعشى : ٦/٥٢٨ ، وغيرها .
(٤) اللّجج : الجماعة الكثيرة ومعظم الماء . (القاموس والتاج : لجج) .
(٥) الرّوضتين ، بيروت : ٢/١٦١—١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهمدتهم الصّفاح ،وأرقدتهم الجراح))[١] ،وماقالـه أيضا حينما حاصر صلاح الدّيـن بيت المقدس:((... فلمّا نازلها الخادم ،رأى بلدا كبلاد ،وجمعا كيوم التناد،وعزائم قد تألّبت وتولّفت على الموت فنزلت بعرصته ،وهان عليها مورد السيف،وأن تموت بغصّته))[٢] .

ويعترف القاضي الفاضل أيضا بمهارة الفرنج القتالية ،ودرايتهم بفنون الحرب والقتال ، كما يتضح من قوله في رسالة وجّهها إلى الخليفة:((... ولهم (خذلهم اللّه) تنوّع في المكايدة فإنّهم قاتلوا مرّة بالأبرجة[٣] ،وأخرى بالمنجنيقات[٤] ،وثالثة بالدبّابات[٥]

---

(١) الرسائل ،ص: ٤٩ ،وانظر أمثلة أخرى في الرّوضتين ،بيروت: ٢/١٨٥ ،والمفرّج: ٢/٣٥٢ .

(٢) الرسائل ،ص: ١٦٨ ،وصبح الأعشى : ٧/٥٥١ .

(٣) البرج : آلة من آلات الحصار ،تصنع من الخشب الصلب والحديد ،وتصفّح بالجلود المسقّاة بالخل ،حتى لا تشتعل فيه النّار ،يسير على عجلات ويتّسع لخمسمئة مقاتل ،استعمله الصليبيون في حروبهم مع المسلمين ولا سيّما في حصار عكّة انظر: النّوادر السلطانيّة ،ص: ١٢٠ .

(٤) المنجنيق : آلة استخدمت لتوجيه القذائف الحجريّة ،وغيرها ،بقوّة عظيمة لاضعاف أسوار العدوّ وتحصيناته ،وهي أعجميّة من أصل فارسيّ تقوم مقام المدفع الحالي ،انظر: ((لسان العرب : جنق) ،وقد وصفه القلقشنديّ وصفا دقيقا في صبح الأعشى ،انظر : ١٤٤/١ ،وانظر: النّوادر السلطانية ص : ٢٦ .

(٥) الدبّابة: آلة تصنع من الخشب الصّلب،وتصفّح بالجلود ،يدخل فيها الجند ويقرّبونها من الحصن المحاصر ،لينقبوه ،وتقيهم ممّا يرمون به من فوقهم. يقول الفاضل في وصفها : ((... تشبه الأبراج في جفاء أخشابها وارتفاعها وكثرة مقاتليها واتّساعها)) الإلمام ١٦٦/١ ،وانظر: (لسان العرب: دبب) ،والنّوادر السلطانيّة ص: ٤٢ ،ومفرّج الكروب : ١٨٠/١ — ١٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورابعة بالكبـاش[١]، وأخرى باللوالب ،ويوما بالنّقب ،وليلا بالسرابات[٢]، وطورا بطـمّ الخنادق ،وأناة بنصب السلالم ،ودفعة بالزحوف في الليل والنهار، وحالة فـي البحـر بالمراكـب[٣]))٠

ولكنّ هذا لم يكن رأيه في جميع ماكتب،إذ إنّه يهوّن أحيانا من شأنهـم رفعا لتهيّب المسلمين منهم ،وذلك حين يتهمهم بتجنّب المواجهة على الرّغم من كثرتهم وهم في عقر دارهـم ،والمسلمون يعيثون بأرضهم ،يحرقون ويقتلون ويأسرون ،أو حين يحتمي جيش كثيف لهم بقيادة ملك القدس بحصن الدّاروم[٤] بدلا من مواجهـة جيش للمسلمين دونه عددا وعدّة ،وإذ ذاك تتاح لجيش المسلمين حرية الحركـة في الأراضي الّتي يحتلّونها ،إلى أن يعود إلى مصر سالما غانما[٥]٠ ومن طبائعهـم أنّهم كانوا في المعتاد لا يقدمون على القتال إلاّ إذا كانوا متحوّطين . يقول الفاضـل ((٠٠٠ والعدوّ المخذول ــ لا يقاتل إلاّ علـى رقبة وحذر ،ولا يقاتـل

---

(١) الكبش : آلة من آلات الحصار ،كانت تستعمل لقذف الحصون ونطـح الأسوار ،يكون متصلا بالدّبابة ،له رأس ضخم وقرنان ،تدفعها الجنود نحو الأسوار لتهدمها . انظر: (القاموس المحيط ،والمعجـم الوسيط: كبش) ٠ وجب ،صلاح الدّين : دراسات في التاريـخ الإسلامي ،بيروت، ١٩٧٣ ،ص: ١٦١٠

(٢) جمع سربة: وهي جماعة من الجند ينسلّون من العسكر ،فيغيرون ويرجعـون والجماعـة من الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثيـن ،وقيـل ما بيـن العشرة إلى الثلاثيـن ٠ انظر: (لسان العـرب والقامـوس المحيـط : سرب) ٠

(٣) الرّوضتيـن ،بيروت : ٢/١٨٥ ،ومفرّج الكروب : ٢/٣٥٣٠

(٤) قلعة بعد غزّة للقاصد من مصر ،الواقف فيهـا يرى البحـر ، إلاّ أنّ بينهـا وبين البحـر فرسـخ ٠ انظر معجـم البلدان : ١/٤٢٤٠

(٥) انظر تفصيل ذلك في رسالة للفاضل وجّهها لأهل قوص،يصف فيها غـزاة لصلاح الدّين قام بها إلى غزّةوالداروم عام (٥٦٦هـ) في الرّوضتين ،حلمـي جـ١ ق٢/٤٩٠ ،والوثائق: ٥/١١٢ــ ١١٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلاّ في قرى محصّنـــة أو من وراء جـــــدار))[١].

وقد وصمهم الفاضل بالغدر والخيانة، وبأنّهم لا يقيمون وزنا للعهد إلاّإذا كان يخدم مصالحهم الخاصّة، حتى بات الغدر، ونقض العهود من خصائصهم في علاقاتهـــم مع المسلمين. ولذا كان الفاضل يحذّر سلطانه من الاطمئنان إليهم كما يتضح ممّـــا كتبه إليه حينما عرضوا عليه صلح الرّملة عام (٥٨٨هـ). يقول:((... وكيف تشنّـــع ملك انكلتيرة بالغدر، وهو ــ لعنة اللّه ــ قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهـــل عكّة نهارا جهارا، وشهد بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى، وغدر الفرنج معلـــوم:

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدهـــا ومن عهدها أن لا يدوم لها عهـــد

القوم هادنوا لمّا ضعفوا، ويفسخون إذا قـــووا))[٢].

ولا ينسى الفاضل وهو يتحدّث عن الجيش الصليبيّ أيضا أن يندّد بمـــن تعاون معهم من المسلمين كأولئك الأعراب الّذين كانوا في جنوب فلسطين والأردنّ إذ كان بعضهم أدلاّء للغزاة، ممّا دفع صلاح الدّين إلى ترحيلهم، حتى يحرم الفرنـــج من الانتفاع بهم[٣]. وندّد الفاضل كذلك بأنصار الدّولة الفاطميّة الّذين حاولوا بعـــد زوالها عام (٥٦٧هـ) أن يتعاونوا مع الفرنج لإعادة الأمر إليها، بعد أنْ خلصت لصلاح الدّين الّذي كان ينوب عن نور الدّين في مصر. فقد قال من رسالة وجّهها إلـــى نور الدّين بعد إعدام المتآمرين:((... وكان أكثر ما يتعلّلون به، ويستريحون إليـــه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج، الّتي يوسّعون لهم فيهـــا سبل المطامع، ويحملونهم فيها على المظالم والفظائع، ويزينون لهم الإقدام والقـدوم ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتدّ المخصوم، ... ولأهل القصر والمصريين

---

(١) الرسائـــل، ص: ١٣٩.

(٢) الرّوضتين، بيروت: ٢/٢٠٣ــ٢٠٤، وللمزيد من الأمثلة على غدرهم وخيانتهم للعهود في أدب الفاضل، انظر الرّوضتين، حلمي: ج١ق٢/٧٠٦، وطبعة بيروت: ٢/٢٠٥.

(٣) انظر بشأن ذلك رسالة الفاضل إلى نور الدّين في مفرّج الكروب: ١/٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في أثناء هذه المدد رسل تتردد ،وكتب إلى الفرنج تتحدد))[١] .

وفي أدب الفاضل النثريّ ما يدلّ دلالة واضحة على أنّ الجيش الصليبي كان يضمّ المرتزقة[٢] ،وليس هذا بالأمر الغريب بالنسبة إلى جيش ضمّ أشتاتا من أنحاء أوروبا ،ليحاربوا المسلمين باسم الدّين . وقد أوضح الفاضل أنّ الجيش الصليبيّ كان متعدد الجنسيّات ،مختلف الألسن ، حتى إنّ أفراده كانوا يستعينون بمن يترجم بينهم حين يتحدّثون . فقد قال في رسالة إلى الخليفة:((... واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربيّة والألسنة الأعجميّة من لا يحصر معدوده ،ولا يصوّر في الدّنيا وجوده ،فما أحقّهم بقول أبي الطّيب:

تجمّعَ فيه كلُّ لِسْنٍ وأمّةٍ فما تُفْهِمُ الحدّاثَ إلاّ التراجِمُ (٣)

حتى إنّه إذا أسر الأسير ،واستأمن المستأمن ،احتيج في فهم لفته إلى عدّة تراجم ينقل واحد عن آخر ،ويقول ثانٍ ما يقول أوّل ،وثالث ما يقول ثانٍ ...))[٤] .

---

(١) الرّوضتين ،بيروت: ١/ ٢٢٠—٢٢١ ،وانظر أمثلة أخرى في المصدر نفسه ٢/ ٢٤، ٣١، ٥٠، ٥١ ،والرسائل ،ص: ٩٧، ١٣٧، ١٣٨ ،والمفرّج ٢/ ٤٩٧، ٥٠١ ،والرّوضتين ،حلمي : جـ١ق٢/ ٦١٤ ،وغيرها .

(٢) انظر الإلمام بالأعلام : ١/ ١٦٩ .

(٣) ديوانه : ٣/ ٣٨٥ .

(٤) الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ١٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صـــورة المعركـــــــة :

لم يكن صلاح الدّين خلال حروبه مع الخارجين على الوحدة الإسلاميّة يغفل عن مواجهة الغزاة من الفرنج ،على الرّغم من أنّه كان يهادنهم في ظروف معيّنـــة لكي يعمل على توحيد جبهته الدّاخليّة. وقد يستشفّ هذا الأمر من قول القاضي الفاضل من رسالة كتبها إلى بغداد :((. . . ولمّا خلا ذرعنا ورحب وسعنا ،نظرنـــا في الغزوات إلى بلاد الكفّار ،فلم تخرج سنة إلاّ عن سنّة أقيمت منها برّا وبحرا ومركبـا وظهرا ،إلى أنْ أوسعناهم قتلا وأسرا ،وملكنا رقابهم قهرا وقسرا ،وفتحنا لهم معاقـل ما خطر أهل الإسلام فيها مذ أخذت من أيديهم ،ولا أرجفت عليها خيلهم وركابهـم منذ ملكها أعاديهـــم))(١).

وقد اضطلع الفاضل بمسؤولية نقل أخبار المعارك والحروب الدّائرة بين سلطانه والفرنج في بلاد الشام. ولذا فقد واكب أدب الفاضل النثريّ المعارك الحربيّة الّتـي خاضها المسلمون مع الفرنج بقيادة صلاح الدّين منذ أن تولّى القيادة بمصر بعد عمّـه عام(٥٦٦هـ) ،وإلى أنْ هادنه الغزاة عام(٥٨٨هـ) قبيل وفاته ،إذ قام الفاضـل بتعبئة المسلمين تعبئة معنويّة ،وتغنّى بانتصارات المسلمين ،وصوّر المعارك الّتي كانـت تدور بين الطرفين في حالتي النصر والهزيمة . ومع أنّ صورة المعركة في أدب الفاضـل النثريّ كانت تقدّم لخدمة قضيّته الّتي يتحدّث عنها ،إذ اتّجه بها اتّجاها إعلاميّا هادفا إلاّ أنّنا نستطيع أنْ نتبيّن من خلال كتاباته الصورة العامّة للمعركة من حيث جوّهـا العام ،وبعض مقوّماتها الأساسيّة سواء أكانت برّيّة أم بحريّـــة.

المعارك البريّـــــــة :

نرى أنفسنا في المعارك البرّيّة أمام صورة عامّة للمعركة ،تكاد تنطبق علـــى معظم معارك سلطانه الّتي خاضها مع الفرنج قبل معركة حطّين الحاسمة ،إذ نرى فـي هذه الصورة الجيش الإسلاميّ بقيادة صلاح الدّين وهو داخل الأرض المحتلّـــة

---

(١) الرسائل ،ص: ٩٨ — ٩٩ ،والرّوضتين ،حلمي : جـ١ق٢ / ٦١٩ ،وصبح الأعشى: ١٣ / ٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدمّر حصون الغزاة ،ويتلف موارد معيشتهم،ملحقا بهم القتل والأسر ،ثمّ يعود سالما غانما . ومن ذلك — على سبيل المثال — قوله مصوّرا ما قام به صلاح الدّين إثر هدم حصن بيت الأحزان[١] سنة (٥٧٥هـ) من رسالة وجهها إلى بغداد :((. . . وبعد ذلك سار إلى أعمال طبريّة وصور وبيروت من بلاد قد فتحها الكفر ما ركضت عليها المغيرة ولا أزعجت ترابها المثيرة ،إنّما نازلوها حيّ لقاح ،ولا يخافون سيول الجبال على مرعى البطاح ،فدخلها وتخلّلها وكسا رباها العارية الجيش فلبسته وجلّلها ،وأدار فيها كأس المنون دهاقا[٢] ،وحلّ الرؤوس ضربا ، وشدّ الأعناق وثاقا ،وطحن الحصون القائمة بكلكل[٣] الجيش وحلّ حتى البروج المشيّدة بهدم يكسب حلم أعطافها معنى الطيش ،وقطع من أحجارها كلّ غيظة منظرها المبهج غائظ لبني الإسلام ،وكلّ دوحة مثمرة بأنجم لا يغيبها النهار، . . . وعاد إلى دمشق في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر بالنصر الظاهر والظفر الباهر[٤])) .

ويحرص الفاضل على أنْ يتحدّث عن الفرنج ،وهم يلتجئون إلى حصونهم وقلاعهم ، بدلا من مواجهة جيش المسلمين الذي يجوس خلال ديارهم . فهو إذ يتحدّث عن خروج صلاح الدّين من مصر ودخوله الأرض المحتلّة في جنوب الأردنّ يقول: ((. . . وكان الخادم طالع بخروجه من مصر طالبا للغزاة المفروضة ،فحشد الفرنج ونزلوا بالكرك على إرجاف بالمصاف ،ولم يزل الخادم على مداولة الأعمال إلى أوساط

---

(١) مخاضة على نهر الأردنّ تقع بين دمشق وفلسطين . يقول ياقوت:((. . . سمّي كذلك لأنّه كان سكن يعقوب (عليه السلام) ،أيّام فراقه ليوسف (عليه السلام) وكان الفرنج عمروه ،وبثوا به حصنا حصينا ، فنزل عليه الملك الناصر يوسف بن أيّوب سنة (٥٧٥هـ) ،ففتحه وخرّبه)) . معجم البلدان : ١/ ٥١٩ ، وأنظر أيضا : مقالة مستفيضة عن هذا الحصن في مجلّة دراسات م١٣ ع٤، للدكتور مصطفى الحياري ،ص: ٤٠ — ٦٠ .

(٢) دهق الكأس : أي ملأها : (اللسان : دهق) .

(٣) الكلكل: الصدر من كلّ شيء ،وهي هنا مقدّمة الجيش: (اللسان : كلل) .

(٤) الرسائل ،ص: ١٣٥ — ١٣٦ ،وانظر أمثلة أخرى في الروضتين ،بيروت: ٢/ ٥٠ — ٥١ ،وغيرهما .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأعمال ،فحلّ بها وشنّ الغارة فأبعد وأذكى النّار فأوقد ،وطلب الماء المحمي أزرقة بأزرقهم (١) ، فأورد وسفك دم الخصب بالنّار وأخذ ،وفيها عدل السيف الجار بالجار ،وعلم أنّ الفرنج قد تسلّلوا لواذا ،وتعلّلوا بالحصون احتجازا ولياذا . وأنّهم لا يقاتلون إلاّ على نجاة متيقنة (٢) ».

وقد يلتقي الجيش الإسلامي وهو في أرض العدوّ بجيش فرنجيّ كثيف مدجج بالسلاح يفوقه عددا وعدّة ،فلا يغامر بجنده ،بل يتحرّز ويتربّص ويتصبّر ولا يندفع إلى قتال ،على الرّغم من استثارته للدخول فيه ،باعتبار ذلك كلّه نوعا من التحوّط والحذر. وقد صوّر الفاضل مواقف كهذه لجيش الفرنج في غير موضع من كتاباته ومن ذلك قوله : ((... ونزل العدوّ إلى الأرض منحطّا عن سرجه ،منحازا عن فجّه وسالكا نهجا غير نهجه ،وأحدق به راجله ،وهو زهاء عشرين ألف راجل ،وركز صليب صلبوته ، فاستوى في العجز المحمول والحامل ،ونزل محصورا وخندق فكأنّما أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبورا ،وأقام بإزائه خمسة أيّام تماسيه الوقائع وتصافحه وتماشيه الروائع وتصافحه ،ويفزع فيه إلى الحفير ،ويتكرر إليه في اليوم الواحد النفير ، ويبعث إليه السهم ،وهو في الحرب السفير فيقبل تحيّة الضرب متردّدة ولا يردّها وتتبسّم إليه صفيحة النّصل متودّدة فلا يودّها ،ويجتهد في استخراجه وقد رأى المغانم ولم يخرج لدعوتها ،والمكارم ولم يرحل لبغيتها (٣))).

ومن أجل ذلك ،كان اللقاء بين الطرفين في صورة مواجهة عامّة غير شائع في كتابات الفاضل ، قبل معركة حطّين ،ولا سيّما عندما يكون الفرنج بعيدين عن

---

(١) الزرق : المعنى : (القاموس المحيط : زرق).

(٢) الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٢٨ . وانظر أيضا أمثلة أخرى ،ص: ٢٩ في المصدر نفسه .

(٣) الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٥١ ،وللمزيد من الأمثلة على هذه الظاهرة ،انظر المصدر نفسه : ٢/ ٢٨ ، ٢٩ ،والرّوضتين ،حلمي : جـ١ ق٢/ ٤٨٩ — ٤٩٠، والوثائق : ٥/ ١١٣— ١١٤ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حصونهم وقلاعهم. وعند ما يكونون قريبين منها، يصوّر جيش المسلمين وهو يغير على تجمعاتهم ويرميهم بالسهام، لكي يرغمهم على الخروج من حصونهم، وبعد خروجهم تكون المعركة في المعتاد قصيرة خاطفة، تنتهي بلجوء الفرنج إلى حصونهم تطاردهم خيول المسلمين. ومن الأمثلة القليلة على لقاء المسلمين بالغزاة، قبل معركة حطّين في مواجهة مباشرة كما يصوّرها الجانب الإسلامي، ما كتبه الفاضل إلى الخليفة في بغداد، يصف فيه غزاة لصلاح الدّين في أعمال طبريّة عام (٥٧٨هـ)، إذ يقول: ((... وتوالت من الفرنج حملات ألجأهم إليها الاضطرار لا الاختيار، وثبت من دنا منهم من المسلمين من الأطلاب[١]، ولقوهم وهم الأعداء لقاء الأحباب، وتعانقت لغير الوداد فصارت أوشحة، وطارت إلى أقرانها فصارت أرجل الخيل لها أجنحة وصرعت للفرنج أبطال وخيّالة، وتمّت الحملة الإسلاميّة على من كان وراءهم من الرجّاله فأخذ القتل كثيرا وقليلا ترك، وفرّت روح الكافر من الجسد، وعملت النّار أيّة سلك[٢] وألجأهم البلا إلى حصن يعرف بِقَفْرَ بلا[٣]، وسع الخوف منه ما هو ضيّق، وتعلّق بالحياة منهم من هو متعلّق، ولم تتصرّف صدور الخيل دون أن اعتقلتهم في سجنه، وألزمتهم به فصاروا قرطا في أذنه،...))[٤].

وكان من الطبيعي أن يركّز الفاضل بقوّة على شجاعة المقاتلين المسلمين وجرأتهم على أعدائهم، بعد أن أصبحت طرائقهم في الحرب معروفة لديهم. يقول الفاضل: ((... ولم يواجه الكفر وهو مجتمع في خيله فضلا عن رجله، ولم يهدّد العدوّ بضرب مصاف إلاّ واستكانت العزائم لتهديده، ولم يجمع أمره على اللقاء إلاّ صرفه عنه الأمر، فأمّا الآن فقد أنس المسلمون بحزبه، وتمرّنوا بحربه))[٥].

---

(١) كلمة كرديّة اطلقت زمن صلاح الدّين على الأمير الّذي يقود ٢٠٠ فارس في ميدان القتال، وعلى من يقود المئة أو السبعين. انظر النّوادر السلطانية ص: ٦٢.

(٢) السّلك: الطريق: (اللسان: سلك).

(٣) بلد بغور الأردنّ قرب بيسان وطبريّة. انظر معجم البلدان: ٤/١٣١.

(٤) الرّوضتين، بيروت: ٢/٢٩.

(٥) المصدر نفسه: ٢/٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلك هي صورة المعركة العامّة قبل معركة حطّين . أمّا صورتها في حطّين وما تبعها من المعارك ، فقد جاءت أكثر تفصيلا ودقّة ، إذ هي تقدّم لنا فيما تقدّم الجيشين المتحاربين ، وساعة اللقاء ، وما تمخّضت عنه المعركة ، ومجموعة من العناصر التفصيليّة الأخرى ، ولعلّ النّص التالي يوضّح الصورة الّتي قدّمها الفاضل لجيش المسلمين المتوجّه إلى معركة حطّين ، ولقائد هذا الجيش: ((. . . وقد ورد السلطان للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر ، وفي جمع البادي فيه كأنّه حاضر ، وفي حشد يتجاوز أنْ يحصّله الناظر إلى أن لا يحصّله الخاطر ، وقد نهضت به همّة لا يرجى غير الله لإنهاضها ، ونجحت عزمة اللّة المسؤول في حسم عوارض اعتراضها ، وباع الله نفسا يستمتع أهل الإسلام بصفقتها ، ويذهب الله الشرك بهيبتها))(١) ، ويقول كذلك في وصف هذا الجيش: ((. . . وذلك أنّ الخادم برز على جسر الخشب ، وقد اجتمع له من العسكر ما ضاق بهذا الفضاء الأكبر ، وحقّ له يوم مسيرها أن تكدّر عين الشمس بالعجاج الأكدر ، وتوجّه الى أرض العدوّ بجيش الهرقل ، وعزمة الإسكندر))(٢) .

ومن الجدير بالإشارة هنا ، أنّ الفاضل لا يبدو حريصا وهو يتحدّث عن المقاتلين المسلمين على وصف أسلحتهم وعدّتهم القتاليّة ، إنّما يحرص بصورة واضحة على إبراز شجاعتهم وعزيمتهم وقوّة إيمانهم ، وما يبثّونه من رعب في نفوس أعدائهم . ومن ذلك قوله: ((. . . وجيوش نصره إذا عاينتها جيوش أعدائه جرّوا ذيول الهزائم ولا برحت جياده في أجياد الحصون تمائم(٣) ، ولا فتئت أعداؤه يتساقون كأس الحتوف حيث السيوف أزاهر والغمود كمائم ، وجيشه المنصور يسير من أجنحة العقبان(٤) تحت غمائم ، ومتى اضطرمت نار الهجير فطيور المنيّة على جداول السيوف حوائم ، ونصر الله محيط به في كلّ موقف تخون فيه السّيوف القوائم))(٥) .

---

(١) الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ٧٥ .

(٢) الرسائل ، ص : ٣٨–٣٩ .

(٣) مفردها تميمة : وهي خرزة رقطاء تنظم في السّيْر ، ثم يعقد في العنق (القاموس المحيط : تمم) .

(٤) جمع عقاب : وهو من كواسر الطير ، قويّ المخالب ، حادّ البصر ، له منقار قصير أعقف . انظر : (القاموس المحيط ، والمعجم الوسيط : عقب) .

(٥) الرسائل ، ص : ٣٨ ، وللمزيد أيضا انظر ص : ١٤٨ في المصدر نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشيد بمهارة المسلمين القتاليّة بقيادة صلاح الدّين الّذي استفاد في معاركه من عنصر المفاجأة والمباغتة، وسرعة الحركة، فيقول: ((. . . وصبّح الخادم طبريّة فافتضّ عذرتها بالسيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرّق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم بالأمر فلم يقدروا على الخداع والختل،(١) ونهب من الذخائر والأموال، والعدد والأثقال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوّمة والأنعام ما يزيد على التعداد))(٢).

وكأنّي بالفاضل قد حرص على تبيان أنّ المسلمين في معاركهم الّتي خاضوها مع الغزاة لم ينتصروا على أعداء ضعاف يجهلون أساليب الحرب والقتال، وإنّما تغلّبوا على جيوش قويّة كثيرة العدد، لديها كلّ مقوّمات القتال ومتطلّبات الحرب. وتتضح هذه النزعة في كثير من كتابات الفاضل، ومنها قوله: ((. . . ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشدّ عقد وأوثقه، ويعدّونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه))(٣).

وبعد أنْ يصف لنا الفاضل قوّة كلّ من الجيشين الإسلاميّ والفرنجيّ، ينقلنا إلى ساحة المعركة الّتي يصفها متكئا في ذلك على عنصري الحركة والتلوين، فيقدّم لنا صورة متحرّكة لساعة اللقاء بين الطرفين، إذ يركّز بصورة خاصّة على نكاية المسلمين بالغزاة، وقد لا نرى فيها الأعداء إلاّ وهم يصرعون وينهزمون، وقد يكون وراء هذا النوع من التصوير أنّ الفاضل لم يشهد هذه المعارك بنفسه، إنّما بنى ما يصفه على التخيّل والسماع. ولذا فقد جاء وصفه للمعركة مفتقرا إلى سمة الواقعيّة، إذ لا نرى فيه وصفا تفصيليّا دقيقا لأحداث المعركة حسب تسلسلها. ومن الأمثلة على ذلك قوله في موقعة طبريّة: ((. . . فلقيهم الخادم وقد اشتدّت عليهم نيران العطش، وجازاهم الله بما تقدّم من سيّآتهم فاشتدّ عليهم بطشه إذا بطش، فبنت سنابك الخيل سماء من العجاج، نجومها الأسنّة، وطارت إليهم عقبان من الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الأعنّة، وتصوّبت عيون السّمر إلى قلوبهم فكأنّما تطلب سوادها، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنّما أرادت أن تروّي فؤادها، فشربوا كأس المنون لمّا تورّدت صفحات الصّفاح

---

(١) اختتل: تسمّع لسرّ القوم: (اللسان، والقاموس المحيط: ختل).

(٢) الرسائل، ص: ٣٩.

(٣) الرّوضتين، بيروت: ٢/١٠١، وانظر أمثلة أخرى في الرسائل، ص: ٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغازلتهم عيون الرماح ،وعقدت لهم الحوافر غماما من الغبار ،وأنزلت عليهم قطرا من السّهام المتطايرة الشرار ،وحدتها رعود من الصهيل ،وأبرقت في جوانبها بروق من كلّ سيف صقيل))(١) ،وقوله أيضا في موقعة أخرى حول عكّة عام (٥٨٥ هـ) ((... فاستدارت بهم رجال الجاليشيّة(٢) ،تقذف شياطينهم بشهابها ، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيور نشابها ،وتجنيهم من القنا و النشّاب ثمر الرّدى متشابها))(٣) .

وممّا سبق ،نرى أنّ الفاضل يركّز على نتيجة المعركة أكثر من تركيزه على أحداثها الواقعيّة(٤) ،وأنّه لا يتوقف طويلا عند التحام الجيشين وتطوّر القتال ،لكي ينقل لنا تفصيلات دقيقة لأحداث المعركة ،وإنّما هو يركّز على انتصار المسلمين ،ويحرص على إعلان نبأ النصر ،ثمّ يعبّر عن فرحته وسروره به . ومن أجل ذلك جاء وصفه للمعركة أشبه ما يكون ببيانات إعلاميّة عاطفيّة حافلة بالانفعالات ،يسعى من ورائها إلى تطمين المسلمين ،وإشاعة المسرّة والاعتزاز في نفوسهم .

وفي حديثه عن نتيجة المعركة ،يعبّر الفاضل عن شماتته بالعدوّ المنهزم ويسخر منه ،إذ يرى أنّ ما حلّ به إنّما هو جزاء وفاقا على جرائمه ،ولا سيّما ما اقترفه رجاله من فظائع في بيت المقدس(٥) ،حينما دخلوه في بداية الغزو الفرنجيّ لديار الإسلام. وما دام الأمر كذلك ،فإنّ وصف ما لحق بالغزاة من قتل وأسر وإذلال ،يصبح لدى الفاضل مصدر رضى واستمتاع . وهذا واضح في قوله مصوّرا هزيمتهم في معركة حطّين من بشارة على لسان صلاح الدّين وجّهها إلى بغداد :((... وكان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمدّه اللّه بمداركته ،وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة اللّه كفر ،وأسر منهم من أسرّت به السلاسل ، وقتل

---

(١) الرسائل ،ص: ٤٠ ،وابن حجّة الحمويّ ،ثمرات الأوراق ،تحقيق قميحة ،ط١ بيروت ،١٩٨٣م ،ص: ٢٢٥ ،وانظر أمثلة أخرى في الرسائل أيضا ص: ١٦٥ ،وغيرها .

(٢) راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر ،وهي هنا مقدّمة الجيش. انظر النّوادر السلطانية ،ص: ٦٢ ،وصبح الأعشى : ٤/ ٨ .

(٣) الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ١٤٤ .

(٤) انظر: للمزيد من الأمثلة: الرسائل ،٤١ ،والرّوضتين ،بيروت: ٢/ ١٤٤ ،والإلمام بالأعلام: ١/ ١٦٧ .

(٥) انظر الكامل في التاريخ : ٨/ ١٨٩ ،والبداية والنهاية ١٢/ ١٥٦ ،وغيرهما .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منهم من فتكت به المناصل ،وأجلت[١] المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن أنصاف نخيل ،فإنّه قتلهم بالسيوف الأفلاق[٢] ،والرماح الأكسار[٣] ،فنيلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضا بثأر))[٤] .

ويتحدّث الفاضل أيضا عن أسرى الفرنج الّذين وقعوا في أيدي المسلمين وهم مصفّدون بالحبال ، فيقول :((.. فلو رأيت أطناب[٥] الخيم في أعناق الأسرى يساقون مقرّنين ،لحمدت اللّه الّذي سخّر لنا هذا ،وما كنّا له مقرنين))[٦] . ويختلط شعور الشماتة بمشاعر الفرح ، حينما كان الفاضل يتحدّث عن ملوك الفزاة العظام وقادتهم الشجعان الّذين أسرهم المسلمون إثر معركة حطّين ،من أمثال : ملك بيت المقدس ،وصاحب الكرك ، وغيرهما[٧] .

ويقدّم الفاضل فيما كتبه عن المعركة صورة دمويّة مرعبة وهو يتحدّث عن رؤوس الفزاة المرفوعة على أسنة الرّماح ،وقد رجع بها المقاتلون المسلمون من ساحة المعركة ،إذ يقول : ((... وعاد المسلمون برؤوس عدوّهم في رؤوس القنا وقد اجتنوا ثمراتها ،وبأرواحهم في صدور الظبى وقد أطفأوا بمائها جمراتها))[٨] . وقد سار الفاضل

---

(١) أجلت : كشفت وأظهرت : (القاموس المحيط : جلي) .
(٢) الأفلاق : أي الّتي أصابها التفلّق والتشقق من كثرة الضرب :(اللسان : فلق) .
(٣) الأكسار : أي العظيمة الموصّلة : (اللسان ، والقاموس المحيط : كسر) .
(٤) الرسائل ،ص: ١٦٤ ،وصبح الأعشى : ٦/ ٤٩٩ .
(٥) الأطناب : مفردها طنب ،وهو حبل الخباء أو السّرادق . (اللسان : طنب) .
(٦) الفاضل من كلام القاضي الفاضل (مخطوط) ورقة : ١٠٠ ،وانظر الرسائل أيضا ،ص: ٤٢ .
(٧) انظر الرسائل ،ص: ٤١ ، ٤٢ ، ١٠٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،وصبح الأعشى ٦/ ٥٠٠ ،والرّوضتين ،بيروت : ٢/ ١٠١ .
(٨) الفاضل من كلام القاضي الفاضل ،ورقة: ٩٨ ،وانظر أمثلة أخرى في الروضتين ،حلمي جـ١ ق٢/ ٤٩١ ،والوثائق : ٥/ ١١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على نهج غيره من كتّاب المسلمين وشعرائهم حين اعتبر دماء الغزاة من الفرنج مادّة تطهير للأرض الإسلاميّة المقدّسة الّتي دنّسها الأعداء باحتلالهم لها ،إذ يقول ((... فللّه الحمد أنْ أحرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط، وطهّرها ماطر من دم الكفر ،وما كان ليطهرها البحر المحيط)) (١).

وقد ارتبطت هزائم الفرنج في أدب الغاضل بمرافقة السباع والطيور الجوارح للجيش الإسلاميّ ،حتى تتغذّى على جثث القتلى من الغزاة ،كما يتبيّن في قوله: ((... فللّه هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنّسر)) (٢). ومثل هذه الصورة ،من الصور التقليديّة الموروثة الّتي تداولها الشعراء في الشعر العربي المرتبط بالواقع والحروب (٣).

ويتوقف الغاضل وهو يتحدّث عن المعركة عند الآثار النفسيّة لهزيمة الأعداء فيرى في هزيمتهم سقوطا لهيبتهم ،وزوال التهيّب منهم ،ووقوع هيبة المسلمين في نفوسهم ،حتى صار الخوف من المسلمين حليفالهم ضدّ أعدائهم كما يرى الغاضل إذ يقول إثر هزيمة حطّين من بشارة كتبها إلى الخليفة العباسيّ :((وقد أظفر اللّه بالعدوّ الّذي تشظّت (٤) قناته وكانت شفقا (٥)، وطارت فرقة فرقا (٦)، وفلّ سيفه (٧) فصار عصا ،وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا ، فكلّت حملاته وكانت قدرة اللّه تصرّف فيه اليمنان باليمين ،عقوبة من اللّه ليس لصاحب يد بها يدان ،وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ،وغضّت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ،ونام

(١) مفرّج الكروب : ٢/٤٩٧ ،وصبح الأعشى : ٦/٥٢٧—٥٢٨ .
(٢) الرسائل ،ص: ٤٢ .
(٣) انظر عليّ الجندي ،شعر الحرب في العصر الجاهلي ،بيروت،ط ٣ ،١٩٦١م، ص: ١٩٩ ،٢٠١ ،وغيرها .
(٤) تشظّت: انشقّت: (اللسان ،والقاموس المحيط : شظي) .
(٥) الشّفق : شدة الخوف والفزع: (اللسان : شفق) .
(٦) الفرق :الخوف والجزع: (اللسان : فرق) .
(٧) فلّ سيفه : أي ثلم ،وهي هنا كناية عن الهزيمة . (اللسان ،وتاج العروس: فلل) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جفن سيفه وكانت يقظة تريق نطف الكرى من الجفون ،وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون ، . . .))[١] فصار الفرنج على الرّغم من كثرة جموعهم ،وحصانة مدنهم يلتمسون الأمان من المسلمين ،لكي ينجوا بأنفسهم بعد أن أحسّوا أنّ أسلحتهم لم تعد قادرة على حمايتهم ونصرتهم[٢] .

وفي المقابل ،يصوّر لنا الفاضل أثر النصر في نفوس المسلمين ،ولا سيّما بعد معركة حطّين ،واسترداد بيت المقدس، فيقول :((. . . واستردّ المسلمون تراثا كان عنهم آبقا ،وظفروا يقظة بما لم يصدّقوا أنّهم يظفرون به طيفا على النأي طارقا ، واستقرّت على الأعلى أقدامهم. وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ،وشفيت بها ولو كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم[٤] ،. . .))[٥] .

وما من انتصار حققه صلاح الدّين على الفرنج ،إلاّ كان حافزا للفاضل لكي يحثّ سلطانه والمسلمين على مواصلة الجهاد ضدّ الغزاة ،حتى تستنقذ بقيّة الأراضي الإسلاميّة المغتصبة من أيديهم . ومن ذلك قوله مخاطبا صلاح الدّين إثر تحرير بيت المقدس:((. . . ومن طلب خطيرا خاطر ،ومن رام صفقة رابحة جاسر ومن سما لأن يجلّي غمرة غامر ،وإلاّ فإنّ القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضّها ،ويضعف في أيديها مهر القوائم فتقضّها ،هذا إلى كون القعود لا يقضي فرض اللّه في الجهاد ،ولا يرعى به حقّ اللّه في العباد))[٦] .

---

(١) الرعاف: خروج الدّم من الأنف،والمنون : الموت: (اللسان : رعف) .

(٢) الرسائل ،ص: ١٦٢—١٦٣ ،وصبح الأعشى : ٦/ ٤٩٩ ،والأنس الجليل : ١/ ٣٤٣ ،وانظر أمثلة أخرى في الرّوضتين ،بيروت: ١/ ٢٤٠ .

(٣) انظر أمثلة من ذلك في الرسائل ،ص: ١٦٣ ،وصبح الأعشى : ٦/ ٤٩٩ ،وغيرهما .

(٤) الغلل: مفردها غلّة: وهي شدّة العطش أو حرارة الجوف: (اللسان ،والقاموس المحيط: غلل) .

(٥) الرسائل ،ص: ١٦٠ ،الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ١٠٠ ،والمفرّج : ٢/ ٢٣٩ ،والأنس الجليل: ١/ ٣٤٢ ،وانظر أمثلة أخرى في الرسائل ،ص: ٣٨ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، وصبح الأعشى : ٦/ ٤٩٧ ،وغيرها .

(٦) الرسائل ،ص: ١٦١ ،وصبح الأعشى : ٦/ ٤٩٨ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر الرسائل ،ص: ١٧٥ ،والرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٣٦ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحرصا من الفاضل على إحداث الاستثارة المطلوبة في نفوس المسلمين ، كان يتحدّث عن الصليب وأهميته عند الفرنج ، مصوّرا استماتتهم ، من أجل الدّفاع عنه . وكأنّي بالفاضل هنا يتعجّب من تخاذل بعض المسلمين وقعودهم عن حرب الغزاة بينما يبذل أعداؤهم أرواحهم رخيصة في سبيل صليبهم . وهذا واضح في قوله ((. . . وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، وآكد وصله بالدّين وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت وقائد أهل الجبروت ، ما دهموا قطّ بأمر إلّا وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه ويحرّضهم وكان مدّ اليدين في هذه الدفعة وداعة ، لا جرم أنّه يتهافت على ناره فراشهم وتجتمع في ظلّ ظلامه خشاشهم))(١)(٢) .

ويرى الفاضل في الانتصارات الّتي أحرزها المسلمون بقيادة صلاح الدّين على الفرنج صورة من انتصارات المسلمين في فتوحاتهم الأولى ، بل قد يرى فيها ما يزيد على تلك الفتوحات كما يستشفّ من قوله : ((. . . وهذا فتح بل هذه فتوح قد ضاعف اللّه بها بهاء الإسلام والملّة ، واستأنفت إقبال أهل القبلة ، وأتت أيّامها المختصرة على أكثر ممّا في التواريخ المشروحة من الفتوح))(٣) ، ويقول أيضا : ((. . . ولا كهذا النّصر الّذي خصّ مولانا وعمّ الإسلام ، ولا كهذا اليوم الّذي أبق اللّه له فضلا على الأيّام ، وللقائم به فضلا على الأنام))(٤) .

---

(١) الخشاش : هوام الأرض وحشراتها ودوابّها : (اللسان : خشش) .
(٢) الرسائل ، ص : ١٦٥ — ١٦٦ ، وصبح الأعشى : ٦ / ٥٠٠ ، والرّوضتين بيروت : ٢ / ١٠١ .
(٣) الرسائل ، ص : ١٣٦ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حرب الحصون والقـــــلاع:

الناظر في أدب القاضي الفاضل الّذي تحدّث فيه عن الحروب الصليبيّة ، يرى أنّ الفرنج اتّكأوا في حروبهم مع المسلمين على عنصرين لا يقلّ أحدهما عن الآخر في أهميته وخطورته ، وهما : كثافة جيشهم الّذي كانوا يخوضون به معاركهم ، وتحصيناتهم المنيعة الّتي أقاموها داخل بلاد الشام ، واهتمّوا بها اهتماما عظيما ، حتى يحبطوا أيّ هجوم مفاجئ قد يشنّه المسلمون عليهم ، ويحافظوا على ما احتلّوه من أراضي المسلمين . يقول الأستاذ محمّد كرد عليّ : ((. . . إذا استثنينا الدور الرومانيّ فإنّه لم يأت على الشام زمن توفّرت الهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين . فإنّ كلّ مستعمرة تجاريّة في الموانئ البحريّة ، كانت تحاول أنْ يكون لها على الأقلّ كنيسة وخانات ، ثمّ القلاع الّتي غصّ بها القطر ، وهي أحسن نموذج للهندسة الحربيّة في القرون الوسطى)) (١) .

ويبدو لي أنّهم كانوا مدفوعين إلى ذلك بشعور قويّ بالغربة عن الأرض الّتي كانوا يقيمون عليها ، فقد أحسّوا مع كثرتهم وتوالي إمداداتهم أنّهم دخيلون على ديار الإسلام ولا يمتّون إليها بصلة . ولذا فقد أقبلوا على إقامة التحصينات المنيعة والأسوار القويّة في معظم المناطق الإسلاميّة المغتصبة ، وشحنوها بالمقاتلين المدرّبين والسلاح والمؤن ، حتى تحتمل أطول فترة من الحصار ، وبالغوا في تحصينها وتقويتها فأنفقوا عليها أموالا طائلة . ويكفينا للتدليل على ذلك أنْ نقول : إنّ تكاليف بناء حصن بيت الأحزان ، دون غيره من الحصون والقلاع المنتشرة في بلاد الشام ، قد بلغت ثمانين ألف دينار ، على ما ذكره الفاضل ، إذ يقول في رسالة وجّهها إلى بغداد ، بعد أنْ هدمه صلاح الدّين عام (٥٧٥هـ) : ((. . . وقد عرّض حائطه إلى أنْ زاد على عشرة أذرع ، وقطعت له عظام الحجارة ، كلّ فصّ منها من سبعة اذرع إلى ما فوقها وما دونها ، وعدّتها تزيد على عشرين ألف حجر

---

(١) خطط الشام ، بيروت ، ١٩٧١م : ٥/٢٧٨ . حيث ينقل عن أحد الدّارسين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يستقرّ الحجر في مكانه ،ولا يستقرّ بنيانه إلاّ بأربعة دنانير إلى ما فوقها))[١]. وهذا المبلغ الّذي أنفق في بناء الحصن كانت له في ذلك الوقت قيمة شرائيّة تفوق أضعاف أضعاف ماله في زمننا هذا .

وأمّا الحصون والقلاع الصليبيّة الّتي صوّرها الفاضل في أدبه الّذي واكب الحروب الصليبيّة ،فهي : حصن بيت الأحزان[٢]، وحصنا الكرك والشوبك[٣]، وحصن برزيّة[٤]، وحصن عسقلان[٥] وقلعة الدّاروم[٦]، وكوكب[٧]، وأيلة[٨]

---

(١) الرسائل ،ص: ١٢٥—١٢٦ ،الروضتين ،بيروت: ٢/ ١٣ ،والمفرّج : ٢/ ٨٤ — ٨٥ وغيرها .

(٢) سبق التعريف به في الصفحات السابقة. انظر: ص: ١٣٠ من هذه الدراسة حاشية : ١.

(٣) الكرك: قلعة حصينة جدّا في جنوب الأُردنّ من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس،وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلاّ من جهة الرّبض. انظر ،معجم البلدان ،٤/ ٤٥٣. وأمّا الشوبك ،فهو قلعة حصينة في طرف الشام أيضا ،بين عمّان وأيلة والقلزم قرب الكرك ،وقد قطع طريق البريين مصر والشام ببنائه انظر معجم البلدان : ٣/ ٣٧٠.

(٤) برزية: حصن قرب السواحل الشاميّة على سن جبل شاهق ،يضرب به المثل في جميع بلاد الفرنج بالحصانة ،تحيط به أودية من جميع الجوانب وذرع علو قلعتها خمسمئة وسبعون ذراعا ، كانت بيد الفرنج حتى فتحها صلاح الدّين سنة (٥٨٤هـ) . انظر معجم البلدان : ١/ ٣٨٣ والرّوضتين ، بيروت: ٢/ ١٣١.

(٥) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحرين ،بين غزّة وبيت جبرين ،يقال لها عروس الشام ،ملكها الغزاة سنة (٥٤٨ هـ) وبقيت بأيديهم حتى سنة (٥٨٣هـ) إذ حررها صلاح الدّين وخرّبها ولمّا قوي الفرنج وفتحوا عكّة استولوا عليها ثانية انظر معجم البلدان : ٤/ ١٢٢.

(٦) سبق التعريف بها في الصفحات السابقة.

(٧) كوكب : قلعة حصينة على الجبل المطلّ على مدينة طبريّة ،تشرف على الأُردنّ . معجم البلدان : ٤/ ٤٩٤.

(٨) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم ممّا يلي الشام . معجم البلدان : ١/ ٢٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغـــزة[١]، إضافة إلى غيرها من المعاقل والمدن الّتي حصّنها الغزاة بالخنـــادق العميقـــة الواسعة، والأسوار القويّة، مثل مدينتي عكّة والقدس[٢]، وغيرهمـــا.

ولمّا كانت هذه التحصينات من مقوّمات قوّة الفرنج ووجودهم في ديار الإسلام فقد توقف الفاضل طويلا، عند وصفها وتصوير عظمة بنائها ومنعتها، من أجل أنْ يعطي القارئ والسامع فكرة واضحة عن قوّتها وحصانتها، ثمّ عن قدرة المقاتلين الّذيـــن استباحوها وهدّموها. وفي أدب الفاضل ما يدلّ دلالة واضحة على أنّ الغزاة مـــن الفرنج كانوا مهرة حاذقين في إقامة التحصينات، وتخيّر مواقعها، إذ كانوا يقيمونهـــا على قمم الجبال الشاهقة المحاطة بالأودية العميقة من معظم الجهات، ويضربـــون حولها الأســـوار المنيعة ذات الأبراج العالية، ويحفرون حولها الخنادق الواسعة حتى يتعذّر على من يهاجمونها الوصول إليها. ومن ذلك قوله في وصف حصن بيـــت الأحزان، حينما هاجمه صلاح الدّين: ((... ونظر ما أتقن به الكفر، وتمّ له مـــن حصن مشرف الأبراج مشرّفها، موضوع على أشرف التلال الوعرة وأقهرها لمن تحتـــه وأكشفها، لا تثبت القدم فيه إلاّ بفأس يحفر لموضع أخمصها، ولا تستقرّ النّظرة عليـــه إلاّ على خطر من شرقها بماء مهابته وغصصها))[٣]، وقوله أيضا في قلعة أبلة الّتـــي كانت من شدّة علوّها كأنّها تعانق السحاب: ((... شاهدنا قلعة يحتاج راميهـــا إلى الدّهر المديد، والأمل البعيد، والزاد العتيد، والبأس الشديد، تنبو بعطـــف جامح عن الخطبة وتعرض بذكر مانع عن الضربة، وتعطف بأنف عن السّحاب شامـــخ وتطلع في الصّباح بوجه شادخ[٤]، كأنّما بينهـــا وبين الأيّـــام زمام، وكأنّ نـــار

---

(١) غزّة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان معجم البلدان: ٤/٢٠٢.

(٢) انظر: الرسائل، ص: ١٦٨، وصبح الأعشى: ٦/٥٠١، ٧/١٢٨، الرّوضتين بيـــروت: ٢/١٥٧.

(٣) الرسائل، ص: ١٢٥، والرّوضتين، بيروت: ٢/١٣.

(٤) الشّدخ: انتشار الغرّة وكبرهـــا (القاموس: شدخ).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحوادث إذا بلغت مائها برد وسلام))[١].

وممّا تقدّم ،يتبيّن لنا مدى الجهد العظيم الّذي بذله المقاتلون المسلمون الّذين استباحوا هذه التحصينات المنيعة ،الّتي عانى المسلمون من وجودها أيّما معاناة في حروبهم مع الصليبيين ،إذ اتّخذوا منها أداة لمضايقة المسلمين وشلّ تحرّكاتهم وتوهين اقتصادهم ،فكانت مرصدا لتحركاتهم العسكريّة ومغارا على قوافلهم التجاريّة القادمة من مصر ،أو الذاهبة إليها. وهذا واضح في حديث الفاضل عن حصن كوكب ،إذ يقول:((... وهي كرسيّ الاسبتاريّة[٢] ودار كفرهم ، ومستقرّ صاحب أمرهم ، وموضع سلاحهم وذخرهم ،وكان بمجمع الطرق قاعدا ،ولملتقى السبل راصدا ،فتغلّقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت وسلكت طرقها وأمنت ، وعمّرت بلادها وسكنت))[٣].

ومن أجل ذلك ، كان الفاضل في كتاباته يتحدّث عن خطورة هذه التحصينات والقلاع على الإسلام والمسلمين ،ليحرّض المسلمين على إزالتها ،وكان لحصن الكرك خطورة خاصّة ،إذ إنّه كان يقع على طريق الحجّ ،ويعترض من فيه قوافل الحجّاج كما هو واضح في قول الفاضل:((... وهو شجى في الحناجر، وقذى في المحاجر قد أخذ من الآمال بمخنقها ،وقعد بإرصاد المزائم وطرقها ،وصار ذئبا في ذلك

---

(١) صبح الأعشى: ٧/ ٢٨ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك انظر: وصفه لحصن برزية الروضتين ،بيروت: ٢/ ١٣١ ،وقلعة غزّة ،صبح الأعشى: ٧/ ٢٢ ،ووصفه للكرك والشوبك ،الرسائل ،ص: ٥٥ ،٥٧ ،٥٨ ،٥٩ ، والروضتين ،بيروت: ٢/ ٥٥ — ٥٦ ،ووصفه لقلعة كوكب ،الروضتين: ٢/ ١٣٦ ،وعسقلان في الرسائل، ١٤٨ — ١٤٩ ، وسور القدس في الرسائل ،ص: ١٦٨ ،والروضتين ٢/ ١٠٠ ،وغيرها.

(٢) أطلق العرب هذه التسمية في عصر الحروب الصليبيّة على طائفة من الفرسان الدّينيين أسست بعد استيلاء الفرنج على بيت المقدس ،وكانت الدّار الّتي يسكنها هؤلاء الرهبان تتخذ مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين ،وتشبه هذه الطائفة إلى حد كبير فرسان المعبد الّتي عرفها العرب باسم (الداوية). وقد كان لهاتين الطائفتين دور خطير في الحروب الصليبية انظر: النوادر السلطانيّة ،ص: ٧٧ ،حاشية رقم: (٥).

(٣) الروضتين ،بيروت: ٢/ ١٣٦ ،وانظر ما كتبه عن الكرك والشوبك ،ص: ٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفجّ ،وعذرا لتارك فريضة اللّه من الحجّ . وهو وحصن الشوبك ـ يسّر اللّه الآخر فتحه ـ كبيت الواصف للأسديـــــن :

ما مرّ يومٌ إلاّ وعندهمـــــا لحمُ رجالٍ أو يولفـــان دمـــــا (١)

ويقول في قلعة أيلة الّتي اتّخذ منها الغزاة أداة لضرب المسلمين وتهديد مقدّساتهـم في بلاد الحجاز: ((. . . وقد كان ما علم من غزوتنا إلى أيلة الّتي اتّخذها العـــدوّ معقلا ،وتديّرها منزلا ،وعدّها موئلا ،وغاض بها رونق الجملة ،وفاض بها أهل القبلـــة وصارت على مدارج الأنفاس ،وعلى مراصد الافتراص والافتراس،وخصّت الحرمين بأعظـم قـــــادح)) (٢) .

ويرسم لنا الفاضل صورة لمهاجمة الجيش الإسلاميّ لهذه الحصون والقـــلاع فيركّز تركيزا واضحا على إظهار مناعة الأعداء المقيمين فيها ،ثمّ يتحدّث عن عزم المسلمين واصرارهم على استباحتها وأخذها . ومن ذلك قوله في حصن بيت الأحزان ((. . . وفيه من راتبة الرّجال ما بين فارس كبير وغلامه ،وراجل مدوّن وصاحبه ،وصاحب ســـــلاح وقوت وبنّاء وتابعه ،ما يزيد على ألف وخمسمئة راجل ،وهذه عدّة لم يسمع من قبـــــل بانحصارها في طرف لمرام النّوب،ولا بانحشارها في هدف لمرامي الطلب. وفيـــــه من الجروخ (٣) الوثيقة ما يزيد على وطأة المجانيق الشديدة الأثر ،السديدة الحجـــر من كلّ سهم يتصل بحديد يزيد على أربعة أرطال بالبغدادي وزنة ،ويمضـــــي في الجبل فلا يثبت له متنـــة ، بل يتقعقـــع (٤) شنّه ،بل يقلع به سنّه ،وقد نصبت عليـه مجانيق يروع خاطر الجسارة منظرها ،وتلتهم الحصون فكيف الخيام حجرها ؟ ،ويســري

---

(١) الرّوضتين ،بيروت: ٢ / ٥٥ ،والفاضل من كلام الفاضل ،ورقة: ٢٥ .

(٢) صبح الأعشى : ٧ / ٢٨ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك ،انظر: الرسائـــل ص: ١٢٥ ،والفاضل ، ٢٥ .

(٣) الجروخ : نوع من القسيّ يرمي عنه النشّاب أو النفط ،وهي من أصل فارســيّ وجمعهـا جروخ . انظر: النّوادر السلطانيّة ،ص: ٤٢ .

(٤) يتقعقع: يتحرك ويضطرب. (اللسان : قعع)، الشنّ : شن الغارة صبّها من كلّ وجـــه . (القاموس : شنن) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى الأجساد بالرّوع خبرها ،وحفر له خندق أحاط بالمدينة سُرادقة[١] ،وفتحت أبوابها ثقة بما صانته مفالقه. وقد بنوه حتى لا تنهار حروفه ،ووسموه حتى لا تنهار جروفه[٢] ،وأقرّت على جوانبه رجال تتوفر قسيهم القاسية سهامها ،. . .))[٣].

ثمّ نرى صورة الجيش الإسلاميّ وهو محيط بالحصن من كلّ جانب ،والسلطان بين رجاله يطوف حول الحصن ،من أجل معاينته واكتشاف ثغراته ،لكي يحدد للنقّابين والرّماة مواقعهم ،ثمّ يصدر أوامره بالمهاجمة بعد أن يضع خطّة الهجوم[٤] ، فتبدأ عمليات النقب ، ويدكّ المقاتلون أسوار الحصن وأبراجه بالمجانيق ،ويرمونه بالسّهام من كلّ ناحية ،حتى يشلّوا حركة من فيه ،ويرغموهم على التواري داخل حصونهم الّتي لم تعد قادرة على حمايتهم. ومن الأمثلة على ذلك قوله حينما هاجم صلاح الدّين حصن بيت الأحزان : ((. . . وفي الحال أطافت به المقاتلة من جميع أقطاره ،ولبّوا تلبية الحجيج وكلّ يرمي جمرة سهمه ،وعبرت الآجال المسمّاة على قناطر القسيّ المحنيّة وقد حت زنودها البيض شرار جمر المنيّة ،فصارت الأبرجة كأنّها مستلئمة بسلاحها أو كأنّها لكثرة ريش السّهام طائرة بجناحها ،أو كأنّها صدور قد أظهرت حسك الضغائن[٥] أو كأنّ أبرجتها لازدحام السهام بها كنائن . فتجدد عليهم حصر بان في البيوت بعد الحصر في المدينة ،وضاق مجال اليد عن إنجاد خواطرها اللعينة المهينة))[٦].

---

(١) السُّرادق : المحيط بالشيء ،وبيت مسردق : أعلاه وأسفله مشدود كلّه (القاموس: سرادق) .

(٢) الجروف: مفردها جرف،وهو شق الوادي أو المكان الّذي لا يصله الماء (القاموس : جرف) .

(٣) الرسائل ،ص: ١٢٦—١٢٧ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر أيضا ،ص: ١٦٨، من المصدر نفسه.

(٤) انظر : الرسائل ،ص: ١٢٧ ، ١٦٨ ،وصبح الأعشى : ٧/ ٢٨ ،والرّوضتين حلمي : جـ١ ق٢/ ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٥) حسك الضغائن : أي حقدها وغضبها . (اللسان : حسك) .

(٦) الرسائل ،ص: ١٢٩ ،وانظر ما كتبه عن مهاجمة حصني الكرك والشوبك ،في المصدر نفسه ،ص: ٥٧ ، ٥٨ ،والرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٥٥ ، وغيرهما .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمّ يقدّم لنا صورة متحرّكة للهجوم على هذه التحصينات المنيعة وامتلاكها بعد نقب أسوارها وتهدّم أبراجها إثر ضربها بالمجانيق ،ويعبّر بعد ذلك عن فرحته الغامرة بسقوط ذلك الحصن بأيدي المسلمين ، ويعلن نبأ استباحته على الأمّة الإسلاميّة . ومن ذلك قوله حينما هاجم صلاح الدّين حصن الدّاروم: ((... وصابحنا الدير بقتال جعل كلّ من في حصن الدير راهبا ،ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال شهاب القذف ضاربا . فلمّا تعالى النّهار ملكنا ربضه ،وأطلقنا فيه النيران ،ورمّلنا الرّجال بالدّم ،وأرملنا النساء))(١) .

وأمّا مناظر هزائم الفرنج في حرب الحصون والقلاع،في أدب الفاضل فقد تجلّت في حديثه عن الأسوار والأبراج المهدّمة ،إذ كان يقدّم لنا وصفا دقيقا لتلك الأسوار والأبراج الشامخة ،إثر قذفها بالمجانيق . ومن ذلك قوله في حصن عسقلان ساخرا من قوّة الفزاة وحصانة مدنهم ،معبّرا عن شماتته بهم والفرحة تملأ قلبه لما حلّ بهم وبحصنهم القويّ: ((... وأخذنا نقوبا في باشورتها(٢) فهدمناها ،وما لمحناها مع شدّة بأسها حتى محوناها ،وصلت منجنيقاتنا قبلة أسوارها ،فما زالت سهامها تركع وأحجارها تسجد ،ونجوم رجومها لشياطين الكفر يقذف ويطرد ،حتى هدمنا الباشورة الصغرى الّتي تحت سورها ،ودمرناها وخرّبنا أبراج السور وأبدانه ،وثغرناها ،واستبحنا المعقل وإن كان منيعا حصنه ،رفيعا تلّه ،حديدا حدّه . وطالما أعجز الأيّام والأنام فلّه))(٣) .

---

(١) الرّوضتين ،حلمي : ج١ ق٢/ ٤٨٩ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر الرسائل ص: ١٢٩ ،١٤٨ ،١٤٩ .

(٢) الباشورة: الحائط الخارجي للحصن الّذي يختبئ خلفه الجند عند القتال للدفاع عن الحصن . انظر: النّوادر السلطانيّة ،ص: ١٥٣ .

(٣) الرسائل ،ص: ١٤٨ — ١٤٩ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك ،انظر ماكتبه عن أسوار القدس ،في الرسائل ،ص: ١٧٠ — ١٧١ ،والرّوضتين ،بيروت: ٢/ ١٠٠، وصبح الأعشى : ٦/ ٥٠١ — ٥٠٢ ،وعن الكرك والشوبك أيضا ،في الرسائل ص: ٥٥ ،٥٦ ،٥٧ ،والرّوضتين ،بيروت : ٢/ ٥٥ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن المناظر المبينة عن هزائم الفرنج في أدب الفاضل أيضا ، صورة النيران المشتعلة في حصونهم بعد استباحتها ، وهي صورة تكشف لنا عن سخرية الفاضل من الغزاة وشماتته بهم . يقول : ((. . . وبات النّاس في ليلة الجمعة مطيفين بالحصن ، والنيران به مطيفة ، وعليه مشتعلة ، وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة ومن خلفه مسبلة ، ونارهم قد أطفأها اللّه بتلك النّار الواقدة ، ونخوتهم قد أذهبها اللّه بتلك الأبرجة الساجدة ، وبنفسج الظلماء قد استحال جلّنارا (١) ، والشّفق قد عمّ الليلة فلم تختصّ آصالا ولا أسحارا ، ولفحاتها حميمة ، ووقودها النّاس والحجارة (٢))) . ويصوّر لنا الفاضل الفرسان الصليبيين الأشدّاء وهم يفرّون مذعورين أمام المقاتلين المسلمين بعد تحطيم حصونهم واستباحة معاقلهم . ومن ذلك قوله في رسالة كتبها إلى ابن لاشين (٣) مهنئا باستباحة حصن عسقلان : ((. . . وفرّ الكافرون منّا فرار النمل من سليمان ، وهزم اللّه بحزبه أحزاب الشيطان (٤))) .

وكان الفاضل يتعمّد التركيز على انهيار عزائم العدوّ وفقدانه لإرادة القتال ، وذلك حين يتحدّث عن المدافعين عن الحصون وهم يلتمسون من المسلمين الأمان لأنفسهم ، دون أن يبدوا مقاومة أو مدافعة ، وذلك كما في حديثه عن مهاجمة صلاح الدّين لقلعة أيلة الّتي كانت في غاية الحصانة . يقول الفاضل : ((. . . فأطفنا بها متبصّرين ونزلنا من ناحية البرّ بها مفكّرين ، وبينا نحن نأمر بالحرب أنْ يشبّ أوارها (٥) ، وبالخيل

---

(١) الجلّنار : زهر الرمّان الأحمر . (القاموس المحيط : جلّنار ، ١ / ٤٠٧) .

(٢) الرسائل ، ص : ١٣٢ — ١٣٣ ، وللمزيد من الأمثلة ، انظر : المصدر نفسه ص : ١٣١ ، والرّوضتين ، حلمي : جـ١ ق ٢ / ٤٨٩ ، والوثائق ٥ / ١١٢ ، وغيرها .

(٣) وهو : حسام الدّين محمّد بن عمر بن لاشين ، (٥٨٧هـ) ، وهو ابن ست الشام بنت نجم الدّين أيوب ، شقيقة السلطان صلاح الدّين . انظر البداية والنهاية : ١٢ / ٣٤٧ ، والنجوم الزاهرة : ٦ / ٢٤٦ . وغيرهما .

(٤) الرسائل ، ص : ١٤٨ ، وانظر أمثلة أخرى في ص : ١٣١ ، وغيرها .

(٥) الأُوار : حرّ اللهب أو النّار . (القاموس المحيط : أور) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن تسير أسرارها ،وبنار اللقاء أن يستطير شرارها ،وبقناطير الموت من القسي أن تعقد أوتارها ،وبالمجانيق أن تعقد حناياها ،وتحلّ أزرارها ،وبالكواكب أن تذيقهم طعم الصّغار كبارها ،إذ نادى مناد من أعلى قمّتها ،ورأس قلّتها[1] معلنا بالأمان ناسخا لآية الكفر بآية الإيمان))[2].

وتتجلّى صورة انتصار المسلمين وهزيمة العدوّ في كتابات الفاضل عند ما يتحدّث عن جيش المسلمين وهو عائد من المعركة وقد غنم الغنائم الوفيرة . يقول من بشارة بفتح غزّة : ((... وأقواتهم المدّخرة ، وأموالهم المثمّرة نفلا صباحا ،وزبدا مطاحا ومغنما مشاعا ،ونهبا مضاعا ،قد ملئت منه الرّحال وأخصبت ،واتّسعت به الأيدي وضاقت به الأرض بما رحبت))[3].

وممّا يسترعي النظر ،أنّنا لا نرى في إطار الصورة العامّة لهزائم الفرنج ،في أدب القاضي الفاضل النثريّ ،أيّة إشارة للنّساء والسبايا الصليبيّات ،وخاصّة بعد استباحة الحصون والمعاقل الصليبيّة المأهولة . ولعلّ ذلك يعود إلى حسّ ديني عميق ،وسمات شخصيّة جعلته يرى أنّ جند صلاح الدّين ،ليس من همهم النّساء والسبايا ،فهم يجاهدون العدوّ ، ويحاولون دفعه عن ديار الإسلام .

وكثيرا ما كان الفاضل يصوّر تصويرا تفصيليا الظروف الصعبة ،والعوامل الجويّة القاسية الّتي واكبت احتلال حصون الفرنج ،ولكنّها لم تحل دون اقتحام المقاتلين المسلمين لها . ومن ذلك قوله في بشارة وجهها إلى سيف الإسلام ،صاحب اليمن أخي صلاح الدّين : ((... وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبة ،وقد طلع من الأنواء موكبه ،والثلوج تنشر على الجبال طيّ ملائها ، والأودية قد عجّت بمائها

---

(١) القلّة : أعلى الرأس والسنام والجبل وكلّ شيء . (اللسان والقاموس المحيط. قلل) .

(٢) صبح الأعشى : ٧/ ٢٨ ،وللمزيد من الأمثلة أيضا ،انظر: الرسائل ١٤٩ ، ١٧١ ،وغيرهما .

(٣) صبح الأعشى : ٧/ ٢٣ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر : الرسائل ص: ١٣١ ، ١٣٢ ،والرّوضتين ، حلمي جـ١ ق٢/ ٤٩٠ — ٤٩١ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفاضت عند امتلائها فشمخت أنوفها سيولا ، وخرّقت الأرض وبلفت الجبال طولا . والأودية اعتقلت الطرقات ، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات، فتجشمنا العناء نحن ورجال العساكر، وكابرنا العدوّ والزمان وقد تحرّز الحفظ المكابر ، وعلم اللّه النيّة فأنجدها بفعلها ، وضمير الأمانة فأعان على حملها ، ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها)) (١) .

وهذه الصورة التي يقدّمها كاتب مسلم عن شدّة احتمال المقاتلين المسلمين لأحوال جويّة قاسيّة ، تدعمها شهادة مؤرّخ غير مسلم . فقد أورد كاستيلان العبارة التالية عن المقاتلين المسلمين ، إذ يقول : ((. . . المحاربون العرب جنود أشدّاء لا يخشون البرد أو المطر إلاّ أنّه يحرّكهم أوّلا وقبل كلّ شيء الإيمان بالدّين . . . فالعقيدة الدينيّة التي لها في النفوس المقام الأوّل ، أولى من القوّة الحربيّة هي التي تفسّر الفتوحات الخارقة التي قام بها المسلمون)) (٢) .

ومع أنّ المقاتلين المسلمين بقيادة صلاح الدّين كتب لهم النصر في معظم معاركهم التي خاضوها مع الصليبيين بعد معركة حطّين . إلاّ أنّ الفاضل ، كان يعترف بأنّ المسلمين قد عانوا الكثير من مهارة الفزاة في تحصين أنفسهم في معارك عكّة ، فقد حفروا حول معسكراتهم خنادق واسعة عريضة ، حالت دون التحام المسلمين بهم ، ومكّنتهم من إحكام الحصار على مدينة عكّة ، ثمّ من احتلالها بسبب هذه التحصينات ، وبما كان متوافرا لديهم من أدوات قتاليّة متطوّرة . يقول الفاضل من رسالة كتبها إلى صاحب المغرب : ((. . . وأنّ ثغرنا حصره العدوّ وحصرناه نحن فما تمكّن من قتال الثغر ، ولا تمكّن من قتالنا . وخندق على نفسه عدّة خنادق فما تمكّنا من قتاله ، وقدّم إلى الثغر أبرجة أحرقها أهله ، . . .)) (٣) ، ويقول في أخرى كتبها عن صلاح الدّين إلى الخليفة العبّاسيّ مصوّرا الموقف : ((. . وهذا العدوّ المقاتل — قاتله اللّه — قد زرّ عليه من الخنادق أدراعا متينة ، واستجنّ من الجنويّات

---

(١) الرّوضتين ، بيروت : ٢/١٣٦ ، وانظر أمثلة أخرى في ص: ٥٥ .
(٢) تاريخ الجيوش ، ترجمة كمال دسوقي ، ١٩٥٦م ، ص: ٥٥٤ .
(٣) الروضتين ، بيروت : ٢/١٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بحصون حصينة ،مصحرا ومتمنّعا ،وحاسرا ومتدرّعا ،ومواصلا ومنقطعا))(١).

ولمّا سقطت عكّة في أيدي الصليبيين ،بعد حصار طويل ،وصبر عظيم من المسلمين مع قلّة مواردهم الماديّة والعسكريّة ،وتواصل إمدادات الفرنج عن طريق البحر ،عانى صلاح الدّين والمسلمون معاناة شديدة ،وقد حاول الفاضل أن يخفف من وقع الهزيمة على النفوس ،وذلك بالحثّ على الصبر وغرس الأمل وتبرير ما حصل والتماس العذر لصلاح الدّين . ومن ذلك قوله من رسالة وجهها إلى صلاح الدّين من مصر ،إثر سقوط عكّة :((. . . فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره وتملأ صدره ،فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ،واللّه معكم . وهذا على دين ما غلب بكثرة ،ولا نصر بثروة ،إنّما اختار اللّه تعالى له أرباب نيّات ،وذوي قلوب معه وحالات ،فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ،لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة ، (واشتدّي أزمة تنفرجي) ، والغمرات تذهب ثمّ لا تجيء ،واللّه تعالى يسمع الأذن ما يسرّ القلب ،ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب))(٢).

وإذا كانت تحصينات الفرنج تبيّن مهارتهم في إقامتها ،وتخيّر مواقعها الملائمة ، فإنّها تبيّن لنا كذلك تمرّس المقاتلين المسلمين ،ومهارتهم في اختيار آلات الحرب والحصار(٣) ، فإنّهم كانوا إذا استعصى عليهم حصن ولم يتمكّنوا من الوصول إليه ونقبه ،يصابرونه ،ويتجلّدون على حصاره وهم واثقون من نصر اللّه في النهايّة ،كما هو الحال في حصن الشوبك الّذي امتنع عنهم لسعة خندقه(٤).

---

(١) صبح الأعشى : ٧/١٢٨ .

(٢) الرّوضتين ،بيروت: ٢/١٦٧ ،وانظر ما كتبه حينما سقطت عكّة للأمراء المسلمين مبرّرا ذلك في الرّوضتين : ٢/١٨٩ ،ومفرّج الكروب: ٢/٣٦٢ ،وتاريخ ابن الفرات : جـ٤ ق٢/٢٥ ،وغيرها .

(٣) انظر: أدوات القتال الّتي استعملها المسلمون في هدم هذه الحصون في الرسائل ،ص: ١٢٥ ،١٢٨ ،١٤٨ ،١٦٩ ،١٧٠ ،وغيرها .

(٤) انظر : الرّوضتين ،بيروت : ٢/٥٦ ،والرسائل ،ص: ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعارك البحريّة :

لم يقتصر تصدّي صلاح الدّين للفزاة على خوض المعارك البريّة ، إنّما حاول أن يعترضهم في البحر أيضا ، لكي يقطع عنهم الامدادات الكثيفة الّتي كانت تصل إليهم عن طريقه . ومن أجل ذلك ، وجّه عنايته إلى تقوية الأسطول الإسلاميّ المصريّ وزيادة عدد سفنه ، حتى صارت السفن الإسلاميّة تجوب البحر ، وتهاجم الصليبيين في أمنع معاقلهم المائيّة . يقول الفاضل من رسالة وجهها إلى أحد أصدقائه بمكّة :

((... وكانت الأساطيل المنصورة قد تضاعفت عدّتها إلى أن بلغت ستّين شينا (١) وعشرين طريدة (٢) ، فسارت الشواني خاصّة ، فدخلت البلاد الروميّة ودوّخت السواحل الفرنجيّة ، وأسرت ألف علج (٣) أحضرتهم أسرى في قيد الإسار ، وقتلت الرفاق الكبار ، وغنمت أقوام من هذه الغزوة ، كانت أعينهم لا تعرف عين الدرهم ولا وجه الدينار)) (٤) .

وفي سنة (٥٧٥هـ) ، هاجم الأسطول الإسلاميّ ميناء عكّة الحصين وبالغ في التحطيم والتخريب ، وألحق بسفن الفرنج أضرارا كبيرة ، ثمّ عاد إلى مصر سالما غانما بعد أن مكث في مينائهم يومين كاملين (٥) . وقد كان لهذا العمل الجريء صدى عظيم في نفوس المسلمين ، إذ شدّ من عزيمتهم ، وقوّى إرادة القتال فيهم . وفي سنة (٥٧٨هـ) ، حاول أرناط صاحب الكرك أن يضرب الإسلام في عقر داره ، وأن يفرض حصارا اقتصاديا على تجارة مصر في البحر الأحمر ، بعد أن قطع الاتّصال البريّ بينها وبين الشام ، واعترض سبل القوافل التجاريّة ، فجهز حملة بحريّة نقل معدّاتها على ظهور الجمال من الكرك ، ثمّ ركّبها وشحنها بالرجال والسلاح ، وسيرها إلى بلاد الحجاز

---

(١) الشونة : المركب المعدّ للجهاد في البحر يتسع لمئة وخمسين جنديا (القاموس ، وتاج العروس : شون) .

(٢) الطريدة : سفينة صغيرة سريعة ، معدّة لحمل الخيل مع فرسانها ، تتسع لأربعين فارسا . (القاموس ، وتاج العروس : طرد) .

(٣) العلج : الرجل من كفّار العجم . (اللسان والقاموس المحيط : علج) .

(٤) الرّوضتين : بيروت : ٢ / ١١ .

(٥) انظر الرّوضتين ، ببروت : ٢ / ١٣ — ١٤ ، والشرق الأدنى في العصور الوسطى ص : ١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى وصلت إلى مشارف المدينة المنوّرة ،بعد أن اعترضت قوافل المسلمين في عيذاب[١] ونهبت أموالهم . فانطلق وراءها الأسطول الإسلاميّ ،بقيادة حسام الدّين لؤلؤ[٢] وهزمها هزيمة منكرة[٣] .

وقد عمل الفاضل على أن يعلن نبأ هذين الانتصارين العظيمين فيما كتبه من بشارات إلى الخليفة في بغداد ،وإلى أمراء المسلمين في مختلف أراضي الإسلام ومن خلال هذه الرسائل ،نستطيع أن نتبيّن الملامح العامّة للمعركة البحريّة في أدبه النثريّ . وقد تبيّن لنا أنّ صورة المعركة البحريّة عنده ،لا تختلف في جوهرها عن صورة المعركة البريّة ،من حيث اهتمامه بإعلان النتيجة ،والحديث عن آثارها، دون التركيز على وصف واقعيّ لأحداث المعركة نفسها ،ونقل تفصيلاتها الدقيقة . غير أنّ الفاضل في وصفه للمعركة البحريّة ،لم يغفل الحديث عن السفن ورجال البحر المقاتلين ،وقد ركّز بصورة خاصّة على سفن الأسطول الإسلاميّ وهي تشقّ مياه البحر في طريقها إلى المعركة: ((. . . فسارت على سوار هي كنائن إلاّ أنّها تمرق مروق السهلم ،ورواكد هي مدائن إلاّ أنّها تمرّ مرّ السحاب غير الجهام ،فلا أعجب منها تسمّى غربانا تنشر من ضلوعها أجنحة الحمام، وتسمّى جواري وكم بشّر مجريها من النصر بغلام))[٤] . ثمّ نراها في كتاباته وهي تطارد سفن العدوّ في عرض البحر ملحقة بها الهزيمة ،ولا نرى الفاضل

---

(١) عيذاب: بليدة على ضفّة بحر القلزم ،وهي مرسى المراكب الّتي تقدم من عدن إلى الصعيد ،وهي من أشهر المراكز التجارية آنذاك . انظر: معجم البلدان : ٤/ ١٧١ ،ورحلة ابن جبير ص: ٦٣—٦٥ .

(٢) وهو : حسام الدّين لؤلؤ ،متولّي الأسطول الإسلاميّ بمصر ،كان شجاعا ،دينا كريما من أكابر الأمراء أيّام صلاح الدّين . انظر: الرّوضتين بيروت : ٢/ ٣٥ ،الكامل في التاريخ : ٩/ ١٥٩ ،والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣—٢٤ ، وغيرها .

(٣) انظر تفصيل ذلك في الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٣٥ ، ٣٧ ،رحلة ابن جبير ص: ٥٧—٥٨ ،والكامل : ٩/ ١٥٩—١٦٠ ،والشرق الأدنى ،ص: ١٨١ .

(٤) الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هنا ، حريصا على إعطاء وصف تفصيليّ لسفن العدوّ وهي تخوض المعركة البحريّة. وهنا نقول مرّة أخرى : إنّ الفاضل قد رسم صورة للمعركة قائمة على السماع دون المشاهدة والعيان ، إذ إنّه لم يشهد هذه المعارك بنفسه . ومن ذلك قوله في بشارة رفعها إلى بغداد ، حينما ظفر الأسطول الإسلاميّ بمراكب الغزاة التي هاجمت الحجاز : ((. . . وسارت المراكب الإسلاميّة طالبة شوكة المراكب البحريّة المعترضة للمراكب الحجازيّة واليمنيّة . وكانت مراكب العدوّ قد أوغلت في البحر ودلّها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركّابها في الكفر ، فوصلت إلى عيذاب ، فلم تنل مرادا غير أنّ ما وجدته في طريقها أو في عيذاب نالت منه وشمتت وأفسدت فيه وعثت . وتمادت في الساحل الحجازيّ الى رابغ (١) إلى سواحل الحوراء (٢) ، وهناك وقع عليها أصحابنا وأوقعوا بها أشدّ إيقاع ، . . .)) (٣) .

وقد نرى صورة السفن الإسلاميّة في أدب الفاضل ، داخل موانئ العدوّ تقضي على سفنه الراسية في الميناء ، بعد أن فاجأته بالهجوم دون أن يتنبّه لها . يقول الفاضل حينما هاجم الأسطول الإسلاميّ ميناء عكّة المنيع عام (٥٧٨هـ) : ((. . . فما هي إلّا أن حذفت والجة على الميناء وفيه المراكب والبضائع فاستولت على عدّة من المراكب تحطيما وتكسيرا ، ونطاحا يقلقل وإن كان ثبيرا (٤) ، وأخلت ساحل الفرنج بقتالها ، وباشرت مثل الماء نزولها ونزالها)) (٥) .

---

(١) رابغ : واد يقطعه الحاجّ بين البزواء والجحفة . معجم البلدان : ٣ / ١١ .

(٢) الحوراء : مرفأ سفن مصر الى المدينة ، في ذلك الوقت وأمّا الآن ، فهي تابعة لدولة السعوديّة . انظر : معجم البلدان : ٢ / ٣١٧ .

(٣) الروضتين ، بيروت : ٢ / ٣٧ ، وانظر أمثلة أخرى في الصفحة ذاتها .

(٤) الثبير : جبل بمكّة ، وهو من أعظم جبالها . معجم البلدان : ٢ / ٧٣ .

(٥) الروضتين ، بيروت : ٢ / ١٤ ، وانظر أمثلة أخرى من ذلك في المصدر نفسه : ٢ / ١٣ — ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا رجال البحر المسلمون ، فهم كما يصورهم شجعان أشدّاء لا يتهيّبون المنيّة في سبيل اللّه ، يجيدون القتال في البرّ والبحر على حد سواء . فحين تحدّث عن قائدهم حسام الدّين لؤلؤ . قال : ((. . . وقد غبطناه بأجر جهاده ، ونجح اجتهاده ، ركب السبيلين : برّا وبحرا ، وامتطى السابقين : مركبا وظهرا ، وخطا فأوسع الخطو ، وغزا فأنجح الغزو))(١) .

ويضخّم الفاضل صور الثغور الّتي كانت تتعرّض لهجوم السفن الإسلاميّة ، وذلك لحوافز مفهومة ، فممّا قاله في مدينة عكّة الّتي هاجمها الأسطول الإسلاميّ : ((. . . وهي قسطنطينيّة الفرنج ودار كفرهم ، أبدلها اللّه من الكفر إسلاما ، وخلع عنها الشرك البالي وخلع عليها من التوحيد أعلاما))(٢) . وفي تعظيم أعمال أسطول المسلمين ، يقول الفاضل : ((. . . وهذا ممّا لم يعهد من الأسطول الإسلاميّ مثله في سالف الدّهر لا في حالة قوّة إسلام ، ولا ضعف كفر ، وممّا سبيله أن تطرّز السير الكريمة بفخره ، كما طرّز اللّه الصحيفة الشريفة بأجره))(٣) .

ويتخذ الفاضل من الحملة الصليبيّة البحريّة الفاشلة الّتي قام بها الفرزاة للوصول إلى بلاد الحجاز وسيلة للحضّ على استئصالهم من أرض الإسلام ، وبنصح بعدم استبقاء أحد ممّن شاركوا في تلك الحملة ، خشية أن يكونوا أدلاّء فيما بعد للفرنج في غزوات مماثلة لاحقة . وفي هذا المعنى يقول : ((. . . ولا بدّ من تطهير الأرض من أرجاسهم ، والهواء من أنفاسهم ، بحيث لا يعود منهم مخبّر يدلّ الكفار على عورات المسلمين))(٤) .

وممّا ينبغي ذكره هنا ، أنّ القاضي الفاضل لم يكن بعيدا كلّيّة عن معارك سلطانه صلاح الدّين ، إذ رافقه في عدد منها . ولئن كان الفاضل تخلف عن

---

(١) الروضتين ، بيروت : ٢/٣٦ .
(٢) المصدر نفسه : ٢/١٤ .
(٣) المصدر نفسه : ٢/١٤ .
(٤) المصدر نفسه : ٢/٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مرافقة السلطان لعذر أو مرض، فإنّ مقدرته على التصوّر ،وثقافته الواسعة ،وخبرته العريضة ،كلّ هذه كانت تمكّنه من تصوّر جوّ المعركة ،وبالتالي من وصفها . ومع أنّ الفاضل لم يشهد أعنف معركتين خاضهما المسلمون بقيادة صلاح الدّين مع الصليبيين في حطّين وبيت المقدس (١)، وإنّما جاء وصفه لهما مبنيا على السماع والتصوّر ،إلاّ أنّه مع ذلك أحسن في وصفهما ،فنقل لنا بخياله الواسع المحلّق ،صورا حيّة تحمل معالم من الواقعيّة عن هاتين المعركتين . وقد أضفى على وصفه لهما سمات فنيّة جماليّة مميّزة حملت معالم فنه الكتابي . ولذا فإنّ عبد اللطيف حمزة لم يبالغ كثيرا حينما قال في تصوير الفاضل لمعارك صلاح الدّين :((. . . أليس ما فعله القاضي الفاضل أنّه رسم لنا لوحة فيها صورة دقيقة للحرب ،وهذه الصورة تزدحم بالمناظر الكثيرة ،والحركات العنيفة ،والأصوات المخيفة ،فجمع في كلّ ذلك بين عمل الرسّام والمصوّر والموسيقي والممثّل والشاعر والكاتب في وقت معا ؟)) (٢).

وممّا يسترعي النظر ،أنّ الفاضل وهو يتحدّث عن معارك سلطانه مع الفرنج لا يخفي في بعض رسائله الّتي وصلتنا المصاعب الّتي كان يواجهها صلاح الدّين وجيشه ،وما كان يعانيه المجتمع المسلم في مصر والشام .

---

(١) انظر الروضتين ، بيروت: ٢ / ٨٢ ،والرسائل ،ص: ٢١٤ .

(٢) أدب الحروب الصليبيّة ،ص: ١٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث : الشعر من حيث المضمون :

أولا : صورة البطل المسلم

ثانيا : الاستحثاث والاستنهاض

ثالثا : صورة المعركة في شعره

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة البطل المسلم في شعر الفاضـــل :

تجلّت ملامح البطل المسلم في شعر القاضي الفاضل من خلال قصائد المديح الّتي نظمها في بعض رجال الدّولة الفاطميّة ، ولا سيّما من كان لهم دور ملحوظ في مواجهة الغزاة من الفرنج . وقد رسم الفاضل لكلّ واحد من هؤلاء صورة محبّبة إلى النفوس ، تجسّد تطلّعات الأمّة الإسلاميّة إلى الإنسان المسلم الشجاع الحريص على مصالح الإسلام وأهله . ومن أشهر هؤلاء : طلائع بن رزّيك (١) ، وشجاع بن شاور (٢) ثمّ صلاح الدّين الأيّوبيّ ، حين كان ما يزال في كنف الفاطميين .

وقد أدرك القاضي الفاضل بحكم منصبه في الدّولة الفاطميّة وصلته الوثيقة بالقائمين على أمرها ، أنّ مشكلة الأمّة الإسلاميّة في عصره الّذي ابتلي بالفرنج ، تكمن في تمزّقها واختلاف أهواء حكّامها ، وأنّ الخلاص من ذلك كلّه يتمثّل في توحيد الأمّة الإسلاميّة تحت قيادة واحدة ، لكي تقف مجتمعة في وجه أعدائها . ولذا فلا عجب أن نرى الفاضل في شعره يركّز بقوّة على إظهار صورة البطل المسلم المنتظر الّذي سيوحّد الأمّة ، ويقود مسيرتها في حربها مع الفرنج .

ومع أنّ أصداء الحروب الصليبيّة في أدب الفاضل زمن الفاطميين كانت قليلة إذا ما قيست بأصدائها في كتاباته في عهد صلاح الدّين الأيّوبيّ ، إلاّ أنّنا نستطيع

---

(١) وهو : أبو الغارات ، طلائع بن رزّيك ، وزير مصريّ وزر للفائز والعاضد إلى أن قتل بمؤامرة من العاضد سنة (٥٥٦هـ) ، كان شجاعا حازما مدبّرا جوادا ، عارفا بالأدب ، محبّا لأهل الفضائل ، جيّد الشعر ، لقّب بالملك الصالح وكان لا يترك غزو الفرنج في البرّ والبحر . انظر ترجمته وأخباره في الخريدة ، قسم شعراء مصر : ١/١٧٣ ، وفيات الأعيان ٢/٥٢٦—٥٢٩ ، ومرآة الزمان : ٨/٢٣٧ ، والأعلام ، ط٣ : ٣/٣٢٩ ، والوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، ص: ٢٨٥ ، وغيرها .

(٢) وهو : شجاع بن شاور بن مجير السعدي (٥٦٤هـ) ، أمير مصريّ ولي أبوه صعيد مصر في أيّام العاضد ثمّ ثار على طلائع بن رزيك وولي الوزارة للعاضد ، ولم يكن شجاع وزيرا ، بل كان معاونا لأبيه قال ابن خلّكان : ((. . . لمّا قتل أبوه دخل إلى القصر هو وأخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم . فكان شيركوه يتأسف كيف عدم ، لأنّه بلغه ماكان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول : ودّدت لو بقي لأحسن إليه جزاء الصنيعة)) . وفيات الأعيان : ٣/٤٤٨ ، وانظر ديوان الفاضل : ١/١٣٤ ، ١٤٦ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن نتمثّل هذه الأصداء من خلال مدائحه الّتي ترسم صورة البطل المسلم القائد كما تخيّلها القاضي الفاضل وجمهور المسلمين ، قبل ظهور صلاح الدّين وتولّيه أمر مصر. وهذه الصورة تقدّم لنا البطل على أنّه القائد المسلم التقي ، الّذي لا يقاتل من أجل مكسب دنيويّ يسعى إلى نيله وإنّما يجاهد في سبيل اللّه ، وتطلّعا إلى مرضاته وهذا واضح في إحدى مدائحه الّتي نظمها في شجاع بن شاور ، حينما تمكّن والده بمساندة شيركوه وصلاح الدّين أنْ يرد الفرنج عن مصر ، إذ يقول :

لِلّهِ مُضْمَرُهُ عَنّا وَمُظْهَرُهُ ... فِينا وفي اللّهِ ما يأتي وَيَجْتَنِبُ (١)

ويقول في مدائح أخرى مؤكّدا ذلك :

أنْصَفْتَ دَهْرَكَ في الأيّامِ تَشْتَمِلُها ... بالمَجْدِ مِنكَ ولا يَومٌ تُخَصِّصُهُ

فالزَّعْفُ(٢) في اللّهِ تُبْليه وتُخْلِقُهُ ... والسَّيفُ في اللّهِ تُفْليه وتُرْخِصُهُ

عَزائمٌ في سبيلِ اللّهِ خالِصَةٌ ... وما تَخَلَّصَ عَزْمٌ لَسْتَ تُخْلِصُهُ (٣)

وفي قوله أيضا :

لَقَد قَامَ للدّينِ الحَنيفيّ بَعْدَما ... تَقاعَدَ حَدٌّ مِنْ حُسامٍ وقائِمُ

فَقُلْ لِلعِدَا إنْ كانَ فِيهِمْ بَقيّةٌ ... ألا هكَذا في اللّهِ تَمْضِي العَزائِمُ

ألا في سَبيلِ اللّهِ مَوْقِفُكَ الّذي استمازتْ(٤) مِنَ الأجْسادِ فيهِ الجَماجِمُ (٥)

وهو يقارع الأعداء ويجاهدهم بسيفه ، حتى يحفظ الدّين ، ويعيد إليه عزّته وقوّته ، ويحمي الأمّة الإسلاميّة من أعدائها . يقول :

فاسْتَقرّتْ قَواعِدُ الدّينِ والمُلْكِ بِدَارَيْنِ : مِنْبرٍ وسَريرِ (٦)

---

(١) ديوان القاضي الفاضل ، تحقيق أحمد بدوي ، القاهرة ، ١٩٦١م : ١/ ١٥٢ .

(٢) الزّعف : الدرع المحكمة الحسنة السلاسل ؛ (اللسان ، والقاموس المحيط ، زعف) .

(٣) ديوان الفاضل : ١/ ٢٤٧ .

(٤) استمازت : من مازه يميزه ، أي : عزله وفرزه : (اللسان والقاموس المحيط : ميز) .

(٥) ديوان الفاضل : ١/ ٣٠٢ ، وللمزيد من الأمثلة على ذلك ، انظر ١/ ٢٠٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢/ ٤٦٥ ، وغيرها .

(٦) ديوان الفاضل : ١/ ٢٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقـــول :

وُسِمتْ بِفَضْلِ زَمانِـكَ الأزْمـــانُ وسَما بِيُمْنِ جَلالِكَ الإيمـــانُ (١)

ويقول مخاطبا أحد ممدوحيه ايضـــا :

جُزيتُمُ عن رَسُولِ اللّهِ صَالِحَـــةً فقد حَفِظْتُمْ عليه الأمَّةَ الوَسَطـــا (٢)

ولذا فانّ سيف بطله الذي يجاهد به الأعداء ،هو سيف اللّـــه :

والسّيْـفُ سيـفُ اللّـــهِ يَســـ فِكُ بالحدودِ دمَ الأثـــامِ (٣)

والفرنج حينما هاجموا مصر ،ردّهم المسلمون عنها بسيوف اللّه ،كما هو واضح في تهنئة الغاضل لشجاع بن شاور ،اذ يقـــول :

فما دُرُوعُهمُ إلاّ مقاتِلُهـــمْ لكنّهُمْ بسيوفِ اللّهِ قد ضُرِبُـــوا (٤)

وانتصاره على الفرنج هو في حقيقته نصر للدّيـــن . يقـــول :

لَقد نَصَرَ اللّهُ دِينَ الهُـــدَى بِأنْ نَصرَ المَلِكَ النّاصِـــرَا (٥)

وما دام البطل القائد بهذه الحال من التقوى والعزم على مواصلة الجهاد في سبيـــل اللّه ونصرة دينه ،فانّ اللّه يمنحه القوّة والقدرة على الجهاد ،ويشمله برعايته وعنايتـــه يقـــول :

اشْتَرى اللّهُ مِنْ أُناسٍ قَباعُـــوا ودعاهُمْ إلى الهُدَى فَأَطَاعُـــوا

هُوَ قَوّاهُمْ على ما رآهُـــمُ أَهْلَهُ مِنْ جِهادِهِ فاسْتَطاعُـــوا (٦)

---

(١) ديوان الغاضـــل : ١/٣١٤ .
(٢) المصدر نفســـه : ١/٢٤٨ .
(٣) المصدر نفســـه : ١/٢٨٥ .
(٤) المصدر نفســـه : ١/١٤٦ .
(٥) المصدر نفســـه : ١/٢١٥ ،وانظر أمثلة أخرى : ١/٢٠٠ .
(٦) ديوان الغاضـــل : ١/٢٥٥ ،وانظر أمثلة أخرى : ٢/٤٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقـــــــول :

اللّهُ جَارُكَ والآجَالُ كَاشِـــــــرَةٌ عَن القَواضِبِ مِنْ عُصْلِ (١) الشَيَّـــــاتِ

وقَد تدَاعَتْ بِها الأبطَالُ واعترفَـــتْ والطَّعْنُ بَيْنَهُمُ مِثْلُ التحيَّـــــاتِ (٢)

ويكرر الفاضل هذا المعنى في إحدى مدائحه الّتي رفعها إلى صلاح الدّين ، فيقول :

تِلْكَ المَنَاكِبُ قَدْ حَمَـــــــــا هَـا اللّهُ مِنْ ضَـــمِّ الزُّحَـــــامِ (٣)

ويحرص الفاضل في تقديم بطله على أن تجتمع فيه خصلتا الشجاعة والتقوى معا ، ولـــذا فإنّـــه يقدّمه لنا ، في شعره ، وقد جمع في شخصيته صفات المسلم الورع في سلوكـــه المقدام في ميادين القتال . ومن ذلك قوله في شجاع بن شاور :

يُقَطِّـعُ عُمْرَ اللّيلِ عُمْرُ سُجُـــــودِهِ فللّـــهِ مِحْرَابٌ حَوَى مِنْهُ مِحْرَبَـــا (٤)

ويكرر الفاضل هذا المعنى في موضع آخر ، فيقـــول :

مَحَارِيبُهُ تُثْنِي على صَلَوَاتِـــــهِ ولكِنْ على الأعْقَابِ يُثْنَى مُحَارِبُـــه (٥)

ومن الجدير بالإشارة هنا ، أنّ الصّلة ما بين التقوى والشجاعة في صورة البطـــل المسلم ، هي صلة قديمة أثبتها معظم الشعراء المسلمين لمدوحيهم عبر العصـــور الإسلاميّة . يقول الأستاذ محمود إبراهيم : ((. . . المتتبّع للتاريخ الإسلاميّ منـــذ نشأة الإسلام وإلى أمد غير بعيد ، لا بدّ أن يلحـــظ أنّ شخصيّة القائد الصّالـــح في المجتمع الإسلاميّ ، لم تنسلخ يوما عن شخصيّة الإنسان التقيّ)) (٦) .

وإذا كانت التقوى ، واقعا سلوكيّا في حياة الإنسان المسلم ، فإنّها ستدفعـــه إلى الإقدام والتضحيّة في سبيل اللّه ، ولذا فإنّ البطل المسلم ، كما يصوره الفاضـــل في شعره كان شجاعا مقداما ، لا يتهيّب المنيّة في سبيل اللّه ، ولا تخيفه قوّة أعدائـــه

---

(١) عصل : جمع عصلاء ، وهي : المعوجّة : (اللسان والقاموس المحيط : عصل) .
(٢) ديوان الفاضـــل : ١/١٧٣ ، وانظر أمثلة أخرى : ١/٢٦٨ .
(٣) المصدر نفســـه : ١/٢٨٧ .
(٤) المصدر نفســـه : ١/١٦٣ .
(٥) المصدر نفســـه : ١/١٦٤ ، وللمزيد انظر : ١/١٩٣ ، ٢٣٨ .
(٦) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، ص : ١٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مهما عظمت . يقول مخاطبا شجاع بن شـــاور:

أَبَا الفَوارِسِ والآبـــاءُ مُشْفِقَـــةٌ ... وَهُمْ بنُوكَ وما تُبْقِي ولا تَـــذَرُ
تَلْقَى عَرُوسَ المَنايا وهي حَاسِـــرَةٌ ... وخَدُّهَا فيهِ مِنْ فَيْضِ الدِّما خَفَـــرُ (١)
والضَّرْبُ بالبِيضِ مِنْ آثارِهِ عُكَـــنٌ (٢) ... والطَّعْنُ بالسُّمرِ مِنْ آثارِهِ سُـــرَرُ (٣)

وبطله قائد عسكريّ ماهر في القتال وخوض المعارك، ولا يقتصر دوره في المعركـــة على الإعداد وتنظيـــم الجيوش وتعبئتها للقتال، وإنّما يقودها إلى محاربـــة الأعداء بنفسه، وهو إذا خاض غمار المعارك لا يصمد أمامه الأقوياء من الأعداء مـــن شدّة شجاعته وبأسه، حتى صار ملاذ المقاتلين المسلمين حينما تشتدّ المعركة، كمـــا يتراءى للقاضي الفاضـــل، إذ يقـــول:

تَفْتَدِي الشُّجْعَـــانُ نَفْسَكُمُ ... يَـــوْمَ فرّوا مِنْهُ بِالمُقَـــلِ
مَوقِفٌ مرّ المَذَاقِ قَـــدْ ... حَدَّثُوا عَنْـــهُ فكالقَســـلِ (٤)

ويقـــول:

تَلَقَّيْتُمْ أعداءَكُمْ بنفُوسِكُـــم ... دُرُوعاً وإنْ يَلْقَوكُمُ فيَجَفْـــلِ (٥)

ويقول في إحدى مدائحه لشجاع بن شاور مؤكّدا هذا المعنـــى:

سِرْنا وسارَ شُجَاعٌ وهْوَ يَعْقِدُ مُنَـــا ... وعَزْمُنا آمِرٌ والدَّهرُ مُؤْتَمِـــرُ (٦)

---

(١) الخفر: شدّة الحياء. (اللسان والقاموس المحيط: خفر).
(٢) العكن: جمع عكنة، وهي: ما انطوى وثني من لحم البطن. (اللســـان والقاموس المحيط: عكن).
(٣) ديوان الفاضـــل: ١/٢٢٢.
(٤) المصدر نفسه: ١/٢٦٨—٢٦٩، وانظر أمثلة أخرى: ١/١٤٠، ١٩٢، ١٩٥، وغيرهـــا.
(٥) ديوان الفاضـــل: ١/٢٦٨.
(٦) المصدر نفســـه: ١/٢٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقـــــول :

نادى الرّجالُ بهِ ونادى سيْفَـــــهُ في كَرْبِهمْ ياذا الفقارِ ويا علـــــي (١) (٢)

ويتحدّث الفاضل عن مظاهر الشجاعة في شخصيّة بطله المسلم ، فيقدّمـــــه لنا صاحب هيبة كانت تملأ قلوب أعدائه رعبا وخوفا ، حتى صار رعبه والخوف منه قـــوّة منظورة في حروبـــه معهم ، كمـــا يرى الفاضـــل ، إذ يقول مخاطبا صلاح الدّيـــن في إحدى مدائحـــه فيـــه :

أصْلابُ أظهُرِهِمْ تَحْكي صَليبَهُـــمُ كلاهُما باللّقا والرُّعبِ مُنْكسِـــرُ

سَعادَةٌ قابلَتْ والرُّمحُ مُضْطَجِـــعٌ وعزْمةٌ برزَت والسَّيْفُ مُدّثِـــرُ (٣)

ويقول في قصيدة أخرى مؤكّـــدا ذلـــك :

فكمْ لك مِنْ تنزيلِ نَصْرٍ بلا تَصْـــلٍ وكمْ لك مِنْ ترْحيلِ مَحْلٍ بلا مَهْـــلِ (٤)

ويكرر الفاضل المعنى نفسه في إحدى مدائحه الّتي هنأ بها شجاع بن شاور إثـــر ردّ الغزاة من الفرنج عن مصـــر ، فيقـــول :

نُصِرْتُمُ مِثْلَ نَصْرِ المُصْطفى فلَكُـــمُ جَيْشانِ أدناهُما مِنْ نَصْرِكم الرُّعـــبُ (٥)

وما دام القائد المسلم على هذا النحو من الإقدام والهيبة ، فإنّ مجرّد ظهوره علـــى الأعداء في المعركة ، يحملهم على الفرار أمامه ، قبل أن يلقاهم في معركة ، كمـــا يتراءى للفاضل . وهذا واضح في تهنئة الفاضل لشجاع بن شاور إثر ردّ الفرنج عـــن مصـــر :

أمّا ومنكَ على أعدائكَ الطّلَـــبُ فإنّ أعدى عدوٍّ عندنا التهـــرّبُ (٦)

---

(١) ذو الفقار : سيف العاص بن منبه ، قتل يوم بدر كافرا ، فصار إلى النبيّ (عليـــه السلام) ثمّ صار إلى عليّ بن أبي طالب . وهو كلّ سيف فيه حـــزوز مطمئنة عن متنه ، وكلّ شيء حزّ أو أثّر فيه : (اللسان والقاموس المحيط : فقر) . وفي البيت تورية لا تخفـــى .

(٢) ديوان الفاضل : ١/ ٢٧٩ ، وللمزيد من الأمثلة ، انظر : ١/ ١٣٤ ، ٣٠٢ ، وغيرها .

(٣) المصدر نفســـه : ١/ ٢٢٥ .

(٤) المصدر نفســـه : ١/ ٢٦٣ ، وللمزيد من الأمثلة ، انظر : ١/ ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ٢٤٦ ، ٢٨٢ ، ٢/ ٥١٣ ، وغيرهـــا .

(٥) المصدر نفســـه : ١/ ١٥١ .

(٦) ديوان الفاضـــل : ١/ ١٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي قوله مادحا العزيز عثمان بن صلاح الدّين :

وَلّى العدُوّ وعُثْمانٌ وَرَاءَهُمُ والمسلمونَ وهذا جُمْلةُ الخبَرِ (١)

ومن أجل ذلك ، جعل الفاضل الطيور مستبشرة ببطله حينما يخرج إلى المعركة ، ثقة منها أنّ النصر على أعدائه مضمون ، لأنّها ستنال من لحومهم الّتي سيتركها في ساحة المعركة . ومن ذلك قوله في إحدى مدائحه الّتي رفعها إلى صلاح الدّين :

هَذَا وكَمْ لكَ في الوَغَى مِنْ عَزْمَةٍ تَكْرُنَ مِنْ ثِقَةٍ بِها العِقْبَانُ

تَغْدُو خِمَاصاً مِثْلَ ماقد مثّلُوا في حَرْبِهِ وتروحُ وهيَ بِطَانُ (٢)

ويؤكّد الفاضل أنّ بطله إلى جانب مهارته القتاليّة وشدّة بأسه على الأعداء ، مصدر خير وبركة لرعيّته ، فهو يجمع الجود والكرم إلى قوّة البأس والشدّة ، ويعطي كلّ ذي حق حقّه . ومن ذلك قوله :

وَجُودُكَ مِثْلُ الماءِ والماءُ مُفْرِقٌ وبأسُكَ مِثْلُ النّارِ والنّارُ تَقْدَحُ (٣)

وقوله :

نَارَانِ : نَارُ قِرى ونارُ وَقَائِعٍ للّهِ دَرُّكَ مُطْفِئاً ومُؤَجِّجَا (٤)

وقوله :

لَقَدْ لَقِحَتْ بَعْدَ الحِيَالِ مَطَالِبٌ تَوَلَّدُ ما بين الشَّجَاعَةِ والجُودِ (٥)

ولم يقتصر الفاضل في تصوير بطله على الجانب العسكري وقيادة الجيوش ، وإنّما تجاوز ذلك إلى الحديث عن جوانب أخرى في شخصيّة بطله ، فيقدّمه لنا في شعره سياسيا حكيما ذا رأي سديد ، وإنسانا بصيرا بعواقب الأمور . ومن ذلك قوله في شجاع بن شاور :

وأنّ سِياساتِ العُقُولِ عَجِيبَةٌ بَضِيقُ بِها المَجْرَى على العَسْكَرِ المَجْرِ(٦)

---

(١) ديوان الفاضل : ١/ ٢٤١ ، وللمزيد من الأمثلة ، انظر : ١/ ١٩١ ، ٢٦٨ ، وغيرها

(٢) المصدر نفسه : ١/ ٣١٥ .

(٣) المصدر نفسه : ٢/ ٣٥٣ .

(٤) المصدر نفسه : ١/ ١٣٦ ، وانظر : ١/ ٢٤٦ .

(٥) المصدر نفسه : ١/ ١٨٥ ، وللمزيد من الأمثلة على ذلك ، انظر : ١/ ١٤٠ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، وغيرها .

(٦) المَجْر : الجيش الكثير العظيم : (اللسان والقاموس : مجر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَتُصْمِي(١) بِلا سَهْمٍ وَتَغْرِي(٢) بِلا طُبَاً ... وَتَسْرِي إِلى بِمْنَرِ الرِّجَالِ ولا يَدْرِي (٣)

وقوله مشيدا بسياسة صلاح الدّين وسداد رأيه:

وتيقَّظَتْ لكَ في السِّياسَةِ عَزْمَةٌ ... تَدَعُ الحُسَامَ وَجَفْنَهُ وَسِنَانُ (٤) (٥)

وقوله في شجاع بن شاور أيضا:

وأنْتَ في جَيْشِ رأيٍ لا غُبارَ لَهُ ... تَرْمِي الفُدَاةَ بِقَوْسٍ ما لَها وَتَرُ

هِيَ الحُروبُ الّتي لا السَّيْفُ مُنْتَلِمٌ ... فيها ولا الذَّابِلُ(٦) الخَطِّي مُنْأَطِرُ(٧) (٨)

ومن مظاهر حنكة البطل السياسيّة في شعر الفاضل، حسن الاستعداد للمعركة والتخطيط لها. ومن ذلك قوله في مدح شجاع بن شاور متغنيا بحسن سياسته وحزمه:

فِكْرٌ على رَصَدِ الأَخْطَارِ مُرْتَقِبٌ ... لِكُلِّ واقِعِ أمْرٍ غَيْرِ مُرْتَقَبِ

حَزْمٌ يُعِدُّ لِنَارِ الحَرْبِ لَجَّتَهُ ... كَمْ مُسْعِرٍ وَيُلاقي النَّارَ بالحَطَبِ

تُرِيهِ عُقْبَى لَيالِيهِ أوائِلُها ... وَفارِسُ الرَّأيِ مَنْ يُلْقِي على العُقُبِ (٩)

وحرصا من الفاضل على إقامة ايحاءات معيّنة في نفوس ممدوحيه، كان يقدّمهم لنا مصممين على مواصلة القتال مع الأعداء، إلى أنْ تحرر الأراضي الإسلاميّة المحتلّة، كما يتبيّن من قصيدة قالها في شجاع بن شاور، حينما هاجم الفرنج مصر، وقد جاء فيها:

أما ومنكَ على أعدائِكَ الطَّلَبُ ... فإنَّ أعْدَى عَدُوٍّ عِنْدَنا الهَرَبُ

فَلَيسَ يَعْصِمُهُمْ في الفُلْكِ ما رَكِبُوا ... وَلَيْسَ يُنْجِيهِمُ في الأرْضِ ما ضَرَبُوا

---

(١) تصمي: أصماه: رماه فقتله: (القاموس المحيط: صمي).
(٢) تغري: تشقّ: (القاموس المحيط: فري).
(٣) ديوان الفاضل: ١/٢٠٧، وانظر ٢/٥٠٨.
(٤) الوسنان: النائم: (اللسان والقاموس المحيط: وسن).
(٥) ديوان الفاضل: ١/٣١٤.
(٦) الذابل: الرمح الرقيق: (القاموس المحيط والمعجم الوسيط: ذبل).
(٧) منأطر: اسم فاعل من انأطر، بمعنى معوجّ (القاموس المحيط: أطر).
(٨) ديوان الفاضل: ١/٢٣٣، وللمزيد، انظر: ١/١٤٧، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٩، ٣٠٠، وغيرها.
(٩) المصدر نفسه: ١/١٤١، وانظر: ١/٢٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يُقِلُّهُمُ سَرْجٌ ولا قَتَبٌ ولا يُظِلُّهُمُ بَيْتٌ ولا طُنُبُ (١)

ويصوّر الفاضل البطل القائد وقد هجر راحته ،ولم يشغله عن مواجهة الأعداء شاغل من هموم الدّنيا ومتعها ،وذلك كما في قوله :

يُشَمِّرُ لِلْعُلا عَنْ سَاقِ حُرٍّ ولا يَثْنِي وِسَادَتَهُ اتِّكاءَ (٢)

ويقول مؤكّدا هذه الصفة لأحد ممدوحيه في قصيدة أخرى:

كَيْفَ يَخلُو وما خَلا مِنْ عَفافٍ ما خَلَتْ قَطُّ رِيبَةٌ بِعَفيفِ

وَعِناقُ الأَحْبابِ يَشْغَلُ عَنْهُ هِمَّةٌ هَمُّها عِناقُ السُّيُوفِ (٣)

ولكي يبرز الفاضل مزايا بطله الّذي يتحدّث عنه ،كان يقارن بينه وبين حكام عصره المتخاذلين عن نصرة عقيدتهم ،فيقدّمه لنا متفرّدا عنهم بما يتصف به من فضائل. ومن ذلك قوله في شجاع بن شاور:

مَنَتِ الدُّهُورُ وما أتينَ بِمِثْلِهِ وَلَقَدْ أتَى فَعَجِزْنَ عَنْ نُظَرائِهِ (٤)

وقوله :

حُوشِيتَ إِنَّ سِواكَ يَلْتَقِطُ الفَرائِدَ أَوْ يُلَفِّقُ (٥)

وقوله مشيدا بصلاح الدّين وتميّزه عن حكّام عصره ،لما قام به من أجل نصرة الدّين وحماية أهله ،وتطمين قلوبهم:

ما لَهُ في زَمانِنَا مِنْ نَظِيرٍ قَدْرُهُ ما جَرى على تَقْدِيرِ

فاسْتَقَرَّتْ قَواعِدُ الدِّينِ والمُلْكِ بِدارِينِ مِنْبَرٍ وَسَرِيرِ (٦)

ويتحدّث الفاضل عن العدالة الاجتماعيّة الّتي حققها ممدوحه لرعيته ،فيقدّمه لنا حاكما عادلا رحيما ،يحرص على مصالح المسلمين ،ويسهر على راحتهم وطمأنينتهم في ظلّ حكمه ،ويوفّر لرعيته الحماية من الأعداء. وهذا واضح في إحدى مدائحه

---

(١) ديوان الفاضل : ١/١٤٦.
(٢) المصدر نفسه : ١/١٣١ ،وانظر أيضا : ١/٢٨٧ ، ٢٨٩.
(٣) المصدر نفسه : ١/٢٥٥.
(٤) المصدر نفسه : ١/١٣٤.
(٥) المصدر نفسه : ١/٢٥٨.
(٦) المصدر نفسه : ١/٢٤٢ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: ١/١٦٥ ، ١٩٥ ، ٢/٥٠٤ ،وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الّتي رفعها إلى شجاع بن شاور ،إذ يقول :

وَبتّ والموتُ طَيْفٌ قدْ ألمّ بنـــا فَما ثنى الطّيْفُ إلاّ ذلك السّهـــرُ (١)

ويقـــول :

دَفَعْتَ الأذى عنّا وَمتّعْتَ بالمُنَـــى وَمَا كانتِ الدّنيا لنا بِمتَـــاعِ (٢)

ويقول أيضا مؤكّدا ذلك لممدوحه في غير مرّة:

وَلَهُ سَيْفٌ كنَاظِـــرِهِ حَارِسٌ للخَلْقِ يَقْظَـــانُ

عَادَ كُفْرُ الكَافِريـــنَ إذا مَا رَأوْهُ وهو إيمَـــانُ (٣)

ويقول مخاطبا شجاع بن شاور إثر ردّ الفرنج عن مصر وهزيمتهـــم:

لِيَهْنَ مِصْرَ الرّخَا وَالأمْنُ في قَـــرْنٍ فَمَا بِها شَغَبٌ يُخْشَى ولا سَغَـــبُ (٤)

مَا مِصْرُ إلاّ عَروسٌ في زَمانِكُـــمُ تُجْلَى وَيُعْقَدُ من أهْرَامِهَا القُبَـــبُ

عَرّجْ بِها فَشُجاعٌ دُونَهـا أسَـــدٌ هِيَ السّلامَةُ مَحْفوفٌ بِها القَطَبُ

في كُلّ يَوْمٍ بِها عُرْسٌ وَمَحْضَـــرَةٌ بِها السّيوفُ الّتي في العُرْسِ تَخْتَضِبُ (٥)

ويتغنّى بعدل شجاع بن شاور الّذي عمّ الرعيّة ،فيقـــول:

سَقى بِكَ اللّهُ دُنْيانَا فأخْصَبَهـــا والعَدْلُ يَفْعَلُ مَالا يَفْعَلُ المَطَـــرُ (٦)

ولذا فإنّه محطّ آمال الرعيّة ،لما يتّصف به من فضائل. يقول:

يا مَلِكاً تُنْشِيءُ أفْعالُـــهُ فِيهِ مِنَ الأقْوالِ ما يُنْشَـــا

تَسْتَنْجِدُ الآمالُ في قَصْـــدِهِ سَمَاحَ كَفٍّ يُحْسِنُ البَطْشَـــا (٧)

---

(١) ديوان الفاضـــل : ١/ ٢٢٤.

(٢) المصدر نفســـه : ١/ ٢٥٤.

(٣) المصدر نفســـه : ١/ ٣١٨ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك ،انظر: ١/ ١٧٢ ، ٢٣٦، ٢٣٧، ٤٧٦ ،وغيرهـــا.

(٤) السغب : الجوع: (اللسان والقاموس المحيط : سغب).

(٥) ديوان الفاضل: ١/ ١٥١ ،وللمزيد انظر: ١/ ١٧٢، ٣١٣.

(٦) المصدر نفسه : ١/ ٢٢٤ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: ١/ ١٧٢، ١٩٣، ١٩٦، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٢، ٣١٨، ٢/ ٤٧٦ ،وغيرهـــا.

(٧) ديوان الفاضل : ١/ ٢٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما دام البطل كذلك ، فإنّ وجوده في المجتمع المسلم ضرورة لا بدّ منها ، كما يرى الفاضل :

وَأَدعُو لهُ بِالصَّالِحاتِ وَدَعْوَتي ... تُحقِّقُ لِي حَقّاً على كُلِّ مُسْلِمِ
رَأَيْتُكَ إِنْ أَصْبَحْتَ فِينا بِنِعْمَةٍ ... فَقَدْ أَصْبَحتْ فِينا تُمَدُّ بِأَنْعُمِ (١)

وحتى يعلي الفاضل من شأن بطله ، كان يقابل بين حال الرعيّة في ظلّ ممدوحه وقبله . ومن ذلك قوله :

لَقَدْ سَالَمَتْنا صُروفُ الزَّمانِ ... وَما بَرِحَتْ قَبْلَها عَانِدَة
وَأَمْطَرَتْ نَوْءَ (٢) النَّدى دائِماً ... فَهُزَّتْ بِهِ أَرْضُنا النَّامِدَة
وَأَسْهَرْتَ عَيْنَكَ لِلمَكْرُماتِ ... فَأَقْرَرْتَ أَعْيُنَنا الهَاجِدَة (٣)

ويمضي الفاضل إلى أبعد من ذلك حين يرى أنّ اختيار بطله لمواجهة الأعداء والتصدّي لهم ، قد تمّ بمشيئة اللّه تعالى ، فهو الّذي أهّله للملك ، واختاره لنصرة دينه والدّفاع عنه . يقول مخاطبا طلائع بن رزّيك :

وَقَدْ نَظَرَ اللّهُ لِلمسلمينَ ... بِأَنْ كُنْتَ في أَمْرِهِمْ ناظِرا (٤)

ويقول مخاطبا شجاع بن شاور مؤكّدا الفكرة نفسها :

وَلِلّهِ في تَمْلِيكِكَ الأَرضَ مَوْعِدٌ ... وما قاعِدٌ إِنْ قُمْتَ عَنكَ تَجازُ (٥)

والجدير بالذكر ، أنّ القاضي الفاضل في رسم صورة البطل المسلم ، يحرص على تصويره من الناحيتين النفسيّة والخَلْقيّة معا . فهو إضافة إلى ما يتصف به من سمات وفضائل معنويّة ، إنسان جميل الطلعة ، مشرق الوجه . وهذا ليس جديدا في أدبنا العربي . إلاّ أنّ تركيز الفاضل على السمات النفسيّة في شخصيّة بطله كان أكثر من تركيزه على سماته الجسديّة . وكأنّه يرمز إلى حاجة الأمّة الإسلاميّة الملحّة آنذاك إلى قائد

---

(١) ديوان الفاضل : ١/ ٣٠٠ .
(٢) النوء : المطر . انظر : (اللسان والقاموس المحيط ، وتاج العروس : نوأ) .
(٣) ديوان الفاضل : ١/ ١٨٧ ، وانظر أمثلة أخرى ، ص: ١٨٩ ، ١٩٠ ، وغيرها .
(٤) المصدر نفسه : ١/ ٢١٧ .
(٥) المصدر نفسه : ١/ ٢٤٣ ، وانظر أمثلة أخرى من ذلك ، ص : ١٤٩ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معدّ نفسيا ومعنويّا ،لبعث روح الجهاد وما يتطلبه من جلد وبذل وحسن تصبّر. وفي إشادته بالصفات المتعدّدة لممدوحه نجد مثل هذه الأبيات . فقد قال في شجاع بن شاور:

إذا اشْتَجَرَتْ راياتُهمْ وتألّفتْ ... طُيورٌ إليهمْ قُلْتَ حَنّتْ إلى وَكْرِ
تَجلّى فأجْلى وَجهُكَ النّقْعَ إذ بَدا ... وأحْسَنُ نُورِ الوَصلِ في ظُلْمَةِ الهجْرِ (١)

وقال فيه:

تُثْنِي عَليْهِ الأَسِنّةُ ... بِما يَقولُ ويَفْعَلْ
وَجْهٌ مُجَلّي الدّجَنّةِ ... في كَفّهِ النّارُ تُشْعَلْ (٢)

وقال في مدح صلاح الدّين :

سَرَوا فَوقَ ظَهْرِ الخَيْلِ بَيْنَ نُجومِهِ ... فكادتْ مَطاياهُم بِها تَتعثّرُ
أتأنَفُ تَعْفِيراً بِبُسْطِكَ أوْجُهٌ ... أصَوّرُها إلاّ لِذاكَ المُصَوّرُ ؟!
وَلَمّا بَدا الوَجْهُ الكَريمُ مُشافِهاً ... بِصُبْحِ سُراهُمْ كبّرُوا لا تكبّرُوا (٣)

ومما تقدّم ،يتبيّن لنا أنّ معظم ما قاله الفاضل من شعر في مواكبة الحروب الصليبيّة ،كان موجّها إلى رجال الدّولة الفاطميّة ،الذين شاركوا في مواجهة الفرنج وأنّ ما قاله في صلاح الدّين كان قليلا ،إذا ماقيس بما قاله فيه في أدبه النثريّ ولذا قد نجد ما يبرر عبارة أحمد بدوي الّتي قال فيها :((لعلّ السبب في قلّة شعر القاضي الفاضل في صلاح الدّين ،أنّ الفاضل قد أشبع رغبته فيما يريده من الحديث عن صلاح الدّين في رسائله الكثيرة ،فقد سجلّ فيها كلّ شيء عنه ،حتّى لم يعد في حاجة إلى المزيد في الشعر))(٤).

وقد يردّ ما قاله القاضي الفاضل من شعر في رجال الدّولة الفاطميّة إلى أنّه كان يريد أنْ يرسم للناس الصورة المثلى للحاكم المسلم المنتظر ،لمواجهة

---

(١) ديوان الفاضل : ١/٢٠٦ — ٢٠٧.
(٢) المصدر نفسه : ١/٢٨٤.
(٣) المصدر نفسه : ٢/٤٦٥ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: ١/١٦٤، ٢٥١، ٣٠٥، ٣٠٧ ،وغيرها .
(٤) القاضي الفاضل ،ص: ٢٧ ،وانظر أيضا حول ذلك ،ص: ٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغزاة واستعادة الأراضي الإسلاميّة من أيديهم. ولذا فإنّه حرص على أنْ ينسب إلى هؤلاء الرّجال ما يتطلّع إليه كلّ مسلم في حاكمه المثالي. ودليلنا على ذلك أنّ بعض صوره الشعريّة جاءت مخالفة لواقع بعض الشخصيّات الفاطميّة، التّي مجّدها الفاضل ولا سيّما ما قاله في شاور السعدي الّذي استعان بالصليبيين على المسلمين في وقت من الأوقات.(١)

ومهما يكن من أمر، فإنّ الصفات الّتي نسبها الفاضل إلى ممدوحيه من الفاطميين، هي صفات تقليديّة موروثة، تداولها الشعراء في عصره، وقبل عصره في حين نجد أنّ ما قاله في صلاح الدّين كان واقعا قائما بعيدا عن المبالغة والوهم إذ إنّ صلاح الدّين الّذي كان الفاضل ملازما له في معظم الأوقات، تجسّدت فيه بالفعل تطلّعات الجماعة الإسلاميّة إلى بطل انتظرته طويلا.

---

(١) انظر: ديوان الفاضل: ١/ ١٥٠، ١٥١، وغيرهما.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستحثاث والاستنهـــاض :

في ظلّ الأوضاع السياسيّة القلقة الّتي شهدها المسلمون زمن الدّولة الفاطميـة وما نشأ عن تلك الأوضاع من تمزّق وضعف ،والأخطار تحدق بالمشرق الإسلاميّ ،آمـــن القاضي الفاضل بأنّ القوّة الّتي تساند الحق وتعتمد عليه ،هي الوسيلة الوحيدة لحماية المسلمين مـن الأخطار الّتي كانت تتهدّدهم . وقد عبّر الفاضل عن إيمانه هذا من خـلال قصائده في ممدوحيه من رجال الدّولة الفاطميّة ،ثمّ في صلاح الدّين . فهو مثلا يقـــول في مدح شجاع بن شـــاور :

فَجرّدوها على الأعقابِ دافِعَـــــةً مالا يُدافِعُ عنها أقْطَـعُ القُضُـــبِ (١)

ويقول فيه بعد أنْ تمكّن المسلمون من دحر الفرنج وردّهم عن مصر :

وما أسِدْتُمْ على أعْداءِ دَوْلتِكُـــمْ هذا التّأسُّدَ إلاّ بعدَ ما كَلِبـــوا

ولنْ تلينَ إذا قَوّمْتَها خُشُـــبٌ لكِنْ تَلينُ إذا جَرّدْتَها القُضُـــبُ (٢)

ويؤكّد الفاضل ذلك في قصائده الّتي نظمها في صلاح الدّين الأيوبيّ ،إذ يقول :

قضى سَلْمُنا أنْ لا سَخيمَةَ(٣) بعْدَهـــا وَسَلّ الظُّبا يَقْضي بِسَلّ السّخائِـــمِ

ويكْفيكَ أنّ السّيْفَ لا نَفْعَ عنْـــدَهُ إذا هو لم يُوصَلْ ظُباهُ بِقائِـــمِ (٤)

ويقـــول :

وطاغِيَةَ(٥) الإفرنجِ ما جازَ مَحْكُـــهُ(٦) عَلَينا وهذا السّيْفُ جَذْلٌ مَحَكّـــهِ (٧)

ومن أجل ذلك كان الفاضل دائما يستحثّ ممدوحيه على مواصلة الجهاد والتصدي للغـزاة

---

(١) ديوان الفاضـــل : ١/١٤٢ .
(٢) المصدر نفســـه : ١/١٤٨ .
(٣) السخيمة : الحقد والضغينة : (القاموس المحيط : سخم) .
(٤) ديوان الفاضـــل : ١/٢٩٥ .
(٥) الطاغية : هو الجبّار الأحمق المتكبّر : (القاموس المحيط : طغى) .
(٦) المحك : ذو الخُلُق العَسِر ،اللجّاج : (القاموس المحيط : محك) .
(٧) ديوان الفاضـــل : ١/٢٦١ ،وللمزيد من الأمثلة أيضا ،انظر : ١/١٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترك الدّعة والرّاحـــة . فهـو يقـــول :

قوموا فإنّ المُلْكَ مـــــــا ... يَنْساهُ(١) ... مَلِكُ القِيـــــــامِ
ودَعُوا لِغَيْرِكُمُ إذا اسْـــــــ ... ـتَيْقظتُمُ دَعَةَ المَنـــــــامِ (٢)

ويقـــــول :

قُمْ لِتَمْثلا من نُفوسِهِـــــــمُ ... ورِماحُ الخَطِّ أشْطـــــــانُ (٣)
وخُدودُ الأرضِ مُشْرِقَـــــــةٌ ... مِن دمٍ والخَيْـلُ خَيْـــــلانُ (٤)

وذلك لأنّ القعود عن مواجهة الغزاة من شأنه أن يزيد من خطرهم وشرّهم . يقول :

أنَوْماً وألحاظُ الخُطوبِ سَواهِـــرُ ... وسِلْماً وأفْراسُ الحوادِثِ تَرْكُضُ
إذا أنتَ لَمْ تَقبِضْ يَداً مَدّها العِدا ... فما هي إلّا لامَحـــالةَ تَقْبِـــضُ (٥)

ويقـــــول :

أيَقْطَعُ حَدُّ السَّيْفِ والسَّيْفُ مُفْمَـدٌ ... ويَغْرُسُ نابُ اللَّيْثِ واللَّيْثُ يَرْبُـضُ ؟
أغَرَّكَ نَهْضُ البِشْرِ في صفحاتِهِـــمْ ... أليْسَ الرَّدى في رَوْنَقِ السَّيْفِ يَنْهَضُ ؟!
فَدِنْهُمْ بِيومِ الشَّرِّ ما دُمْتَ قـادراً ... ولَولمْ تَدِنْهُمْ كانَ حُبُّكَ يُفْـــرَضُ (٦)

ولا يرى الفاضل أنّ ثمّة مجالا للتهاون مع عدوّ غاصب محتلّ ، إذ ليس له علاج إلّا السّيف حتى يتخلّص منه ، وذلك واضح في قولـــه :

إذا لم يَكن لِلمُلْكِ حَدٌّ مَهابَـــةٍ ... فكَيْفَ يُراضُ المُعْتَدي ويُرَوَّضُ ؟
ويُرْوَى دَماً منهُمْ ويَحْظَى بِكَفِّـــهِ ... فَيُصْقَلُ حَـــدّاً أو يُمَطِّرُ مَقْبِـــضُ
ولا نَوْمَ حَتّى يَنْظُرَ السَّيْفُ رُوسَهُمْ ... تُبَدِّلُ جِسْماً من قَناً وتُمَـــوَّضُ (٧)

---

(١) نقص بالأصل ، وقد يريد بملك القيام اللّه الّذي يجمع النّاس للحساب ليعطي كل ذي حق حقّـه .
(٢) ديوان الفاضـــــل : ١/٢٨٧ .
(٣) أشطان : جمع شطن ، وهو الحبل الطويل . (القاموس المحيط : شطن) .
(٤) ديوان الفاضـــــل : ١/٣١٨ .
(٥) المصدر نفســـــه : ٢/٣٦٥ .
(٦) المصدر نفســـــه : ٢/٣٦٦ ، ويعني اجعل يوم الشرّ على الأعـــداء بمهاجمتهم وإن لم تحاربهم كان حق طاعتك عليهم واجبا مفروضـــا .
(٧) ديوان الفاضـــــل : ٢/٣٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما حديث الفاضل عن الشجاعة والتغنّي بها في قصائده في أبطال الجهاد من المسلمين ، إلاّ مظهر من مظاهر الإيمان بالقوّة والحثّ على الأخذ بها في الصراع مع الفرنج ، كما يتضح من قوله في شجاع بن شاور :

إنَّ الشَّجاعةَ وهيَ من أوْصافِهِ ... غَلَبَتْ عَليهِ فَهي مِنْ أَسْمائِهِ
يَقْرِي الطُّيورَ طِعانُهُ فَضُيوفُهُ ... تَنْتابُهُ من أَرْضِهِ وَسَمائِهِ (١)

ومن أجل ذلك حمل الفاضل في شعره حملة عنيفة على المتخاذلين المتقاعسين من المسلمين ، وقرّعهم تقريعا عنيفا ، كما في قوله :

قُلْنا اعْتذَرْتُمْ في الصِّيامِ ... فَقَدْ عَذَرْنا في الصِّيامِ
لا تَنْفِرُوا في الحَرِّ قُلْنا ... العُذْرُ حَقٌّ في الضِّرامِ (٢)

وحمل أيضا على الجبناء المتخاذلين ، الّذين لم يصمدوا للعدوّ ، وإنّما فرّوا بأنفسهم وأموالهم تاركين المدن الإسلاميّة تلقى مصيرها من الخراب والدّمار على أيدي الغزاة وسخر منهم سخرية لاذعة ممزوجة باللوم والتقريع . فحين هرب عزّ الدّين أسامة من بيروت (٣) ، قال الفاضل :

سَلِّمِ الحِصنَ ما عَلَيْكَ مَلامَة ... ما يُلامُ الّذي يُريدُ السَّلامَة
وَطَلاقُ الحُصونِ من غيرِ حَرْبٍ ... بِدْعَةٌ سَنَّها بِبَيْرُوتَ سامَة
لا تُهَنِّيهِ بالسَّلامَةِ مِنها ... بل يُعَزَّى في نَفسِهِ بالسَّلامَة (٤)

ويبدو من خلال الاستقراء الدّاخلي لأشعار الفاضل الّتي قالها في بعض وزراء الفاطميين وأبنائهم أنّه كان يعلّق آمالا كبارا عليهم في استرجاع ما فقد من ديار الإسلام ، والحفاظ على ما بقي بأيديهم من البلاد . ولكنّه حينما رأى أنّهم قد شغلوا

---

(١) ديوان الفاضل : ١/ ١٣٤ ، وانظر أمثلة أخرى : ١/ ٢٦٩ ، ٢/ ٤٦٦ ، وغيرها .
(٢) المصدر نفسه : ١/ ٢٨٧ ، وأمّا الضّرام فهي شدّة الجوع وحرّه . (القاموس المحيط : ضرم) .
(٣) انظر تفصيل ذلك في الرّوضتين ، ببروت : ٢/ ٢٣٣ .
(٤) ديوان الفاضل : ٢/ ٤٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأنفسهم عن محاربة الفرنج ، وتعاونوا معهم ، من أجل تثبيت أنفسهم في الحكم على حساب عقيدتهم وأرضهم ، أخذ يستحث أمير الشام نور الدّين ، ليخلّص مصر من قيادتها المتخاذلة المتآمرة ، ويضمّها إلى ملكه ، ليتقوّى بطاقاتها المادية والعسكرية المهدورة في ظلّ حكّامها المتقاعسين عن حرب الغزاة من الفرنج . وهذا واضح في قوله مخاطبا نور الدّين في إحدى قصائده :

وما بعدَ مِصْرٍ لِلغِنَى مُتَطَلَّبٌ ... وما بعدَ هذا المالِ مالٌ فيُكْتَسَبْ

ولو أنّهُ في البأسِ يَمْضي أو النَّدى ... لَهانَ ولكنْ في المَغانِي وفي الطَّرَبْ (١)

---

(١) ديوان الفاضل : ٢/٤١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة المعركة في شعر القاضي الفاضل :

يستطيع الناظر في ديوان القاضي الفاضل أن يرى حرصه على مواكبة أحداث عصره وتسجيلها ،إذ صوّر لنا الأحداث المتّصلة بالحروب الصليبيّة وأصداءها في نفسه ونفوس أبناء المجتمع الإسلاميّ . ولكنّ إسهامه الشعري من الفاطميين اقتصر على معارك محدودة ،وعلى أحداث كبار تتصل بممدوحيه ،لأنّ مشاركة الفاطميين في الحروب الصليبيّة لا تقاس ببلاء الأيوبيين في هذه الحروب.

ولذا فإنّ الحديث عن المعركة في شعر الفاضل ،الّذي قاله في بعض وزراء الفاطميين ،كان يأتي من خلال قصيدة المديح ،إذ كان الفاضل يتغنّى بما قام به ممدوحوه في وقائع سابقة. ومن أجل ذلك كان الممدوح هو المحور الأساسي الّذي يتدور حوله القصيدة ،فهو يسعى بالدرجة الأولى إلى الإشادة به وتمجيده . وكلّ ما يذكر معه في القصيدة ،كان يأتي لإكمال معالم شخصيّته وإظهارها ،بما في ذلك الحديث عن المعركة نفسها ،إذ عدّت المعركة مأثرة من مآثر الممدوح ،لا هدفا مقصودا لذاته ولذا تحوّلت القصيدة الحربيّة في شعر الفاضل إلى قصيدة مدحيّة ،لا ينقلنا الفاضل فيها إلى الجوّ الواقعي للمعركة الّتي يصفها بما فيها من تسلسل الأحداث ،وخصائص المقاتلين ،وأنواع السلاح ،وغير ذلك من التفصيلات المتعلّقة بالمعركة . وليس ذلك بالغريب ،إذ إنّ الفاضل في تلك الفترة كان بعيدا عن أجواء المعارك،لم يشهدها بنفسه ،وإنما بنى حديثه عنها على السماع والتصوّر . وقد يستبين ذلك من قوله مخاطبا أحد ممدوحيه متغنيا بخصاله الحربية:

يُشمِّرُ لِلْعُلا عنْ سَاقِ حُرٍّ ... ولا يَثْنِي وِسادَتَهُ اتّكاءَ
وَكمْ أَوْرَدْتَها بِيضاً ظِماءً ... وَكمْ أَصْدَرْتَها حُمْراً رواءَ
وَكمْ أَطْلَعتَ منْ لَمْعٍ صَباحاً ... وَكمْ أَرْجَفْتَ مِن نَقْعٍ عِشاءَ
وَتُلْبِسُهمْ ثِيابَ المَوْتِ حُمْراً ... فَقدْ صارَ الرِّجالُ بِهِ نِساءَ (١)

وقوله أيضا في إحدى مدائحه الّتي رفعها إلى ابن رزّيك ،متغنيّا بمعاركه مع الفرنج :

---

(١) ديوان القاضي الفاضل : ١/ ١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَلَوْلا جِلاءُ مُحيَّا الأَجَـــــلِّ مُحَيّاكَ دامَ كذا باسِـــــرا (١)
أَعادَكَ يَوْمٌ يُثيرُ العَجـــــاجَ بِتَرْكِضِ بِهِ سَكَّنَ الثّائِـــــرا
وَرَدَّ إِلَيْكَ بِرُغْمِ الصَّبـــــاحِ أَفْقَكَ مِن سُمْرِهِ ظاهِـــــرا
وَضَرْبٍ لَهُ ناجِرٍ قَدْ أَعـــــادَ بِشَهْرَيِ قُماحٍ لَنا ناجِـــــرا (٢) (٣) (٤)
فَجِسْمٌ تَراهُ بِهِ واقِفـــــاً وَهامٌ تَراهُ بِهِ طائِـــــرا (٥)

وحتى بنو أيّوب الّذين تصدّوا للغزاة ،وخاضوا معهم أعنف المعارك ،ركّز الفاضل في مدحه لهم على الخصال والسمات الحربيّة الّتي كانوا يتّصفون بها ،بدلا من وصف معاركهم نفسها ،ونقل تفصيلاتها . ومن ذلك قوله :

قالُوا رَأَيْنا الأُسودَ الصُّبْرَ عادَتُهُمْ فَقُلْتُ أَبْناءُ أَيُّوبٍ ولا عَجَبُ
الشّارِبونَ كُؤوسَ المَوْتِ مُتْرَعَةً وللأَسِنَّةِ في حافاتِها حَبَبُ (٦)
والمُضْرِمونَ لِنارِ الحَرْبِ لَيْسَ لَها إِلاّ الرِّماحَ وأَضْلاعَ العِدا حَطَبُ (٧)

وقد ينقل الفاضل المدح الجماعي إلى مدح فردي حين يخصّ بطله بالصمود والجرأة وسط المخاطر والمخاوف . ومن ذلك قوله :

اللّهُ جارُكَ والآجالُ كامِنَةٌ عن القَواضِبِ مِن عُصْلِ القَنَيّاتِ
وقَدْ تَداعَتْ بِها الأَبْطالُ واعْتَرَفَتْ والطَّعْنُ بَيْنَهُمُ مِثْلُ التَّحِيّاتِ

---

(١) باسر: بسر ،أي : عبس وقهر وأعجل : (القاموس : بسر) .
(٢) ناجر : النّجر : الحرّ: (اللسان والقاموس المحيط: نجر) .
(٣) شهر اقماح : أشدّ ما يكون من البرد : (القاموس : قمح) .
(٤) ناجر: الشهر الواقع في صميم الصيف أو الحر: (اللسان والقاموس المحيط: نجر) .
(٥) ديوان الفاضل: ١/ ٢١٤–٢١٥ ،وللمزيد من الأمثلة الكثيرة على ذلك ،انظر ١/ ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٦، ١٧٣، ٢٠٤–٢٠٦، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٣٧، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٦٠، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٨٠، ٢٩١، ٢/ ٣٠٥، ٣٢٥، ٣٣٢، ٤٤٤، وغيرها .
(٦) الحبب : ما يطفو على وجه الكأس من فقاقيع : (القاموس المحيط : حبب) .
(٧) ديوان الفاضل : ١/ ١٦٢ – ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقدْ تَهادَتْ سُيوفُ الهِنْدِ إِذْ خُضِبَتْ كالشَّرْبِ حِينَ تَهادى بالزُّجاجاتِ (١)

وفي صورة المعركة، يركّز الفاضل عادة على جيش المسلمين، في إطار الصورة التقليديّة للجيش الكبير، فيقدّمه لنا كثيفا جرّارا، يملأ البرّ والبحر من كثرته، ويحجب عين الشمس من كثافة الغبار المنبعث من حركته وهو خارج لملاقاة الأعداء. يقول في جيش صلاح الدّين:

فَفي البرِّ بَحْرٌ قدْ طَمى تحْتَ جَيْشِهِ وفي البحْرِ بَرٌّ قد عَلا فَوْقَ فُلْكِهِ (٢)

ويقول في موضع آخر، مخاطبا أحد ممدوحيه:

وَلمّا رأيْتُ الجيْشَ في عَرَصاتِهِ وَوَفْدَ نَداهُ قُلْتُ هذا هو الحَشْرُ (٣)

ويكرر الفاضل المعنى نفسه، حينما يصف جيش صلاح الدّين الخارج إلى الشام لمحاربة الفرنج، فيقول:

سفينَةُ نُوحٍ ما رَكِبْتَ وعَسْكَرٌ كطُوفانِهِ والشّامُ بالفَتْحِ قد نُودِي (٤)

وهذا الجيش الكثيف كان يحوّل النّهار ليلا من كثرة الغبار الّذي تثيره سنابك خيله بينما يطلّ المسلم القائد البطل من بين جنده وغبار المعركة، فيبدد الظلام بوجهه المضيء المشرق. ومن ذلك قوله مادحا شجاع بن شاور:

فيلّهِ ما ألْبسْتَ ذا الدّينِ من عُلى وللّهِ ما ألْبسْتَ ذا المُلْكِ من فخْرِ
بجيشٍ إذا ما النّقْعُ أبْدى حديدَهُ حَسِبتَهُمُ قد نَصّلوا السُّمْرَ بالزُّهْرِ
إذا اشْتَجرتْ راياتُهمْ وتألّفتْ طُيورٌ إليهِمْ قُلْتُ حَنّتْ إلى وَكْرِ
تَجلّى فأجْلى وجهُكَ النّقْعَ إذْ بدا وأحْسَنُ نورِ الوصْلِ في ظُلْمَةِ الهَجْرِ
بأضْوَأَ من بَرْقٍ وأزْيَدَ في السّنا وأهْيَبَ من سَيْفٍ وأملأَ للصَّدْرِ (٥)

ولا ينسى الفاضل وهو يتحدّث عن جيش المسلمين الّذي يقارع الأعداء أن يصوّر لنا تقوى جنده وإخلاصهم في القتال طاعة لله، فهو جيش يجمع إلى المهارة في خوض

---

(١) ديوان الفاضل: ١/١٧٣.
(٢) المصدر نفسه: ١/٢٦١.
(٣) المصدر نفسه: ١/٢٣٩.
(٤) المصدر نفسه: ١/١٨٤.
(٥) المصدر نفسه: ١/٢٠٦–٢٠٧، وانظر أمثلة أخرى في ص: ٣٣١–٣٣٢، ٣٦٦، وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحروب طاعة الله وحسن عبادته . يقول في جيش صلاح الدّين :

إذا كبّرَ الرّحمنَ ساعةَ قتلِهِمْ تشابَهَ يومُ القتلِ منهُ بِمُنْسَكِهِ (١)

وتلك صورة منتظرة لجيش يقاتل تحت راية الدّين ، ضدّ أعداء يقاتلون باسم الدّين .

وحتى يعلي من شأن بطله الّذي يمدحه وجيشه ، كان الفاضل يحرص على إظهار قوّة أعدائه ، الّذين انتصر عليهم . ومن ذلك قوله :

نَظَروا الخُيولَ فأثْبَتَتْ نَظَراتُهمْ غُرَراً عليها قدْ وُسِمْنَ جِباهَا

ولَرُبَّ هاتِفَةٍ دَعَتْهُمْ لِلوغى جَعلُوا صليلَ المُرْهَفاتِ صَداها

هيَ كالموارِدِ في العُيونِ وطالَما نَقَمُوا بِهاماتِ الكُماةِ(٢) صَداها (٣)

وأمّا هزائم الأعداء أمام المسلمين ، كما يصوّرها الفاضل في شعره ، فهي صورة دمويّة تعبّر عن فرحته وشماتته بما لحقهم ، إذ نراهم في ساحة المعركة إثر هزيمتهم جثثا ملطّخة بدمائها من غير رؤوس . وذلك كما في قوله من قصيدة نظمها في صلاح الدّين متغنيا بانتصاراته على الفرنج :

ورأيْتُ أجْسامَ العُدا ةِ كما رأيْتُ بِغيرِها مِ

ودَمارَها لدِمائِهِمْ وسَقامَها مِلءَ العِظا مِ

ومُحَسَّرٍ لِمُكَسَّرٍ أعْزِزْ عليْهِ يدُ المُقا مِ

كمْ من رُؤوسٍ مِنْ لَجَا جٍ أوْ خُدودٍ مِنْ لِطا مِ (٤)

ويبدو أنّ هذه الصورة ، صورة جثث الفزاة من الفرنج الملقاة على الأرض دون رؤوس كانت تروق للفاضل ، فهو يكررها في شعره في مواضع كثيرة ومن ذلك قوله مخاطبا صلاح الدّين :

كانَ الفَرَنْجُ لهُمْ نُونٌ وقدْ حُذِفَتْ وجاءنا فَرَجٌ ما كان يُذْكَرُ

يا حُسْنَ ما اخْتُصِرَتْ قاماتُ قَوْمِهِمُ كذاكَ سَيْفُكَ لِلقاماتِ يَخْتَصِرُ (٥)

---

(١) ديوان الفاضل : ١/ ٢٦١ .

(٢) الكُماة : جمع كميّ ، وهو : الشجاع أو لابس السّلاح : (اللسان والقاموس المحيط كمي) .

(٣) ديوان الفاضل : ٢/ ٣٢٥ .

(٤) المصدر نفسه : ١/ ٢٨٥ .

(٥) المصدر نفسه : ١/ ٢٢٥ ، وانظر أمثلة أخرى : ١/ ٢١٥ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتبدّى هزائم الفرنج في شعر الفاضل من خلال تصويره للأسرى منهم وهم مقيّدون بالحبال وقد علاهم الذلّ والهوان لما لحق بهم على أيدي المسلمين . يقول في إحدى مدائحه في شجاع بن شاور ، حينما تمكن المسلمون من ردّ الفرنج عن مصر:

سِيقَت رُؤوسُ أعادِيكُم بِأَرْجُلِهِمْ ... مُقَرَّبٌ حَتْفَها التَّقْرِيبُ والخَبَبُ (١)

يستَعْذِبونَ المَنايا من سُيوفِكُمُ ... كأنّما الضَّرْبُ في أثْنائِهِ الضَّرَبُ (٢)

وذَلَّتِ العُجْمُ في أُولى الزَّمانِ لَكُمْ ... واليَوْمَ ذَلَّتْ على أعْقابِها العَرَبُ (٣)

ويقول في عودة جيش المسلمين من المعركة وقد امتلأت أيدي جنده من الغنائم والأسلاب:

فَجاءُوا بأسْلابٍ إلى يدِ قاسِمٍ ... وفَاءُوا بأصْلابٍ إلى أيْدِ قاصِمِ

بِمَوْقِفِ حُكْمٍ في الرِّقابِ شَهادَةٌ ... تُؤَدّى إلى خَصْمٍ من السَّيْفِ حاكِمِ

وما في صُدورِ الزَّعْفِ غَيْرُ ودائِعٌ ... ولا في ظُهورِ الخَيْلِ غَيْرُ غنائِمِ (٤)

وأما جيش العدوّ في شعر الفاضل ، فلا نراه إلاّ وهو يفرّ مذعورا أمام قائد المسلمين وجيشه . فالأعداء كما يصورهم الفاضل أضعف من أنْ يواجهوا جند المسلمين من شدّة جبنهم ورعبهم كما يتراءى له ، إذ يقول مصوّرا فرار فرسانهم الأقوياء أمام المسلمين في إحدى مدائحه للملك العزيز عثمان بن صلاح الدّين :

وَلّى العِدُوُّ وعُثمانٌ وراءَهُمُ ... والمسلمون وهذا جُمْلَةُ الخَبَرِ (٥)

والانتصارات التي أحرزها المسلمون على الفرنج جعلت الفاضل يسخر منهم ، لكي يهوّن أمرهم على المسلمين ، وتنتزع الهيبة منهم . يقول:

رَأى اللَّيْلُ تَفويقَ (٦) النُّجومِ أسِنَّةً ... فَبادَرَ تَجريدَ الصَّباحِ مَناصِلا (٧)

---

(١) التقريب والخبب: ضرب من السير دون الإسراع: (القاموس المحيط: خبب) .

(٢) الضرب: المسل الأبيض: (القاموس المحيط: ضرب) .

(٣) ديوان الفاضل : ١/١٤٨ .

(٤) المصدر نفسه : ١/٢٩٣ .

(٥) المصدر نفسه : ١/٢٤١ ، وللمزيد من الأمثلة على ذلك ، انظر ، ١/١٩١ ، ٢٠٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، وغيرها .

(٦) التفويق: الفوق : موضع الوتر من السَّهْم : (القاموس المحيط : فوق) .

(٧) المناصل: جمع منصل ، وهو السَّيف : (القاموس المحيط : نصل) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَقُل لِرجالِ الكُفْرِ بِيعوا سُيوفَكُمْ وَصوغُوا بأَثْمانِ السُّيوفِ خلاخِلا (١)

ومن أجل أنْ يحدث الفاضل استثارات معينة في نفوس ممدوحيه ، ويستحثهم على قتال الأعداء ومواجهتهم ، كان يربط ما بين انتصاراتهم وانتصارات المسلمين في عهود الإسلام الأولى . ومن ذلك قوله مخاطبا أحد ممدوحيه :

وَتَخلَّلتْ سُحُبَ الرِّماحِ لعلَّها (٢) تَحْظى بِلَحْظِ جَبِينِهِ المُتَزَمِّلِ

ولَعَلَّها في بَدْرِ حَرْبِكَ تَلْتَظي (٣) فافْسَحْ لها في وَقْفَةِ المُتَظَلِّلِ (٤)

وحين ردّ المسلمون الغزاة من الفرنج عن مصر ، قال الفاضل مهنئا شجاع بن شاور ، رابطا ذلك بهزائم الكفّار أمام رسول الله — عليه السلام — :

نُصِرْتُمُ مِثلَ نَصْرِ المُصْطفى فلَكُمُ جيْشانِ أدْناهُما من نَصْرِكَ الرُّعبُ (٥)

ويبالغ الفاضل في تصويره لساحة المعركة إثر هزيمة الأعداء أمام طلائع بن رزّيك ، إذ يقول :

دِيارُ العِدى من نَقْعِهِ ودِمائِهِمْ كَرَبْعِ الهوى ما بينَ سافٍ وماطِرِ

يُلاقيهِمُ بالسَّيْفِ والطَّيْرِ طاعِماً فهُمْ منهُما بينَ الرَّدى والمقابِرِ (٦)

ومع أن الفاضل كان غائبا عن المعارك التي يصفها ، إلاّ أنّه استطاع بمهارته الفنيّة وخياله الفسيح أنْ يصوّر لنا الأجواء العامّة للمعارك التي يتحدّث عنها ، ولكنْ ظل بطله هو محور القصيدة في شعره ، كما سبق أنْ ذكرنا في غير موضع ، كما يتضح من الأبيات التالية :

وكَمْ لك مِن يَوْمٍ أغرَّ مُحَجَّلٍ نَرُدُّ بهِ قَسْراً نَوازِيَ (٧) النَّوازِلِ

---

(١) ديوان الفاضل : ٢/٤٢٩ .

(٢) المتزمّل : من تزمّل ، أي تلفّف بالثوب ، وهي هنا لابس البَيْضة : (القاموس المحيط زمل) .

(٣) تلتظي : من تلظّى ، أي تلهّب : (القاموس المحيط : لظي) .

(٤) ديوان الفاضل : ١/٢٨١ .

(٥) المصدر نفسه : ١/١٥١ .

(٦) المصدر نفسه : ١/٢٣٦ .

(٧) النوازي : من نزا نزوا ، أي وثب : (اللسان والقاموس المحيط : نزو) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بِحيثُ الدّما خمرٌ يُرى الهامُ دِنّها (١) وقدْ بُزِلَتْ من سُمْرِهِمْ بِمَبازِلِ (٢)
وتَبْدُو الظُّبا فيها بِخَدٍّ مُلاعِبٍ وتَبْدُو القَنا فيها بِعِطْفٍ مُفازِلِ (٣) (٤)

وقوله في وصف سيوف صلاح الدّين :

ماضِياتٌ على الدَّوامِ رَواميـ هيَ في النَّصْرِ نَجْدَةُ الإسْلامِ
في يَمينِ السُّلْطانِ إنْ جَرَّدَتْها أشْبَهَتْها صَواعِقٌ في غَمامِ
تَنْثُرُ الهامَ كالحُروفِ فما أشْبَهَ هذي السُّيوفَ بالأقْلامِ
في مَحاريبِ حَرْبِهِ البِيضُ صُلْتٌ ورُكوعُ الظُّبا سُجودُ الهامِ (٥)

ويبدو القاضي الفاضل في شعره الّذي صوّر به معارك المسلمين مع الفرنج وكأنّه المصوّر أو الصحفي ،الّذي يلتقط الأخبار ،ويصوّرها تصويرا انتقائيّا خارجيّا يقدّم لنا من خلاله ملامح مختارة من تلك المعارك ،يقصد بها بالدّرجة الأولى تسليط الأضواء الساطعة على ممدوحه ،لكي تظهر صورته متألقة متوهّجة .

ولا بدّ أنّ الفاضل ،كان مدفوعا فيما قاله بدافع عاطفي ،وحسّ ديني . ولذا فإنّ صورة البطل المسلم في شعره جاءت متلائمة مع ما هو مطبوع في نفوس المسلمين من تصوّرات للقائد المسلم في إطار الخصائص القياديّة الّتي حددها الإسلام ،وقدّم نماذج منها في تاريخه المبكّر .

---

(١) الدّن : الرّاقود العظيم: (اللسان والقاموس المحيط : دنن) .
(٢) البزل : بزله ،أي شقّه ،وبزل الخمر: ثقب إناءها : (القاموس: بزل) .
(٣) العطف : الجانب من كلّ شيء : (اللسان والقاموس المحيط: عطف) .
(٤) ديوان الفاضل : ١/٢٦٤ .
(٥) المصدر نفسه : ٢/٤٤٤ ،وللمزيد من الأمثلة الكثيرة على ذلك انظر،ص: ١٣٢ ،١٦٤ ،١٨٤ ،١٩٦ ،٢٤٥— ٢٤٦ ،٢٤٩ ،٢٧٥ ،٣٣٢ ،٤٦١ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع : التقويم الفني :

أولا : النثر

ثانيا : الشعر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخصائص الفنيّة في النثر :

أوّلا : مؤشرات عامّة :

أ ـ دينيّة

ب ـ أدبيّة

ثانيا : المفردات اللفظية

ثالثا : الأسلوب

رابعا : الخيال والصورة الفنيّة

خامسا : البناء الفني

سادسا : الفاصل بين مؤرخيه وكتابه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مؤثرات عامّـــــــة :

ذكرنا في الحديث عن ثقافة القاضي الفاضل أنّه كان صاحب ثقافة واسعـــة متنوّعة ،غنيّة بالمعارف الدّينيّة والأدبيّة والتاريخيّة . فقد ذكر معاصره ابن الأثير أنّـــه حفظ القرآن الكريم وهو في مرحلة الصّبـا (١) ، وأورد ابن العماد أنّه حفظ ديوانـــي أبي تمّام والبحتريّ (٢) ، ودرس الحديث والتفسير والفقه وعلوم اللغة والأدب على شيـــوخ عصـره (٣) . هذا بالإضافة إلى ألوان الثقافة الأخرى الّتي حصّلها من خبراته الطويلـــة وتجاربه مع الحياة والناس والحروب الّتي واكبها بحكم منصبه الّذي تبوّأه في دولـــة صلاح الدّين .

ولمّا كانت ثقافة الأديب وخبراته في الحياة من أهمّ مقوّمات شخصيته ، فإنّ أصداء هذه الثقافة لا بدّ أنْ تنعكس بصورة جليّة على نتاجه وطرائق تفكيره ، سواء أكان ذلك بصورة مباشرة أم غير مباشرة (٤) . وفي كتابات القاضي الفاضل الّتي واكبت الحروب الصليبيّة ما يدلّ دلالة واضحة على أنّه قد تأثر تأثرا كبيرا بمعارفه المختلفة ، فقد نهل من ثقافته الدّينيّة والأدبيّة والتاريخيّة واستمدّ منها الكثير من معانيه وألفاظه وصوره ، كما استمدّ من أجواء الحروب التي صوّرها في كتاباته الأدبيّـــة .

الثقافة الدّينيّـــــة :

اتّكأ القاضي الفاضل بصورة واضحة على المادة القرآنيّة في كتاباته ، لكي يعبّـر عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر وأفكار ، وهذا أمر طبيعيّ لكاتب كان يحفظ القرآن الكريـم ويكثر من قراءته وتدبّر مافيه من بيان وجمال . يضاف إلى هذا أنّ القرآن الكريم كان مـن

---

(١) انظر الوشي المرقوم ، ص: ٩ ، والرّوضتين ، حلمي : ج١ق٢ / ٤٨٨ ، وفيـــات الأعيـــان : ٧ / ٢٢٠ .

(٢) انظر شذرات الذهب : ٤ / ٣٢٦ .

(٣) انظر طبقات الشافعيّة : ٧ / ١٦٧ ، والأسنويّ : ٢ / ٢٨٤ ، وخطط المقريـــزي : ٢ / ٣٦٧ ، وشذرات الذهب : ٤ / ٣٢٥ ، والدّارس : ١ / ٩٢ ، وغيرها .

(٤) انظر صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسرانيّ ، ص: ٢١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المواد الأساسيّة الّتي ينبغي على الكاتب في ذلك العصر أنْ يلمّ بها، قبل أنْ يقحم نفسه في ميدان الكتابة وعالم الكتّاب . يقول القاضي الفاضل حينما دخل مصر وقدّم نفسه للموفق بن الخلّال ،صاحب ديوان الإنشاء ،بمصر: ((. . . فلمّا حضرت الدّيوان ومثلت بين يديه ،وعرّفته من أنا وماطلبي ،رحبّ وسهّل ،ثمّ قال لي : ماالّذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أنّي أحفظ القرآن الكريم ،وكتاب الحماسة. فقال:في هذا بلاغ ،ثمّ أمرني بملازمته))(١) .

ثمّ إنّ أدب القاضي الفاضل الّذي نقل أخبار المعارك والحروب الّتي كانت تدور بين المسلمين والفرنج ، هو أدب مواجهة ،حاول فيه الفاضل أن يحرّض المسلمين عامّة على مواجهة أعدائهم الّذين كانوا يمثّلون خطرا عظيما على الإسلام وأرضه. ولذا فإنّه وجد في القرآن الكريم ما يريد من استثارة تهزّ الإنسان المسلم وتتغلغل في أعماق وجدانه. ولذا كان من الطبيعي أن يتّجه الفاضل في كتاباته الّتي وجهها إلى الخليفة والمسلمين عامّة إلى منبع العقيدة الإسلاميّة ،إلى القرآن الكريم ،وأن يغترف من معانيه وألفاظه وصوره وطرائقه في التعبير. وقد كانت هذه السمة من أبرز السمات الأسلوبيّة الّتي استرعت أنظار الّذين اتّصلوا بفنه الكتابي من قدماء ومحدثين . يقول سبط بن الجوزي:((. . . وقد استعان بآيات القرآن الكريم في كثير من رسائله))(٢) ويقول عبد اللطيف حمزة: ((. . . وهذه الخاصيّة الّتي تلفت النظر إليها ،هي خاصيّة نثر القرآن ،على طريقة ابن العميد في نثر الأشعار. وبيان ذلك ،أنّ القاضي الفاضل كان يستطيع بهذه الطريقة أنْ يدمج القرآن في كلامه ،فكأنّه جزء من هذا الكلام. ولا تقل إنّها طريقة بسيطة أو مسبوقة ،فالقول ببساطتها أو إمكانها مردود بمحاولتك تقليدها، وعجزك كلّ العجز عن ذلك. والقول بأنّها مسبوقة مردود كذلك ببحثك في آثار الكتّاب جميعهم قبل الفاضل ،وانعدام هذه الخاصيّة في تلك الآثار. وهكذا استطاع الفاضل أنْ يستغلّ القرآن لنفسه استغلالا فنيّا صرفا ،وأنْ يتخذ منه صبغا من أجمل أصباغه

---

(١) الوشي المرقوم ،ص: ٩ ،وانظر الرّوضتين ،حلمي : جـ١ ق٢ / ٤٨٨ ،وغيرهما .
(٢) مرآة الزمان : ٨ / ٤٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفنيّة الّتي ألّف بينها بطريقة فاتنة)) (١) .

على أنّ وجود هذه الظاهرة في كتابات القاضي الفاضل ،لم يكن لغايات التجميل والتزيين فحسب،وإنّما كان الفاضل يهدف من وراء استعمالها إلى غاية أبعد من ذلك ،فهو يسعى إلى استثارة ذكريات ومواقف وألفاظ ذات أثر في وجدان الإنسان المسلم ومشاعره . إذ كان يستقي من المادّة القرآنيّة ما يتلاءم مع الغرض الّذي يريد أنْ يعبّر عنه . وقد توصل إلى ذلك بطريقة تنمّ عن براعته ودقّته في تخيّر الآية الملائمة وادخالها في تضاعيف رسائله ،فتأتي الآية في موضعها الصحيح ،وكأنّها جزء يتكامل مع عبارته ويتواءم معها . ومن ذلك قوله في أسرى حطّين :((. . . فللّه هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنّسر ،وتداول فيه القتل والأسر ،وبات الكفّار فيه مقرّنين في الأصفاد (٢) ، ممتطين الأدهم (٣) إلاّ أنّها غير المطهّمة الجياد)) (٤) ،وقوله في رسالة وجهها إلى صلاح الدّين مطمئنا باعثا الأمل في نفسه ،حينما حصر الفرنج عكّة وضيّقوا على من فيها من المسلمين : ((. . . الحمد للّه الّذي أذهب عنّا الحزن ،وأولى من النعمة ما اشترى الحمد بلا ثمن ،ذلك من فضل اللّه علينا وعلى النّاس ،ووعد اللّه سبحانه منتظر ،إذ يقول في كتابه : وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم ،وليمكننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم ،وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا (٥))) (٦) .

وكثيرا ما كان القاضي الفاضل يعمد إلى تخيّر ما يتّفق من آي القرآن الكريم مع أحداث عصره ووقائعه ،وينثره في تضاعيف رسائله الّتي رفعها إلى الخليفة وأمراء المسلمين ،بطريقة متميّزة في استغلال المادّة القرآنيّة والربط ما بينها وبين عباراته بشكل محكم. وذلك كما في قوله : في وصف جند المسلمين المعسكرين خارج أسوار عكّة

---

(١) أدب الحروب الصليبيّة ،ص: ١٨٥–١٨٦ ،وانظر الأدب في العصر الأيوبيّ ص: ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٤٩ ،وسورة ص،آية : ٣٨ .

(٣) الأدهم: الفرس الأسود ،والقيد . والمعنى الثاني هو المقصود.(اللسان: دهم)

(٤) الرسائل ،ص: ٤٢ .

(٥) سورة النّور،آية : ٥٥ .

(٦) صبح الأعشى : ٧/ ١١٢ ،وللمزيد من الأمثلة على استمداده الحرفي المباشر من المادّة القرآنيّة أيضا ،انظر: الرسائل ،ص: ٤١ ، ٤٢ ، ٦٧ ، ١٣٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، وغيرها كثير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في رسالة وجهها إلى بغداد :((. . . فشمّر من كان قد أسبل ،وانتهى من كان قد أجبل ،وكأنّما أعطوا كتابا من الدّهر بالأمان ،أو سمعوا منادياً ينادي للإيمان ،وقالوا : "سمعنا وأطعنا"(١) وعلينا من الخدمة ما استطعنا))(٢) ،وقوله في معركة حطّين أيضا ((. . . وكان اليوم مشهودا(٣) ،وكانت الملائكة له شهودا ، . . .))(٤) .

والجدير بالذكر ،أنّ الفاضل كان يكثر بصورة واضحة من إيراد معاني القرآن الكريم وألفاظه حينما يتحدّث عن هزائم الفرنج وما حلّ بهم من يأس وقنوط إذ كان يضمّن في العبارة الواحدة عددا من الآيات القرآنية . يقول إثر هزيمة الفرنج في بيت المقدس:((. . . وتبرّأ بعض الحجارة من بعض ،وأخذ الخراب عليها موثقا ،فلن تبرح الأرض(٥) ، وفتح من السور باب سدّ من نجاتهم أبوابا ،وأخذ يفتّ في حجره ،قال عنده الكافر: "ياليتني كنت ترابا"(٦) ، فحينئذ يئس الكفّار من أصحاب الدّور ،كما يئس الكفّار من أصحاب القبور(٧) ، وجاء أمر اللّه(٨) ، وغرّهم باللّه الغرور))(٩) .

وقد تجلّت مهارة الفاضل في الإفادة من المادة القرآنيّة في الإشارة والتلويح فهو يستخدم بعض القصص القرآنيّة الموحية المعبّرة ،لكي يعبّر عن الموقف الّذي يريد بأقل الكلمات . فمن ذلك إشارته إلى قصّة آدم (عليه السلام) وخروجه من الجنّة

---

(١) وهو هنا ينظر إلى قوله تعالى :((وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير)) . سورة البقرة ،آية: ٢٨٥ ،وسورة آل عمران ،آية : ١٩٣ .

(٢) صبح الأعشى : ٧/١٢٧ .

(٣) وهو هنا يستمد معناه وبعض ألفاظه من قوله تعالى :((ذلك يوم مجموع له النّاس ،وذلك يوم مشهود)) . سورة هود ،آية: ١٠٣ .

(٤) الرسائل ،ص: ١٦٥ . وللمزيد من الأمثلة ،انظر: الرسائل ،١٣٦ ، ١٥٨ ،وغيرها .

(٥) إشارة إلى قوله تعالى : ((فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي)) . سورة يوسف ،آية: ٨٠ .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى : ((ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا)) سورة النبأ آية : ٤٠ .

(٧) سورة الممتحنة ،آية : ١٣ .

(٨) سورة غافر ،آية : ٧٨ .

(٩) الرسائل ،ص: ١٧٠ — ١٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليصوّر خروج المسلمين من بيت المقدس، حينما سقط بأيدي الفرنج في بداية الغزو الصليبيّ، إذ يقول في إحدى رسائله لصاحب المغرب: ((. . . وما كان إلاّ جنّة إسلام، فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنّة (١) وأعقبهم فيها إبليس الكفر، وما أجارته مما أعقبه اللعنة، . . .)) (٢). ومن ذلك إشارته إلى قصّة موسى (عليه السلام) وأخيه هارون مع بني إسرائيل، الّذين قعدوا عن القتال وتخلوا عنهما ليشبّه بها حال صلاح الدّين مع أمراء المسلمين الّذين لم يقفوا إلى جانبه في حربه مع الفرنج. يقول في رسالة بعثها إلى الخليفة في حصار عكّة مصوّرا الموقف ((. . . ولولا أنّ في التصريح ما يعود على عدالته بالتجريح، لقال ما يبكي العيون وينكي القلب، وتنشقّ له المرائر، وتشق له الجيوب، ولكنّه صابر محتسب، منتظر لنصر اللّه مرتقب، قائم من نفسه بما يجب، (ربّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي) (٣)، وها هو قد هاجر إليك هجرة يرجوها عندك مقبولة)) (٤)، ويستثير في أذهان المسلمين قصّة الافتراء على النبيّ يوسف وهو يتحدّث عن علاقة صلاح الدّين بالخارجين على الوحدة الإسلاميّة، وغيرها من القصص كقصّة إبراهيم مع الأصنام، وسليمان مع النمل (٥).

وممّا تقدّم، نلاحظ أنّ القاضي الفاضل قد افتنّ في استخدام المادّة القرآنية في كتاباته الّتي تحدّث فيها عن الحروب الّتي خاضها المسلمون مع الفرنج، فهو مرّة يورد الآية بلفظها ومعناها، وثانية ينثرها في رسائله، وقد يشير ويلوّح تبعا لطبيعة الموقف الّذي يتحدّث عنه، إذ كان القرآن الكريم منهلا لا ينضب لمعاني الفاضل وألفاظه

---

(١) وهو هنا يشير إلى قصّة خروج آدم من الجنّة كما قصّها القرآن الكريم يقول ((. . . فأزلهما الشيطان فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر إلى حين)): سورة البقرة، آية: ٣٦، والأعراف، آية: ٢٤ وطه، آيه: ١٢٣، وانظر: قصص القرآن، ص: ٦—٨.

(٢) صبح الأعشى، ٦/٥٢٧.

(٣) وهو هنا يشير إلى قوله: ((وقالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا، إنّا هاهنا قاعدون. قال ربّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين)) سورة المائدة، آية: ٢٤، ٢٥.

(٤) صبح الأعشى: ٧/١٢٩، وانظر: حسن التوسل، ص: ٧٧.

(٥) انظر: صبح الأعشى: ٦/٥١٤، والرسائل، ص: ١٤٨، والبداية والنهاية ١٢/٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقع أنّني لم أكد أظفر بنص من نصوصه يخلو من اقتباس مباشر أو غير مباشر لآي القرآن الكريم[١].

ومن مظاهر تأثر الفاضل بالثقافة الدّينيّة أيضا ،إفادته من معاني الحديث النبويّ الشريف وألفاظه في كثير من رسائله. فهو يستقي منه ما يمسّ وجدان كلّ مسلم ويدخل مادّة الحديث في كتاباته بطريقة محكمة فيها دقّة وقدرة على التصرّف والتعامل مع الألفاظ وتطويعها في قضيّته وفنّه. ومن ذلك قوله في رسالة وجهها إلى دار الخلافة في بغداد ،يصف فيها حال جند الإسلام المحاصرين لعكّة: ((. . . وكلّ من يعرفهم من أهل المعرفة ،ويراهم بالعين ،فما هم مثل من يراهم بالصفة ،يناشد اللّه المناشدة النبويّة ،في الصيحة البدريّة ،" اللهمّ إنْ تهلك هذه العصابة "[٢] ،ويخلص الدعاء ،ويرجو على يد أمير المؤمنين الأجابة))[٣] ،وقوله حينما تمكن صلاح الدّين من ضمّ بلاد النوبة[٤] إلى الصّف الإسلاميّ: ((. . . الحمد للّه الّذي صدق وعده[٥] ،وأورثه الأرض وحده ،وجدد علاه ،وأعلى جدّه))[٦].

وفي عملية توحيد القوى الإسلاميّة المتناحرة مع وجود الفرنج على أرض الإسلام كان الفاضل في بعض رسائله إلى أمراء المسلمين ،يستثير في أذهانهم قول

---

(١) قمت برصد وإحصاء المواضع الّتي استمدّ منها من القرآن ،فوجدت أنّها قد نافت على مئة وسبعين موضعا ،في رسائله الّتي واكبت الحروب دون غيرها.

(٢) وهذا استمداد مباشر من قوله (عليه السلام) ،في معركة بدر: ((اللهمّ إنْ تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد)). ابن هشام ،السيرة النبويّة ٢/١٩٨.

(٣) صبح الأعشى : ٧/١٢٨.

(٤) بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر. انظر معجم البلدان : ٥/٣٠٩.

(٥) وهو هنا ينظر إلى قول الرسول (عليه السلام) ،حينما دخل مكّة: ((لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له ،صدق وعده ،ونصر عبده ،وهزم الأحزاب وحده)). السيرة النبويّة : ٤/٢٢.

(٦) صبح الأعشى : ٦/٥١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسول (عليه السلام) : ((بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود كما بدأ غريبا ، فطوبى للغرباء))(١). وهذا واضح في قوله من رسالة بعثها إلى نور الدّين إثر إحباط مؤامرة عمارة اليمنيّ : ((... فالإسلام ببركاته البادية ، وفتكاته الماضية ، قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا))(٢) ، وقوله إثر تحرير بيت المقدس : ((... وكان الدّين غريبا فهو الآن في وطنه))(٣).

ويتصل بثقافته الدينيّة أيضا إشارته الكثيرة إلى الاعتقادات والديانات الأخرى كالنصرانيّة ، والوثنيّة ، وغيرها(٤).

الثقافة الأدبيّة :

وتأتي ثقافته الأدبيّة الواسعة فتكوّن رافدا آخر من روافد ثقافته الّتي عملت على تكوينه العقلي والبياني ، وأمدته بالكثير من الألفاظ والمعاني . فنستطيع أن نتلمس مظاهر الثقافة الأدبيّة مثلا في قوله متوعدا الفرنج إثر هدم حصن بيت الأحزان ((... والبلاء ينادي طبريّة بلسان مصابها : إيّاك أعني واسمعي يا جارة))(٥) ، وفي قوله أيضا بعد ما لحق الفرنج في معركة غزّة من ذلّ وهوان : ((... والعدوّ قد غزي في عقره وعقر ، وأذلّ في دار ملكه واحتقر))(٦). وهو في قوله : ((... وهو الطاعم الكاسي

---

(١) صحيح مسلم : ٢/١٧٦ .

(٢) الرّوضتين ، حلمي : جـ١ق٢/٥٦٣ ، والوثائق : ٤/٢٠٨ .

(٣) الرسائل ، ١٥٩ ، والوثائق : ٤/٢٦٢ . وللمزيد من الأمثلة على استمداد الفاضل من الحديث ، انظر : الرّوضتين ، حلمي : جـ١ق٢/٦٤٩ ، والوثائق ٤/٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٦ ، ٥/١٩١ ، ١٩٩ ، والرسائل ص : ١٣٣ ، ٢١٥ ، وغيرها .

(٤) انظر : الرسائل ، ص : ١٦٥ — ١٦٦ ، والوثائق : ٤/٢٥٤ ، وغيرهما .

(٥) الرسائل ، ص : ١٣٣ . وهو هنا يستمد فكرته من قوله سهل بن مالك الفزاري :

يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزارة
أصبح يهوى حرّة مقطارة إيّاك أعني واسمعي يا جارة .

الميداني ، مجمع الأمثال : ١/٤٩ .

(٦) الرّوضتين ، حلمي : جـ١ق٢/٤٩١ ، والوثائق : ٥/١١٤ . وهو هنا يستمدّ معناه وبعض ألفاظه من خطبة الإمام عليّ ، إذ يقول : ((... ألا وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، سرّا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحمي بالمناصل لا الحامي ، والمكفي لا الكافي ، . . .)) (١) يلتفت إلى قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي (٢).

وقد أكثر الفاضل من التضمين في كتاباته ، وخاصّة في رسائله الّتي كتبها إلى السلطان صلاح الدّين في حصار عكّة. فهو يتخيّر من الأمثال المنظومة ما يخدم غرضه الّذي يريد ، وذلك لكي يزيد في عزم سلطانه على القتال ، ويستحثه على الصبر وقد كشف لنا بذلك عن سعة حفظه لأشعار العرب وأقوالهم (٣). وقد يعمد إلى حلّها ونثرها في طيّات رسائله ، ممّا حمل محمد زغلول سلام على القول إن ((الإقتباس وحلّ المنظوم من أهم عناصر كتابته)) (٤).

وأمّا الحروب ، فقد كانت منهلا عظيما استقى منه القاضي الفاضل الكثير من ألفاظه ومعانيه وصوره ، وذلك أمر طبيعي لكاتب كان على صلة وثيقة بهذه المعارك والحروب ، نظرا لمكانته من صلاح الدّين ، وبحكم بيئته الحافلة بالحروب ، والفترة الّتي عاش فيها . ومن ذلك قوله: ((. . . وأدار فيها كأس المنون دهاقا ، وحلّ الرؤوس ضربا وشدّ الأعناق وثاقا ، وطحن الحصون القائمة بكلكل الجيش ، وحلّ حتى البروج المشيّدة بهدم يكسب حلم أعطافها معنى الطيش)) (٥) ، ويبدو أثر الثقافة الحربيّة أيضا في قوله بعد هزيمة حطّين: ((. . . فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة اللّه كفر ، وأسر منهم من أسرّت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به

— ما غزي قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، حتى شنّت الغارة عليكم ، وملكت عليكم الأوطان)) . الجاحظ **البيان** والتبيين ، ١٩٦٨ : ٢/ ٥٣ — ٥٤.

(١) الرسائل ، ص: ١٢١.

(٢) ديوان الحطيئة ، تحقيق ، نعمان أمين ، ط١ ، ص: ٢٨٤ ، وللمزيد من الأمثلة على ذلك ، انظر: الرسائل ، ص: ٥٨ ، ١٣٣ ، ١٧٧ ، وغيرها .

(٣) للمزيد من الأمثلة انظر: الروضتين ، بيروت: ٢/ ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٣٣ ، صبح الأعشى: ٧/ ١١١ — ١١٢ ، البداية والنهاية: ١٣/ ١٤.

(٤) الأدب في العصر الأيوبي ، ص: ١٩٣.

(٥) الرسائل ، ص: ١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المناصـــــــــل))[١]. وقد تجلّت آثار ثقافته الحربيّة المستمدّة من أجواء المعـــارك في استعماله المصطلحات والألفاظ ذات الدلالات العسكريّة والحربيّـــة الّتي عرفهـــا وتمرّس بها ، كالمجانيق والدبّابات ، والكباش ، وغيرها من أدوات القتال الثقيلة والخفيفـــة الّتي استعملها الطرفان المتحاربان إبّـان الحروب .

ومن الروافد الثقافيّـة الأخرى الّتي أفاد الفاضل منها في رسائله ، ثقافتـــه التاريخيّـة الواسعـــة ، فهو يستمدّ من الأحداث التاريخيّـة المرتبطة بعصره ، ويشيـر إلى الشخصيّـات الإسلاميّـة الّتـي لها شأن في تاريخ الإسلام ، ليربط الشخصيّـــات المعاصرة له بها[٢]. وفي كتاباته مايدلّ دلالة واضحة على صلته الوثيقـة بأحـــداث عصره ، ولا سيّما ما يتعلّق فيها بتاريخ السلاجقة والأيّوبيين والفاطميين ، وغيرهم مـــن حكام البلاد الإسلاميّـة في عصـــره .

والجدير بالذكر أنّ ثقافة الفاضل التاريخيّـة ، لم تقتصر على التاريخ العربـيّ الإسلاميّ ، وإنّما تجاوزت ذلك إلى الاطّلاع على تاريخ الدّولة الرومـيّـة ، والمدن الإيطاليّه وغيرهما من الأمم والشعوب الّتي كانت على علاقة بالفرنج الّذين يحاربهم سلطانه[٣].

وممّا تقدّم ، نرى أنّ أشكال المعاني الّتي طرقها الفاضل في كتاباته قد تنوّعت ما بين قديم وجديد ، فمنها القديم الّذي استوحاه من مخزونه الثقافي الغزير ، بعـــد أن ملأ عليه نفسه إعجابا ، فأعاد صياغته من جديد وصبّه في قوالب جديدة تتفـــق وأحداث عصره ، بعد أن أضفى عليه الكثير من خصائصه الذاتيّـة ، ومنها الجديـــد المبتكر الّذي لم يسبق إليه . فمن المعاني الموروثة الّتي استوحاها من ثقافته الواسعـــة وأعاد صياغتها من جديد قوله في قلعة نجم : ((... وأمّا قلعة نجم ، فهي نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهـــلال

---

(١) الرسائل ، ص : ١٦٤ . وانظر أمثلة أخرى في الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ٢٨ — ٢٩ ، ٥١ — ٥٢ ، وغيرهـــا .

(٢) انظر : الرسائل ، ص : ١٤٨ ، الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ٢٧٥ ، صبح الأعشى : ١٠ / ٨٣ ، الوثائـــق : ٥ / ١٢٠ .

(٣) انظر : الرسائل ، ص : ١٠٢ — ١٠٤ ، وغيرهـــا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهـــا قلامـــــة))[١]. وهو هنا يلتفت إلى قول ابن المعتزفي دير عبـــدون[٢]:

ولاح ضوءُ هلالٍ كاد يفضحنـــا مثل القلامة قد قدّت من الظفـــر [٣]

وقد علّق صاحب الخزانة على ذلك معبّرا عن إعجابه بقول الفاضل وتفوّقه علـى غيره ،فقال: ((. . . وهذه غاية فاضليّـة لا تدرك))[٤]،ويقول في قلعة حمـــص ((. . . وفتحت الأبراج فكانت أبوابـا ،وسيّرت الجبال بها فكانت سرابا . فهنالك بدت ثقوب يرى قائم من دونها ما وراءها ،وحشيت فيها النّار ،فلولا الشعاع من الشعـــاع أضاءهـــا))[٥]. وهو هنا يستمد معناه وبعض ألفاظه من قول قيس بن الخطيم:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائـر لها نفذ لولا الشعاع من الشعاع أضاءها

ملكت بها كفي فأنهرت فتقهـــا يرى قائم من دونها ما وراءهـــا[٦]

وإذ استقى الفاضل بعض معانيه وألفاظه من حصيلته الثقافيّة الموروثة كمـــا هو واضح ،إلاّ أنّـه تأثّر أكثر ما تأثّر بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ،دون أن يطغى ذلك على شخصيّتـه الأدبيّـة ،إذ لم يسمح للموروث أنْ يطمس هذه الشخصيّـة ،بسبـب قدرته على الاستمداد الذكيّ من ثقافته الواسعة المتنوّعة. ولم يكن الفاضل في كتاباتـه يتلمّس أفكاره وألفاظه من مخزونه الثقافي دون غيره ،إذ كانت له كذلك ألفاظه ومعانيـه الخاصّـة به ،كما يستبين لكلّ من يتصل بكتاباته اتّصالا يقوم على الاستقراء الدّاخليّ لها ومن ذلك قوله في قلعة غزّة:((. . . قلعة أنفها شامخ في الهواء ،وعطفها جامح عـن عطفة اللواء ،قد أوغلت في الجوّ مرتفعة ،وأومضت في الليل ملتمعة ،وبرداء السحـاب

---

(١) خزانة الأدب ،ص: ١٧٥ ،وانظر ما قاله أيضا في قلعة حمص ،الرّوضتين ،بيروت: ١/ ٢٣٩.

(٢) دير قرب جزيرة ابن عمر وبينهما دجلة ،وقد خرب الآن وكان من أحســن مستنزهاتها . ومعجم البلدان: ٢/ ٥٢٢.

(٣) ديوان ابن المعتز ،بيروت، ١٩٨٠ ،ص: ٢٤٧.

(٤) خزانة الأدب ،ص: ١٧٥.

(٥) الروضتين ،بيروت: ١/ ٢٣٩.

(٦) ديوانه ،تحقيق الدكتور ناصر الدّين الأسد ،القاهرة ،ط١ ، ١٩٦٢م ،ص: ٧-٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملتفعـــة ،قد صافحتها أيدي الأنام بالسلامة من قوارعها ،وهادنتها حوادث الأيام على الأمن من روائعها ،إلى أنْ أتيح لها الحين ،وقيّض لها من اقتضى منها الدّيـــن فصبّحها بما أساءَ صباحها ،وزعزعها بالزئير الّذي أخرس نباحها))(١) ،وقوله في بني أيّوب ((. . . يا بني أيّوب ،لو ملكتم الدّهـــر لامتطيتم لياليه أداهم ،وقلّدتم أيّامه صـــــوارم وأفنيتم شموسه وأقماره في الهبات دنانير ودراهم ،وأيّامكم أعراس ومآتم فيها لا علـــى الأموال مـآثم ،والجود في أيديكم خاتم ،ونفس حاتم في نقش ذلك الخاتم))(٢) . وقـــد استطاع الفاضـــل بهذه اللغة المتأنقة أنْ يستحوذ على إعجاب من قرأوا كتاباته . يقـول القلقشنديّ معبّرا عن إعجابه بمعاني الفاضل وألفاظه :((. . . ومعاني القاضي الفاضـــل هي الّتي ترقص لها القلوب ،وتطرب لها الألباب ،ويهجم قبولها على النفوس من غيـــــر حاجب ولا بواب ، . . . وهذا هو السحر الحلال ،والمعاني الّتي تخضع لها شمّ الجبـال ولا يقال فيه قيل ولا قـــــال .))(٣) .

---

(١) صبح الأعشى : ٧/ ٢٢ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: الرسائـــــل ،ص : ١٢٥ الروضتين ،بيروت : ٢/ ١٣ ، ١٣١ .

(٢) صبح الأعشى : ٢/ ١٩٨ ،وانظر ثمرات الأوراق ،ص: ٢٢٣—٢٢٤ .

(٣) صبح الأعشى : ٢/ ١٩٨ ،وانظر ثمرات الأوراق ،ص: ٢٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المفردات اللفظيّـــــة:

تحتل اللفظة مكانة مهمّة في الفن الأدبي ،وتعتبر من أهم أركانه الأساسيـــة الّتي يقوم عليها ،ذلك لان الكلمة كما يقول بعض المحدثين :((عنصر من عناصر العمـــل الأدبي ،وعامل من أقوى العوامل الّتي تتوقف عليها قيمته الجماليّة ،والأداء الفنـــي الجميل أساسه الدقّة في اختيار الكلمة ،ووضعها في بيئتها وامتزاجها مع معناهـــا إذ ليس هو في مجموعه إلاّ طائفة من الكلمات المؤتلفة المعبّرة))(١). ولمّا كان الفاضـــل في كتاباته الّتي واكبت المعارك الدائرة بين المسلمين والفرنج ،يسعى إلى التأثيـــر ومخاطبة وجدان من يكتب إليهم من المسلمين ،فقد اهتمّ بألفاظه اهتماما خاصّـــا لكي يحقق من استعمالها ما يريد من التأثير في نفوس قرّائه. وقد كان بارعا دقيقا فـــي انتقاء كلماته ووضعها في مكانها المناسب لها ،لتؤدّي دلالاتها بقوّة ووضوح ،بعـــد أن يشحنها بأحاسيسه وعاطفته القويّة. يقول معاصره عبد اللطيف البغدادي ،حينمـــا التقى به في بيت المقدس بعد تحريره:((... فدخلنا عليه ،فرأيت شيخا ضئيـــلا كلّه رأس وقلب ،وهو يكتب ويملي على اثنين ،ووجهـــه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقـــوّة حرصه في إخراج الكلام ،وكأنّه يكتب بجملة أعضائـــه))(٢). وفي هذا ما يدلّ علـــى أنّ الفاضل كان يدرك عظم المسؤولية الواقعة على عاتقه في نقل أخبار الحروب ،ودور الكلمة في التأثيـــر ،ولذا كان يعمل كلّ حواسه في كتاباته ،ويدقق في اختيار ألفاظـــه لأنّهـــا كانت موجّهة إلى المسلمين عامّـــة حيثما كانوا . يقول القلقشنديّ في هـــذا اللون من الأدب: ((والكاتب يحتاج إلى تصريف فكره فيها ،وتهذيب معانيها ،لأنّهـــا تتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين ،وتجعل نصب عيون المتصفّحين))(٣). ويقـــول كاتب معاصر:((... الصنعة الفنيّة صنعة مسؤولة يحكمها التواضع والشعور بخطر الكلمـــة الّتي يتعامل بها صاحبها ،لذا فهو يحرص أن تخرج متقنة))(٤). وتكتفي للتدليل علـــى

---

(١) بلبع ،النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ،ط٣ ، ١٩٧٥م ،القاهرة ،ص: ٢١٤ ،وانظـــر النحويّ ،الأدب الإسلاميّ ،ط١ ، ١٩٨٧م ،ص: ٥٣ ،وغيرهما .

(٢) عيون الأنبـــاء ،ص: ٦٨٧.

(٣) صبح الأعشى : ٨/ ٢٧٥.

(٤) عبد القادر الرباعي ،البديع الشعري بين الصنعة والخيال ،أبحاث اليرموك ،م٣ ع٢ ١٩٨٥م ،ص: ٢٣ . وانظر أيضا حول هذه القضيّة ،شكري عيّاد ،الكاتب وعالمـــه ص: ٢٤—٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـــذه الخاصيّة في كتابات الفاضل بأن نورد قوله في رسالة وجهها إلى صاحب اليمن سيف الإسلام محرّضا على قتال الفرنج :((... فالبدار إلى النجدة البـــدار والمسارعة إلى الجنّـــة ، فإنّها لا تنال إلاّ بإيقاد نار الحرب على أهل النّار ، الهمّـــة الهمّة . فإنّ البحار لا تلقى إلاّ بالبحار ، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها إلاّ الملوك الكبار))[١] ، وقوله في حصن برزية :((... وهو الّذي تضرب به الأمثال ، وتعزب عنـــه الآمال ، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال ، ويكاد يذم ساكنيه مـــن خطرات الأوجال بل من خطوات الآجال ، وكان للكفر درعا حصينة طالما كانت تهـــزأ بالنّصال ، ...))[٢] ، وهذه مهارة لا يمتلكها إلاّ كاتب تمكّن من لغته وفنه تمكنـــا قويّـــا يمكنه من إنتقاء ألفاظة الملائمة لغرضه ، وتطويعها في الاستعمال لخدمة معانيـــه وأفكاره . تقول اليزابث درو في التعامل مع الألفاظ :((... لعمري إنّها عمليّـــة شاقّة فعلى الإنسان أن يغرق نفسه في الألفاظ وأن يغوص فيها حقيقة لا مجازا ، حتـــى يتشكل اللائق المناسب منها في الصورة المنشودة في الوقت المناسب))[٣] .

هذا وإنّ عناية الفاضل بألفاظه واهتمامه بها ، قد دفعته إلى الاهتمـــام بجمله فهو يحرص على إقامة التعادل والتوازن فيها ، ويهتم بائتلافها مع قرائنها الّتـــي تجاورها من أجل أن يحدث الإيقاع الموسيقي المطلوب داخل جمله ، ويضفي علـــى أسلوبـــه رونقا وجمالا . فالجملة كما يرى بعض النقاد المعاصرين هي :((كالوحـــدة الموسيقيّـــة الّتي لا يمكن أن تحقق شيئا من الإمتاع الفنّي إلاّ بائتلافها مع الوحـــدات الأخـــرى وإذا كانت مهمّـــة الأديب إنّما هي الأداء والإمتاع ، فإنّـــه من الواجـــب أن يوفّر عنايتـــه بتنسيق الجمل ، وإيجاد التعادل بينها ، حتى يستطيع أن يحقـــق عنصر الإمتاع مـــن هذه المهمّـــة))[٤] .

---

(١) صبح الأعشـــــى : ٧/٥٢٥ .

(٢) الرّوضتين ، بيروت : ٢/١٣١ — ١٣٢ ، وللمزيد من الأمثلة انظر : الرسائـــل ١٥٧ ، صبح الأعشى : ٧/١٢٨ ، ٦/٥٠٨ ، وغيرهـــا .

(٣) الشعر كيف نفهمـــه ، ص : ٢٤ .

(٤) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ، ص : ٢٢ ، وانظر حول هذه الظاهـــــرة الأدب الإسلامـــي ، ص : ٥٣ — ٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أجل ذلك ،أكثر القاضي الفاضل في كتاباته النثريّة من استعمال الجمل المتقاربة في أطوالها وأنغامها الداخليّة ،وفواصلها الموسيقيّة ،حتى أصبحت هذه الظاهرة سمة واضحة في نثره ،يستطيع الدارس أن يلاحظها في أيّ نص من نصوصه. فمن ذلك قوله :((. . . وأصبحت الأرض المقدّسة الطاهرة وكانت الطامث ،والرّبّ الفرد الواحد وكان عندهم الثالث ،فبيوت الكفر مهدومة ،ونيوب الشرك مهتومة))(١) وقوله :((. . . وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصائرها ،واستتبّت عقائد أهله على بصائرها ،وتقلّص ظلّ رجاء الكافر المبسوط ،وصدق اللّه أهل دينه فلمّا وقع الشرط حصل المشروط وكان الدّين غريبا فهو الآن في وطنه ،والغوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه))(٢).

وقد تجلّت مظاهر اهتمامه بموسيقاه الدّاخليّة في جمله من خلال اتكائه على ألوان البديع ،ولا سيّما السجع والجناس والطباق وغيرها من المحسنات اللفظيّة والمعنويّة الّتي طفت على أدب عصره طغيانا عظيما ولذا فقد جاءت كتاباته زاخرة بأنواع البديع المختلفة ،حتى إنّه ليتعذّر على الدّارس في كثير من الأحيان أن يجد عبارة من عباراته تخلو من لون من ألوان البديع.

أما السجع، فقد بات من نافلة القول أن نذكر أنّ القاضي الفاضل قد التزمه وأكثر منه في كتاباته ،ذلك لأنّ السجع كان أسلوبا عامّا للكتابة في عصره ،وقد التزمه معظم الكتّاب في تلك الفترة في الشعر والنثر على حد سواء. وربّما تجاوزوا ذلك إلى فنون الكتابة الأخرى. يقول أحد الكتّاب المعاصرين :((. . . لا شكّ أنّ تصنّع السجع أبرز ما في النثر من فنون البديع ،وعليه كان اعتماد جلّ الكتّاب ،إذ كلّ كلام يخلو منه ،ولا يأخذ كاتبه منه بحظ قليل أو كثير ،خارج في عرف نقّاد هذا العصر عن أساليب البلاغة الصحيحة))(٣). وهنا ينبغي أنْ نستذكر أنّ القاضي الفاضل كان

---

(١) الرسائل ،ص: ١٦٣.

(٢) صبح الأعشى : ٦/ ٤٩٧ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك انظر المصدر نفسه، ٦/ ٥٠٧ ،والرسائل ،ص: ١٤٨ ، ١٦٩ ،والفرج : ٢/ ٣٠٧ ،وغيرها.

(٣) أدب الدول المتتابعة ،ص: ٨٥٠ ،وانظر حول هذه الظاهرة أيضا ،الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبيّة ،ص د ٣٢ ،وأدب الحروب الصليبيّة ،ص: ١٨٦ — ١٨٧ ،والأدب في العصر الأيوبي ،ص: ٢٠٢—٢٠٣ ،وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ،ص: ١٩٨ — ١٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناطق الرسمي باسم دولته ، وتقع على مسؤوليّته نقل أخبارها سلما وحربا إلى الخليفة في بغداد ، وإلى أمراء المسلمين . ولمّا كان للكتابة الديوانيّة نمط خاصّ متعارف عليه معمول به ، فقد التزم الفاضل فيما التزم في كتاباته بالسجع مراعيا بذلك ذوق عصره ، وأنّه كان ينطق بلسان الدّولة الرسميّ حين يكتب إلى حكام كانوا يرون التزام السجع وألوان البديع الأخرى من أهمّ مقاييس الجودة والابداع الفنّي . ولذا لم يكن غريبا أن يلتزم الفاضل بالسجع في رسالته الّتي بشّر بها الخليفة بفتح بيت المقدس (١) ، وفي رسائله الدّيوانيّة الأخرى . وإذا استثنينا بعض ما كتبه الفاضل إلى صلاح الدّين في حصار عكّة فقد لا نجد عبارة في رسائله الرسميّة غير مسجوعة ، ولعلّ تحلّله بعض الشيء من السجع في رسائله المذكورة يعود إلى أنّها كانت تحمل طابعا شخصيّا في كثير ممّا ورد فيها . وقد لاحظ الباحث أنّ حرص الفاضل على استخدام السجع كان يزداد بصورة واضحة ، حينما كان يتحدّث عن ظفر المسلمين بالفرنج ، ويصوّر مدنهم ومعاقلهم الحصينة الّتي سقطت في أيدي المسلمين . وكأنّي به في تلك الجمل القصيرة المسجوعة يريد أن يهيّئ أسماع قارئيه إلى ما يريد قوله لهم ، بعد أن يحدث فيهم التأثير المطلوب . ولذا كانت سجعاته في هذه الرسائل بمثابة هتافات بشرى يعبّر من خلالها عن فرحته العظيمة لما حققه المسلمون من انجازات في ميادين القتال . ومن ذلك قوله إثر انتصار صلاح الدّين على الفرنج في معركة غزّة : ((. . . فألقت إلينا أفلاذ كبدها ، وذخيرة يدها ، فمن بين مواشي بخراب البلاد الّتي خرجت ، وخيول مسوّمة كأنّها لركوبنا أسرجت وألجمت ، وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرّجت ، وميرة كثيرة تمكّنت منها يد الأجناد وأفرجت)) (٢) ، وقوله في فتوح صلاح الدّين في بشارة أخرى : ((. . . فأمّا الفتوحات الناصريّة ، فقد هطلت قطرا ، بل جرت نهرا ، بل جرت بحرا ، بل درّت درا ، . . .)) (٣)

---

(١) انظر هذه الرسالة في صبح الأعشى : ٦ / ٤٩٦ — ٥٠٤ ، والرسائل ، ص : ١٥٧ — ١٧٦ ، وغيرها .

(٢) الرّوضتين ، حلمي : جـ١ ق ٢ / ٤٩٠ — ٤٩١ ، والوثائق : ٥ / ١١٤ .

(٣) الرسائل ، ص : ٤٩ . وللمزيد من الأمثلة أيضا انظر : ص : ١٧٤ ، وصبح الأعشى ٧ / ٢٢ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهما يكن من أمر، فإنّ السجع في كتابات الفاضل كان يأتي وفقا لطبيعة الموقف ومقتضيات الظروف . فهو مرتبط بحالته النفسيّة أشدّ ارتباط. فبينا نراه يتأنق ويزخرف ويلتزم السجع، حينما يكتب بصفة رسمية إلى الخليفة وأمراء المسلمين كما أسلفنا، نراه حينما يكتب إلى سلطانه وهو يحاصر عكّة، ينطلق على سجيّته وطبعه، مراعيا بذلك طبيعة الموقف الصعب الّتي لا تحتمل التأنق والزخرفة، إذ كان همّه بالدرجة الأولى التخفيف عن سلطانه وحثّه على الصبر والثبات. ومن ذلك قوله: "((. . . يا مولانا، هذه الليالي الّتي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام الّتي ينادى فيها ياخيل اللّه اركبي، وهذه الساعات الّتي تزرع الشيب في الرؤوس، وهذه الغمرات الّتي تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها، هي نعمة اللّه عليك، وغراسك في الجنّة، ومحملات محضرك يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا وهي مجوزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان . . .))[1]، وقوله: ((. . . وما تفلوا الجنة بثمن، وما ابتلى اللّه سبحانه، من عباده إلاّ من يعلم أنّه يصبر، وأمور الدّنيا ينسخ بعضها بعضا، وكأنّ ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنّما يقضات العين كالحلم))[2]. وهكذا فإنّ طبيعة الموقف جعلت الفاضل في هذا اللون من الرسائل ينطلق من قيود السجع اللهمّ، إلاّ ما جاء منه عفو الخاطر.

وأمّا الجناس، فقد أكثر منه الفاضل مستغلا تماثل الألفاظ وتقاربها من أجل أنّ يدخل في بنائه الفنّي إيقاعا موسيقيّا خاصّا ذا أثر في النفوس. يقول محمّد زغلول سلاّم مشيرا إلى ذلك: ((. . . الجناس والسجع هما الظاهرتان الأسلوبيتان اللتان يعتمد عليهما الفاضل في تلوين أسلوبه بالجرس الموسيقي المتتابع))[3].

وقد بدا لنا الفاضل من خلال ما وصلنا من كتاباته مفتونا بالجناس بنوعيه التام والناقص فمن الجناس التام قوله: ((. . . وعدنا عليهم عودة جانٍ على جان وجرّدنا لهم عزمة عانٍ بفكّ عان))[4]. وقد جانس هنا ما بين لفظتي: (جانٍ وجان)، وبين لفظتي: (عانٍ وعان)، وفي قوله أيضا إثر فتح بيت المقدس: ((. . . والشرق يهتدي

---

(١) الروضتين، بيروت: ٢/ ١٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ١٦٩، وللمزيد انظر: المصدر نفسه: ٢/ ١٦٥—١٧٠، وصبح الأعشى: ٧/ ١١١—١١٢، والبداية والنهاية: ١٢/ ٣٣٩، وغيرها.

(٣) الأدب في العصر الأيّوبي، ص: ٢٠٣.

(٤) الرسائل، ص: ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأنواره ،بل إن أبدى نورا هتف به الغرب بأن واره ،فإنّه نور لا تكنّه أغساق السّدف[١] ،وذكر لا تواريه أوراق الصحف))[٢] . حيث جانس هنا أيضا جناسا تامّا بين لفظتي :(أنواره : أضوائه ،وأن واره: أي أخفه) . ونجد الجناس الناقص ـ على سبيل المثال ـ في قوله:((. . . وقد بلي الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت،واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار ،وهجروا المألوفين : الأهل والدّيار وركبوا اللجج ،ووهبوا المهج ، . . .))[٣] ،وفي قوله من رسالة وجهها إلى الخليفة ((. . . وما زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء[٤] إلى المرابع،وأنوارا إلى المساجد وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلا إلى المراقب[٥] ، وخيالا إلى المراقد[٦]))[٧] .

ممّا تقدّم ،نلاحظ أنّ الألفاظ الّتي جانس بينها قد جاءت غير مستكرهة ولا متكلّفة ،لأنّ النظام العام للتجربة هو الّذي استدعى وجودها ،من أجل أن تعبّر عمّا يريده بطريقة معبّرة موحية ،فرسم اللفظة وإيقاعها يقتضيان ما يناسبهما من الألفاظ يضاف إلى ذلك أنّ ذوق عصره الأدبي كان يستحسن مثل هذا التداعي ويدعوإليه. ومع ذلك ،فلابدّ من القول إنّ الفاضل نفسه كان له اهتمام خاص بألفاظه ممّا دفعه إلى استعمال ألفاظ ترتدّ في جذورها إلى أصل لغويّ واحد . ولذا فإنّه أكثر من الجناس الاشتقاقي في كتاباته ،وقدّمه على غيره من صور الجناس ،كما في قوله مصوّرا امدادات الفرنج المتواصلة على عكّة وقد استبدّ به الألم من موقف بعض المسلمين القاعدين عن

---

(١) مفردها سدفة ،وهي ظلمة الليل. (اللسان : سدف) .
(٢) الرسائل ،ص: ١٦٢ ،وصبح الأعشى : ٦/ ٤٩٧ .
(٣) الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ١٦١ ،وتاريخ ابن الفرات: ٤/ ٢٢٩ .
(٤) الأنواء: مفردها نوء ،وهو المطر. (اللسان : نوأ) .
(٥) المراقب: المكان المرتفع المشرف. (اللسان : رقب) .
(٦) المراقد : مفردها مرقد ،وهو مكان الرقود والثبات. (اللسان والقاموس المحيط: رقد) .
(٧) الرسائل ،ص: ١٥٨ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك ،انظر المصدر نفسه ص: ٥٦ ،٨٥ ،١٦٢ ،١٧٢ ،١٧٣ ،والوثائق: ٥/ ١٩٣ـ١٩٤ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نصرة دينهم وإخوانهم: ((... فإنّه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة، ولا خطّة صغيرة ولا كبيرة إلاّ جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرّك ساكنها، وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ... وتصلّبت للصليب السليب، وتعصّبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأنّ البلاد بلادهم، وأنّ إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم، ...))(١)، وكما في قوله مصوّرا هزائم الفرنج بعد حطّين: ((... وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمدّه الله بمدارکته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر، وأسرمنهم من أسرّت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل، ...))(٢).

ولم يقتصر اهتمام الفاضل على ترديد ألفاظ متقاربة في رسمها وصوتها ترجع إلى أصل لغوي واحد، بل تجاوز ذلك إلى ترديد حروف بعينها في ألفاظ جملة ممّا أكسبها اتّساقا صوتيّا، وجرسا موسيقيّا خاصّا فمن ذلك قوله: ((... إعلام مجلسه أنّ المجانيق هدّمت وهدّت، وشدخت وسدّت، ورضخت ورضّت وقوّضت وأفضت وقدحت وفدحت، ومحقت ومحت. وقد آن أن لا يبقي لورد السّور سورا، وأن يصير المحصور به محسورا))(٣)، وقوله أيضا في جند صلاح الدّين الّذين هاجموا حصن بيت الأحزان: ((... واستدعاهم من كلّ حدب فنسلوا، واستدناهم من كلّ صوب فعسلوا ودعاهم من كلّ أوب فآبوا وأقبلوا، ...))(٤).

وأمّا الطباق والمقابلة، فقد اتّكأ الفاضل عليهما من أجل التوضيح وتأكيد المعنى المراد، ذلك لأنّ الطباق بما فيه من اجتماع الأضداد من شأنه أن يوضّح ويبين ويجلّي(٥). ولمّا كان أدب القاضي الفاضل يسعى إلى نقل صورة واضحة موضّحة

---

(١) مفرّج الكروب: ٢/٣٠٧.

(٢) الرسائل، ص: ١٦٤، وانظر أمثلة أخرى، ص: ٥٥، ٥٨، ١٢١، ١٥٠، ٢٢٤، وصبح الأعشى: ٧/٢٢، ٢٣، ٢٧ — ٦/٥٠٨ — ٥١٠، الرّوضتين، حلمي: جـ١ ق٢/٤٨٩—٤٩١، والوثائق: ٥/١١٤، ١٧٨، ١٨١، ١٨٩، ١٩٣—١٩٤، ٢١٧، ٢٥٠—٢٥٣، وغيرها كثير جدّا.

(٣) الرسائل، ص: ٥٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ص: ١٢٤.

(٥) انظر ما كتبه أستاذنا الدكتور محمود إبراهيم حول هذه الظاهرة: صدى الغزو الصليبي، ص: ٢٠٤ — ٢٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن حروب المسلمين ، فقد أكثر من استخدام الطباق والمقابلة في كتاباته ، ولا سيّما حينما كان يتحدّث عن حروب صلاح الدّين مع الصليبيين ومع الخارجين على الوحدة الإسلاميّة ، كما في قوله حين كتب إلى الخليفة العبّاسيّ عن الموصل الّتي وقف أصحابها في وجه وحدة الصّف الإسلاميّ : ((. . . فلو انتظمت في السلك لانتظم جميع عسكر الإسلام في قتال الشرك ، وكان الكفر يكفي يديه ، وينقلب على عقبيه ، ويفشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ، ويغزى من مصر برّا وبحرا ، أو من الشام سرّا وجهرا ، ومن الجزيرة مددا وجزرا » . .)) (١) . ويلاحظ هنا ، أنّ الفاضل كان يركّز على الطباق والمقابلة ، حينما كان يستعرض المواقف المتناقضة لبعض الحكّام المسلمين إبّان الحروب الصليبيّة ، ويقارن بين ما يقوم به صلاح الدّين ، وما يفعله الحكّام المحلّيّون من المسلمين الّذين كانوا يمرقلون عمله ، كما يتبيّن من قوله في صاحب الموصل من رسالة رفعها إلى الخليفة : ((. . . والعجب أنّا نحامي عن قبر النبيّ (عليه السلام) مشتغلين بهمّة ، والمذكور ينازع في ولاية هي لنا ليأخذها بيد ظلمه . وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال ، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ، ويحمل إليهم كرائم الأموال)) (٢) . وهذا التركيز كان يظهر كذلك حينما يتحدّث الفاضل أيضا عن موقف الفرنج في حروبهم مع المسلمين ، ومواقف بعض المسلمين المتقاعسين ، كما في قوله مخاطبا الدّيوان العزيز شارحا الموقف حول عكّة : ((. . . ولمّا البابا الّذي لهم برومية قد حرّم عليهم مطاعمهم ومشاربهم ، وقال : من لا يتوجّه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرّم ، لا منكح له ولا مطعم ، فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهالكون على يومهم الموعود » . . بخلاف أهل الإسلام فإنّهم يتضجّرون ولا يصبرون ، بل يتفلّلون ولا يجتمعون ، ويتسلّلون ولا يرجعون ، وإنّما يقيمون ببذل نفقة ، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متّفقة)) (٣) .

---

(١) مفرّج الكروب : ٢ / ١٣٨ ، وللمزيد من الأمثلة الكثيرة على ذلك ، انظر : الرّوضتين في أخبار الدولتين : جـ١ ق ٢ / ٤٨٩ ، والرسائل ، ص : ١٥٧ ، ١٥٨ ، وصبح الأعشى : ٦ / ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، وغيرها .

(٢) مفرّج الكروب : ٢ / ١١٠ — ١١٢ .

(٣) الرّوضتين ، بيروت : ٢ / ١٦٢ ، وتاريخ ابن الفرات : ٤ / ٢٢٩ — ٢٣٠ ، والوثائق ٥ / ٢٠٨ ، وللمزيد من الأمثلة على ذلك ، انظر : صبح الأعشى : ٦ / ١١٢ ، والروضتين بيروت : ٢ / ١٦٦ — ١٦٧ ، الرسائل ، ص : ٦٧ ، ١٢١ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحينما كان القاضي الفاضل يأتي بهذه الصور المتقابلة بعد هزيمة تلحق بالفرنج ،كان يرى فيها متنفسا لانفعالاته القويّة ،وإحساسه بالنّشوة ،وخاصّة حين يقابل بين حال المسلمين المنتصرين ،وحال الفرنج المهزومين . فهو يقول في إحدى رسائله إلى الخليفة مبشّرا بفتح بيت المقدس :((. . . وفي الحال خرج طاغية كفرهم وزمام أمرهم ،سائلا أن يؤخذ البلد بالسّلم لا بالعنوة ،وبالأمان لا بالسطوة ،وألقى بيده إلى التهلكة وعلاه ذلّ الملكة بعد عزّ المملكة ،وطرح جبينه في التراب ،وكان حينا لا يتعاطاه طارح))(١) ،مثلما كان يقابل بين حال الإسلام مع وجود الفرنج على أرضه وحاله بعد تطهيرها(٢) .

ولنا أن نفترض أنّ الفاضل لا يسعى من وراء استخدامه للطباق والمقابلة في كتاباته إلى مجرد الزخرفة والتنميق أو التلاعب بالألفاظ ،من أجل إرضاء ذوق عصره بل من المحتمل أنّه كان يسعى كذلك إلى توضيح أفكاره ومعانيه وقد أسعفه في ذلك كلّه خياله الواسع ومخزونه الثقافي، ومقدرته على استعمال الألفاظ وتطويعها .

ويستطيع الدارس أن يجد في كتابات الفاضل أيضا صورا أخرى من المحسّنات اللفظيّة والمعنويّة الّتي أتى بها لتلوين أسلوبه وتوضيح معانيه كالتورية(٣) ،والتضمين ،والتقسيم ومراعاة النظير ،وغيرها من ألوان البديع الّتي افتتن بها عصره .

ومما يسترعي الإنتباه هنا ،أنّ ألوان البديع والمحسنات اللفظيّة الّتي وردت في كتابات الفاضل الّتي وصفت الحروب خاصّة لم تكن على حساب معانيه . ولذا جاءت ألفاظه في معظم الأحايين معبّرة بدقّة عن معانيها الّتي استعيرت لها تعبيرا واضحا وقد تنبّه لهذه الظاهرة معظم الّذين تحدّثوا عن الطريقة الفاضليّة(٤) .

---

(١) الرسائل ،ص: ١٧١ ،وصبح الأعشى : ٦/٥٠٢ .

(٢) انظر: الرسائل ،ص: ١٥٩—١٦٠ ،وأمثلة أخرى في صبح الأعشى : ٦/٤٩٩، وغيرها.

(٣) يقول ابن حجّة :((. . . وقيل إنّ القاضي الفاضل هو الّذي عصر سلافة التورية لأهل عصره ،وتقدّم على المتقدّمين بما أودع منها في نظمه ونثره ،فإنّ مرحمه اللّه — كشف بعد طول التحجّب سترها ،وأنزل النّاس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها)). خزانة الأدب ،ص: ٢٤١ ،وانظر ،ص: ٥٤ ،وغيرها .

(٤) انظر مثلا : أدب الحروب الصليبيّة ،ص: ٢٠١ ،والحروب الصليبيّة وأثرها في الأدب العربي ،ص: ٢١٠ ،والأدب في العصر الأيوبي ،ص: ٢٢١ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسلـــــــوب :

اتبع القاضي الفاضل في كتاباته عدّة طرائق وأساليب ،سعيا وراء الاستثارة العاطفيّة وابراز المخاطر الّتي كانت تتهدد الإنسان المسلم وأرضه. ومن أجل ذلـــك اتّسم أسلوبه بمجموعة سمات يدركها الدّارس إذا دقق في رسائله الّتي واكبت الحـــروب كالمبالغة والتكرار ،واستعمال المصطلحات ،والاتجاه الخطابيّ ،واصطناع أسلـــوب القصّـة ،واستعمال أنماط مختلفة من الجمل ما بين إنشائيّة وخبريّة ومعترضة. وقـــد يعمد في مواضع معيّنة من كتاباته أن يجنح إلى المبالغة فيما يصفه أو يتحدّث عنـــه ولا سيّما حينما كان يصوّر هـزائم الأعداء ،ويتحدّث عن حصونهم وقلاعهم القويّـة الّتـي استباحها المسلمون ، أو عندما كان يصف امداداتهم المتواصلة وقوّتهم ،وحين ينقـل البشائر ويصف الفتوحات وعودة المدن إلى حمى الإسلام ،وقد لا نجد رسالة من رسائلـه في هذه الموضوعات تخلو من هذه السمة. ويكفينا للتدليل على ذلك أن نذكر قولـه في بشارته إلى الخليفة بفتح القدس،إذ يقول :((. . . فإنّهـا بحرفيه للأقلام سمـح طويل ،ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ،وبشرى للخواطر في شرحهـا مآرب ،ويسـرى للأسرار في إظهارها مسارب، . . .))(١) ،وقوله أيضا في رسالة هنأ بها صلاح الدّيـن بهزيمة الفرنج في حطّين :((. . . كتب المطوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفـع من سجودها ،والدّموع لم تمسح من خدودهـا))(٢). وهي فيما أرى استثارة عاطفيّـة مقصودة أتى بها الفاضل لتصوير صدى النصر في نفوس المسلمين ،ولا سيّما من شـارك منهم في معركة حطّين وما بعدها. وربّما أراد كذلك أن يستثير المسلمين عامّـة مـن أجل التصدّي للفرنج ،ومتابعة مجاهدتهم بغية استخلاص ما تبقى من بلاد المسلميـن في أيديهم ،بعد أن تبيّن للنّاس من خلال تلك المعركة الحاسمة أنّ الانتصار علـى جيوش الفرنج مجتمعة أمر ممكـــن .

---

(١) صبح الأعشى : ٦/ ٤٩٧ ،والرسائل ،ص: ١٥٨ — ١٥٩ .

(٢) الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٨٣ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك ،انظر: المصدر نفسه ٢/ ١٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،والرسائل ،ص: ١٣٢ ، ١٦٠ ،وصبح الأعشـى ٧/ ٢٨ ،وغيرهـا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا الإطناب والتكرار، فواضح في قوله: ((... وقد أظفر اللّه بالعدوّ الّذي تشظّت قناته وكانت شفقا، وطارت فرقه فرقا، وفلّ سيفه فصارعصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى، فكلّت حملاته وكانت قدرة اللّه تصرّف فيه العنان بالعنان، ... وعثرت قدمه وكانت الأرض لها خليفة، وغضّت عينه، وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون، ...))[1]. ونلاحظ هنا أنّ النّص كلّه يدور حول فكرة واحدة، وهي هزيمة العدوّ وضعفه، ولكنّ القاضي الفاضل يقلّب هذه الفكرة في قوالب لفظية متعدّدة، لكي تصل إلى القارئ واضحة جليّة متكاملة. وكأنّي بالفاضل لشدّة انفعاله وفرحته بالظفر قد أحسّ أنّ الكلمات القليلة عاجزة عن التعبير عمّا في نفسه من مشاعر وأحاسيس. ولذا فإنّه قد أطنب من أجل أنْ يؤكّد إحساس النشوة والفرحة الّذي كان يخالجه، ووجد في معجمه اللغويّ وسعة ثقافته ما أسعفه في إطنابه.

ومن السمات الأسلوبيّة الأخرى الّتي ظهرت في كتابات الفاضل، استعمال المصطلحات الفلكيّة والحديثيّة والنّحويّة، وغيرها. ويلاحظ الدّارس، أنّ الفاضل قد وفّق في استخدامها، إذ جاءت معبّرة عن المعاني الّتي يريد، دون أن تثقل على النفس، وإن كان الأمر لا يخلو من إظهار معرفة بعلم من علوم العصر. ومن ذلك قوله: ((... وتبوّأ أهل القرآن بعد أهل الصلبان للقتال عن دين اللّه مقاعد، ويقرّ عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلّق النّصر منه ومن عسكره بجار ومجرور، ...))[2]، وقوله في أخرى مخاطبا الخليفة العبّاسيّ: ((... ولا يقبل اللّه جمعا لا يكون لولاته جمع سلامة لا جمع تكسير))[3].

ويلحظ الدّارس أيضا ميل الفاضل في بعض رسائله إلى استعمال الأسلوب

---

(١) صبح الأعشى: ٦/ ٤٩٩، والرسائل، ص: ١٦٢—١٦٣.
(٢) صبح الأعشى: ٦/ ٥٠١، والرسائل، ص: ١٦٧.
(٣) صبح الأعشى: ٦/ ٥١٥، وللمزيد من الأمثلة، انظر: المصدر نفسه: ٦/ ٥٢٨، والرسائل، ص: ١١٨، ١٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخطابي القائم على الوعظ. وقد تجلّت هذه السّمة بوضوح فيما كتبه عن السلطان صلاح الدّين إلى نورالدّين ،وفيما كتبه إلى صلاح الدّين في حصار عكّة ،ثمّ فيما كتبه إلى خلفاء صلاح الدّين ،ليحافظوا على وحدة الدّولة، ويتصدّوا للأعداء. ومن أجل ذلك أكثر من استعمال الجمل الإنشائيّة الطلبيّة كما في قوله مخاطبا نور الدّين ((... فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها ،وتعدم الآراء رشادها ،وتنتقل النعم الّتي تعبت الأيّام فيها إلى أن أعطت قيادها. فكونوا يدا واحدة ،وأعضادا متساعدة ، وقلوبا يحميها ودّ ،وسيوفا يضمّها غمد ،ولا تختلفوا فتنكلوا ولا تنازعوا فتفشلوا ،وقوموا على أمشاط الأرجل ،ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل ،..))(١).

كما يلحظ ميله إلى الأسلوب القصصيّ ،إذ سار في بعض رسائله على نهج قريب من نهج الحكايات ، حتى غدت رسائله سلسلة من المواقف والأحداث المتصلة ،فكلّ رسالة منها تروي لنا قصّة الأعمال الّتي قام بها صلاح الدّين وجنده. وتتبدّى هذه السّمة بوضوح فيما كتبه عن صلاح الدّين إلى الخليفة العبّاسيّ وإلى نور الدّين ،ولا سيّما حينما كان يتحدّث عن جهود صلاح الدّين في توحيد القوى الإسلاميّة ومواجهة الفرنج والقضاء على الفتن والمؤامرات. ففي رسالته الّتي بعثها إلى نور الدّين إثر إحباط مؤامرة عمارة اليمنيّ وأعوانه ،روى بأسلوب واضح قصّة بعض المصريين مع الفرنج وموقف صلاح الدّين من المتآمرين ،ثم صوّر لنا النهاية المحتومة لكلّ متآمر يستعين بأعداء البلاد لتحقيق مطامحه(٢).

---

(١) الرّوضتين ،حلمي : جـ١ ق٢/ ٥٨٧ ،وللمزيد ،انظر: الرّوضتين ،بيروت ٢/ ١٦٧ — ١٦٩ ،والبداية والنهاية : ١٣/ ١٤ ،واليافعي مرآة الجنان وعبرة اليقظان ،ط٢ ،بيروت، ١٩٧٠م: ٣/ ٤٦٢. والوثائق ٤/ ٨٧ ،وغيرها.

(٢) انظر تفصيل ذلك في الرّوضتين ،حلمي : جـ١ق٢/ ٥٦٣—٥٦٦ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك ،انظر: مفرّج الكروب: ٢/ ٢٦—٢٩ ،والرّوضتين ،حلمي جـ١ق٢/ ٤٨٩—٤٩١ ،وصبح الأعشى٦/ ٢٢، ٤٩٩، ٧/ ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧ ،والرسائل ،ص: ٩٠—١١٠، ١١٢—١٢٢، ١٢٢—١٤٠، ١٤٨ ،وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخيال والصّورة الفنيّـــة:

اهتمّ النقّاد بالحديث عن دور الخيال وأهميّته في العمل الأدبي ،وعدّوه عنصرا هامّا من عناصر إنجاح الفن في مختلف أشكاله. يقول الدكتور شوقي ضيف ((الخيال هو الملكة الّتي يستطيع بها الأدباء أن يؤلّفوا صورهم ،وهم لا يؤلّفونها من الهواء ،إنّما يؤلّفونها من احساسات سابقة لا حصر لها ،تختزنها عقولهم، وتظلّ كامنة في مخيلتهم ،حتى يحين الوقت ،فيؤلّفوا منها الصورة الّتي يريدونها))(١). ويرى ناقد آخر معاصر ،أنّ الخيال هو:((الأداة اللازمة لإثارة العواطف وإشعالها ،وهو الّذي يملك به الشاعر أو الأديب نفس القارئ والسامع، ويجعلها تتعجب وتطرب من مشاهد الصور))(٢). فالصورة هي وسيلة من أهم الوسائل المعينة للأديب ،لكي يعبّر عن تجربته وعواطفه ،وحتى تحقق الصورة غايتها المنشودة تلك ،فإنّها تتطلّب تآلف الصور الجزئيّة في العمل الأدبي ككل ،لتكوّن الصورة الكليّة الّتي هي التجربة ،وتنقلها لنا نقلا فنيّا واقعيّا صادقا(٣).

ولذا فإنّ الدّارس لكتابات القاضي الفاضل ،يرى بوضوح ظاهرة ازدحام الصور واكتظاظها ،فهو يتكيء بصورة واضحة على الخيال بأنواعه المختلفة: من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز ،بعد أن يركّب منها صورا كليّة متضامّة متناسقة ،لكي يتخذ منها وسائل للتعبير عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر وأفكار ،ويوصلها إلى متلقيه بطريقة معبّرة مؤثرة حتى غدت رسائله معرضا غنيّا بالصور البيانيّة المتنوّعة. ذلك لأنّ الأدب من غير هذه الألوان يصبح كتلة جامدة لا أثر للحياة فيه ،فهي جزء ضروريّ يمدّه بالحياة(٤).

وأمّا المصادر الّتي استقى الفاضل منها صوره فكثيرة متنوّعة ،فهي مستقاة من روافد متعددة ،كان من أهمها: الموروث الدّيني.

---

(١) في النقد الأدبي ،دار المعارف، القاهرة ،ط٢ ،١٩٦٢م ،ص: ١٦٧.

(٢) النقد العربي الحديث ومذاهبه ،ص: ٤٤ ،وانظر أيضا ،النقد الأدبي الحديث ،ص: ١٦٢ ،أصول النقد الأدبي ،ص: ٢١٠—٢١١ ،والأسلوب ،ص: ١٩٥.

(٣) انظر النقد العربي الحديث ومذاهبه ،٤٧.

(٤) انظر حول هذا المفهوم: الشعر كيف نفهمه ،ص: ٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد وجد الفاضل في الموروث الدّيني منبعا لا ينضب للصورة الّتي تضرب في وجدان الإنسان المسلم ، وتحدث فيه التأثير المطلوب ، فالموروث الديني كما قيل هو: ((أعظم مصدر للصورة النفسيّة ، لأنّه يمسّ أصفى المشاعر وأرقّها وأطهرها وأبسطها ، وهو يخفي وراءه دائما قوّة عزيزة مهيبة ترتفع فوق كلّ القوى البشريّة وغير البشريّة ، هي قوّة اللّه ...))[١]. ولذا فقد كثرت الصور المستمدّة من القرآن الكريم في كتابات الفاضل ، ومنها قوله: ((... وفرّ الكافرون منّا فرار النمل من سليمان ، وهزم اللّه بحزبه أحزاب الشيطان))[٢]، وقوله: ((... وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم))[٣]. وكثيرا ما كان الفاضل في تصويره لأسوار العدوّ وتحصيناته ، يستعير بعض مستلزمات العقيدة الإسلاميّة كالركوع والسجود ، لكي يصوّر ما فعله المنجنيق بها من هدم وتحطيم . يقول في حصن عسقلان: ((وصلّت منجنيقاتنا في قبلة أسوارها ، فما زالت سهامها تركع وأحجارها تسجد ، ونجوم رجومها لشياطين الكفر يقذف ويطرد))[٤]. وقد تكون الصورة عند الفاضل مستوحاة من مهنة الكتابة وأدواتها ، وذلك كما في قوله: ((... ونثرت أقلام الظّبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف))[٥]، وقوله في كتّاب الدّولة الفاطميّة من رسالة رفعها إلى بغداد: ((... ومن كتّاب تفعل أقلامهم فعل الأسل))[٦]. ومن أجواء المعارك والحروب الّتي كانت سمة واضحة في عصره ، إذ استقى منها الكثير من صوره. ومن ذلك قوله: ((... ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال شهاب القذف ضاربا . فلمّا ملكنا ربضه ، وأطلقنا فيه النيران ، ورمّلنا الرّجال بالدّم ، وأرملنا النسوان))[٧]، وقوله: ((... فبنت سنابك الخيل سماء من العجاج ، نجومها الأسنّة ، وطارت إليهم عقبان من الخيول قوادمها

---

(١) عبد القادر الرباعي ، الصورة الفنيّة في شعر أبي تمّام ، إربد ، ١٩٨٠م ، ص: ١٥٦.
(٢) الرسائل ، ص: ١٤٨ ، وانظر أيضا ، ص: ٥٨.
(٣) المصدر نفسه ، ص: ١٦٥ ، وللمزيد انظر: الرسائل ، ص: ١٦٨ ، وغيرها.
(٤) الرسائل ، ص: ١٤٨.
(٥) الرّوضتين ، حلمي: جـ١ق٢/٤٩٧.
(٦) مفرّج الكروب: ٢/٢٦.
(٧) الروضتين ، حلمي: جـ١ق٢/٤٨٩ ، وانظر: ثمرات الأوراق ، ص: ٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القوائم ومخالبها الأعنّة ،وتصوّبت عيون السمر إلى قلوبهم كأنّما تطلب سوادها ،وقصدت أنهار السيوف صدورهم لتروّي أكبادهـــا ،...))(١).

وقد تكون الصورة عنده مستمدّة من الطبيعة ومظاهرها المختلفة ، كالليـــل والنهار ،والغاب ،والسماء ،والنجوم ،والرعد ،والبرق ،والزراعة ،والبحر ،وغيرهـا . ومن ذلك قوله :((... وتحصّنوا من نار القضب بنار الحطب ،وقطعوا بينهم وبين المسلميـــن بطوفان نار كانت القلعة سفينة إلاّ أنّها سفينة نجاة بل سفينة عطب))(٢) ،وقوله في جنـــد صلاح الدّين :((... كالبنيان المرصوص انتظاما ،وكالغاب المشجّر أعلاما ،وكالنهـــار المانع حديدا وهّاجا ،وكالليل الشامل عجاجا عجّاجا ،وكالنّهر المتدافع أصحابـــا وكالمشط المطرّد أصطحابا))(٣).

وتأتي بيئته الاجتماعية وظواهرها المتعددة فتكوّن رافدا آخر من روافد صوره الكثيرة الّتي استوحاها من علاقات الناس وعاداتهم الاجتماعيّة: كالتصافح واللبـــاس والاستقبال ،والتهنئة والوداع. ومنها قوله في قلعة حمص:((... عاقدة حبوة صالحها الدّهر على ألاّ يحلها بقرعه ،عاهدة عصمة صافحها الزمن على ألاّ يروعها بخلعه ،فأكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب ،وضربت حجارة بها الحجـــارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب ،...))(٤).

وقد استمدّ بعض صوره من ثقافته العربيّـة والتاريخيّة الواسعة ،وقد تجلّـت آثار ذلك في حديثه عن عقيدة الفرنج وطقوسهم وأساليبهم القتاليّـة ،وفي حديثه عـن المعارك والحصون كما بيّنا ،وقد استوحى كذلك بعض صوره من حياة الحيوانات الّتـي رآها أوسمع عنها ،ولكنّ هذه الصور قليلـة ،إذا ما قيسـت بالصور المأخـوذة

---

(١) ثمرات الأوراق ،ص: ٢٢٥ ،والرسائل ،ص: ٤٠ ،وانظر: صبح الأعشى : ٦/ ٤٩٩ ، وغيرهـا .

(٢) الرسائل ،ص: ١٣١ .

(٣) صبح الأعشى : ٦/ ٥١٣ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: الرّوضتين ،بيـروت ٢/ ١٦٦ ،والرسائل ،ص: ١٦٧ .

(٤) الرّوضتين ،حلمي : جـ١ق٢/ ٦١٢ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: الرسائـل ص: ٣٨ ، ١٦٠ ،والرّوضتين بيروت: ٢/ ١٣٦-١٣٧ ،وصبح الأعشى : ٧/ ٢٣-٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من مصـــــادره الأخـــــرى.(١)

ومّما تقدّم ،نلاحظ أنّ مصادر الصورة في كتابات القاضي الفاضل قـــــد تعددت وتنوّعت وفقـا لتنوّع بيئته وثقافته. إلاّ أنّ بيئته وما جرى فيها من أحـــــداث احتلّت مرتبة خاصّـة كما كشف لنا الاستقراء الدّاخلي لرسائلـــه.

وأمّـا براعته في الوصف والتصوير ،فقد تجلّـت في وصفه الدّقيق للحصـــون والقلاع ،والمعارك وأدوات القتال ،والمدن الإسلاميّـة المحرّرة من أيدي الفرنـــج إذ تجلّى في هذا الوصف ذوقه الفنيّ وقدرته البيانيّـة ،وحرصه على ابراز الجزئيـــات والتفصيلات والايضاحات. فهو حينما يصوّر لنا قلعة أو حصنا من حصون الأعداء ،ينقلنـا بخياله إلى ذلك الحصن أو تلك القلعة ،حتى لنحسّ وكأنّنـا أمام الموصوف نتعجّـب من روعة بنائه وحصانته وشدّة علوّه ،وصعوبة المسالك المؤدية إليـــه.(١) وربّمـا كـــان نجاح الفاضل في الوصف والتصوير أنّـه كان ينطلق من مشاهداته الشخصيّـة. فهـــو يصوّر في معظم الأحايين ما رآه بعينه ،فاتّسمت صوره بالواقعيّة ،وكانت أشدّ تأثيرا فـي النفوس،ولا سيّما أنّ فيها الكثير من الجديد المبتكر،الّذي ابتدعه الخيال الفاضلـيّ الرحب المشحون بالعاطفة القويّـة.

وقد كان الفاضل في كتاباته يميل إلى التشخيص والتجسيم ،فيقدّم المعانـي والأشياء التجريديّـة أو الجامدة في صور حسيّـة حيّـة تحمل الكثير من صفات الإنسان والكائن الحيّ ،حتى يعطي تصوّرا أشمل لأفكاره ومعانيه ويزيد في توضيحها. وقـــد استمدّ فيما قدّمه لنا من هذه الصّور من مخزونه الثقافيّ الغزير وخياله الواسع. فللخيال كما يرى كاتب معاصر:((. . . شأن في تحويل المدركات،فهو يخرج مـــن الصامت صورا تفيض بالحياة ،وتحوّل المعنى إلى محسوس،والجماد إلى مدرك حـــيّ تهتزّ له النفس)).(٢) فالمدن الإسلاميّـة المغتصبة صوّرت في رسائل الفاضل عـذارى عفيفات يفترعها صلاح الدّين بالسّيف. ومن ذلك قوله:((. . . صبّح الخادم طبريّـة

---

(١) انظر بعض الأمثلة على ذلك ،في تاريخ ابن الفرات: جـ٤/ ٢٢٩ ،وصبـــح الأعشى: ٧/ ٢٥ ،وغيرهـا.

(٢) أنظر أمثلة على ذلك: الرّوضتين ،بيروت: ٢/ ٥٥—٥٦، ١٣١، ١٣٦ ،والرسائل ص: ٥٥—٥٩ ،وصبح الأعشى: ٧/ ٢٢، ٢٨ ،وغيرها.

(٣) عبد الحميد حسن ،الأصول الفنيّـة للأدب ،ص: ١٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فافتضّ عذرتها بالسيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرّق أهلها ما بين الأسر والقتل))[١]

وقوله في غزّة أيضا: ((. . . وهي على ماعلم من كونها بكرا لم تفترعها الحوادث، وحصان لم يطمثها طامث))[٢].

ويبدو أنّ صورة المرأة، كانت تستأثر باهتمام القاضي الفاضل، فهو يكرّرها كثيرا في كتاباته. ومن أجل ذلك، فقد تخيّل الأراضي الإسلاميّة المغتصبة، وهي في ظلّ الاحتلال الصليبيّ امرأة طامثا، وقد تطهّرت حينما عادت إلى حمى الإسلام. يقول ((. . . وأصبحت الأرض المقدّسة الطاهرة وكانت الطامث، والربّ الفرد الواحد، وكان عندهم الثالث))[٣]. وينظر إلى الصخرة المشرّفة على أنّها امرأة تعاني من عشرة زوجها وتسعى إلى مفارقته والتخلّص منه، وإلى نظيرها الحجر الأسود وهو يزف إليها البشرى بقطع عصمتها منه. وذلك كما في قوله: ((. . . ولمّا قدم الدّين عليها عرف منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجر الأسود ببت عصمتها من الكفر بحربه))[٤]. ذلك لأنّ العلاقة ما بين الأرض والمرأة وثيقة الصّلة، فكلاهما رمز للعطاء والخصب، والمرأة عند الإنسان المسلم عرض تتوجب صيانته والمحاماة عنه بكلّ وسيلة من الوسائل، والدفاع عنها يأتي ثانيا بعد الدفاع عن الدّين والعقيدة. ولذا فليس غريبا أنْ نرى الفاضل في حديثه عن الأراضي الإسلاميّة المحتلّة يركز تركيزا واضحا على تقديمها في صورة امرأة عفيفة حصان سباها الأعداء، لكي يلهب مشاعر المسلمين ويحرّضهم على استنقاذها.

وأمّا أدوات الحرب والقتال، فلم تعد مجرّد سيوف ورماح ومنجنيقات وقسيّ في كتابات الفاضل، وإنّما تجسّدت في صور آدميّة وحيوانيّة فيها دمّ وروح كما تخيّلها القاضي الفاضل. فالسيوف والرماح لها عيون وأنوف وأيد كما في قوله: ((. . . والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لاتني في عقابه))[٥].

---

(١) الرّوضتين، بيروت: ٢/٨٧.
(٢) الرّوضتين، حلمي: ج١ ق٢/٤٩٠.
(٣) الرسائل، ص: ١٦٣، وصبح الأعشى: ٦/٤٩٩.
(٤) الرسائل، ص: ١٦٠، وانظر أيضا أمثلة أخرى: صبح الأعشى: ٦/٥٢٧.
(٥) الرّوضتين، حلمي: ج١ ق٢/٤٩٠، وللمزيد من الأمثلة، انظر: الرسائل ص: ١٦٣، وصبح الأعشى: ٦/٤٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا القسيّ ،فهي حيوان مفترس،يغفرفاه ليفترس عدوّه ، يقول :((. . . وكم فارسيّة ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسته ،وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه))(١) .

وقد بلغ التصوير الفاضليّ القائم على التشخيص والتجسيم ،في كتابات الفاضل زروته في حديثه عن مهاجمة جيش المسلمين بقيادة صلاح الدّين مدينة القدس المنيعة بأسوارها وأبراجها القويّة . فهو يرسم لنا صورة فنيّة رائعة لمهاجمة تلك التحصينات وقد حشد لها جلّ مهاراته البيانيّة في رسم الصورة والإبانة عن الحركة ،مستغلاً براعته في الجمع ما بين التلوينين : الصوتي والبياني(٢) ،كما فعل في حديثه عن التحصينات القويّة الّتي أقامها الفرنج حول مدينة القدس،إذ أقاموا حولها سورا قويّا أحاط بها إحاطة السوار باليد ،وأنشأوا عليه أبراجا عالية مشرفة ،ثمّ ينقلنا إلى ميدان القتال الدائر خارج المدينة ،فيقدّم لنا صورا لأدوات القتال المتنوعة وهي تدك تحصينات الفرنج ،متخيرا لكلّ أداة منها الصورة الّتي تشاكلها ،فنرى سهام المسلمين وهي تصافح سور المدينة القويّ ،وتدخل في أبراجه وشرفاته كما يدخل السواك بين الأسنان والمعاول وهي تضغ حجارة ذلك السور بأنيابها القويّة ،والمجانيق وهي تضرب أسوار المدينة بحجارتها العظيمة حتى تنثر حجارتها ،وتثير الغبار من حولها ،وتحصر الأعداء داخل حصونهم ،كما في قوله :((. . . وقدّم المنجنيقات الّتي تتولّى عقوبات الحصون عصيّها وحبالها ،وأوترلهم قسيّها الّتي تضرب فلا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها نصالها ،فصافحت السور بأكنافه(٣) ،فإذا سهامها في ثنايا شرفاتها سواك ،وقدّم النصر نسرا من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض،ويعلو علوّه إلى السّماك(٤) ،فشجّ

---

(١) صبح الأعشى : ٦/٤٩٩— ٥٠٠ ،والرسائل ،ص: ١٦٥ .

(٢) انظر في ذلك: الأدب في العصر الأيّوبي ،ص : ٢٠٣ .

(٣) الأكناف: مفردها كنف ،وهو الجانب والناحية . (القاموس المحيط: كنف) .

(٤) السماك: برج في السماء ،وهما سماكان: الرّامح والأعزل . (القاموس المحيط: سمك) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مراد ع أبراجها ،وأسمع صوت عجيجها (١) ، ورفع مثار عجاجها (٢) ، فأخلى السور من السيّارة ،والحرب من النظّارة ،فأمكن النقّاب أنْ يسفر للحرب النّقاب ،وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب، فتقدّم إلى الصخر فمضغ سرده (٣) بأنياب معوله ،وحلّ عقده بضربه الأخرق (٤) الدال على لطافة أنطه ،...)) (٥) .

ونلاحظ أنّ الفاضل في صوره الّتي يرسمها يتكئ على حواس مختلفة منها البصريّة والسمعيّة ،إلاّ أنّ الغالب على صوره أنّها بصريّة . وقد يعتمد في بعض الأحيان على حواسه ومشاهداته وادراكاته معا ،كما رأينا في الصورة السابقة الّتي جمعت عدّة عناصر: حركيّة ،وبصريّة ،ولونيّة ،وصوتيّه ،فجمع بذلك كلّه بين مهارة الرسام والموسيقي والكاتب والشاعر معا (٦) .

وقد يتفوّق الفاضل أحيانا في تصويره على المصوّر الموهوب ،ولا سيّما عندما يصوّر لنا الصمت الّذي خيّم على مدينة القدس إثر ضربها بالمجانيق ،حتى استطاعت الصخرة المشرّفة أنْ تسمع حنين صلاح الدّين واستغاثته بربّه . يقول :((. . . وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أنْ كادت ترقّ لمقبله ،وتبرأ بعض الحجارة من بعض ،وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض)) (٧) .

---

(١) العجيج : رفع الصوت والصياح . (اللسان والقاموس المحيط: عجج) .
(٢) العجاج : الغبار والدخان . (اللسان والقاموس المحيط: عجج) .
(٣) السرد : الخرق والثقب ،وسرد الدرع إذا شكّ طرفي حلقتين وسمرها (القاموس : سرد) .
(٤) الأخرق : الخرق ضد الرفق . (اللسان : خرق) .
(٥) صبح الأعشى : ٦/ ٥٠١—٥٠٢ ،والرسائل ،ص: ١٦٩—١٧٠ .
(٦) انظر: أدب الحروب الصليبيّة ،ص: ١٨٥ .
(٧) صبح الأعشى : ٦/ ٥٠٢ ،والرسائل ،ص: ١٧٠ ،وانظر أمثلة أخرى في الرسائل ،ص: ١١٤—١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البناء الفنّي لرسائل الغاضل :

يلاحظ الدّارس نمطين من الرسائل في كتابات القاضي الغاضل الّتي واكبت الحروب الصليبيّة ؛ أحدهما من السلطان صلاح الدّين إلى الخليفة العبّاسيّ وأمراء المسلمين ،لكي ينقل إليهم أحوال المقاتلين المسلمين في ساحات القتال ،والثاني من الغاضل نفسه إلى صلاح الدّين . أمّا النوع الأوّل منهما ،فقد تتبعه القلقشنديّ ،فوجد أنّ الكتاب فيه كانوا غالبا ما يستهلون تلك الرسائل بحمد اللّه تعالى على نعمة الفتح ثمّ يتحدّثون عن عزم المسلمين على لقاء العدوّ ،ويصفون الفريقين المتحاربين وما دار بينهما في ميادين القتال ،ثم يتوقفون عند نتائج المعركة وآثارها ، وبعد ذلك يختتمون كتبهم بحمد اللّه والصلاة على نبيه .(١) ولكنهم كانوا يراوحون في بداياتهم فمنهم من يأتي بذكر الخليفة والدّعاء له في صدر رسالته ،(٢) ومنهم من يستهلّ بآيات قرآنيّة مناسبة لغرضه ،ثمّ يأتي بمقدّمته الدّعائيّة للخليفة ،(٣) وقد يتبعون أساليب أخرى قبل المقدمة .(٤)

وإذا نظرنا في رسائل الغاضل الرسميّة التي كتبها عن صلاح الدّين إلى الخليفة وأمراء المسلمين ،نجد أنّها تتفق مع ما ذهب إليه القلقشنديّ ،فمنها ما كان يستهلّه بذكر الخليفة العبّاسيّ والدّعاء له ،(٥) ومنها ما كان يستهلّه بآيات قرآنيّة ملائمة للمقام ،ويأتي بعدها بذكر الخليفة والدّعاء له ،كما هي الحال في رسالته الّتي بشّر بها الخليفة بفتح بلاد النوبة .(٦) وقد يحسن هنا ،من أجل التوضيح وإقامة الشاهد أنْ نقف على أثر كتابي له ذي قيمة خاصّة ،وهو تلك الرسالة الّتي بشّر فيها الخليفة العباسيّ بهزيمة الفرنج في معركة حطّين ،واستعادة بيت

---

(١) انظر : صبح الأعشى : ٨/٢٧٥ — ٢٧٧ .
(٢) انظر : المصدر نفسه : ١٣/٨١ ، ٦/٤٩٦ ، ٥٢٦ ، ٧/١٢٧ .
(٣) انظر : المصدر نفسه : ٦/٥٥٠ .
(٤) المصدر نفسه : ٧/٢٣ ، ٢٩ ، ١١١ ، ٥٠٤ ، ١١٢ ، ٥١٥ ، وغيرها .
(٥) المصدر نفسه : ٦/٤٩٦ ، ٥٢٥ ، ١٣/٨١ ، ٧/١٢٧ ، وغيرها .
(٦) المصدر نفسه : ٦/٥٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدس وما حوله من أيديهم (١). وقد بدأها بمقدّمة دعائيّة طويلة ، تحدّث فيها عن الخليفة العبّاسي ، فذكر أنّه صاحب حكمة وكرم وقوّة عزم وهيبة ، فهو يرهب الأعداء ويخيفهم ، حتى صار الرعب منه من المظاهر الدّالة على هزيمتهم كما يرى الفاضل . وهو منصور دائما وموفّق في حروبه مع الأعداء . يقول الفاضل : ((. . . أدام اللّه أيّام الدّيوان العزيز النبويّ الناصريّ ، ولا زال مظفّر الجدّ بكلّ جاحد غنيّ التوفيق عن رأيّ كلّ رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النّصر والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل وإنْ كان لا يلقى إلاّ بشكر واحد ، ماضي حكم القول بعزم لا يمضي إلاّ بنصل غويّ وريش راشد ، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع وأنوارا إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلا إلى المراقب ، وخيالا إلى المراقد)) (٢).

والفاضل كما هو واضح يحرص على أن تكون مقدمة رسالته ملائمة للغرض الذي يريد ، فهو يتخيّر من الصفات العربيّة والإسلاميّة الّتي يثبتها للخليفة ما يتّفق وموضوع رسالته وموضوعه الحربيّ ، حتى كانت مقدمته أشبه شيء بمقدّمات الشعراء في المديح (٣). ثمّ يزفّ إلى الخليفة البشارة بما أحرزه صلاح الدّين من انتصارات على الغزاة في معركة حطّين وما تبعها من معارك وأحداث توّجت باستعادة بيت المقدس وما حوله من البلاد من أيدي الصليبيين الغزاة . ومن أجل أن يظهر القاضي الفاضل قيمة الفتح ويعلي من شأن صلاح الدّين وجنده ، كان يقابل ما بين حال المسلمين قبل الفتح وبعده ، ويركّز تركيزا واضحا على إظهار قوّة الفرنج وحصانة مدنهم المهاجمة الّتي استباحها المسلمون (٤). وبعد ذلك ينتقل الفاضل انتقالا موفّقا إلى

---

(١) وردت هذه الرسالة في مصادر كثيرة ، منها : الرسائل ص: ١٥٧—١٧٦ ، وفيات الأعيان : ٦/ ١٧٠—١٨٠ ، صبح الأعشى : ٦/ ٤٩٦—٥٠٤ ، ٨/ ٢٨٢ — ٢٨٩ ، مفرّج الكروب : ٢/ ٢٣٩—٢٤٨ ، الرّوضتين ، بيروت : ٢/ ١٠٠—١٠١ ، الأنس الجليل : ١/ ٣٤١—٣٤٨ ، الدّر النظيم ، ص: ١٥—٣٤ ، وغيرها .

(٢) صبح الأعشى : ٦/ ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٣) انظر : أدب الحروب الصليبيّة ، ص: ١٧٦ .

(٤) انظر صبح الأعشى : ٦/ ٤٩٧ — ٤٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغرض الأساسيّ الّذي بعث رسالته من أجله ،وهو وصف المعارك الحربيّة الّتي خاضها صلاح الدّين مع الغزاة من الفرنج في معركة حطّين ،ثمّ في بيت المقدس وما تبعها[1] . وقد ظلّ الفاضل في هذه الرسالة ،كما في غيرها ،محافظا على وحدة رسائله من الناحيّة العضويّة ،فهذه الرسالة — على سبيل المثال — من أوّلها إلى نهايتها تدور حول موضوع واحد ،وهو هزيمة الفرنج في حطّين وما بعدها ،وإن جاءت في مقدّمة وعرض وخاتمة .

ومن الجدير بالذكر هنا ،أنّ هذه الرّسالة تحمل معظم سمات الفاضل الأدبيّة وخصائصه في كتاباته النثريّة ،إذ يرى النّاظر فيها مجموعة من السّمات والخصائص منها :اهتمام الفاضل الشديد بمفرداته اللغويّة ،فهو دقيق في تخيّر الكلمات الّتي تلائم غرضه الّذي يتحدّث عنه ،ووضعها في مكانها المناسب لها ،لكي تؤدّي معناها الّذي يريد بقوّة ووضوح بعد أن يشحنها بأحاسيسه وعاطفته القويّة المؤثّرة . وقد يهتمّ الفاضل بجمله ،إذ كان حريصا كلّ الحرص على إقامة التعادل والتوازن بينها ويعنى بائتلافها مع قرائنها الّتي تجاورها فتأتي متلاحمة متناسقة غنيّة بالتنغيم وقوّة الجرس ،محكمة السبك والبناء . ومن ذلك قوله : ((. . . ولقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصائرها ،واستتبّت عقائد أهله على أبين بصائرها ،وتقلّص ظلّ رجاء الكافر المبسوط وصدق اللّه أهل دينه ،فلمّا وقع الشرط وقع المشروط ،. . .))[2] ،وقوله :((وأوعز الخادم بردّ الأقصى إلى عهده المعهود ،وأقام له من الأئمة من يوفّيه ورده ،وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان ،فكادت السموات يتفطّرن للسجوم لا للوجوم ،والكواكب ينتثرن للطّرب لا للرجوم ،ورفعت إلى اللّه كلمة التوحيد ،وكانت طرائقها مسدودة وطهرت قبور الأنبياء وكانت بينهم بالنجاسات مكدودة ،وأقيمت الخمس وكان التثليث يقمدها ،وجهرت الألسنة باللّه أكبر ،وكان سحر الكفر يمقدها))[3] . ومن أجل ذلك أكثر الفاضل من استخدام المحسّنات اللفظيّة والمعنويّة من سجع وجناس وطباق ،غيره

---

(١) انظر صبح الأعشى : ٦/٤٩٩—٥٠٤ ،ثمّ انظر: أدب الحروب الصليبيّة ص: ١٧٥—١٨٥ ،ونصوص من أدب الحروب الصليبيّة ،ص: ٥٧١ .

(٢) الرسائل ،ص: ١٥٩ .

(٣) المصدر نفسه ،ص: ١٧٣ — ١٧٤ ،وانظر أيضا ،ص: ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من صور البديع الأخرى الّتي كانت شائعة في عصره ،لكي يعمل على تجميل نثره وتلوينه حتى إنّه يتعذّر على الناظر في هذه الرسالة خاصّة أن يجد نصا من نصوصها يخلو من لون من ألوان البديع ،إلاّ أنّها لم تكن على حساب معانيه وأفكاره الّتي يعبّر عنها ومنها : اتّكاء الفاضل على المادّة القرآنيّة ،فهو يستمدّ منها الكثير من معانيه وألفاظه وطرائقه في التعبير ،إذ كان ذا قدرة فائقة على تخيّر الآية المناسبة للغرض النثري يتحدّث عنه ،وادخالها في ثنايا كتاباته بطريقة فنيّة كشفت لنا عن براعته ومقدرته على التصرّف بموادّ فنّه . وفي هذه الرّسالة ما يكشف لنا افتتان الفاضل بالمادّة القرآنية وإفادته منها بصورة مباشرة وغير مباشرة ، إذ وجد فيها ما يسعفه في التعبير عمّا في نفسه ،فهو مرّة يورد الآية بلفظها ومعناها ،وثانية ينثرها في تضاعيف رسالته ،وقد يعمد إلى الإشارة والتلويح وفقا لطبيعة الموقف ومقتضيات الظروف. ومن ذلك ــ على سبيل المثال ــ قوله : ((. . . وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطّاشم والرّبّ الفرد الواحد (١) ،وكان عندهم الثالث ،فبيوت الكفر مهدومة ،ونيوب الشّرك مهتومة ،وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد ،وشجعانه المتوافية مذعنة لبذل القطائع الوافية لا يرون في ماء الحديد لهم عصره (٢) ، ولا في فناء الأفنية لهم نصره ،وقد ضربت عليهم الذّلة والمسكنة (٣) ،وبدّل اللّه مكان السيّئة الحسنة (٤) ،ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة (٥) إلى أيدي " أصحاب الميمنة)) (٦) ، وقوله أيضا :((وكان اليوم مشهودا (٧) وكانت الملائكة شهودا)) (٨) .

---

(١) يستمدّ فكرته من قوله تعالى :((قل هو اللّه أحد اللّه الصمد ،لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد)) صورة إلاّ خلاص.

(٢) العصرة ،الملجأ والمنجاة. (القاموس المحيط: عصر) .

(٣) سورة البقرة ،آية : ٦١ .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى :((ثمّ بدّلنا مكان السيئة الحسنة)). الأعراف،آية: ٩٥ .

(٥) سورة الواقعة ،آية : ٩ .

(٦) سورة الواقعة ،آية : ٨ .

(٧) الرسائل ،ص : ١٦٣ — ١٦٤ .

(٨) يستمدّ فكرته ومعناه من قوله تعالى ((ذلك يوم مجموع له النّاس، وذلك يوم مشهود)) . سورة هود ،آية: ١٠٣ .

(٩) الرسائل ،ص : ١٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها أيضا : ميل الفاضل إلى التكرار والإطناب، فهو يعمد إلى الإطالة وتكرار الفكرة الواحدة في قوالب لفظيّة متعدّدة، ولا سيّما حينما كان يتحدّث عن هزيمة الغزاة من الفرنج واستباحة مدنهم الحصينة، وحينما يصوّر فرحته بالنصر، وذلك حتى يؤكّد معانيه ويرسّخ أفكاره، وقد أسعفه معجمه اللغويّ وسعة ثقافته في إطنابه. ومن ذلك قوله: ((وكتاب الخادم هذا، وقد أظفر اللّه بالعدوّ الّذي تشظّت قناته، وكانت شفقا، وطارت فرقة فرقا، وفلّ سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى فكلّت حملاته، . . . وعثرت قدمه، وكانت الأرض لها حليفة، وغضّت عينه، وكانت عيون السّيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه، وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه، وطالما كانت شامخة بالمنى أوراعفة بالمنون)) (١).

وقد يرى الدّارس أيضا أنّ الفاضل استقى صوره الفنيّة من مصادر متعدّدة فاستمدها من الموروث القديم الدّيني والشعريّ، ومن الحيوان والطبيعة، ومن أجواء الحروب الّتي كانت سمة بارزة من سمات عصره. واهتمّ بالصّور الحسيّة ولا سيّما السمعيّة والبصريّة منها. ومن ذلك قوله: ((. . . وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفّار وعن أنصاف نخيل فإنّه قتلهم بالسيوف الأفلاق، والرماح الأكسار، فنيلوا بثأر من السّلاح ونالوه أيضا بثار، فكم أهلّة سيوف تقارضن الضرب بها حتى عادت كالمعراجين وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ؟، وكم فارسيّة ركض عليها فارسها السّهم إلى أجل فاختلسته وفغرت تلك القوس فاها، فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه)) (٢).

ومن السمات الفنيّة الواضحة في هذه الرّسالة كما في غيرها من رسائل الفاضل التشخيص والتجسيم، فهو يحرص أن يقدّم معانيه المجرّدة والأشياء الجامدة الّتي يتحدّث عنها في صور حسيّة حيّة تحمل الكثير من صفات الإنسان وأفعاله، حتى يزيد في توضيح أفكاره، ويؤدّي المعنى الّذي يريد بطريقة قويّة مؤثرة، ولا سيّما حينما كان يتحدّث عن المدن الإسلاميّة المغتصبة، وأدوات القتال، وغيرها (٣). فكشف لنا بذلك عن

(١) الرسائل، ص: ١٦٢ — ١٦٣. وانظر أمثلة أخرى، ص: ١٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ص: ١٦٤ — ١٦٥.
(٣) انظر: المصدر نفسه، ص: ١٦٠، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٩—١٧٠، وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

براعته في الوصف ودقّته في التصوير.

هذا، وعلى الرّغم من شيوع اللغطيّة المفرطة في عصر الفاضل وكتابا ته إلاّ أنّ الفاظه جاءت سهلة ومعانيه واضحة، فقلّما يعثر الدّارس في رسائله الجهاديّة على لفظة صعبة غامضة تحتاج إلى تفسير. وذلك لأنّ هذا النوع من الرسائل كان يصدر عن إحساس صادق وعاطفة قويّة لا مجال فيها للتعقيد والغموض، ولا سيّما حينما كان الفاضل يصوّر فرحته بالنصر، وعودة المدن الإسلاميّة إلى حمى الإسلام.

وأمّا رسائله الإخوانيّة، ومنها تلك الّتي كتبها وهو في مصر إلى صلاح الدّين في حصار عكّة، فمن المؤسف حقّا أنّنا لم نظفر بها كاملة، ذلك لأن المصادر الّتي استطعنا الحصول عليها لم تحفظ لنا هذه الرسائل كاملة، وإنّما أوردت منها مقطّعات مختارة اختارها المؤرّخون للتدليل على ما يتحدثون عنه، وذلك واضح على سبيل المثال — فيما قدّم به أبو شامة لتلك الرسائل، إذ كثيرا ماكان يقدّمها بقوله ((فمن بعض كتبه)) ، ((ومن كتاب آخر)) ، وهكذا [1] ، ثمّ يورد بعض النّصوص. ويبدو أنّ الفاضل في هذا اللون من الرسائل، كان يبتعد عن المقدّمات ويدخل في موضوعه مباشرة، ذلك لأنّ طبيعة الموقف الّذي كان عليه المسلمون وقائدهم صلاح الدّين، ولاسيّما عندما كانت عكّة مهدّدة، لم تكن تحتمل المديح والإطراء والإطالة في التقديم، ثمّ إنّ الفاضل نفسه كان متعجّلا في بثّ مشاعره إلى سلطانه، لكي يسكّن نفسه، ويستحثّه على الصبر والثبات والاحتمال، مستعينا بالمادة القرآنيّة والأقوال المأثورة وما يناسب الظروف والمقام من الأقوال. ومن أجل ذلك مال فيها الفاضل إلى الترسّل وتخفّف من استعمال المحسّنات اللغظيّة والمعنويّة إلاّ ما جاء منها عفو الخاطره.

---

(١) انظر الرّوضتين، بيروت: ٢/١٦٥ — ١٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القاضي الفاضل بين مؤرّخيه وكتّابه:

استطاع الفاضل بمواهبه المتعدّدة ،وتمكّنه من أدوات فنه الكتابي أن ينتزع إعجاب من تحدّثوا عنه من معاصريه ومؤرخيه الّذين اتّصلوا بفنه ،فشهدوا له بالإبداع والتفوّق ،وأجمعوا على أنّه كان شيخ البلاغة والفصاحة في عصره ،ولم يخرج عن إجماعهم على ذلك أحد ممن تعرّضوا لذكره ،ونقلوا لنا أخباره ومجريات حياته . يقول معاصره وقرينه العماد الأصفهانيّ (٥٩٧هـ) :((. . . صاحب القران ،العديم الأقران ،وواحد الزمان ،العظيم الشان ،ربّ القلم والبيان ،واللّسن واللسان ،والقريحة الوقّادة ،والبصيرة النقّادة ،والبديهة المعجزة ،والبديعة المطرّزة ،والفضل الّذي ما سمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلّق بغبارة ،وأجرى في مضماره . فهو كالشريعة المحمديّة الّتي نسخت الشرائع ، ورسّخت بها الصّنائع ،يخترع الأفكار ،ويفترع الأبكار ،ويطلع الأنوار ويبدع الأزهار ،إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة مالو دوّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة ، . . .))(١) . ويقول ابن الأثير (٦٣٠هـ) : ((. . . لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه))(٢) ، ويقول ابن الساعي ، (٦٧٤هـ) : ((. . . كان كاتبا سديدا ،فصيحا ،بليغا ،إليه انتهت الكتابة في زمانه))(٣) .

وأمّا النويريّ (٧٣٣هـ) ،فقد ذهب إلى القول : ((. . . إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ،وبفضله أقرّت أبناء البيان واعترفت ،ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ،وبين يديه استقرّت بها نواها . فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ،ورافع علم البيان لا محالة وقد أنصف بعض الكتّاب فيه ،ونطق من تفضيله بعلم فيه حيث قال : كلّ فاضل بعد الفاضل فضلة))(٤) . ويقول السبكيّ (٧٧١هـ) :((. . . إمام الأدباء ، وقائد أهل الترسّل

---

(١) الخريدة ،قسم شعراء مصر : ٣٥—٣٦ ،وانظر : الرّوضتين ،بيروت : ٢/ ١٤٢ ، وفيات الأعيان : ٣/ ١٩٥ ،وسير أعلام النبلاء : ٢١/ ٣٤١—٣٤٢ ،النجوم الزاهرة : ٦/ ١٥٦ ،وتاريخ ابن الورديّ : ٢/ ١٧٣ ،وغيرها .

(٢) الكامل في التاريخ : ٩/ ٢٥١ .

(٣) الجامع المختصر ،ص: ٢٨ .

(٤) نهاية الأرب : ٨/ ١—٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من بعده ولا من قبله بأكثر من مئتي عام ،وربّما زادوا ،وهو بينهم كالشافعي وأبي حنيفة بين الفقهاء ،بل هم له أخضع ،لأنّ أصحاب الإمامين قد يتنازعون في الأرجحيّة فكلّ يدّعي أرجحيّة إمامه ،وأمّا هذا فلا تنازع بين أهل صناعته فيه))(١) .

وهكذا فقد اعترف كلّ هؤلاء وغيرهم من المؤرّخين(٢) للقاضي الفاضل بالريادة والتميّز في الكتابة كما رأينا ،ويلوح لي أنّ هذا الاعتراف ليس أساسه أنّ الفاضل قد نال ما ناله من شهرة لصلته الوثيقة ومكانته الّتي حظي بها لدى السلطان صلاح الدّين كما ذهب إلى ذلك بعض الدّارسين ،من أمثال محمّد كامل حسين(٣) وأحمد بدوي(٤) ولا لأنّه رسّخ مذهب البديع وتوسّع فيه ،كما يرى شوقي ضيف(٥) ،وعبد اللطيف حمزه(٦) وسيد كيلاني(٧) ،وغيرهم . ففن البديع كان موجودا في الأدب العربي قبل الفاضل ثمّ إنّ معاصره العماد الأصفهانيّ كان أكثر منه التزاما وتمسّكا بأسلوب الصنعة والبديع والحقيقة أن القاضي الفاضل استطاع أن يتخذ من فنّه الكتابي وسيلة ناجحة للتعبير عن ذاته ،وعن قضايا عصره ومجتمعه . وهو وإن تأنق في كتابته على طريقة أهل العصر ،إلاّ أنّه صاغ من مفردات اللغة وتركيباتها فنّا رفيعا مادّته الكلمة ،ولم تخلّ كتاباته من الجديد المبتكر ،ومن المواءمة الموفقة بين الشكل والمضمون . ولعلّ هذا هو السرّ في أنّ أدبه يعدّ بحق أداة من

---

(١) طبقات الشافعيّة : ٧/١٦٧ .

(٢) انظر البداية والنهاية : ١٣/٢٤ ،مرآة الزمان : ق١ج١/٤٣٤ ،وتكملة المنذري : ٢١/٢١٠ ،وفيات الأعيان : ٣/١٥٨ ،سير أعلام النبلاء : ٢١/٣٣٨ ٣٣٩ ،العبر : ٤/٢٩٣ ،طبقات الأسنوي : ٢/٢٨٢ ،شمرات الأوراق ،ص: ٢٢٣، الدّارس : ١/٩٠ ،الشذرات : ٤/٣٢٤ ،وغيرهم .

(٣) أنظر أدب مصر الفاطميّة ،ص: ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٤) انظر الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصليبيّة ،ص: ٣٢٤ .

(٥) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ،ص: ٣٧٠ ،وعهد الدول والإمارات ص: ٤٠٤ .

(٦) انظر أدب الحروب الصليبيّة ،ص: ١٨٦ ؛ وانظر: محمود مصطفى ،الأدب العربي في مصر ،ص: ٣١٣ — ٣١٤ .

(٧) انظر الحروب الصليبيّة وأثرها في الأدب العربي ،ص: ٢١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدوات مقاومة الفرنج ،وأنّ قلمه اضطلع بدور في هذه المقاومة ،إذ كان يقارن أحيانا بدور السّيف،كما يستخلص من قول سلطانه صلاح الدّين لجنده مشيدا بدور الفاضل في مقارعة الفرنج :((. . . لا تظنّوا ملكت البلاد بسيوفكم ،بل بقلم الفاضل))(١) ،ويقول معاصره العماد :((. . . وكانت كتابته كتائب النصر ،وبراعته رائعة الدّهر ،وبراعته باربة البريّة ،وعبارته نافثة في عقد السحر ،وكانت بلاغته للدولة مجلبة وللملكة مكمّلة))(٢) .

---

(١) مرآة الزمان : ق١ جـ١/٤٧٢ .

(٢) الرّوضتين ،بيروت : ٢/٢٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخصائص الفنيّـة في الشعـــــر :

أوّلا : اللغـــة والأُسلـــــــــوب

ثانيا : الخيال والصورة الشعريّـة

ثالثا : البنـــاء الفنـــــــــي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغـة والأسلـــــوب :

اهتمّ النقّاد العرب بالحديث عن المفردات اللغويّـة في العمل الأدبـــي وعلاقاتها بألاغراض الشعريّـة الّتي تستعمل لها . يقول القاضي الجرجانـــي ((. . . وصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ، فلكلّ واحد من الأمريـــن نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآ خرفيـــه))[١] ، ويقول معاصر القاضي الفاضـــل ضياء الدّين ابن الأثير: ((. . . الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكـــل منها موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقع الحروب ، وفـــي قوارع التهديد والتخويف ، وأشباه ذلك ، وأمّـا الرقيق منها ، فإنّـه يستعمل في وصـــف الأشواق ، وذكر أيّام المباد ، واستجلاب المودّات ، وملاينات الاستعطاف ، وأشبهـــاه ذلـــك))[٢] .

وما دامت العلاقة بين المفردات اللغويّـة والغرض الّذي تستخدم له وثيقـــة الصّلة فإنّ الفاضل في شعره الّذي تحدّث فيه عن المعارك والحروب قد حرص على تخيّر الألفاظ ووضعها في بيئتها الملائمة لهـا ، لكي تعبّر عن نفسيّته الثائرة لما أصاب أمّتـه ودیارها على أيدي الغزاة من الفرنج ، من قتل وتشريد وقهر . ولمّا كان الأسلوب هـــو الرجل نفسه ، كما يقول بعض نقّاد الأدب ، يعبّر عن نفسيته تعبيرا بيّنا ، فإنّ ألفـــاظ الفاضل قد جاءت في معظمها جزلة قويّة الجرس ، ملائمة مع أجواء الحروب بجزالتهـــا وضخامتها . ومن الأمثلة على ذلك قولـــه :

لأفْنَتْ ظُباكُمْ في الوغى وصَفاتُهـــا ... دماءَ الأعادي أوْ دماءَ المحابِـــرِ
فياعَجَباً للْمُلْكِ قرّ قَـــرارُهُ ... بِمُخْتَلِفاتٍ من قَناك الشّواجِـــرِ[٣]
طواعِنُ أسرارِ القُلوبِ نواظِـــرٌ ... كأنّكَ قدْ نَصّلْتَها بِنواظِـــرِ[٤]

---

(١) عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمّد أبو الفضـــل مصـــر ، ١٩٦٦م ، ص: ٢٤ .

(٢) ضياء الدّين ابن الأثير ، المثل السائر ، تحقيق الحوفي ، مصر ، ط١ ، ١٩٥٩م ، ق١: ٢٤٠ ، وانظر : الأسلوب ، ص: ٨٤ ، ٩٠ .

(٣) الشواجر : جمع شاجرة ، وهي الطاعنة (القاموس المحيط : شجر) .

(٤) ديوان القاضي الفاضـــل : ١/٢٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله في ابن رزّيك مادحـــا :

يُقتّلُ حَيّاتِ الحُقودِ من العِـــــدا ... بِحيّاتِ سُمْرٍ بالأسِنّةِ نُهّشـــــا
ويَنْصِبُها إنْ يَرتَقوا السُّحْبَ سُلّمـــاً ... ويُرْسِلُها إن يَنزِلوا القُلُبَ(١) الرِّشـا(٢)
فأوْسطُها أَوْلى من العيْنِ بالهُـــدى ... وأطْرفُها أَوْلى من الهمِّ بالحَشـا (٣)

وقوله في إحدى مدائحه في صلاح الدّين :

سَطَوْتُمْ فلمْ تُبْقوا عدوّاً مُبائِنـــــا ... وجُدتُمْ فلمْ تُبْقُوا عدوّاً مداجيـــا
وجرَّدْتُمُ بينَ الزّمانِ وبينَنـــــــا ... سيوفاً على أيْدي العَوادي عَواديا
وأمْهَرْتُمُ الدُّنْيا سُيوفاً بواسِمـــــاً ... تَكُنّ رِقاباً للأعادي بَواكيـــا (٤)

ومع أنّ الغاظ الغاضل ، بصورة عامّة ، كانت تميل إلى الجزالة والقوّة ، إلاّ أنّنا نلحظ فـــي شعره الجهاديّ ، في بعض الأحايين ، مراوحة بين الجزالة والرّقة ، ولا سيّما حينما كـــان يستعمل ألفاظ الغزل والنّسيب في وصف المعارك والحروب ، ويمزج بينهما مزجا موفّقـــا على طريقة المتنبّي(٥) . ومن ذلك قوله في صلاح الدّيـــن :

وما زالت الأَطْرافُ أطرافُ سُمْـــرِهِ ... مفاتيحَ أعلامٍ وأقلامَ تَقْليـــــرِ
بما في قُدورِ السُّمْرِ من ماءِ هَـــزّهِ ... وما في خُدورِ البيضِ من ماءِ تَوْرِيـدِ (٦)

---

(١) القُلُب : جمع قَليب ، وهو البئر . (القاموس المحيط : قلب) .
(٢) الرِّشَا : الحبل . (القاموس المحيط : رشو) .
(٣) ديوان الغاضل : ١/٢٤٥ .
(٤) المصدر نفسه : ٢/٣٣٣ ، وانظر أيضا : ١/٢٥٣ ، ٢٦٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، وغيرها .
(٥) انظر : الثعالبي ، يتيمة الدّهر ، بيروت ط٢ ، ١٩٧٣م ، ١/١٩٣ . حيث يقـــول في معرض حديثه عن سمات المتنبّي في شعره : ((ومنها : استعمال ألفاظ الغزل والنّسيب في أوصاف الحروب والجدّ ، وهو لم يسبق إليه ، وتفرّد به وأظهر فيـــه الحذق بحسن النقل ، وأعرب عن وجوه التصرّف والتلاعب بالكلام)) .
(٦) ديوان الغاضـــل : ١/١٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله مخاطبا شجاع بن شـــــاور:

تَلْقى عَروسَ المَنايا وهي حاسِـــرةٌ وخدُّها فيه من فَيْضِ الدِّما خَفَـــرُ (١)

وقوله وهو يصف معركة خاضها أحد ممدوحيه:

وكَمْ لكَ من يومٍ أغرَّ مُحَجَّـــلٍ نَرُدُّ به قَسْراً نَوازِيَ(٢) النَّـــــوازِلِ

بِحَيْثُ الدِّما خَمْرٌ يُرى الهامُ دَنَّهـــا(٣) وقدْ بُزِلَتْ(٤) من سُمْرِهِمْ بِمَبـــازِلِ

وتَبْدو الظُّبا فيها بِخدٍّ مُلاعِـــبٍ وتَبدُو القَنافيها بِعِطْفٍ مُغـــازِلِ (٥)

وأمّا دقّة الفاضل في تخيّر ألفاظه المناسبة لمعانيه، فقد تجلّت في حديثـــه عن أدوات الحرب والقتال، وتحصينات المسلمين، إذ كان يختار لها ما يلائمهـــا من الكلمات المعبّرة الموحية، لكي تؤدي دلالاتها بقوّة ووضوح، بعد أنْ يشحنهـــا بعاطفته القويّـــة، حتى كانت هذه الظاهرة من أبرز خصائصه في الشعر والنّثر على حـــدّ سواء. ومن الأمثلة على ذلك قوله مشيدا بسيوف بطلـــه:

وكَمْ أغَبَّ بماءِ المُرْهفاتِ عِـــدًى فلَمْ تَدَعْ غُصَصاً إلاّ إلى شَـــرَقِ

صَوارِمٌ تَحْمِلُ الآجالَ لابِسَـــةً على سَرائِرِها ثَوْباً من المَلَـــقِ (٦)

وقوله متغنيا برماح المسلمين، في إحدى مدائحـــه:

يُمْشَى بها سُرُجاً ويومكَ مُظْلِـــمٌ فترى الذَّوابِلَ نُصِّلَتْ بِذُبـــالِ(٧)

---

(١) ديوان الفاضـــل: ١/٢٢٢.

(٢) التحجيـــل: بياض في قوائم الفـــرس. (القاموس المحيـــط: حجـــل).

(٣) النّوازي: جمع ناز، من نزا، بمعنـــى وثب (القاموس المحيـــط: نزو).

(٤) الدَّن: الرّاقود العظيم. (القاموس المحيط: دنن).

(٥) البزل: الشق. وبزل الخمر، ثقب إناءها. (القاموس المحيط: بزل).

(٦) العِطْـــف: الجانب من كلّ شيء. (اللســـان: عطف).

(٧) ديوان الفاضـــل: ١/٢٦٤.

(٨) ديوان الفاضـــل: ١/٢٦٠.

(٩) الذّبـــال: مفردهـــا ذبالـــة، وهـــي الفتيلـــــة (القاموس المحيـــط: ذبل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثلَ الصِّلالِ[1] يحوفُ[2] نفثُ طِعانِهـا[3] يَسْتلئِمُ العاري ثيابَ صِـلالِ
ويحرُّها[4] طَوْراً ويَصْلى حَرَّهـا فيكونُ مُحْتَطِباً وطَوْراً صـالِ (٥)

ومنه أيضا وصفه لحصن بناه أحد ممدوحيه ،وحصّنه بالرجال والسلاح ،إذ يقول:

حِصنٌ فجَرْتَ به للنّاسِ نَهرَ ظُبـاً لمّـا دعَوْتَ إليه الهامَ سِرْبَ قَطـا
عَدُّوه نَجْماً قلولا أنْ يُقارِنـهُ من عِترةِ[6] النّجمِ أقمارٌ لما هَبطـا
من كُلِّ مَنْ لَبِسَ الهِنْدِيَّ راحَتُـهُ من قبلِ ما لَبِستْ أعضاؤهُ القُمُطـا
لا يُرسلُ النّقْعُ فَرْعاً من ذوائبِـهِ إلّا ويُرْسِلُ أسْنانَ القَنا مُشُطـا (٧)

ومن مظاهر اهتمام الفاضل بمفرداته اللغويّة إكثاره من استخدام المحسّنات اللفظيّة والمعنوية في شعره ،لكي يلوّن أُسلوبه ،ويكسبه رونقا وجمالا . ولذا فقد حفل شعره بألوان البديع المختلفة ، وتغلغلت اللفظيّة فيه ،حتى إنّك قد لا تجد نصّا من نصوصه الشعريّة يخلو من لون من ألوان البديع الّذي كان مقياسا عامّا[8] من مقاييس الجودة والإبداع الفنّي في عصره . والفاضل ،كما نعلم ،كان إمام عصره[9] بهذا الفن ومن أشدّ أدباء عصره إعجابا وافتتانا به . فمن الجناس قوله:

فَجاءُوا بأسْلابٍ إلى يَدِ قاسِمٍ وفاءُوا بأصْلابٍ إلى أيْدِ قاصِمِ
بمَوْقِفِ حُكْمٍ في الرِّقابِ شَهادَةٌ تُؤَدّى إلى خَصْمٍ من السَّيْفِ حاكمِ

---

(١) الصِّلال: مفردها صل ،وهي الحيّة. (القاموس المحيط: صلل) .
(٢) يحوف: أي يدعو إلى الانتقال والهرب. (القاموس المحيط: حوف) .
(٣) يعني أن طعان الرماح في المعركة يشبه نفث الحيّات ،ويحمل الأعداء على الهرب.
(٤) حرّ الماء: إذا أسخنه. (القاموس المحيط: حرر) .
(٥) ديوان الفاضل: ١/ ٢٧٥.
(٦) العترة: رهط الرجل وعشيرته. (القاموس المحيط: عتر) .
(٧) ديوان الفاضل: ١/ ٢٤٩ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: ١/ ٢٦٤، ٢٨٠، ٢٨٨، ٢٩٤ ،وغيرها.
(٨) انظر حول ذلك: صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ،ص: ١٩٨ — ٢٠١.
(٩) انظر: عبد اللطيف حمزة ،الأدب المصري من قيام الدولة الأيّوبيّة إلى مجيء الحملة الفرنسيّة ،ص: ١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما في صُدورِ الزَّعْفِ[1] غيرُ ودائِـــعٍ ولا في ظُهورِ الخَيْلِ غيرُ غنائِـــمِ
وتَعْرِفُ وجْهَ النَّصْرِ من وجْهِ نَصْلِـــهِ إذا سَلَّهُ والضَّرْبُ ضَرْبَـــةُ لازِمِ
ويلْقى المِدَادَ منهُ توقُّدَ باسِـــلٍ كما زِجُّهُ منهُ توقُّدُ باسِـــمِ (٢)

حيث جانس الفاضل في الأبيات السابقة جناسا ناقصا بين: (جاءوا، وفاءوا)، وبيـــن (أسلاب، وأصلاب)، وبين: (قاسم، وقاصم)، وبين: (النّصر، والنّصل)، ثمّ بين: (باسل وباسم)، فأكسب شعره إيقاعا موسيقيّا جميلا. ومنه أيضا قولـــه:

فَعالُكَ في العَلْياءِ أسْمى وأسمَـــحُ ووَجْهُكَ في اللأواءِ[3] أوْضا وأوْضَـــحُ
وذِكْرُكَ في قلْبِ الزّمانِ مَهابَـــةٌ فمِنْ بعدِ ماقد كانَ يَجْمَحُ يَجْنَـــحُ
ومِثْلُكَ من قَبْلِ المسائِلِ واهِـــبٌ ولكنَّهُ بَعْدَ الجرائِمِ يصْفَـــحُ
وجودُكَ مثلُ الماءِ والماءُ مُفْـــرِقٌ وبَأسُكَ مِثْلُ النّارِ والنّارُ تَقْـــدَحُ (٤)

وقد يجمع الفاضل بين الجناسين: التام والناقص، وذلك كما في قولـــه:

لكَ المَثَلُ الأعْلى ومالكَ من مِثْـــلٍ ومَدْحُ العِدى قَوْلاً ومَدْحُكَ بالفِعْلِ
وفي كفِّكَ السَّيْلُ الذي هُوَ مُسْجِـــلٌ بأنَّكَ تُنْمى[5] في الغَمامِ إلى أصْـــلِ
لئِن ذَكروا الفَضْلَ بنَ يحيى بنَ خالِدٍ[6] فإنَّكَ قد أنسَيْتَنا الفَضْلَ بالفَضْـــلِ
فكمْ لكَ من تَنْزيلِ نَصْرٍ بلا نَصْـــلٍ وكمْ لكَ من ترحيلِ مَحْـــلٍ[7] بلا مَهْـــلِ (٨)

---

(١) الزَّعف: الدرع اللينة الواسعة المحكمة، أو الرقيقة الحسنة السلاسل (اللســـان زعـــف).
(٢) ديوان الفاضـــل: ١/٢٩٣.
(٣) اللأواء: الشدّة. (القاموس المحيط: لوي).
(٤) ديوان الفاضل: ٢/٣٥٣.
(٥) ينمي: ينسب ويعزى. (القاموس المحيط: نمي).
(٦) هو: الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، وزير الرشيد العبّاسيّ، كان مـــن أجود الناس وأكرمهم، توفي عام (١٩٣هـ). انظر ترجمته وأخباره فـــي وفيات الأعيان ٤/٢٧—٣٦، والكامل في التاريخ، حوادث سنة ١٩٣هـ.
(٧) المَحْل: الجَدْب. (القاموس المحيـــط: محل).
(٨) ديوان الفاضـــل: ١/٢٦٣، وأنظر أمثلة من تجنيسه: ١/١٤١، ١٤٦، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٢، ١٧٥، ٢٥١، ٢٧٥، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩١ وغيرهـــا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما تقدّم ، يتبيّن لنا أنّ الفاضل كان يركّز على المفردة اللغويّة في شعره من حيث رسمها وصوتها وإيقاعها . وقد دفعه تركيزه على الألفاظ إلى البحث عن نظائرها ومشتقاتها . ومن أجل ذلك ، حفل شعره بالجناس الاشتقاقي ، الذي أربى على غيره من صور الجناس الأُخرى . ومن ذلك قوله :

وتَلْقى خُطوبَ الدَّهْرِ إن جدَّ جِدُّها ... بِعَزْمٍ مُجِدٍّ في عزيمةِ هازِلِ
أقولُ إذا ما جادَ هلْ من مُفاخِرٍ ... كقَوْلي إذا ما جَدَّ هلْ مِنْ مُنازِلِ
وكَمْ لكَ من يَوْمٍ أغرَّ مُحَجَّلٍ ... تَرُدُّ بهِ قَسْراً نَوازِيَ النَّوازِلِ
ظَلمناكَ إذ قِسْنَابكَ الفَيْثَ نازِلاً ... وما ابنُ اللَّبُونِ(١) في القياسِ كَبازِلِ (٢)

وقوله :

أعدَّ لجَمْعِ الحَربِ ضَغْمَةَ(٣) فاتِكٍ ... وسَرّى(٤) لِنَشْرِ السِّلْمِ حِلْيَةَ حازِمِ
أميرُ الليالي من جَديدٍ وذاهِبٍ ... وكَرْبُ الأعادي من قديمٍ وقادِمِ
فلا بَعُدَتْ عنّا العيدُ إنّ رِيحَهُ ... لِتَحْصيلِ مَرْسُومٍ صن الحَرْبِ قائِمِ
لها خَلَّةٌ بلْ حُلَّةٌ عَرَبيَّةٌ ... ورُبَّ فَصيحٍ ما رأى دارَ دارِمِ* (٥)

على أنّ اهتمام القاضي الفاضل بألفاظه لم يقف عند استعمال ألفاظ متقاربة في رسمها وجرسها ، وإنّما تعدّى ذلك إلى ترديد حروف بعينها في ألفاظ البيت الواحد ، ممّا أكسبها جرسا موسيقيّا خاصّا ، وأنساقا صوتيّا ، كما يتضح في قوله :

إذا قَدَحوا زَنْدَ الظُّبا سَرَتِ الدِّما ... تَمَزَّنُ مِثْلَ الشُّهْبِ في إثرِ مِرّيدِ(٦)

---

(١) ابن اللبون : ولد الناقة إذا كان في العام الثاني أو إذا دخل في العام الثالث . وأمّا البازل ، فهو : من دخل في العام التاسع
انظر : (القاموس المحيط : لبن ، وبزل) .

(٢) ديوان الفاضل : ١ / ٢٦٤ .

(٣) ضغمه : عضّة عضا دون النهش ، والفاتك الأسد . (القاموس المحيط : ضغم) .

(٤) سرّى : أي أرسل سريّة أو أعدّها . (القاموس المحيط : سرى) .

(*) دار دارم : دارم : أبو حيّ من تميم . انظر : (القاموس المحيط : درم) .

(٥) ديوان الفاضل : ١ / ٢٩٤ ، وللمزيد من ذلك ، انظر : ١ / ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢ / ٣٨٢ ، وغيرها .

(٦) المرّيد : مَنْ مرد ، وهو من عتا وتجاوز الحدّ في عتوّه . (القاموس المحيط : مرد) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أضاءتْ وأعطتْهُمُ وسَرَّتْ وسَيَّرتْ ... فتِلْكَ سُيوفٌ أم سُعودُ مَواليـــدِ
وإنّكَ بحرٌ هادِمٌ لِشواهِـــــقٍ ... وما أنتَ سَيْلٌ قاذفٌ لِجلاميـــدِ
نُسيِّرُها والمَجْدُ فيها مُقَيَّـــدٌ ... فلا تَنْسَ تَسْييري عُلاكَ وتَقْييـــدي (١)

وفي قولـــه:

وَرُبَّ حاسِرِ رأسِ البَغْيِ ألبَسَـــهُ ... عِمامةً لِلرَّدى مُحْمَرَّةَ العَـــذَبِ(٢)
ورُبَّ راجِلِ رجلِ الرُّشْدِ أركَبَـــهُ ... ظَهْراً أقامَ بلا سَرْجٍ ولا قَتَـــبِ(٣)
ماضي المرا سِيمَ مَدْلولُ الفُؤادِ على ... مالا تَرى العَيْنُ في الأسْرارِ من حَرَبِ (٤)

وقولـــه:

فقَتْلاهُ تُقَدُّ بلا قِتـــالٍ ... وأسْراهُ تُقادُ بلا حِبـــالِ (٥)

وفيما تقدّم من شواهد ما يكشف لنا عن ثقافة الفاضل اللغويّة الواسعة، وإحساسه الدّقيق بمفردات اللغة وإيحاءاتها.

وأمّا الطباق، فيكاد يكون ظاهرة مميّزة لشعر الفاضل الّذي تحدّث فيه عن المعارك والحروب، وقد قصد به توضيح معانيه وتأكيدها. ومنه قوله:

يُشَعِّرُ لِلعُلا عَن ساقِ حُـــرٍّ ... ولا يَثْني وِسادَتَهُ اتِّكـــاءَ
متى كان المديحُ لَكُمْ كِفـــاءً؟ ... ومَنْ يَمْتَدُّهُ لَكُمُ وفـــاءَ؟
وكَمْ أوْرَدْتَها بِيضاً ظِمـــاءً ... وكَمْ أصدَرْتَها حُمْـــراً رِواءَ
وكَمْ أطلَعْتَ من لَمْعٍ صَباحـــاً ... وكَمْ أرْجَمْتَ من نَقْعٍ عِشـــاءَ
وَتُلبِسُهُمْ ثيابَ الموتِ حُمْـــراً ... فقد صارَ الرِّجالُ بِهِ نِســـاءَ (٦)

---

(١) ديوان الفاضل: ١/١٨٦.
(٢) العَذَب: طرف كلّ شيء، وما يسيل للعمامة من خلفها، والمراد هنا أذاقة الرّدى. (القاموس المحيط: عذب).
(٣) القَتَب: الرّحل الصغير على قدر سنام البعير. (اللسان والقاموس المحيط: قتب).
(٤) ديوان الفاضل: ١/١٤٠.
(٥) المصدر نفسه: ١/٢٨٢. وانظر أمثلة أخرى: ١/٢٠٧، ٢١٤، ٢٢١، ٢٥٤، ٢٧٥، وغيرها.
(٦) المصدر نفسه: ١/١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقولـــه أيضـــا :

لا زِلتَ يومَ النَّدى خَرَّاجَ غايـــاتٍ ... وُدِمْتَ يومَ الوَغى ولاَّجَ غابـــاتِ
ولْيَهْنِكَ المُلكَ ما أظهَرْتَ من هِمَمٍ ... للجِدِّ والجودِ من نارٍ وجَنَّـــاتِ
تَحْمي وتَهْمي(١) بِعَيْنٍ أو بِجودِ يَـــدٍ ... فالنَّاسُ ما بَيْنَ رَعْيٍ أو مُراعـــاةِ
مُواصِلُ المَجْدِ لا يَنْفَكُّ مِنْ شَغَـــفٍ ... والوَصْلُ يَنْقُصُ من بَعْضِ الصَّبابـــاتِ
هذي اليدِ اياتُ قد نِلْتَ السَّماءَ بِها ... فما يَظُنُّ العِدى هذي النِّهايـــاتِ (٢)

وقولـــــه :

للّـــهِ مُضْمَرُهُ عنَّـــا ومُظْهَـــــرُهُ ... فِينَا وَفي اللّـــهِ ما يأتي ويَجْتَنِـــبُ (٣)

ويلحظ الدّارس حرص الفاضل على استعمال الطباق والمقابلة في شعـــره الجهادي، ولا سيّما حينما كان يقارن بين ما قام به بطله الّذي يمدحه، وما يفعله غيـــره من أمراء المسلمين الّذين لم ينهجوا نهجه في مواجهة الفرنج، والتصدّي لهم، حتـــى يعلي من شأن بطله. وذلك واضح في مثل قولـــه :

لَيْسَتْ مَعاقِلُهُ الحُصُونَ كَغيـــرِهِ ... بَلْ حَلَّ مِنْ ظَهْرِ الحِصانِ بِمَعْقِـلِ (٤)

وفي قولـــه :

لَقَدْ قامَ للدِّينِ الحَنيفيِّ بَعْدَمـــا ... تَقاعَدَ حَدٌّ من حُسامٍ وقائِـــمِ (٥)

وأمّا السجع، فهو قليل في شعر الفاضل الّذي وصف به المعارك والحـــروب إذا ما قيس بالجناس والطباق ؛ وهو حين يأتي به سجع مجنّس لا يلتزم به في مجمـــل شعره. ومنه ــ على سبيل المثال ــ قولـــه :

أَمامَوْلِكَ على أَعدائِكَ الطَّلَـــبُ ... فإنّ أعدى عدُوٍّ عِنْدَنا الهَـــرَبُ
أَنتَ الحَياةُ الّتي ما بَعْدَها رَغَـــبٌ ... أوْ الحِمامُ الّذي ما قَبْلَهُ رَهَـــبُ

---

(١) هَمَى الماءُ : أي سال. (القاموس المحيط : هَمَي).
(٢) ديوان الفاضـــل : ١/١٧٢.
(٣) المصدر نفسه : ١/١٥٢، وللمزيد من الأمثلة، انظر: ديوانه أيضا : ١/١٣٦، ١٤٠، ١٦٥، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ٢٠١، ٢١٥، ٢٤٧، ٢/٢٦١، ٣٦٦، ٥٠٨، وغيرهـــا.
(٤) ديوان الفاضل : ١/٢٨٠.
(٥) المصدر نفسه : ١/٣٠٢، وانظر أمثلة أخرى : ١/١٨٧، ٢٥٨، وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلَيْسَ يَعْصِمُهمْ في الفُلْكِ ماركِبوا ... ولَيْسَ يُنْجيهمُ في الأرْضِ ما ضَرَبوا
فما دُروعُهمُ إلاّ مَقاتِلُهُمْ ... لكِنّهُم بِسُيوفِ اللّهِ قد ضُرِبوا (١)

وقولـه :

وطاغِيَةٌ(٢) إلا فَرَنْجٍ ما جازَ مَحْكُهُ(٣) ... علينا وهذا السَّيْفُ جَذْلٌ مَحَكِّهِ
وفي أسْرِهِ الإيمانُ كان بأسْرِهِ ... فلا عُدِمَتْ كَفٌّ تسامتْ لِفَكِّهِ (٤)

ويستطيع الدّارس أن يجد في شعر الفاضل الجهاديّ صورا أخرى من صور البديع الّتي كانت شائعة في عصره ،كالتورية ،والتقسيم ،ومراعاة النظير ،ولزوم مالا يلزم وحسن التعليل ،وغيرها من المحسّنات والزخارف الّتي فتن بها الفاضل ،حتى تحول شعره ،في بعض الأحايين إلى أشكال لفظيّة مهندسة فيها الكثير من العبث بالألفاظ والتلاعب بها . وقد تجلّت هذه الظاهرة بصورة واضحة في قصيدته(٥) الّتي مدح بها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدّين . ومنها قوله :

قُلْ لِلْعُداتِ فهيَ اليومَ أرْبَعَةٌ ... قَتْلى وأسْرى وهُرّابٌ وحُيّادُ
وحُكِّمَتْ بك في الكُفّارِ أرْبَعَةٌ ... بيضٌ وسُمْرٌ وأغلالٌ وأصْفادُ
سِيما رِجالِ بني أيّوبَ أرْبَعَةٌ ... بيضٌ وسُمْرٌ وأمجادٌ وأنْجادُ
تَشْقى بِساعِدِكَ المَسْعودِ أرْبَعَةٌ ... هامٌ وأيْدٍ وأسيافٌ وأغْمادُ (٦)

هذا ويحرص الفاضل أيضا على تركيباته اللفويّة في شعره ،فهو يهتم بالموسيقى الدّاخليّة ،فيعمد إلى إقامة التوازن والتعادل في أبياته . وذلك بتقسيم عباراته في البيت الواحد إلى جمل قصيرة متعادلة ،تكاد كلّ جملة منها تعادل قرينتها وترتبط بها ارتباطا وثيقا . مثلما يحرص على إقامة تقفية معيّنة من خلال مفرداته المورودة في حشو البيت الشعري . يقول إبراهيم أنيس:((. . . العناية بحسن الجَرْس ووقع الألفاظ

---

(١) ديوان الفاضل : ١/١٤٦ .
(٢) الطاغية: الجبّار ،والأحمق المتكبر . (اللسان : طغي) .
(٣) المحك: اللجّاج . (اللسان : محك) .
(٤) ديوان الفاضل : ١/٢٦١ .
(٥) انظر ديوان الفاضل: ١/١٨٩—١٩٢ ،وهي طويلة تقع في خمسة وأربعين بيتا ،كلّها على هذا النمط .
(٦) المصدر نفسه : ١/١٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الأسماع يزيد من موسيقى الشعر، وذلك لأنّ الأصوات الّتي تتكرر في حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر في القافيّة، تجعل البيت أشبه بفصلة موسيقيّة متعددة النّغم مختلفة الألوان، يستمتع فيها من له دراية بهذا الفن، ويرى فيها المهارة والمقدرة[1]. وقد تجلّت هذه السمة بوضوح في شعر الفاضل الّذي واكب الحروب الصليبيّة، كما يبدو في قوله مادحا شجاع بن شاور:

وللعُقوبةِ أسْبابٌ إذا وقعَتْ ... مِنْهُم ومالِلعَطايا عِنْدَهُم سَبَبُ

كالدَّهْرِ إنْ طَلَبُوا والموتِ إنْ غَضِبُوا ... والرِّيحِ إنْ رَكِبُوا والبرْقِ إنْ وثَبُوا (٢)

وقوله:

وإنّكَ من قَوْمٍ أنَافوا على المُنى ... إذا اسْتُرْشِحوا[3] فاضوا وإن اسْتُنْقِدوا[4] شَبُّوا

وإنْ ساجلوا أوْفوا وإن وَعَدوا وَفّوْا ... وإن اسْتُنْهِضوا قاموا وإن اسْتُنْصِرُوا هبّوا

أكفُّهُمُ سُبْطٌ[5] وأعْراضُهُمْ حِمىً ... وأقوالُهُمْ فِعْلٌ وأمْوالُهُمْ نَهْبُ

وَلَوْنُهُمُ حَتْفٌ[6] ونَفْحُهُمُ[7] غِنىً ... ووَثْبُهُمُ عَدْوٌ وخَطْوُهُمُ وَثْبُ (٨)

وقد يهتم الفاضل بالإيقاع الداخلي في شعره عن طريق مقابلة لفظ معيّن بلفظ آخر في عبارتين متتاليتين. ومن ذلك قوله مخاطبا أحد ممدوحيه:

وجودُكَ مِثْلُ الماءِ والماءُ مُفْرِقٌ ... وبأسُكَ مِثْلُ النّارِ والنّارُ تَقْدَحُ (٩)

---

(١) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، مصر، ط٣، ١٩٦٥م، ص: ٢٣٩.

(٢) ديوان الفاضل: ١/ ١٥٥.

(٣) استرشحوا: أي طلب منهم العطاء. (القاموس المحيط: رشح).

(٤) أي إذا طلبوا للحرب والقتال أو قدوا نيرانها، وأجابوا داعيها.

(٥) سبط اليدين، أي سخي. (القاموس المحيط: سبط).

(٦) أي إنّ غضبهم يلفح كالنار.

(٧) النّفح: الطيب. (القاموس المحيط: نفح).

(٨) ديوان الفاضل: ١/ ١٦٥، وللمزيد من الأمثلة، انظر: ١/ ١٨٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٧، ٢٤٣، ٢٤٧، ٣٥٣، ٣٦٥.

(٩) المصدر نفسه: ٢/ ٣٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقولـــــه :

ناران : نارُ قِرىً ونارُ وقائِـــــعٍ للّهِ دَرُّكَ مُطْفِئاً ومُؤَجِّجـــــا (١)

وقولـــــه :

فألوِيَةٌ حُمْرٌ مِنَ الطَّعْنِ في العِـــدى وفي اللَّيلِ مِنْ نارٍ بألوِيَةٍ حُمْـــرِ (٢)

وأما أسلوبه ، فقد تميّز بمظاهر مختلفة استعملها ، لكي ينوّع في طرائقه فـــي التعبير . ومن هذه المظاهر ، الحوار والمبالغة والتكرار واستخدام الجمل الإنشائيّـــة فمن الأمثلة على الأسلوب الحواري قولـــــه :

وقائِلٍ وثَبَ الأعداءُ قُلْتُ نعَـــــمْ كما الغراشُ على نيرانِهِ يَثِـــبُ (٣)

وقولـــــه :

يَقولونَ العُداةُ أتَتْ سُيـــــولٌ فَقُلْتُ السَّيْلُ أخْبَرُ بالجِبـــــالِ (٤)

وقولـــــه :

قالوا متى يَهْتِبُ السُّلطانُ قُلْتُ إذا سُلِبْتَ حَظَّيْهِ مِن عَدْلٍ ومِنْ كَـــرَمِ (٥)

وأمّا المبالغة ، فهي سمة واضحة في شعر القاضي الفاضل الجهاديّ ، إذ كان يبالغ في كلّ شيء يصفه أو يتحدّث عنه ، ولا سيّما حينما كان يتحدّث عن شخصيّة البطل المسلم ، وأدوات القتال الّتي يقارع بها الأعداء ، أو حينما كان يصف المعركة ، أو اندحار الفرنج وهزيمتهم . ومن ذلك قولـــــه :

لا يُحْدِثُ النَّصْرُ في أعْطافِهِمْ مَرَحـــاً حتى كأنَّهُمُ بالنَّصْرِ ما شَعَـــرُوا

أجْرَوْا بِماءِ العِدا بينَ الرِّماحِ فمـــا يُقالُ عِنْدَهُمُ ماءٌ ولا شَجَـــرُ (٦)

---

(١) ديوان الفاضل : ١/١٣٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٢٠٤ ، وانظر أمثلة أخرى : ١/١٤٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٧٥ ، ٢/٣٦٨ ، ٥٥٠٨ .

(٣) المصدر نفسه : ١/١٤٦ .

(٤) المصدر نفسه : ١/٢٨٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٢/٤٧٦ ، وللمزيد انظر : ١/١٦٢ ، ٣٠٦ ، وغيرها .

(٦) المصدر نفسه : ١/٢٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقولـــــــه :

النَّصْرُ كانَ مُواعِداً للنَّاصِـــــــرِ ماكانَ يَحْضُرُ وهْوَ ليْس بِحاضِـــرِ
والنَّصرُ قالَ إذا أتاني نَجْـــــدَةً فبِنَفْسِهِ يكْفِي بغَيْرِ عساكِـــــــرِ (١)

وقولـــــــه :

وَإن كانَ من صرعى حُروبِ زمانِـــــهِ فقدْ جاءَ نَصْرُاللّهِ فَلْيَهْنِهِ النَّصْـــرُ
أيادٍ هي البَحْرُ الّتي لوْوَصَفْتُهـــــا بأفعالِها يُعْناً إذاً نَفِدَ البحـــــرُ (٢)

ومن السمات الأسلوبيّة الأخرى الّتي لاحظها الدّارس في شعر القاضي الفاضل الجهاديّ التكرار اللفظي ،كما في قولـــــه :

سَتُعْجَلُ عن فهْمٍ إذا صَرَّحَ الأَســـى فدُونكَ ما دامَ الزَّمانُ يُعَـــــرِّضُ
أيَقْطَعُ حَدُّ السَّيْفِ والسَّيْفُ مُغْمَـــدٌ ويَفْرُسُ نابُ اللَّيْثِ واللَّيْثُ يَرْبُـــضُ؟ (٣)

وقوله مخاطبا صلاح الدّيـــــن :

كأنّـــا ببحْرِ الكُفْرِ قد غِيضَ مـــاؤُهُ(٤) إذا ماا سْتوَتْ سُفْنٌ لها القُدْسُ كالجُودي(٥)
ولا يُخْلِفُ اللّهُ المواعيدَ بعد مـــا بَعَثْتَ القَنا مُسْتَنْجِزاً للمواعيـــدِ
لقد لَقِحَتْ(٦) بعد الحِيالِ مَطالِـــبٌ تَوَلَّدُ ما بَيْنَ الشَّجاعةِ والجـــودِ (٧)

وقد يكرر الفاضل اللفظة الواحدة أكثر من مرتين في البيت الواحد ،كما يبدو في قولـــه:

لا نقولُ الكرامُ تَعْفو وتُعْفـــــي فلِجودِ الكِرامِ قَتْلُ الكِـــــرامِ (٨)

ولم يقتصر الفاضل على تكرار الألفاظ ،بل تعدّى ذلك إلى تكرار المعنى في أبيـــات

---

(١) ديوان الفاضـــل : ١/٢٤٢ .
(٢) المصدر نفســـه : ١/٢٣٨ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك أنظر: ١/١٤٤، ١٤٧، ٢٢٦، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٦٩، ٢٨١، ٢٨٥، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٢٥/٢، ٣٥٣، ٣٨٢، ٤٤٤ ،وغيرهـــا .
(٣) المصدر نفســـه: ١/٣٦٦ .
(٤) غاض الماء: قلّ ونقص (القاموس المحيط: غيض) .
(٥) الجوديّ: جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة مـــن أعمال الموصل ،عليه استوت سفينة نوح (عليه السلام) لمّا نضب المـــاء. انظر: معجم البلدان : ٢/١٧٩ .
(٦) لقحت الناقة: قبلت اللقاح . (القاموس المحيط: لقح) .
(٧) ديوان الفاضل: ١/١٨٥ .
(٨) المصدر نفسه : ٢/٣٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مختلفة ،كما في قولـه :

مالهُ في زمانِنا من نَظيـــــــرِ قَدْرُهُ ما جَرى على تَقْديـــــرِ

فاسْتَقَرَّتْ قواعِدُ الدِّيـنِ والمُلْـــــكِ بِدارين : مِنْبَرٍ وسريـــــــرِ (١)

فقد كرر المعنى نفسه في موطن آخـر حيث يقـــول :

لكَ المَثَلُ الأعلى ومالكَ مِن مِثْـــلِ ومَدْحُ العِدى قَوْلاً ومَدْحُكَ بالفِعْلِ (٢)

وقد عمد الفاضل في شعره إلى استخدام الجمل الإنشائيّـة ،ولا سيّما حينمـا كان يستحثّ ممدوحيه على القتال ومواجهة الغزاة من الفرنج ،ويحذرهم من التهـــاون في أمرهم . ولذا فقد غلب على شعره الجهاديّ الأسلوب الخطابيّ القائم علـى التوجيه والإرشاد ،من مثل قولـــــه :

فجَرِّدُوها على الأعقابِ دافِعَـــــةً مالا يُدافِعُ عنها أَقْطَعُ القُضُـــبِ (٣)

وأستَثْمِروها على الأحْقابِ مُثْمِـــرَةً ماليْسَ مُسْتَثْمَراً من أصْغَرِ القَصَـبِ

ليْسَ الكُنوزُ على الأموالِ مُشْفِقَـــةً فاسْتَودِعوها لدى الأحْرارِ والكُتُبِ (٤)

وقولـــــه :

إذا لمْ يكنْ للمُلْكِ حَدٌّ مَهابَـــــةٍ فكيفَ يُراضُ المُعْتدي ويُـــرَوَّضُ؟

ويَرْوى دماً مِنْهُمْ ويحظى بكَفِّـــــهِ فيُصْقَلُ حَدٌّ أو يُعَطَّرُ مَقْبِـــضُ

وكيما تَصِحَّ الكيميـاءُ بضَرْبِـــــهِ فتُذهِبُ منهُ الصَّفْحَ وهو مُفَضَّضُ (٥)

---

(١) ديوان الفاضـــل : ١/٢٤٢ .

(٢) المصدر نفســـه : ١/٢٦٣ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: ١/١٥١، ١٩٦، ٢٣٦، ٢٦٤، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢/٤٤٤، ٤٦١ ، وغيرهـــا .

(٣) القُضُب : جمع قضيب ،وهو السّيف القطّاع. (اللسان : قضب) .

(٤) ديوان الفاضـــل : ١/١٤٢ .

(٥) في البيت توريـــة لا تخفـــى في كلمة (تذهب) من أذهبه بمعنى موّهـــه بالذهب ،وهذا غير مراد ،أو أذهبه من ذهب أثره ،وهو المراد ،وكلمـــة (مفضّض) من الفضّ ،وهو التفريق والكســـر ،أو مـــن شيء مفضض أي مموّه بالفضّـــة . انظر (لسان العرب) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا نومَ حتى يَنْظُرَ السَّيْفُ رُوسهُمُ (١) تُبدِّلُ جسْماً من قناً وتُعَوِّضُ (٢)

هذا وقد اتكأ القاضي الفاضل في استمداد مادّته الشعريّة على مصدرين رئيسين ،وهما : ثقافته الواسعة المتشعّبة ،وبيئته الّتي عاش فيها وتفاعل معها بكلّ مشاعره وأحاسيسه . وقد تجلّت آثار ثقافته الدينيّة المستمدّة من القرآن الكريم والحديث الشريف في معظم شعره الّذي نظمه في الصراع مع الفرنج ،ولا سيّما أنّ هذا الصراع كانت له سمة دينيّة واضحة ،فهو يقول مثلا :

بكَ* السَّيْفُ لمّا أنْ تألّقَ نجْمُهُ قضى اللّهُ ألاّ يَعْتلي نَجْمُ ناجِمِ (٣)

وقدْ رَجّمُوا فيهمْ وما رُدّ مارِدٌ يَصُبُّ على من بَيضُهُ شُهْبَ راجِمِ

فجاءُوا بأسْلابٍ إلى يَدِ قاسِمٍ وفَاءُوا بأصْلابٍ إلى أيْدِ قاصِمِ (٤)

والمعنى مستمدّ من قوله تعالى :((ولقد زيّنا السّماء الدّنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين)) (٥) . ويقول محذّرا الأعداء من سيوف المسلمين :

أنا من قائِمِ الحُسامِ نَذيرٌ فهْوَ إنْ قامَ فالرُّؤوسُ حَصيدُ

هوَ كأسٌ وسَكْرَةُ المَوْتِ قالتْ ذاكَ مِنّي ما كُنْتَ منْهُ تَحيدُ

ومتى يَلْفِظُ العدوُّ بِقَوْلٍ فَعَلَيْهِ منهُ رَقيبٌ عَتيدُ (٦)

والصّلة واضحة بين هذه الأبيات وقوله تعالى :((ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد وجاءت سكرة الموت بالحقّ ،ذلك ما كنت منه تحيد)) (٧)

---

(١) أي رؤوسهم ،وقد خفّفت للضرورة الشعريّة وإقامة الوزن .

(٢) ديوان الفاضل : ٢/ ٣٦٨ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: ١/ ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٣١٨ ، ٢/ ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣٨ ، ٤٦٥ ، وغيرها .

(*) سقطت من الأصل ،وبدونها يختلّ الوزن والمعنى . وهي فيما أرى (بك) .

(٣) تألق النّجم: التمع ،وأمّا ناجم ،فهو اسم فاعل من نجم ،بمعنى طلع وظهر (القاموس المحيط: ألق) .

(٤) ديوان الفاضل : ١/ ٢٩٣ .

(٥) سورة الملك ،آية : ٥ ،وسورة الصّافّات ،آية : ٦ .

(٦) ديوان الفاضل : ١/ ١٩٦ ،وانظر أمثلة أخرى من ذلك: ١/ ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٦٨ ، ٣٠٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٢/ ٥٠٤ ، وغيرها .

(٧) سورة ق ،آية : ١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يقتصر تأثير الفاضل بمعاني القرآن الكريم على الاستمداد المباشر منها ، وإنّما تجاوز ذلك إلى الاستمداد الضمني ، فهو يعمد مثلا إلى التذكير بقصص الأنبياء والرسل التي أوردها القرآن الكريم ، لكي يحدث في نفوس ممدوحيه التأثير المطلوب ويستحثهم على القتال والمواجهة ، كتذكيره بقصّة نوح وسفينته(١) ، وقصّة يوسف ومارآه في منامه(٢) ، وقصة سليمان مع النمل(٣) ، فهو يقول مخاطبا صلاح الدّين :

سفينةُ نوحٍ ما ركبتَ وعسكرٌ ... كطُوفانهِ والشامُ بالفتحِ قد تُودي

كأنّا ببحر الكُفر قد غيضَ ماؤهُ ... إذا ما استوت سُفْنٌ لها القدس كالجُودي (٤)

ويقول أيضا في مدح صلاح الدّين :

والسَّيفُ سيفُ اللّهِ يَسفِكُ بالحدودِ دمَ الأثامِ

ومآتمُ اللّذّاتِ قائمةٌ بأنديةِ النّدامِ

أيُّ اعتزازٍ كان للتّقوى وأيّ يدٍ اعتزامِ

ورأيتُ شمسَ الرّاحِ أو تَجْمَ الحَبابِ بلا ظلامِ

سجدَت ليوسف في انتباهٍ مثل يوسف في منامِ (٥)

وهو في قوله واصفا خيل المسلمين :

لها غرر(٦) يستضحك النّصر وجهها ... وتَفهم منها العين معنى البشائر (٧)

يعيد إلى الأذهان قول الرسول (عليه السلام) في الخيل : ((الخيل معقود في نواصيها الخير))(٨) .

---

(١) انظر : سورة هود ، آية : ٤٠ ، ٤٤ .

(٢) انظر : سورة يوسف ، آية : ٤ .

(٣) انظر : سورة النمل ، آية : ١٨ .

(٤) ديوان الفاضل : ١/ ١٨٥ ، وانظر أمثلة أخرى : ١/ ٢٠٦ .

(٥) ديوان الفاضل : ١/ ٢٨٥ ، وانظر أمثلة أخرى : ١/ ٢٧٦ .

(٦) الغرر : جمع غرّة ، وهي بياض في جبهة الفرس . (اللسان : غرر) .

(٧) ديوان الفاضل : ١/ ٢٣٧ .

(٨) ابن ماجة ، سنن ابن ماجة ، تحقيق محمّد فؤاد ، بيروت : ٢/ ٩٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا قولـــــــــه :

خَديعَةُ حَرْبِ الدَّهْرِ والحربُ خُدْعَـــةٌ وأَخْدَعُ قِرْنٍ مَنْ سَطا مُتَبَسِّمـــــا (١)

فشديد الصّلة بقوله (عليه السلام) : ((الحرب خُدْعـــة))(٢) .

وهوفي قولهمخاطبا شجاع بن شا ور ،حينما ردّ الفرنج عن مصـــر :

نُصِرْتُمُ مِثْلَ نَصْرِ المُصْطَفى فَلَكُـــمُ جَيْشانِ أَدْناهُما من نَصْرِكَ الرُّعْبُ (٣)

ينظر إلى قول النّبيّ (عليه السلام) : ((بعثت بجوامع الكلم ،ونصرت بالرّعب))(٤)

وقد استمدّ الفاضل كذلك الكثير من معانيه الشعريّة من الموروث الشعـــري، إذ تأثر بمعاني الشعراء الّذين سبقوه ،ولا سيّما الّذين نظموا شعرا في صراع المسلمين مع أعدائهم ،من أمثال أبي تمّام والمتنبّي ،وغيرهما . ولكنّه مع ذلك استطاع أن يقـــدم المعاني الّتي سبق إليها بصورة تتواءم مع ظروف عصره وأحداثه ،فأعاد صياغتها مـــن جديد ،وأضفى عليها من روحه وسماته ما جعلها تحمل طابعه الّذي تميّز به .

والجدير بالذكر هنا،أنّ الفاضل لم ينفرد بهذه الظاهرة في شعـــــره لانّ الصبغة الاتباعيّة كانت سائدة في عصره. يقول الدكتور محمود إبراهيم في معـــرض حديثه عن ابن القيسراني :((. . . تركت النزعة الاتباعيّة التي كانت سائدة في عصـــر ابن القيسراني ،وكذلك مقاييس عصره الأدبيّة ،وطبيعة الموضوع الّذي عالجه فـــي قصائده الجهاديّـة تركت كلّ هذه آثارها فيما نظم من شعر في حروب المسلميـــن مع الصليبيين))(٥) . ثمّ إنّ الاطّلاع على ما قيل من شعر في عصور ازدهاره ،كان مـــن أساسيّات الثقافة الشعريّـة . ولذا فليس غريبا أن نرى أصداء الثقافة الشعرية فـــي شعر الفاضل الّذي ارتبط بالصراع مع الفرنج . ومن المعاني الّتي استوحاها الفاضـــل من مخزونه الثقافي الشعري،وأعاد صياغتها من جديد ،قوله مخاطبا أحد ممدوحيه:

هذا وكَمْ لكَ في الوغى من عَزْمَـــةٍ بَكَّرْنَ من ثِقَـةٍ بِها العِقْبانُ

---

(١) ديوان الفاضـــل : ٢/٤٧٦ .
(٢) صحيح البخاريّ ،باب الحرب: ٤/٧٧ ،وسنن ابن ماجة: ٢/٩٤٥ .
(٣) ديوان الفاضـــل : ١/١٥١ .
(٤) صحيح البخـاريّ : ٤/٦٥ .
(٥) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ،ص: ٢١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَغْدو خِماصاً مِثْلَ ما قد مَثَّلُوا ... في حَرْبِهِ وتروحُ وهي بِطانُ (١)

وكذلك قوله مخاطبا صلاح الدّين :

مالِلطُّيورِ على الخَطّيّ عاكفةً ... تهُزُّ للرِّزقِ أعْطافا لها سُرُطا (٢)

وهو ينظر في هذه الأبيات الى قوله النابغة الذبياني[٣] في مرافقة الطير للجيش في الحرب:

إذا ما غَزَوا بالجيش حلّقَ فوقَهم ... عصائبُ طيرٍ تهتدي بِعَصائِبِ

جوانحَ[٤] قد أيقنّ أنّ قبيلَه[٥] ... إذا ما التقى الجمعانِ أوّلُ غالبِ

لهنّ عليهم عادةٌ قد عرفنها ... إذا عُرّضَ الخطيّ فوقَ الكواثِبِ[٦]

ولعلّه في قوله مخاطبا شجاع بن شاور:

يا شَمْسَ دَهْرِي ولكِنْ حَبْكُ آطِمِهِ ... ماكانَ مِثْلَ جِبالِ الشَّمْسِ يَنْقَضِبُ

قُلْ لِلّذي بأراجيفِ النُّجومِ أتى ... ماهذِهِ الشَّمْسُ مِمّا يَكْسِفُ الذَّنَبُ (٧)

ينظر إلى قوله أبي تمّام في فتح عموريّة :

أينَ الرِّوايةُ بل أينَ النُّجومُ ... وما صاغُوهُ من زُخْرُفٍ فيها ومِنْ كَذِبِ (٨)

وأما قوله في صلاح الدّين :

النَّصْرُ كان مواعِداً للناصِرِ ... ماكان يَحْضُرُ وهوَ ليسَ بحاضِرِ

والنَّصْرُ قال إذا أتاني نَجْدةً ... فبِنَفْسِهِ يكفي بِغَيْرِ عساكِرِ (٩)

---

(١) وفي هذا البيت أيضا إشارة إلى الحديث الشريف: ((لو أنكم تتوكلون على اللّه حق توكله ،لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)) .رياض الصالحين باب التوكّل ،ص: ٥٧ . والبيتان في ديوان الفاضل ، ١/ ٣١٥ .

(٢) السُّرُط: جمع سارطه ،اسم فاعل بمعنى :ابتلع . (القاموس : سرط) ،والبيت في ديوان الفاضل: ١/ ٢٤٩ .

(٣) ديوان النابغة الذبياني ،تحقيق عليّ ملكي، بيروت ، ١٩٦٩م ،ص: ٢٤—٢٥ .

(٤) جوانح : موائل . (القاموس المحيط : جنح) .

(٥) القبيل: الجماعة من الثلاثة فصاعدا ،وهي هنا الجيش. (القاموس: قبل) .

(٦) الكواثب: جمع كاثب ،وهو منسج الفرس، أو أعلى الكتفين . (القاموس : كثب) .

(٧) ديوان الفاضل : ١/ ١٤٧ .

(٨) ديوان أبي تمّام ،تحقيق محمّد عبده عزّام ،القاهرة ، ١٩٥٧م: ٢/ ٤٢ .

(٩) ديوان الفاضل : ١/ ٢٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فواضح الصّلة بقول المتنبّي مادحا سيف الدولـــة :

فلمّا رَأوهُ وَحْدَهُ قَبْلَ جَيْشِـــهِ دَرَوا أنّ كلّ العالمينَ فُضـــولُ (١)

وهو في قوله مشيدا بأحد ممدوحيـــه :

يَبَشٌّ من هَوْنٍ لإقْدَارِهـــمْ والسّيْفُ في الرّوْعِ يُرى هَشّـــا (٢)

ربّما استوحى فكرته من قول البحتـــريّ:

ضَحوكٌ إلى الأبطالِ وهو يَرُوعُهُـــم وللسّيْفِ حَدٌّ حين يَسْطُو ورَوْنَـــقُ (٣)

وقد استطاع الفاضل بمهارته الفنيّة أن يقدّم هذه المعاني مع شيء مـــن الزيادة ، بعد أن أعاد صياغتها ، وصبّها في قوالب جديدة تتفق مع روح عصره . إلاّ أنّ الفاضل ظلّ محافظا على أصالتـــه وابداعه ، إذ لم يدع موروثه الثقافي يطغى علـــى شخصيّتـــه ويطمسهـــا .

وفي شعر الفاضل الجهاديّ ، كما يكشف لنا الاستقراء الدّاخلي لهذا الشعر، ما يدلّ دلالة واضحة على أنّـــه تأثر أكثر ما تأثر بشعر أبي الطيّب المتنبّي وطرائقـــه في التعبير. فقد كان الفاضل معجبا بالمتنبّي أيّما إعجاب . يقول ضياء الدّين ابـــن الأثير لدى دخوله مصر:((. . . ورأيت النّاس مكبّين على شعر أبي الطيّب دون غيـــره فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، وقلت : إنْ كان لأنّ أبا الطيّب دخـــل مصر ، فقد دخلها قبله من هو مقدّم عليه ، وهو أبو نواس الحسن بن هانئ ، فلم يذكـــروا لي في هذا شيئا ، ثمّ إنّي فاوضت عبد الرحيم البيسانيّ في هذا . فقال : إنّ أبا الطيّـــب ينطق عن خواطر النّاس . ولقد صدق فيما قال))(٤) .

وقد تأثر الفاضل كذلك بألوان الثقافة الأخرى الّتي اكتسبها . وفيما يلـــي بعض من مظاهر تأثره بثقافته اللغويّـــة والعروضيّـــة والعلميّـــة . يقول الفاضل :

وحدّثْ بها بِيضَ اللّيالي وسُودَهـــا بأنّ الوغى انجابتْ بلا البِيضِ والسّمرِ

---

(١) ديوان المتنبّي : ٣/١٠٤ .

(٢) ديوان الفاضل : ١/٢٤٦ ، وللمزيد من ذلك ، انظر: ١/٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، وغيرهـــا .

(٣) ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، القاهرة ، ١٩٦٤م: ٣/١٤٩٦ .

(٤) الوشي المرقوم ، ص: ١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنّ صُروفَ الدّهْرِ أغرَبَ حُكْمُهـــا فلا الرّفْعُ في زيدٍ ولا النّصْبُ في عَمْـرو (١)

ويقول مخاطبـا صلاح الدّيـــن :

وكانَتْ بُيوتُ المُلْكِ مَنْقُوضَةَ البِنـا فَجِئتُمْ على الأعْقابِ فيها قَوافِيـا (٢)

ويقـول[٣] أيضـا :

ما الغزو في أيّامكـم والنّصر رمية غيـر رام (٤)

وبمكنة الدارس أيضا أن يجد في شعره جوانب أُخرى من ثقافته العلميّة. ومن ذلـك قولـه :

وكَيْما تَصِحّ الكِيمياءُ بِضَرْبِـهِ فَتُذْهِبَ منهُ الصّفْحَ وهو مُفَضّضُ (٥)

وإذا كنّا نحمد للفاضل سعة اطّلاعه وغزارة حفظه وافادته من ثقافته المتنوّعة المتشعّبة ، فإنّ من الحق كذلك أن نقرّ بأنّ اللفظيّة المفرطة قد طغت على شعره وأثقلته ،وجعلت عباراته في كثير من الأحيان بحاجة إلى جهد عقلي من أجل أن يفهم المقصود منها .

---

(١) ديوان الفاضل : ١/٢٠٧.
(٢) المصدر نفسه : ٢/٣٣١.
(٣) المصدر نفسه : ١/٢٨٧.
(٤) يشير إلى المثل المعروف (رب رميةٍ من غيرِ رام) . مجمع الأمثال ١/٢٩٩ .والبيت في ديوان الفاضل: ١/٢٨٧.
(٥) ديوان الفاضل: ٢/٣٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخيال والصّورة الشعريّـــــة :

تمثل الخيال في شعر الفاضل الّذي واكب حروب المسلمين مع الفرنج في صـور البيان المعروفة من تشبيه ،واستعارة ،وكناية ،وغيرها . وقد جاءت معظم صوره الشعرية جزئيّـة ،وإن كنّا نظفر في شعره بصور شعريّة متكاملة ،ولا سيّما حينما كان يصـــف المعـــارك وأدوات القتال المستعملة فيها (١) . وهي صور حسيّة ،يتكئ في رسمهـــا على الحواس البشريّـة المختلفة من بصر ،وسمع ،وذوق ،وغيرهـــا .

وأمّا مصادر الصّور الشعريّـة في شعر الفاضل الجهاديّ ،فقد تعدّدت وتنوّعت إذ قد تكون مستوحاة من أجواء الحروب ،كما في قوله مخاطبا شجاع بن شاور فـــي إحدى مدائحـــه فيـــه :

وَطهّرْتَ أرْضاً قد وَطِئتَ تُرابَهـــا ... فلَسنا نَرى فيها لصَدّكَ من فِتْـــرِ
فألويةٌ حُمْرٌ من الطّعْنِ في العِـدى ... وفي اللّيلِ مِنْ نارٍ بألويةٍ حُمْـــرِ
تُعيدُهُمْ تِلْكَ المَزائمُ إنّ سَطـــتْ ... حَواصِلَ مِصْرٍ في حواصِلَ من نَصْـــرِ
وتكْسو الظُّبا مِنْهُمْ دِماءٌ بَدَتْ بهـا ... لنا النّارُ لا تُطْفِي وتَطْغُو على النّهرِ
كأنّ عِداكُمْ مُفْصَبُونَ على القَنـــا ... وانْ يَلْقَها مِنْهُمْ جريءٌ فبالظّهْـــرِ
ألا شدّ ما أسقَتْ يداكَ فأنبتَـــتْ ... غُصونَ قَناً والهامُ فيهنّ كالثّمَـــرِ
إذا شربت خَمْرَ الدّما وترنّحـــتْ ... أقَمْتَ بأنْ حَطّمْتها الحَدّ في السُّكْرِ (٢)

وفي قوله مخاطبا ابن رزّيـــك :

ولولا جِلاءُ مُحَيّـا الأجَـــلّ ... مُحَيّـــاكَ دامَ كذا باسِـــرا (٣)
أعادَكَ يومَ يُثيرُ العَجـــاجَ ... بِرَكْضٍ بِـهِ سَكّـــنَ الثّائِـــرا
وَرَدّ إليكَ بِرَغْمِ الصّبـــاحِ ... أَفْقَكَ من سُمْرِهِ ظاهِـــرا

---

(١) انظر ديوانه : ١/ ١٣١، ١٤٠، ١٤٨، ٢٠٦، ٢٢٦، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٨٢، ٢/ ٣٢٥، ٣٦٨، وغيرهـــا .

(٢) ديوان الفاضـــل : ١/ ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٣) باسر : اسم فاعل من بسر ،بمعنى عبس وقهر . (القاموس المحيط : بسر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَضَرْبٍ لهُ ناجِرٍ[1] قد أَعـــــادَ بِشَهْرَيِ قُماحٍ[2] لنا ناجِـــــرَا
فجِسْمٌ تَراهُ بِهِ واقِعـــــاً وهَامٌ تَراهُ بِهِ طائِـــــرَا (٣)

ومما ينبغي ذكره هنا ،أنّ الفاضل كان في تصويره للمعركة يتكئ على الألفـاظ الموحية بالحركة والصوت. ومن ذلك قولـــه :

الحِصْنُ في يَوْمِ الوَغـــى من تَحْتِهِ الحِصْنُ المَنِيـــعُ
يُنْشِي سَما نَقْـــعٍ ووَا بِلُ مُزْنِها السَّمُّ النَّقيـــعُ
ووقائِعٍ رَجَفَتْ على أعدائِهِ قَلْبا الوُقـــوعُ
إنْ صَلَّتِ البِيـضُ الرِّقـــا قُ فللرِّماحِ بها رُكـــوعُ
وكأنّ غُرَّةَ وَجْهِـــهِ في لَيْلِها فَجْـرٌ صَديـــعُ (٤)

وقوله مصوّرا ما تفعله سيوف صلاح الدّين في ساحات القتـــال :

في محارِيبِ حَرْبِهِ البِيضُ صَلَّـــتْ ورُكوعُ الظُّبا سُجودُ الهَـــامِ (٥)

وقد تكون الصورة الشعريّة في شعر الفاضل الجهاديّ مستقاة من مهنة الكتابـــة الّتي مارسهـا وخبرها ،كما يبدو في قوله وهو يتحدّث عن سيوف صلاح الدّيـــن :

---

(١) ناجر: اسم فاعل من نجرت الابل ،أي اشتدّ عطشها ،بمعنى أنّ الضـــروب متعطش إلى أجسامهم ،وقد تكون اسم فاعل من نجر أي نحت الخشـــب بمعنى أنّ الضرب يؤلم حتى كأنه يكشط جلودهم ،ويبدو لي أنّ المعنـى الأوّل أقرب إلى الصواب .انظر: (القاموس : نجر) .

(٢) شهرا قُماح : أشدّ ما يكون من البرد . القاموس المحيط: (قمح) .

(٣) ديوان الفاضل: ١/ ٢١٤ـ٢١٥ ،وللمزيد من الأمثلة على ذلك ،انظر: ١/ ١٣١، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٨، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٣، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٩١ ،وغيرها .

(٤) ديوان الفاضل : ١/ ٢٥١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢/ ٤٤٤ ،وللمزيد من الأمثلة على الألفاظ الدّالة على الحركـة واللون والصوت في شعره الجهاديّ ،انظر: ١/ ١٣١، ١٤٨، ١٥٠، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٦، ٢٨٠، ٢٨٥، ٣٠٥ ،وغيرهـــا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ماضِيـاتٌ على الدَّوامِ دَوامِـي (١) هي في النَّصْرِ تَجْدَةٌ إلاسـلامِ
في يَمينِ السُّلْطانِ إن جَرَّدَتْهـا أشْبَهَتْها صَواعِقٌ في غَمـامِ
تَنْثُرُ الهامَ كالحُروفِ فما أشْبَهَـه هـذي السُّيـوفِ بالأقْـلامِ (٢)

وقد يتّخذ الفاضل بعض صوره الشعريّة من البيئة الاجتماعيّة المحيطة به ومن واقع حياة النّاس ،كالمصافحة ،والزواج ،والخضاب ،ووسائل الزينة واللباس،وغيرها ومن الأمثلة على ذلك قوله :

اللّهُ جارُكَ والآجالُ كاشِرَةٌ (٣) عن القواضِبِ من عُصْلِ القَنَيّـاتِ (٤)
وقدْ تَداعتْ بِها الأبطالُ واعترَفَتْ والطَّعْنُ بينَهُمُ مثلُ التَّحيّـاتِ
وقدْ تَهادَتْ سُيوفُ الهِنْدِ إذ خُضِبَتْ كالشُّرْبِ (٥) حين تَهادى بالزُّجاجاتِ (٦)

وقوله مصوّرا مصر في عهد شجاع بن شاور و أبيه ،وما عاشته من أمن وطمأنينة:

ما مِصْرُ إلاّ عَروسٌ في زمانِكُـمُ تُجْلَى وَيُعْقَدُ من أهرامِها القُبَبُ
عرّج بها فشجاعٌ دُونها أسَـدٌ هي السّلامةُ مَحْفوفٌ بِها العَطَبُ
في كلِّ يومٍ بِها عُرْسٌ وَمَحْضَرُهُ (٧) بِها السُّيوفُ التي في العُرْسِ تَخْتَضِبُ (٨)

وقوله مصوّرا سيوف صلاح الدّين أيضا :

لا فتَتْ ظُبَاكُم في الوغَى وصَفاتُهـا دماءَ الأعادِي أوْ دِماءَ المَحابِرِ

---

(١) دوام: جمع دامية ،أي يسيل منها الدّم. (اللسان : دمي).
(٢) ديوان الفاضل: ٢/ ٤٤٤ .وللمزيد من الأمثلة ،انظر: ١/ ١٤٣، ٢٣٥، ٢٣٧، وغيرها .
(٣) كاشرة: اسم فاعل من كشر عن أسنانه: أي أبداها . (القاموس المحيط : كشر) .
(٤) العُصْل: المعوجّة .وأمّا القنيات ،فهي الأضراس الأربع الّتي في مقدّم الفم ثنتان من فوق وثنتان من أسفل .انظر: (القاموس المحيط: عصل) .
(٥) الشّرب: القوم يشربون . (القاموس المحيط: شرب) .
(٦) ديوان الفاضل : ١/ ١٧٣ .
(٧) المَحْضَر: السّجل يكتب في واقعه خطوط الشهود في آخره بصحّة ما تضمّنه صدره . (القاموس المحيط: حضر) .
(٨) ديوان الفاضل : ١/ ١٥١ ،وانظر أمثلة أخرى من ذلك: ١/ ١٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيا عَجَباً للمُلْكِ قَرَّ قَرارُهُ ... بِمُخْتَلِفاتٍ مِن قَناكَ الشَّواجِرِ (١)

طَوَاعِنُ أسْرارِ القُلوبِ نَواظِرٌ ... كأنَّكَ قَدْ نَصَّلْتَها بِنَواظِرِ

تَمُدُّ إلى الأعداءِ مِنها مَعاصِماً ... فَتَرْجِعُ من ماءِ الكُلَى بِأساوِرِ (٢)

واستمدّ الفاضل بعض صوره الشعريّة من الطبيعة بمظاهرها المختلفة ،كالبحر ،والسيل والرّعد ،والبرق ،والليل ،والنّجوم ،وذلك واضح في تصويره لسيوف صلاح الدّين اذ يقول .

هي كالموارِدِ(٣) في العُيونِ وطالما ... نَقَعُوا بِها ماتِ الكُماةِ(٤) صَداها

أنِفَتْ يَداهُ لَها فلم تَعْطَل لدى ... تَجْريدِها فيمَنِ الدِّماءُ حُلاها

هي في يَدَيهِ أمواجُ تُسرى ... ونُفوسُ مَنْ قَتَلَتْهُ من غَرْقاها

لا بل زِنادُ(٥) جَهنَّمٍ في كَفِّهِ ... مِنها فكلُّ مكذَّبٍ يَصْلاها (٦)

وقوله في شجاع بن شاور وأبيه :

ذَكَرْتُ عُلاكُمُ في كلِّ حالٍ ... وكُنْتُمْ عِنْدَها أعلى عُلاءَ

فَمَجْدُكُمُ إذا سُحُبٌ تَمالَتْ ... وبِشْرُكُمُ إذا بدرٌ تَراءى

وجودُكُمُ إذا غَيْثٌ تَدانى ... وقَدْرُكُمُ إذا نَجمٌ تَناءى

وخَيْلُكُمُ إذا ظُلَمٌ أجَنَّتْ ... ونَصْرُكُمُ إذا صُبْحٌ أضاءَ (٧)

وقد تكون الصورة الشعريّة عنده مستمدّة من الطبيعة الحيّة ،كالأسود ،والطيور والأفاعي ،والعقارب ،كما يبدو في قوله مصوّرا سيوف بطله :

كأنّما أسْيافُهُ في الوغى ... طَيْرٌ يَرى الهامَ له عُشّا (٨)

---

(١) الشواجر : جمع شاجرة ،وهي : الطاعنة . (القاموس المحيط : شجر) .

(٢) ديوان الفاضل : ١ / ٢٣٧ ،وللمزيد ،انظر : ١ / ٢٤٦ ، ٢ /٣٢٥ ، ٣٣٢ ،وغيرها .

(٣) الموارد : جمع مورد ،وهو : مكان ورود الماء . (القاموس المحيط : ورد) .

(٤) الكماة : جمع كميّ ،وهو : الشجاع أولابس الحديد . (القاموس المحيط : كمي) .

(٥) الزناد : جمع زند ،وهو : العود الذي يقدح به النّار . (القاموس المحيط : زند) .

(٦) ديوان الفاضل : ٢ /٣٢٥ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر : ١ / ٢٦١ ، ٢ / ٤٧٠ ،وغيرها .

(٧) المصدر نفسه : ١ / ١٣٠ وللمزيد من الأمثلة ،انظر : ١ / ١٥٠ ، ١٦٤ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٥ و ٢ / ٣٨٢ ، ٤٤٤ ،وغيرها .

(٨) ديوان الفاضل : ١ / ٢٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله في رماح صلاح الدّين مستعيرا صورة الأفاعي :

يمشي بها سُرُجاً[1] ويَوْمُكَ مُظْلِمٌ فترى الذّوابلَ[2] نُصِّلَتْ بِذُبالِ[3]
مِثلَ الصّلالِ[4] يَحوفُ[5] نَفْثُ طِعانِها يَسْتَلْئِمُ العاري ثِيابَ صِلالِ (٦)

وقوله مصوّرا دخول الزنكيين مصر ،لدرء الفرنج عنها :

سَرَيْتُم إلينا والنُّجومُ غَوافِلٌ على غَفْلَةٍ والحادِثاتُ نَوائمُ
أُرَى مُخبِراً عنها كأنّي مُخَبَّرٌ ومُسْتَيْقِظاً فيها كأنّي نائِمُ
وطِرْتُمْ إليها والصّفاحُ[7] كأنّها خَوافٍ[8] وقاماتُ الرّماحِ قَوادِمُ[9]
وتُزجي[10] الكُماةُ الكُمْتَ طالِبةَ العِدا فيا لَصُقورٍ فوْقَهُنّ ضَراغِمُ (١١)

هذا إضافة إلى ما استقاه الفاضل من ثقافته الدّينيّة والشعريّة الواسعة[12] ممّا سبق أن أوضحناه في الصفحات السابقة .

ويلحظ الدارس ميل الفاضل الشديد في شعره الجهاديّ إلى التشخيص والتجسيم ،لكي يزيد معانيه وضوحا وقوّة . ولذا كان يقدّم معانيه الذهنيّة المجرّدة في صور حسيّة . فالآمال تستنجد ،والسيوف ترى وتسمع،وللرّماح أيد وعمائم. ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ قوله :

---

(١) السرج : جمع سراج .
(٢) الذوابل : جمع ذابل ،وهو : الرّمح الرّقيق . (القاموس المحيط: ذبل) .
(٣) الذبال : جمع ذبالة ،وهي فتيلة السراج . (القاموس المحيط: ذبل) .
(٤) الصّلال : جمع صل ،وهي : الحيّة أو الدقيقة الصفراء . (القاموس المحيط: صلل) .
(٥) يحوف: يدعو إلى الهرب منه . (القاموس المحيط : حوف) .
(٦) ديوان الفاضل : ١/ ٢٧٥ .
(٧) الصّفاح : جمع صفيح ،وهو: عرض السّيف . (القاموس المحيط: صفح) .
(٨) الخوافي : ريشات إذا ضمّ الطائر جناحيه خفيت . (القاموس المحيط: خفي) .
(٩) القوادم: ريشات في مقدّم الجناح . (القاموس المحيط : قدم) .
(١٠) أزجى : ساق ودفع . (القاموس المحيط : زجي) .
(١١) ديوان الفاضل : ١/ ٣٠٥ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: ١/ ١٤٦، ١٥١، ١٦٢، ١٧٥، ٢/ ٣٠٢، ٤٤٤ ،وغيرها .
(١٢) انظر : ديوانه : ١/ ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٦، ٢٣٩، ٢٧٩، ٢٨٢، ٣١٥، وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا مَلِكاً تُنْشِيءُ أفعالُـــــــهُ فيهِ مِن الأقْوالِ ما يُنْشـــــــا
تَسْتَنْجِدُ الآمـالُ في قَصْـــــرِهِ سَماحَ كَفٍّ يُحْسِنُ البَطْشـــــا
هَيْبَتُهُ تُفْمِدُ أسْيافَـــــــهُ ورُبَّ جُرْحٍ لَيْسَ في الأحْشـــــا (١)

وقولـــــــه :

ولهُ سَيْفٌ كناظـــــــرِهِ حارسٌ للخَلْقِ يَقْظـــــانُ
للظُّبا الأجفانُ تَعْرِفُهـــــا ولهذا السَّيْـــــفِ آذانُ (٢)

وقولـــــــه :

عَمائِمٌ للسِّنانِ تُلْبِسُهـــــا الرُّمْـــحَ وَتُرْخي لها الدِّمـــا عَذَبـــــا (٣)
وَتَسْتَبيحُ العِدا بها قُضُبـــــاً (٤) تَجُرُّ يَوْمَ الوَغى لها القُضُبـــــا (٥)

---

(١) ديوان الغاضـــــــل : ١/٢٤٦ .
(٢) المصدر نفســـــــه : ١/٣١٨ .
(٣) العَذَب : ما يتدلّى من العمامة إلى الخلف . (اللسان والقاموس المحيـــــط عـــذب) .
(٤) القُضُب : جمع قضيب ، وهو غصن الشجرة ، وأمّا الّتي في نهاية البيت ، فهي جمع قضيب ، وهو السّيف القاطع البتّار . (القاموس المحيط : قضب) .
(٥) ديوان الغاضل : ٢/٤٦١ ، وللمزيد من الأمثلة ، أنظر : ١/١٤٧ ، ١٩٤ ، ٢٢٢ ، ٢٤٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٨ ، و٢/٣٦٥ ، ٤٧٠ ، وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البنـــاء الفنّـــي :

سبق أن بيّنا أنّ معظم ما نظمه الفاضل عن المعارك والحروب قد ورد مـــن خلال قصائد المديح . ولذا فإنّ النّاظر في تلك القصائد يرى أنّ بعضها كان موجّهـــا إلى بعض وزراء الفاطميين وأبنائهم ، وبعضها كان موجّها إلى صلاح الدّين وبعـــض أفراد أسرته . أمّا قصائده الّتي نظمها على عهد الفاطميين ، فقد سار في معظمهـــا على نهج القصيدة العربيّـة التقليدي ، فكثيرا ماكان الفاضل يفتتحها بمقدمات طويلـــة يحرص فيها على أن تكون ملائمة لموضوع القصيدة الأساسيّ ، وبعدها ينتقل إلى الغـــرض الّذي نظم قصيدته من أجله ، وهو المدح غالبا ، فيتوقّف طويلا عند شخصيّة بطلـــه الممدوح ، ويضفي عليه الكثير من الصّفات والفضائل العربيّـة والإسلاميّـة التقليديّـــة الّتي نسبها الشعراء العرب من قبل إلى ممدوحيهم ، كالجود ، والشجاعة ، والإقـــدام والهيبة ، وسداد الرّأي ، وقيادة الجيوش ، والمقدرة على خوض المعارك والحروب ، والعـدل والحرص على مصلحة الرّعيّـة ، وغيرها من الفضائل والصّفات الّتي اقتضتها طبيعـة العصر آنذاك ، والظروف الّتي قيلت فيها . ومن الأمثلة على ذلك قصيدته الّتي مطلعهـا :

وَحوشِيَ أنْ يُقالَ لَها عِتابِـــي ومَنْ ذا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعـــاءَ (١)

وقصيدته الّتي نظمها في شجاع بن شاور ، ومطلعها :

كَلِفْتَ بتَعْنيفي بلا طَلَبٍ عُـــذْرِي وأفرطتَ في عَذْلي وفرّطتَ في عُذْري (٢)

وقصيدته الّتي قالها في طلائع بن رزّيك مادحا ، ومطلعها :

إذا ما الغزالُ سَرى زائـــرا فلا تأمَنِ الأســدَ الزّائِـــرا (٣)

وذلك لأنّ الفاضل في تلك الفترة من حياته لم يشارك مشاركة فعليّـة في تلك الحـروب وإنّمـا بنى وصفه لها على التصوّرات والسماع ، وربّما جاء بها ليصوّر فضائل ممدوحيـــه

---

(١) انظر ديوان الفاضـــل : ١/ ١٢٩ — ١٣٣ .

(٢) انظر المصدر نفســـه : ١/ ٢٠١ — ٢٠٧ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ١/ ٢١٢—٢١٧ ، وللمزيد من الأمثلة على ذلك ، انظـــر ١/ ١٣٨—١٤٤ ، ١٨٩—١٩٢ ، ٢٢١—٢٢٥ ، ٢٥٠ — ٢٥١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ — ٢٩٧ ، ٢/ ٣٣٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٣٨١ ، وغيرهـــا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرسم معالم شخصيّاتهم ولذا فقد جاء حديثه عن المعارك والحروب في تلك الفترة بعيدا عن الحقيقة والواقع ،فيه الكثير من المبالغة والتّهويل ،ولا سيّما حينما كان يتغنّى بوقائع سابقة خاضها بعض ممدوحيه (١).

وأمّا قصائده الّتي نظمها في صلاح الدّين ،فقد ابتعد فيها عن المقدّمات ودخل في موضوعه مباشرة ،إذ تحدّث عن عزم صلاح الدّين على مواصلة الجهاد في سبيل اللّه ،ووصف جيشه الّذي يقاتل به الفرنجة من الغزاة ،وتحدّث عن معاركه وصوّر هزائم أعدائه ،ثمّ تغنّى بمآثره وأعماله الّتي قام بها ، من ذلك قصيدته الّتي مطلعها :

جهادُكَ حُكْمُ اللّهِ ليسَ بِمَصْدودِ وعَزْمُكَ أمرُ اللّهِ ليسَ بِمَرْدودِ (٢)

وقصيدته الّتي مطلعها :

نادَى الرّجالُ به ونادَى سَيْفُهُ في كَرْبِهِمْ ياذا الفَقارِ ويا عَلِيّ (٣)

وممّا تقدّم ،نرى أنّ القاضي الفاضل ،كان يراوح في مطالع قصائده ،فمنها ما كان يستهلّه بمقدمات ملائمة لغرضه ،ومنها ماكان يبتعد فيه عن المقدّمات،وفقا لمقتضيات الظّروف الّتي تنظم فيها تلك القصائد ،وهو بهذا يراعي ذوق عصره أيضا يقول معاصره ضياء الدّين ابن الأثير:((. . . يجب على الشاعر إذا نظم قصيدة ،أنْ ينظر ،فإذا كانت مديحا صرفا لا يختصّ بحادثة من الحوادث ،فهو مخيّر بين أن يفتتحها بغزل أولا . أمّا إذا كانت في حادثة من الحوادث ،كفتح أو هزيمة جيش،أو غير ذلك فإنّه لا ينبغي الابتداء بالغزل ،لانّ هذا يدلّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية ،أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه ،ولأنّ الأسماع تكون متطلّعة إلى ما يقال في تلك الحوادث)) (٤). ولكنّ الفاضل مع ذلك ظلّ محافظا ـ إلى حد كبير ـ على

---

(١) انظر ديوانه : ١/ ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ،وغيرها .

(٢) انظر المصدر نفسه: ١/ ١٨٤ — ١٨٦ .

(٣) انظر المصدر نفسه: ١/ ٢٧٩—٢٨٠ ،وللمزيد من الأمثلة ،انظر: ١/ ٢٨٥ ، ٣١٤ ،وغيرها .

(٤) المثل السائر(ط٢) ١٩٦٢م ٣/ ٩٦—٩٧ ،وانظر حول ذلك أيضا كتاب الصّناعتين ،ص: ٤٥١ ،والعمدة : ١/ ٢١٧—٢٤١ ، وخزانة الأدب ،ص: ٣—١٩ ،وغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحدة قصيدته العضويّة ،وعلى التوازن الفنّي فيها ،إذ كانت قصائده تدور حول محور واحد ،وكلّ مايذكر في القصيدة ممّا له صلة بصورة من الصّور مع ذلك المحوره وقد ينبغي لنا هنا ،من أجلتوضيح ما سبق أنْ نحلّل نصّا من نصوصه الشعريّة الّتي نظمها في صراع المسلمين مع الفرنج في عهد الدولة الفاطميّة ،لكي نرى طريقة الفاضل في بناء معماره الفنّي . وهو قصيدته[1] الّتي أشاد فيها بشجاع بن شاور أحد أبطال الصراع آنذاك ،وقد استهلّها بمقدّمة غزليّة طويلة ،سار فيها على نهج القدماء في مطالع قصائدهم ،تحدّث فيها عن موقفه من العذّال واللائمين الّذين كانوا يلومونه على تعلّقه بمن يحب ،ويستحثونه على الصبر والجلد ،فيؤكّد لهم أنّ لومهم لهلا يفيد لأنّه أصبح لا يقوى على الفراق والهجر :

كَلِفْتَ بتَعْنيفي بلا طَلَبٍ عُذْري ... وأفْرَطتَ في عَذْلي وفرّطت في عذري
إذا ما جَرى دَمْعي جَواباً لعاذِلٍ ... فإنّ انتِظامَ الوَجْدِ في ذلكَ النّثر
وحارْبْتَني فأذن بِحَرْبٍ لواحظ ... أُجَرِّدُها تَصْلي فتَضمَن لي نَصْري
وانّي لأهوى العَذْلَ في حُبّ قاتلي ... ولَمْ أرَهُ يُغْني ولكنّهُ يُغْري
وانّي إذا أجْرَيْتُ ذِكْرَكَ خالياً ... لأتلذّ فيكُم بالدّموعِ الّتي تَجْري
يَقولونَ إنّ الصَّبْرَ يُعْقِبُ راحَةً ... وماضَمِنُوا تَبْليغَ عاقِبَةِ الصّبْرِ
ولو أنّ قَلْبيَ بينَ جَنْبَيّ حاضِرٌ ... شَكَوْتُ به ما قَدْ لقِيتُ من الضُّرِّ
أغرَّ عُيونَ القَوْمِ أنّي مُطْلَقٌ ... وما عَلِمُوا أنّي من الوَجْدِ في أَسْرِ
فلا تَحْسبَنّي ضاحِكاً عن مَسَرّةٍ ... فكَمْ ضاحِكٍ باكي العُيونِ من الفِكْرِ (٢)

وينتقل الفاضل إلى الحديث عن المرأة فيتغزّل بها غزلا حسّيا ،إذ يتوقف عند مواطن الجمال فيها جريا على عادة القدماء من الشعراء في مطالع قصائدهم ،فيقول :

وغَيْداءَ مِثْلِ الخَمْرِ يُعْقِبُ وَصْلُها ... خُماراً[3] ولكِنّ الخَديعَةَ بالسّكْرِ
على أنّني أستَوْقِفُ الخَمْرَ إنْ سَرَتْ ... وتَبْلُغُ مالا يَبْلُغُ الخَمْرُ من سِرّي

---

(١) وهي قصيدة طويلة يبلغ عدد أبياتها مئة وأحد عشر بيتا . انظره ديوانه ١/ ٢٠٠ — ٢١٠ .

(٢) ديوانه : ١/ ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٣) الخُمار: ألم الخمر وصداعها وأذاها . (القاموس المحيط: خمر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بَدَتْ فأرَتْنِي غُرّةَ الدّهرِ طَلْعَةٌ فَمَنْ لي بها والعيْشُ في غُرّةِ الدّهْرِ (١)

وبعد هذه المقدمة الطويلة ،ينتقل الفاضل انتقالا موفّقا إلى غرض قصيدته الأساسي الّذي نظمت من أجله ،وهو المديح ،فيتوقّف طويلا عند صفات الممدوح من الناحيتين الخَلْقية والخُلُقية ، ويتحدّث عن فضائله العربيّة والإسلاميّة المتمثلة بالشجاعة والعدل والجود والحلم ،ويضفي عليه الكثير من الصفات الحربيّة الّتي اقتضتها طبيعة العصر آنذاك . فهو إضافة إلى ما يتحلّى به من شمائل ، يرهب الأعداء ،ويفتك بهم . يقول :

وَلَمّا رَأتْ عَيْني شُجاعَ بنَ شاوَرٍ عَجِبْتُ لأخْبارٍ تَقِلُّ عن الخُبْرِ
بَدَتْ صورَةٌ بل سورَةٌ قد تَنَزّلَتْ مُحَيّاه مِنها مُوجِبٌ سَجْدةَ الشُّكْرِ
وسَبّحْتُ ربَّ العالمينَ لأنّني رأيْتُهُمُ مُستَجْمعينَ بلا حشْرِ
وقدْ سُيِّبَتْ أرْزاقُهُمْ من يمينِهِ وهَلْ يَسْتَجيرُ القُطْرُ يوْماً سِوى القَطْرِ؟!
ودارُكَ بالدُّنيا وكُفُّكَ بالحَيا وظِلُّكَ بالمَحْيا ويوْمُكَ بالدّهْرِ
ومن خَطَبَ الحسْناءَ مُرْخِصُ مَهْرِها فإنّك أنْصَفْتَ المكارمَ في المَهْرِ
بحِلْمٍ بلا ضَعْفٍ وحُكْمٍ بلا هوىً وفَتْكٍ بلا ذُعْرٍ وجودٍ بلا عُذْرِ
وسُحْبِ يدٍ لم تَهْمِ إلاّ بأحْمَرٍ ففي الحربِ أو في السِّلْمِ بالدّمِ والتِّبْرِ
فألويةٌ حُمْرٌ من الطّعْنِ في العِدى وفي اللّيْلِ من نارٍ بألويةٍ حُمْرِ
وتَكْسُو الظّبا مِنهمْ دِماءً بَدَتْ بها لنا النّارُ لا تُطْفَى وتَطْفوا على النّهرِ (٢)

وقد يتراءى لنا أنّ المقدّمة جاءت متلائمة مع الجوّ العامّ الّذي نظمت فيه القصيدة ، فكأن الفاضل يريد أنْ يقول إنّه لا يشغله شاغل عن حبّ شجاع بن شاور والإشادة به ،ولما يتصف به ،ولما يفعله ،ويحاول وهو يتحدّث عن ممدوحه أن يضفي عليه صفة التقوى ونصرة الدّين ،إذ هو حريص على إعلاء كلمة اللّه والسموّ بالحكم وذلك إذ يقول :

ووافَيْتَ من لينِ الخلائِقِ والظُّبا بأسْهلَ من مُزْنٍ وأخْشَنَ من صَخْرِ

---

(١) ديوان الفاضل : ١/٢٠٢ — ٢٠٣ .
(٢) المصدر نفسه : ١/٢٠٣ — ٢٠٤ ،وانظر أيضا ،ص: ٢٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فللّهِ ما ألبَسْتَ ذا الدّينِ من عُلـــى وللّهِ ما ألبَسْتَ ذا المُلْكِ من فَخْـــرِ (١)

وبعد أن يشيد الفاضل ببطله ينتقل إلى الحديث عن المعركة فيصفهـــا بأنّها كانت خاطفـة ،إذ جعلت العدوّ ينهزم قبل أن يصل إليه الممدوح . ويتوقّـف الفاضل عند صورة جيشه الّذي خاض به المعركة ،فيقدّمه لنا كثيفا جرّارا يحوّل النهـار ليلا من كثرة الغبار المنبعث من حركته ،بينما يظلّ الممدوح من وسط المعركة فيبـدّد الظلام بوجهه المشرق المضيء ،ويلقي الرّعب في صدور الأعداء حينما يرونه:

بجَيشٍ إذا ما النّقع أبدى حديـدَهُ حسِبْتَهُمُ قد تَصَلّوا السّمْرَ بالزّهْـرِ
تَرى منهُ سَدّاً من حديدٍ كأنّمـا رأَيْتَ به في اليَومِ لَيلا إذا يَسْـري
إذا اشْتَجَرَتْ راياتُهُمْ وتألّفَـتْ طُيورٌ إليهم قُلْتَ حنّتْ إلى وَكْـرِ
تَجلّى فأَجْلى وجْهُكَ النّقْعَ إذ بَـدا وأحْسَنُ نورِ الوَصْلِ في ظُلْمَةِ الهَجْرِ
بأَضْوأَ من بَرْقٍ وأزْيَدَ في السّنـا وأهْيَبَ مِنْ سَيْفٍ وأملأَ للصّـدْرِ
فيا حُسْنَ سيفِ الهِنْدِ في عاتِقِ الهُدى ويا حُسْنَ تاجِ العدْلِ في مَفْرِقِ الأَمْرِ (٢)

ولكنّنا مع ذلك كلّه ،لا نرى وصفا تفصيليّا دقيقا لأحداث المعركة ،وهذا يجعلنا نرجّـح أن صورة المعركة والحديث عنها لم يكن مقصودا لذاته ،وإنّما هي وسيلة لابراز شخصيّـة الممدوح والتغنّي بصفاته ،إذ هي مجرّد مأثرة من مآثره. فشخصيّة البطل في شعـــر الفاضل هي محور القضيّة ،وكلّ ما يأتي مع ذلك المحور ،إنّما يأتي لتوضيحه وابرازه،والّذي يؤكّد ما ذهبنا إليه أنّ الفاضل إثر حديثه عن المعركة عاد مرّة أخرى يتغنّى بصفـات ممدوحه المختلفة ويشيد بسياسته الحكيمة وسداد رأيه ،وذلك إذ يقـول:

وحَدّثْ بها بيضَ الليالـي وسودَهـا بأنّ الوغَى انجابَت بلا البِيضِ والسّمْرِ
وأنّ سياساتِ العُقولِ عَجيبَـةٌ تَضيقُ بها المَجْرى على العسكر المَجْرِ
وتُصْمي بلا سَهْمٍ وتَفْري بلا ظُبـا وتَسري إلى بَعضِ الرّجالِ ولا يَـدري
إذا ما خُيولُ النّائباتِ تراكَضَـتْ فهَيهاتَ أنْ يُغْني الفتَى الغَوْثُ بالغَرّ
تَصَرّفَ صَرْفُ الدّهْرِ في كلّ ما تَـرى سِوى ما بذَاكَ الوَجْهِ من حِلْيَةِ البِشْـرِ (٣)

هذا من الناحية الموضوعيّـة ،وأمّا من الناحية الفنيّة ،فانّ الناظر في هذه القصيـدة

(١) ديوان الفاضل : ١/٢٠٦.
(٢) المصدر نفسه : ١/٢٠٦ — ٢٠٧.
(٣) المصدر نفسه : ١/٢٠٧ ،وانظر،ص: ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرى فيها معظم الخصائص الفنيّة الّتي اتّسم بها شعر القاضي الفاضل الّذي ظهرت فيه أصداء الحروب الصليبيّة ، وفي مقدّمتها إكثاره من استخدام الفنون البديعيّة في شعره لكي يجمّله ويكسبه رونقا خاصّا . ولذا فقد حفلت هذه القصيدة بألوان البديع على اختلافها ، وتغلغلت فيها اللفظيّة المفرطة إلى حد كبير ، حتى أنّه يتعذّر على الدّارس أنّ يجد فيها بيتا يخلو من صورة من صور البديع ، وخاصّة الجناس والطباق فنستطيع — على سبيل المثال — أن نجد الجناس في قوله مادحا شجاع بن شاور :

بَدَتْ صورَةٌ بل سورَةٌ قد تَنزّلَتْ مُحَيَّاهُ منها موجِبٌ سَجْدَةَ الشُّكْرِ (١)

وقوله :

تُعيدُ هِمْ تلْكَ العزائِمُ إنْ سَطَتْ حَواصِلَ مِصْرٍ في حَواصِلَ من نَصْرِ (٢)

وقوله :

وأنّ سياساتِ العُقولِ عَجيبةٌ يَضيقُ بها المَجْرى على العَسكرِ المَجْرِ (٣)

ونجد الطباق في قوله :

ووافَيْتَ من لينِ الخَلائقِ والظُّبا بأسْهَلَ من مُزْنٍ وأخْشَنَ من صَخرِ (٤)

وفي قوله :

وحَدّثْ بها بينَ الليالي وسوَدها بأنّ الوَفى انجابَتْ بلا البِيضِ والسُّمْرِ (٥)

ويرى الدارس أنّ الفاضل كان يركّز على الكلمة في شعره من حيث رسمها وايقاعها وصوتها ، وقد دفعه ذلك إلى البحث عن نظائرها ومشتقاتها . ولذا فقد أكثر من الجناس الاشتقاقي ، ومنه قوله :

وتَكْسو الظُّبا منْهُم دِماً بَدَتْ لنا النّارُ لا تُطْفى وتَطْفُو على النَّهرِ (٦)

وقوله :

---

(١) ديوان الفاضل : ١/٢٠٣ .
(٢) المصدر نفسه : ١/٢٠٤ .
(٣) المصدر نفسه : ١/٢٠٧ .
(٤) المصدر نفسه : ١/٢٠٦ .
(٥) المصدر نفسه : ١/٢٠٧ ، وأنظر أيضا : ص: ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، وغيرها .
(٦) المصدر نفسه : ١/٢٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولمْ يُخْرِجِ الدُّرَّ الذي البحرُ دارُهُ سِوى غُلَّةٍ مِنهُ إلى ذلك البَحْـــرِ (١)

ولم يقتصر اهتمام الفاضل على استعمال ألفاظ متقاربة في رسمها وجرسها ، وإنّمـــا تجاوز ذلك إلى ترديد حروف بعينها في ألفاظ البيت الشعريّ الواحد ، ممّا أكسبهـــا جرسا موسيقيّا خاصّا . يقول :

إذا ما جرى دَمْعي جواباً لِعـــاذِلٍ فإنّ انتِظامَ الوَجْدِ في ذَلكَ النَّثْرِ (٢)

ويقـــول :

وسَبَّحْتُ ربَّ العالمينَ لأنّنـــي رأيْتُهُمُ مُسْتَجْمِعينَ بلا حَشْـــرِ

وقد سُبِيْتْ أرزاقُهُمْ من يَمينـــهِ وهل يَسْتَجيرُ القَطْرُ يَوْماً سِوى القَطْرِ (٣)

ويقـــول :

ورأيٍ بتَقْديرٍ وعفْوٍ بقُبْـــدَرَةٍ وجودٍ على قَدْرٍ وقيلٍ على قَـــدْرِ (٤)

ويهتم الفاضل بتراكيبه اللغويّة ، فهو يعنى بالموسيقى الدّاخليّة في شعـــره فيعمد إلى إقامة التعادل والتوازن في أبياته ، وذلك بتقسيم عباراته في البيت الشعريّ الواحد إلى جمل قصيرة متعادلة ، مثلما يحرص على إقامة تقفيه معيّنة من خلال مفرداتـه الموردة في حشو البيت . ومن الأمثلة على ذلك قولـه :

بحِلْمٍ بلا ضَعْفٍ وحكمٍ بلا هَـــوىً وفَتْكٍ بلا ذُعْرٍ وجودٍ بلا عُـــذْرِ (٥)

وقولـــه :

ودارُكَ بالدُّنيا وكُفُّكَ بالحيـــا وظِلُّكَ بالمَحْيا ويومُكَ بالدَّهْـــرِ (٦)

وقولـــه :

تَجلّى فأجْلى وجْهُكَ النَّقْعَ إذ بَـــدا وأحْسَنُ نورِ الوَصْلِ في ظُلْمةِ الهَجْرِ

بأضْوَأَ من بَرْقٍ وأزْيَدَ في السَّنـــا وأهْيَبَ من سَيْفٍ وأملأَ للصَّـــدْرِ (٧)

---

(١) ديوان الفاضـــل : ١/ ٢٠٣ ، وانظر ص: ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، وغيرها .
(٢) المصدر نفســـه : ١/ ٢٠١ .
(٣) المصدر نفســـه : ١/ ٢٠٣ .
(٤) المصدر نفســـه : ١/ ٢٠٥ .
(٥) المصدر نفســـه : ١/ ٢٠٤ .
(٦) المصدر نفســـه : ١/ ٢٠٤ .
(٧) المصدر نفســـه : ١/ ٢٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن مظاهر اهتمام الفاضل بالموسيقى الدّاخليّة والإيقاع في شعره حرصه على إقامة التقابل بين لفظ معيّن بلفظ آخر في عبارتين متتاليتين . وهذا ما عرف عند النقاد العرب برد العجز على الصدر ، ومنه قوله :

وطَهَّرتَ أرضاً قد وطِئتَ ترابَها ... فلسنا نرى فيها لصَدِّكَ من فِتْرِ
فألويةٌ حُمْرٌ من الطّعْنِ في العِدى ... وفي اللّيْلِ من نارٍ بألويةٍ حُمْرِ (١)

وقد اتّكأ الفاضل على الموروث القديم ، إذ تأثّر بالموروث الدّيني فاستمدّ منه الكثير من ألفاظه ومعانيه وبعض صوره ، كما تأثر بالموروث الشعريّ ولا سيّما الحماسيّ منه ولعلّه في ذلك يساير نزعة كانت سائدة في عصره ، تتمثّل في التطلّع إلى الموروث القديم باعتباره الغاية الّتي ينبغي أن يتوجّه إليها الأدباء ، فهو في قوله مخاطبا شجاع بن شاور :

وقدْ حَفِظَ الرَّحْمنُ باللّوْحِ ذِكْرَهُ (٢) ... فيَهْنيكُمُ أنْ كنتُمُ سِرَّ ذا الذِّكْرِ
وأخْذِهِمُ ألواحَ مُعْجِزآيةٍ ... كما أخَذَ الألْواحَ موسى على قَدْرِ (٣)
كما كان نُوحٌ إذ طَغى الماءُ راكِباً ... على ذاتِ ألواحٍ بتَدْبيرِهِ تَجْري (٤)
تَبَتَّمْ بألواحٍ (٥) ثباتَ عَزيمةٍ ... بها السِّمْرُ قد نُظِّمْنَ للصَّفِّ في سَطْرِ (٦)

وقد جاءت ألفاظ الفاضل في هذه القصيدة أيضا ملائمة لأجواء الحروب بجزالتها وضخامتها ، إلاّ أنّه أثقلها وجعل عاطفتها خافتة باهتة بكثرة محسّناته

---

(١) ديوان الفاضل : ١/ ٢٠٤ .
(٢) يستمدّ فكرته وبعض لفظه من قوله تعالى : ((بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)) سورة البروج ، آية : ٢٢ .
(٣) يشير إلى قوله تعالى : ((وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه)) سورة الأعراف ، آية : ١٥٠ ، وإلى قوله تعالى : ((ولمّا سكت عنه الغضب أخذ الألواح)) الأعراف ، آية : ١٥٤ .
(٤) يشير إلى قصّة طوفان نوح الّتي قصّها القرآن الكريم . انظر : سورة هود ، آية ٤٠ ، ٤٤ .
(٥) الألواح هنا : ألواح السلاح ، كالسيف والرّمح وغيرهما ، وفي الكلمة توريةٌ لا تخفى .
(٦) ديوان الفاضل : ١/ ٢٠٥ — ٢٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللفظيّة وتلاعبه بألفاظها ممّا جعل بعض مضامينها بعيدة عن الواقع ،ولا سيّما حينما كان يعتمد على المبالغة والتهويل وهو يتحدّث عن المعركة أو يصور هزائم الأعداء أمام بطله الممدوح . ولئن كنا لا نعدم أن نجد بعض ملامح المعركة الّتي يصفها .

وأمّا مصادر الصور الشعريّة في هذه القصيدة ،فقد تعدّدت وتنوّعت تبعا لثقافة الفاضل الواسعة المتنوّعة ،فهي مستمدّة من ثقافته الشعريّة ،وبيئته المحيطة به ،وأجواء الحروب التي كانت سمة بارزة في عصره كما ذكرنا فيما تقدّم. وهي صور حسيّة في معظمها اتّكأ في رسمها على الحواس البشريّة من سمع وبصر وذوق ، إلاّ أنّ معظم صوره بصريّة وسمعيّة .

ومهما يكن من أمر ،فإنّ هذه القصيدة قد كشفت لنا عن حسّ الفاضل اللغويّ الدّقيق وعن نفسه الشعريّ الطويل ،إذ بلغ عدد أبيات قصيدته هذه مئة وأحد عشر بيتا ،استطاع بها أن يحافظ على وحدتها العضويّة واتّزانها الفنّي ،فهي من أوّلها إلى نهايتها تدور حول موضوع واحد ،وهو مدح شجاع بن شاور والاشادة به وكلّ ما ورد مع هذا المحور يرفده ويتصل به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــــــــة :

تناولت هذه الدّراسة أصداء الحروب الصليبيّة في أدب القاضي الفاضـــــل وقد جاءت في تمهيد وأربعة فصول تحدّثت في التمهيد عن الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة الّتي كانت قائمة في القرن السادس الهجري بمصر والشّام ، متوخيا أن يكـــون حديثي عن هذه الأمور بالقدر الّذي يمسّ حياة الفاضل وأدبه ويؤثّر فيهما ، لكي أرى مدى تفاعله مع أحداث عصره ، وتأثيرها في شخصيته ونتاجه . وقد تبيّن لي من خلال ذلـــك أنّ التنافس والصراع على السلطة بين القوى الإسلاميّة داخل الدّولة الإسلاميّة ، كـــان من أبرز سمات العصر السياسيّـــة ، قبل أن يتولّى صلاح الدّين مقاليد الأمور بمصر والشّام إذ تنازع على الدّولة الإسلاميّـــة كلّ من العبّاسيين والفاطميين ممّا زاد في ضعفهـــا وتردّي أوضاعها ، إلى أن ظهر نور الدّين وحاول أن يوحّد صفوف المسلمين ضدّ أعدائهم من الفرنج الّذين اغتصبوا أجزاء من ديار الإسلام ، وخاض معهم معارك عديدة تمكّـــن خلالها من استعادة بعض المدن الإسلاميّة من أيديهم ، إلاّ أنّه توفي قبل أن يـــرى الأمّـــة الإسلاميّـــة مجتمعة على قيادة واحدة ، فخلفه صلاح الدّين الأيّوبيّ في حكـــم مصر والشام وماضمّه إليهما من البلاد الإسلاميّة ، بعد أن خلّصها من حكّامها المحليين المتخاذلين ، فجمع بذلك كلمة المسلمين ووحّد صفوفهم ضدّ الغزاة من الفرنج ، ممّـــا مكّنه من استرداد معظم المدن الإسلاميّة المحتلّة . وقد ظهرت أصداء ذلك كلّه فـــي أدب القاضي الفاضل الّذي اضطلع بمسؤوليته إزاء هذه الحروب .

وقد كانت الحياة الثقافية والفكريّة في دولة صلاح الدّين نشطة مزدهرة ، إذ كان عصره عصر إحياء من الناحيتين : السياسيّة والفكريّة معا ، وتمثّل ذلك في ظهور نخبـــة من الأدباء والشعراء وغيرهم من أرباب العلم والثقافة ممّن وردت أسماؤهم وآراؤهم فـــي معظم كتب الأدب والنّقد حتى يومنا هذا . وقد كان من أشهر هؤلاء القاضي الفاضـــل والعماد الأصفهانيّ ، وابن سناء الملك ، وضياء الدّين ابن الأثير ، وبهاء الدّين ابـــن شداد ، وغيرهم من العلماء والفقهاء والشعراء . وتمثّل هذا النشاط كذلك في تعـــدد مراكز العلم والثقافة ، وانتشارها من الإسكندريّة إلى حلب ، حيث أمّها الدّارسون وطلاّب العلم من كلّ حدب وصوب ، لما وجدوه عند صلاح الدّين من التشجيع والإكرام ، فازدهرت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعلوم على اختلاف فروعها وميادينها على الرّغم من الحروب المستمرّة الّتي خاضها المسلمون مع الغزاة من الفرنج .

وعندما تصديت للحديث عن سيرة القاضي الفاضل وثقافته وأطوار حياته ، تبيّن لي أنّ الغموض يكتنف نشأته في ظلّ والديه وأسرته على الرّغم من شهرته السياسيّة والأدبيّة ، ذلك لأنّ معظم المصادر وكتب التراجم الّتي تحدّثت عنه اهتمّت به بعد أن اتّصل بصلاح الدّين ، وأنّ الفاضل قد خدم الفاطميّين والأيّوبيين ، فاستطاع بوفائه وإخلاصه في عمله لكلّ منهما أن ينال المكانة الرفيعة والمناصب العليا فيهما إذ تمكّن من الحفاظ على منصبه في الدّولة الفاطميّة ، على الرّغم من شيوع الفتن والدسائس فيها ، وتغلّب الخلفاء والوزراء على حكمها . وقد نال بعد ذلك ثقة صلاح الدّين حتى أصبح كاتبه ووزيره ومستشاره في جميع أمور دولته . وتبيّن لي أن الفاضل كان واسع الاطّلاع ، وأنّ ثقافته كانت متنوّعة تشمل المعارف المختلفة الّتي كانت معروفة في عصره .

وحينما تعرّضت للحديث عن نثر القاضي الفاضل الّذي صوّر الحروب الدّائرة بين المسلمين والصليبيين ، تبيّن لي أنّه واكب الحروب الّتي جرت إبّان حكم صلاح الدّين ، وأنّه اتّخذ من أدبه أداة لمواجهة الفرنج ، إذ عمل من خلاله على تعبئة المسلمين نفسيّا من أجل مواجهة الغزاة واستنقاذ الأراضي الإسلاميّة المغتصبة من أيديهم ، حتى قال صلاح الدّين فيه وهو يخاطب جنده : ((لا تظنّوا أنّي ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل)) (١) .

ولمّا تحدّثت عن شعره الّذي واكب الحروب الصليبيّة ، وجدت أنّ معظم ما نظمه الفاضل في مواكبة الحروب الدّائرة بين المسلمين وأعدائهم من الفرنج ، قد تجلّى من خلال قصيدة المديح ، إذ كان الممدوح هو المحور الأساسيّ الّذي تدور حوله القصيدة ، فهو يسعى بالدرجة الأولى إلى مدحه والإشادة به ، وكلّ ما يذكر معه في القصيدة كان يأتي لاستكمال معالم شخصيّته وإبرازها ، بما في ذلك الحديث

---

(١) مرآة الزمان : ٨/٤٧٢ ، والنجوم الزاهرة : ٦/١٥٧ ، وشذرات الذهب ٤/٢٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن المعركة وما يتصل بها . وقد كانت مشاركة القاضي الفاضل بشعره في الحروب الصليبيّة ـ بصورة عامّة ـ قليلة إذا ما قيست بما كتبه من رسائل نثريّة ، ذلك لأنّه عبّر عن معظم ما يريد قوله في صلاح الدّين فيما كتبه عنه من رسائل . ولكنّ الفاضل مع ذلك واكب في شعره أحداث عصره ، وصوّر الأحداث المتّصلة بالحروب الصليبيّة وأصداءها في نفسه ونفوس المسلمين في عصره .

وتبيّن لي عندما تحدّثت عن نثر الفاضل من الناحية الفنيّة أنّه كان في رسائله الرسميّة الّتي كتبها عن صلاح الدّين إلى الخليفة العبّاسيّ وأمراء المسلمين يلتزم السجع ويكثر من استخدام المحسّنات اللفظيّة والمعنويّة ، ويستمدّ كثيرا من مادّة القرآن الكريم وألفاظه ، مراعيا بذلك ذوق عصره ومقاييسه الفنيّة ، فضلا عن مراعاة الظروف والأحوال القائمة ، فحينما كان يكتب إلى صلاح الدّين في حصار عكّة مطمئنا ومصبّرا كان يتخفف من استعمال السجع وفنون البديع . ومن أجل ذلك جاء سجعه في هذا اللون من الرسائل الخاصّة موافقا لطبيعة الموقف ومقتضيات الظروف . وقد تبيّن لي أنّ ألوان البديع الّتي وردت في كتاباته النثريّة لم تكن على حساب معانيه ومضمون رسائله ، ذلك لأنّه جاء بها من أجل تحسين نثره وإثرائه بالتنغيم الدّاخليّ ، إذ كان الفاضل ذا قدرة فائقة على اختيار ألفاظه ووضعها في بيئتها الملائمة لها . واتّضح لي أنّ الفاضل كان زعيم مدرسة كتابيّة في عصره عملت على تطوير النثر العربي ، إذ وجّه الفاضل الكتابة النثريّة وجهة جديدة حين سخّرها في خدمة أمّته الإسلاميّة وقضاياها الكبرى ، وإن سار في بناء رسائله على نهج أسلافه من الكتّاب الّذين تتلمذ عليهم في العصر الفاطميّ . وأمّا شعره ، فقد طغت عليه الصنعة واللفظيّة المفرطة حتى أثقلته وجنت عليه مبنى ومعنى ، إذ اتّخذ منه وسيلة لإظهار حذقه ومهارته اللغويّة .

وقد اتّكأ القاضي الفاضل في أدبه الجهاديّ على الموروث القديم ولا سيّما في ألفاظه وصوره ، وتأثّر أكثر ما تأثّر بالموروث الدّينيّ والموروث الشعريّ المرتبط بالمعارك السابقة في تاريخ الإسلام ، ولا سيّما شعر المتنبّي في حروب المسلمين مع الرّوم ، ولئن كنّا لا نعدم في شعره الّذي تحدّث عن المعارك والحروب مجموعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من المعاني الأصيلة والصّور الفنيّة الجديدة .

وفي الختام ، أدعو اللّه أن أكون قد وفّقت فيما قدّمت ، وأن يكون في مادّة هذه الرسالة ما يلقي ضوءاً على الحاضر من خلال الماضي ، واللّه وليّ التوفيق ، ومنه نستمدّ كلّ معرفة وعون فيما نقول ونفعل .

(وآخر دعواهم أنْ الحمد للّه ربّ العالمين)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفهـــــــــــارس

أولا : المصادر والمراجـــــــع

ثانيا : الآيات القرآنيـــــــــة

ثالثا : الأحاديث النبويّـــــــة

رابعا : الأشعـــار

خامسا : البلدان والمواقع الجغرافية

سادسا : الأعـــلام

سابعا : المحتويـــات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت بالمصادر والمراجع*

أولا : المخطوطات:

١ــ العمري : شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن يحيى بن فضل اللّه العمريّ (ت: ٧٤٩هـ).
ــ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ٧، مخطوط: بدار الكتب المصريّة، القاهرة، تحت رقم: (٢٥٦٨).

٢ــ المنهاجي : شمس الدّين أبو عبد اللّه محمّد بن شهاب الدّين أحمد المنهاجي السيوطي (ت: ٨٨٠هـ).
ــ إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى**، مخطوط، ومنه نسخة مصوّرة على ميكروفيلم بمركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنيّة، تحت رقم: (٧٦).

٣ــ ابن نباته : جمال الدّين محمّد بن محمّد بن الحسن الجذامي المصريّ (ت: ٧٦٨هـ).
ــ الفاضل من كلام القاضي الفاضل، مخطوط، رقم: (٣٨٨٢) أدب، دار الكتب المصريّة، القاهرة.

٤ــ النويري : شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب النويري (ت: ٧٣٣هـ).
ــ نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٧، مخطوط بدار الكتب المصريّة، القاهرة، تحت رقم: (٥٤٩)، معارف عامّة.

٥ــ الهيثمي : أحمد بن محمّد بن عليّ بن حجر الهيثميّ (ت: ٩٧٤هـ).
ــ إتحاف الأخصّا بتاريخ وفضائل المسجد الأقصى، مخطوط، ومنه نسخة على ميكروفيلم بمركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنيّة، رقم: (٥٩٧).

---

* رتّبت المصادر ترتيبا هجائيّا وفقاً لشهرة مؤلّفيها، دون اعتبار لفظة (أبو) أو (أبن). وأمّا المراجع الحديثة والمترجمة، فقد رتّبت حسب الاسم الأوّل لكلّ من مؤلّفيها.

** حققه أحمد رمضان، عام ١٩٨٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : المصادر المطبوعة :

٦ــ القرآن الكريم :

٧ــ ابن الأثير : عزّ الدّين أبو الحسن عليّ بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيبانيّ (ت: ٦٣٠هـ) .

ــ التاريخ الباهر في الدّولة الأتابكيّة ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ــ الكامل في التاريخ ، بيروت (ط٢) ، ١٩٦٧م .

٨ــ ابن الأثير : ضياء الدّين أبو الفتح نصر اللّه بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانيّ (ت: ٦٣٧هـ) .

ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة (ط ١) ١٩٥٩ ، و ط ٢ ، ١٩٦٢م .

ــ الوشي المرقوم في حلّ المنظوم ، مطبعة ثمرات الفنون ، القاهرة ، ١٢٩٨هـ .

٩ــ الأسنويّ : جمال الدّين عبد الرّحيم بن الحسن الأسنويّ (ت: ٧٧٢هـ) .

ــ طبقات الشافعيّة ، تحقيق عبد اللّه الجبوري (ط١) بغداد ١٩٧١م .

١٠ــ ابن أبي أصيبعة : موفّق الدّين أبو العبّاس أحمد بن القاسم (ت: ٦٦٨هـ) .

ــ عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م .

١١ــ البحتريّ : أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائيّ (ت: ٢٨٤هـ) .

ــ ديوان البحتريّ ، تحقيق حسن كامل الصيرفيّ ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٤م .

١٢ــ البخاريّ : أبو عبد اللّه محمّد بن إسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة (ت: ٢٥٦ هـ) .

ــ صحيح البخاريّ ، مطابع الشعب ، ١٣٧٨هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٣ــ البغـــــــدادي : عبد اللطيف بن يوسف بن محمّد بن عليّ البغـــــدادي (ت: ٦٢٩هـ) .

ــ الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق سلامة موسى، القاهرة، (بلا تاريخ) .

١٤ــ البنـــــــداري : قوام الدّين أبو الفتح عليّ بن محمّد البنداريّ (ت: ٦٤٣هـ) .

ــ سنا البرق الشامي، تحقيق رمضان ششن، دار الكتـــاب الجديد، بيروت (ط١) ١٩٧١م.

١٥ــ ابن تغري بـــردي : أبو المحاسن جمال الدّين يوسف بن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ) .

ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتـب المصريّـــة، القاهرة، ١٩٣٦م.

١٦ــ أبو تمّـــــام : حبيب بن أوس الطّائيّ (ت: ٢٢١هـ) .

ــ ديوان أبي تمّام، تحقيق محمّد عبده عزّام، دار المعـــارف المصريّة، القاهرة، ١٩٦٤م.

١٧ــ التهانـــــويّ : محمد علي الفاروقي التهانويّ (ت: بعد ١١٥٨هـ) .

ــ كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٨ــ الثعالبـــــيّ : أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثعالبـــــيّ (ت: ٤٢٩هـ) .

ــ يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر، دار الفكـر، بيـــروت ط٢، ١٩٧٣م.

١٩ــ الجاحـــــظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ــ٢٥٥هـ) .

ــ البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبـــة الخانجي، القاهرة (ط ٣) ١٩٦٨م.

٢٠ــ ابن جبيـــــر : محمّد بن أحمد بن جبير (ت: ٦١٤هـ) .

ــ رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتـــاب المصري، القاهرة (بلا تاريخ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢١ــ الجرجانـــــــي : القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجاني (ت: ٣٦٦هـ) .
ــ الوساطة بين المتنبّي وخصومه ، تحقيق محمّد أبو الفضـــل إبراهيم وعليّ محمّد البجاويّ ، مطبعة عيسى البابـــــي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٦م.
٢٢ــ الجـــــــزريّ : شمس الدّين أبو الخير محمّد بن محمّد الجزريّ (ت: ٨٣٣هـ) .
ــ غاية النهاية في طبقات القرّاء ، دار الكتب العلميّة (ط ٢) بيروت ، ١٩٨٠م.
٢٣ــ ابن الجـــــوزيّ : أبو الفرج عليّ بن عبد الرحمن (ت: ٥٩٧هـ) .
ــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد ، الدكن ، الهند (ط١) ١٣٥٨هـ.
٢٤ــ ابن الجـــــوزيّ : أبو المظفّر يوسف بن قزأوغلي التركيّ الشهير بسبط ابـــــن الجـــوزي (ت: ٦٥٤هـ) .
ــ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة مجلس دائرة المعـــارف العثمانيّة ، حيدر آباد ، الدكن ، الهند (ط ١) ١٩٥١م.
٢٥ــ حاجي خليفـــــة : مصطفى بن عبد اللّه الشهير بحاجي خليفة (ت: ١٠٦٧هـ) .
ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، وكالة المعـــــــارف الجليلة ، ١٩٤٣م.
٢٦ــ ابن حجر العسقلاني: شهاب الدّين أبو الفضل أحمد بن عليّ (ت: ٨٥٢هـ) .
ــ لسان الميزان ، حيدر آباد ، الدكن ، الهند (ط١) ١٣٣٠هـ.
٢٧ــ ابن حجّة الحمـويّ : تقي الدّين أبو بكر عليّ بن محمّد (ت: ٨٣٧هـ) .
ــ ثمرات الأوراق في المحاضرات، تقديم وشرح مفيد قميحـــــة دار الكتب العلميّة ، بيروت (ط١) ١٩٨٣م.
ــ خزانة الأدب وغاية الأرب ، دار القاموس الحديث ، بيـــــروت (بلا تاريخ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٨ــ الحسينـــــيّ : صدر الدّين أبو الحسن علي بن ناصر بن عليّ الحسينـــــي (ت: ٦٢٢هـ) .
ــ زبدة التواريخ (أخبار الأمراء والملوك السلجوقيّة) ، تحقيق محمد نور الدّين ، دار اقرأ (ط١) ١٩٨٥م .
٢٩ــ الحطيئـــــة : جرول بن أوس بن مخزوم بن مالك العبسي (ت: ٥٩هـ) .
ــ ديوان الحطيئة ، تحقيق نعمان أمين طه ، مكتبة البابـــــي الحلبي ، القاهرة (ط١) ١٩٧٠م .
٣٠ــ الحلبـــــيّ : شهاب الدّين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبـــيّ (ت: ٧٢٥هـ) .
ــ حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل ، تحقيق أكرم عثمـــــان دار الرشيد للنشر ، بغداد ، العراق ، ١٩٨٠م .
٣١ــ الحنبلـــــيّ : مجير الدّين عبد الرّحمن بن محمّد بن عبد الرّحمن الحنبلـــي المقدسي (ت: ٩٢٧هـ) .
ــ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، تحقيق محمّد بحر العلوم المطبعة الحيدريّة ، النجف ، العراق ، ١٩٦٨م .
٣٢ــ خســـــرو : ناصر خسرو علـــوي (ت: ١٠٨٨م) .
ــ سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشّاب ، دار الكتاب الجديد ، بيـــروت (ط٣) ١٩٨٣م .
٣٣ــ ابن الخطيـــم : قيس بن الخطيم بن عديّ الخزرجـــي (ت: ٦٢٠م) .
ــ ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق ناصر الدّين الأسد ، مكتبـــة دار العروبة ، القاهرة (ط١) ١٩٦٢م .
٣٤ــ ابن خلـــدون : عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون المغربي (ت: ٨٠٨هـ) .
ــ تاريخ ابن خلدون ، المسمّى : ((كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطـــان الأكبر)) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت (ط٢) ١٩٦١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٥ـ ابن خلّكـــــان : شمس الدّين أبوالعبّاس أحمد بن محمّد بن إبراهيـــــم ابن أبي بكر ابن خلّكان (ت : ٦٨١هـ) .
ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عبـــاس دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨م .

٣٦ـ الدّلجـــــيّ : شهاب الملّة أحمد بن عليّ الدّلجيّ (ت: ٨٣٨هـ) .
ـ الفلاكة والمفلوكون ، مطبعة الشعب ، مصر ، ١٣٢٢هـ .

٣٧ـ ابن الدّيباجـــي : موفّق الدّين أبوعلي الحسن بن الديباجي (ت : ٠٠٠) .
ـ رسائل عـــن الحرب والسلام (من ترسّل القاضي الفاضل) ، تحقيق محمّد نفش ، القاهرة (ط٢) ١٩٨٤م .

٣٨ـ الذهبـــــيّ : شمس الدّين أبو عبد اللّـه محمّـد بن أحمد بن عثمـــان (ت: ٧٤٨هـ) .
ـ تذكرة الحفّاظ ، حيدر آباد ، الدكن ، الهند (ط٣) ١٩٥٧م .
ـ دول الإسلام ، الهيئة المصريّة العامّة ، تحقيق فهيـــــم شلتوت ومحمـــد مصطفى ، القاهرة ، مصر ، ١٩٧٤م .
ـ سير أعلام النبلاء ، تحقيق بشّار عوّاد ومحيي هلال ، مؤسســة الرسالة ، بيروت (ط١) ١٩٨٤م .
ـ العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدّين المنجـــــد الكويت ، ١٩٦٣م .

٣٩ـ ابن رشيق (القيروانيّ) : أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ (ت: ٤٥٦هـ) .
ـ العمدة ، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد ، دار الجيل بيروت (ط٤) ١٩٧٢م .

٤٠ـ الزبيـــــدي : محمّد مرتضى الحسينيّ (ت: ١٢٠٥هـ) .
ـ تاج العروس في جواهر القاموس ، دار ليبيا ، بنغازي ، ١٩٦٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤١ـ ابن الساعاتي : أبو الحسن عليّ بن رستم الخرساني (ت: ٦٠٤هـ) .
ـ ديوان ابن الساعاتي ،تحقيق أنيس المقدسيّ ،بيروت،١٩٣٨م.
٤٢ـ ابن الساعي : أبو طالب عليّ بن أنجب (ت: ٦٧٤هـ) .
ـ الجامع المختصر ،نشر مصطفى جواد ،المطبعة السريانية الكاثوليكيّة ، بغداد ،١٩٣٤م.
٤٣ـ السبكيّ : تاج الدّين أبو نصر عبد الوهّاب بن عليّ بن عبد الكافي (ت : ٧٧١هـ) .
ـ طبقات الشافعيّة ،تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتّاح الحلو ،مطبعة عيسى البابي الحلبي ،القاهرة(ط١)١٩٧٠م.
٤٤ـ ابن سناء الملك: هبة اللّه بن جعفر بن محمّد بن سناء الملك (ت: ٦٠٨هـ) .
ـ ديوان ابن سناء الملك ،تحقيق محمّد عبد الحق ،دائرة المعارف العثمانيّة ،حيدرآباد ،الدكن ،الهند (ط١)١٩٥٨م.
٤٥ـ السيوطيّ : جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السيوطيّ (ت : ٩١١هـ)
ـ بغية الوعاة في طبقات اللغاة والنّحاة، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ،مطبعة عيسى البابي الحلبي ،القاهرة (ط١) ١٩٦٤م
ـ تاريخ الخلفاء ،تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد القاهرة (ط٢) ١٩٥٩م.
ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،طبع مصطفى فهمي مطبعة الموسوعات ،القاهرة ، (بلا تاريخ) .
ـ طبقات المفسّرين ،دار الكتب العلميّة ،بيروت(ط١)١٩٨٣م.
٤٦ـ ابن شاكر : محمّد بن شاكر الكتبيّ (ت: ٧٦٤هـ) .
ـ فوات الوفيات ،تحقيق إحسان عبّاس،دار صادر ،بيروت ١٩٧٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٧ــ أبو شامـــــة: شهاب الدّين أبو محمّد عبد الرّحمن بن إسماعيل المقدسيّ (ت: ٦٦٥هـ) .
ــ تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المسمّى: (الذيـــل على الرّوضتين)، دار الجيل، بيروت (ط٢) ١٩٧٤م.
ــ كتاب الرّوضتين في أخبار الدولتين (النوريّة والصلاحيّـــة) تحقيق محمّد حلمي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشـــر القاهرة، جـ١ ق١، ١٩٥٦م، و جـ٢ ق٢، ١٩٦٢م.
ــ كتاب الرّوضتين، دار الجيل، بيروت (ط٢) ١٩٧٤م.
٤٨ــ ابن شـــــداد: عز الدّين أبو عبد اللّـه محمّد بن عليّ (ت: ٦٨٤هـ) .
ــ الأعلاق الخطيرة بذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامـــي الدهّان، المعهد الفرنسيّ، دمشق، ١٩٥٦م.
٤٩ــ ابن شـــــداد: بهاء الدّين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الأســـدي (ت: ٦٣٢هـ) .
ــ سيرة صلاح الدّين (النّوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة) تحقيق جمال الدّين الشيّال، مؤسسة الخانجي، القاهـــرة ١٩٦٢م.
٥٠ــ الصّفـــــدي: صلاح الدّين خليل بن أيبك الصّفدي (ت: ٧٦٤هـ) .
ــ نكت الهميان في نكت العميان، تحقيق أحمد زكي، المطبعة الجماليّـــة، القاهرة، ١٩١١م.
ــ الوافي بالوفيات، إعتناء س.ديدرينغ (ط٢) ١٩٧٤م.
٥١ــ ابن ظافـــــر: عليّ بن ظافر الأزديّ (ت: ٦١٣هـ) .
ــ بدائع البدائه، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبـــة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ١٩٧٠م.
٥٢ــ ابن عبد الظاهـــر: محيي الدّين عبد اللّه بن عبد الظاهر الجذاميّ (ت: ٦٩٢هـ)
ــ الدّر النّظيم من ترسّل عبد الرّحيم، تحقيق أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (بلا تاريخ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٣ـ ابن العديـــــم : كمال الدّين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة اللّـــــة (ت: ٦٦٠هـ) .

ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدّهـــــان دمشق، ١٩٦٨م.

٥٤ـ العسكـــــــري: أبو هلال الحسن بن عبد اللّه بن سهل العسكـــــريّ (ت: ٣٩٥هـ) .

ـ كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ، تحقيق عليّ البجّـاوي ومحمّد أبو الفضـــل ابراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة (ط٢) ١٩٧١م.

٥٥ـ العماد الأصفهانـــيّ : عمـاد الدّين أبو عبد اللّـــه محمّد بن محمّد بـــــن حامد (ت: ٥٩٧هـ) .

ـ تاريخ دولة آل سلجوق (اختصار الفتح البنداري) ، دار الآفاق الجديدة بيروت (ط٢) ١٩٧٨م.

ـ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام) ، تحقيـــق شكري فيصل ، المطبعة الهاشميّة ، دمشق ، ج١ ، ١٩٥٥م، ج٢ / ١٩٥٩م، ج٣ ، ١٩٦٤م.

ـ خريدة القصر وجريدة العصر ، (قسم شعراء مصر) تحقيـق أحمد أمين ، وشوقي ضيف واحسان عبّاس، لجنة التأليـــف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٥١م.

ـ ديوان العماد الأصفهانيّ ، تحقيق ناظم رشيد ، جامعـــة الموصل (ط١) ١٩٨٣م.

ـ الفيح القسيّ في الفتح القدسي ، تحقيق محمّد محمود صبح الدّار القوميّـة للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٥م.

٥٦ـ ابن العماد الحنبليّ : أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبليّ (ت: ١٠٨٩هـ) .

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مكتبة القدسيّ ، القاهرة ١٣٥٠هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٧ــ عمارة اليمنـــــي : عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمنيّ (ت: ٥٦٩هـ) .
ــ النكت العصريّة في أخبار الوزارة المصريّة ،تحقيق هرتويـــغ درنبرغ ،مطبعة مرسو ،باريس، ١٨٩٧م.
٥٨ــ العمـــــــري: شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن يحيى بن فضل اللّـــه العمريّ (ت: ٧٤٩هـ) .
ــ التعريف بالمصطلح الشريف ،مطبعة العاصمة ،القاهـــرة ١٣١٢هـ.
٥٩ــ العمـــــــري: محمّد بن عليّ بن محمّـد العمريّ (ت: ٥٨٠هـ) .
ــ الإنباء في تاريخ الخلفاء ،تحقيق قاسم السامرائي،ليدن ، ١٩٧٣م.
٦٠ــ ابن عنيـــــن : شرف الدّين أبو المحاسن محمّد بن نصر ،المشهور بابـــن عنين (ت: ٦٣٠هـ) .
ــ ديوان ابن عنين ،تحقيق خليل مردم بك ،دمشق ،١٩٤٦م.
٦١ــ أبو الفـــــداء: الملك المؤيّد عماد الدّين إسماعيل بن عليّ (ت: ٧٧١هـ) .
ــ المختصر في أخبار البشر ،دار البحار ،بيروت ، ١٩٦١م.
٦٢ــ ابن الفـــــرات: ناصر الدّين محمّد بن عبد الرّحيم بن الفرات (ت: ٨٠٧هـ) .
ــ تاريخ ابن الفرات ،تحقيق حسن محمّد الشمّاع ،جامعـــة البصـــرة ،١٩٦٧م.
٦٣ــ ابن الفوطـــــيّ : كمال الدّين أبو الفضل عبد الرزّاق بن الفوطيّ ،البغداديّ (ت: ٧٢٣هـ) .
ــ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعـــة المكتبة العربيّـة ،مطبعة الفرات ،بغداد ، ١٣٥١هـ.
٦٤ــ الفيروزآبـــادي: مجد الدّين أبو طاهر ،محمّد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ) .
ــ القاموس المحيط ،دار الجيل ،بيروت، (بلا تاريخ) .
٦٥ــ ابن قاضي شهبـــة: بدر الدّين ابن قاضي شهبة (ت: ٨٧٤هـ) .
ــ الكواكب الدريّة في السيرة النّوريّة ،تحقيق محمود زايـــــد دار الكتاب ،بيروت(ط١) ١٩٧١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٦ــ القاضي عيـــــاض : أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت: ٥٤٤هـ) .
ــ ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، تحقيق أحمد بكيـــــر محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ودار مكتبة طرابلـــس ليبيـا ، (بلا تاريخ) .

٦٧ــ القاضي الفاضـــل : أبو عليّ عبد الرّحيم بن عليّ البيسانيّ (ت: ٥٩٦هـ) .
ــ ديوان القاضي الفاضل ، تحقيق أحمد بدوي ، القاهـــرة ١٩٦١م .

٦٨ــ القفطـــــي : جمال الدّين أبو الحسن عليّ بن يوسف القفطـــــيّ (ت: ٦٤٦هـ) .
ــ إنباه الرواة على أنباه النّحاة ، تحقيق محمّد أبو الفضـــل إبراهيم ، القاهرة (ط١) ١٩٥٢م .

٦٩ــ ابن قلاقـــس : أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن قلاقـــس (ت: ٥٦٥هـ) .
ــ ديوان ابن قلاقس ، تحقيق خليل مطران ، مطبعة الجوائـب مصر ، (بلا تاريخ) .

٧٠ــ ابن القلانســيّ : أبو يعلى حمزة بن أسد بن عليّ بن محمّد التميمـــيّ (ت: ٥٥٥هـ) .
ــ ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق سهيل زكّار ، دار حسّان ، دمشق ١٩٨٣م .

٧١ــ ابن قلطوبغـــا : زين الدّين أبو العدل قاسم بن قلطوبغا (ت: ٨٧٩هـ) .
ــ تاج التراجم في طبقات الحنفيّة ، مطبعة العانـــي بغداد ، ١٩٦٢م .

٧٢ــ القلقشنـــدي : أبو العبّاس أحمد بن عليّ (ت: ٨٢١هـ) .
ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، نسخة مصوّرة عن الطبعـــة الأميريّـة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهـــرة ١٩٦٣م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٣ـ ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشيّ (ت: ٧٧٤هـ) .
ـ البداية والنهاية ، الرّياض (ط١) ١٩٦٦م.
٧٤ـ ابن ماجة : الحافظ أبو عبد الله محمّد بن يزيد القزوينيّ (ت: ٢٧٥هـ) .
ـ سنن ابن ماجة ، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، (بلا تاريخ) .
٧٥ـ المتنبّي : أبو الطيّب أحمد بن الحسين الجعفيّ (ت: ٣٥٤هـ) .
ـ ديوان أبي الطيّب المتنبّي (شرح العكبري ، المسمّى بالتبيان في شرح الديوان) ، ضبطه وصححه مصطفى السقّا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة بيروت ، ١٩٧٨م.
٧٦ـ مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١) .
ـ صحيح مسلم (بشرح النووي) ، المطبعة المصريّة ، القاهرة مصر ، (بلا تاريخ) .
٧٧ـ ابن المعتز : عبد الله بن المعتز بن المتوكّل (ت: ٢٩٦هـ) .
ـ ديوان ابن المعتز ، بيروت ، ١٩٨٠م.
٧٨ـ المقريزي : تقيّ الدّين أحمد بن عليّ المقريزيّ (ت: ٨٤٥هـ) .
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، صححه محمّد مصطفى زيادة ، القاهرة (ط٢) ١٩٥٦م.
ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي) ، مكتبة المثنّى ، بغداد ، (بلا تاريخ) .
٧٩ـ المنذري : زكي الدّين أبو محمّد عبد العظيم بن عبد القويّ ، المنذري (ت: ٦٥٦هـ) .
ـ التكملة لوفيات النّقلة ، تحقيق بشّار عوّاد معروف ، العراق ١٩٦٩م.
٨٠ـ ابن منظور : جمال الدّين أبو الفضل محمّد بن مكرم الأنصاريّ (ت: ٧١١هـ) .
ـ لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨١ــ ابن منقـــــذ : مؤيّد الدّولة أبو مظفّر أسامة بن مرشد الكنانيّ الشيـــرازيّ (٥٨٤هـ) .
ــ الإعتبار ، حرره فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٣٠ وطبعة الدّار المتحدة ، بيروت ، ١٩٨١م .
٨٢ــ المنهاجـــــيّ : شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن شهاب الدّين أحمـــد المنهاجيّ السيوطي (ت: ٨٨٠هـ) .
ــ إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمـــد رمضان أحمد ، الهيئة المصريّة العامة للكتاب ، القاهـــرة ١٩٨٤م .
٨٣ــ الميدانـــــيّ : أبو الفضل أحمد بن محمّد بن أحمد بن إبراهيـــــم النيسابوريّ (ت: ٥١٨هـ) .
ــ مجمع الأمثال ، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميـــد دار النصر ، دمشق (بلا تاريخ) .
٨٤ــ ابن ميسّـــــر : تاج الدّين محمّد بن عليّ بن يوسف (ت: ٦٧٧هـ) .
ــ المنتقى من أخبار مصر ، تحقيق أيمن فؤاد سيّد ، المعهـــد الفرنسيّ ، القاهرة ، ١٩١٩م .
٨٥ــ النابغة الذبيانـــيّ : زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانيّ (ت: ٦٠٤م) .
ــ ديوان النابغة الذبيانيّ ، تحقيق عليّ ملكي ، بيروت ، ١٩٦٩م
٨٦ــ ابن النبيـــــه : كمال الدّين عليّ بن محمّد بن النبيـــه (ت: ٦١٩هـ) .
ــ ديوان ابن النبيه ، تحقيق عبد الله فكري ، المطبعـــــة العلميّة ، القاهـــرة ، ١٣١٣هـ .
٨٧ــ النّعيمـــــيّ : عبد القادر بن محمّد النعيميّ الدمشقي (ت: ٩٢٧هـ) .
ــ الدّارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسينـــــيّ مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٤٨م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٨ــ النـــــــــوويّ : محيي الدّين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)٠
ــ رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين ،تحقيق مصطفـــى محمّد عمارة ،دار الحديث، بيروت، ١٩٥٥م٠

٨٩ــ النويـــــــــريّ: شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب النويريّ (ت: ٧٣٣هـ) ٠
ــ نهاية الأرب في فنون الأدب ،نسخة مصوّرة عن طبعـــــة دار الكتب المصريّة ،المؤسسة العامّة للتأليف والترجمـــة والنشر ،القاهرة ، ١٩٢٥ ــ ١٩٥٥م٠

٩٠ــ النويـــــــــريّ: محمّد بن قاسم بن محمّد النويريّ الإسكندرانيّ (ت: ٧٧٥هـ)٠
ــ الإلمام بالأعلام ،تحقيق محمّد عبد المعيد خان ،حيدرآبـاد الدكن ،الهند (ط١) ١٩٦٨م٠

٩١ــ ابن هشـــــام: أبو محمّد عبد الملك بن هشام المعافريّ (ت: ٢١٣هـ) ٠
ــ السيرة النبويّة ،تحقيق محمّد فهمي السرجاني ،مكتـــب التراث الإسلامي ،حلب (بلاتاريخ) ٠

٩٢ــ ابن واصـــــل: جمال الدّين محمّد بن سالم بن واصل (ت: ٦٩٧هـ) ٠
ــ مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب ،تحقيق جمال الدّيـــن الشيّال ،جامعة فؤاد الأوّل ،القاهرة ،ج١ ، ١٩٥٣م و ج ٢ ١٩٥٧م ،وج٣ ، ١٩٦٠م٠

٩٣ــ ابن الـــــوردي: زين الدّين أبو حفص عمر بن الورديّ (ت: ٧٤٩هـ) ٠
ــ تتمّة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) ،تحقيق أحمد رفعت البدراوي ،دار المعرفة ،بيروت (ط١) ١٩٧٠م٠

٩٤ــ اليافعـــــــيّ: أبو محمّد عبد اللّه بن أسعد بن عليّ بن سليمان اليافعـــيّ (ت: ٧٦٨هـ) ٠
ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ،مؤسسة الأعلمي للمطبوعـــات بيروت (ط٢) ١٩٧٠م٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩٥ــ ياقوت الحمـــــويّ : شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحمـــــويّ الرّومـي (ت: ٦٢٦هـ) :

ــ معجم الأدباء ، مطبوعات دار المأمون ، تحقيق أحمـــــد رفاعي ، القاهرة ، ١٩٣٦م ، وطبعة دار المستشرق ، بيـــروت (بلا تاريخ) .

ــ معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧٩م

ثالثـــا : المراجع الحديثـة والمترجمـــــة :

٩٦ــ إبراهيم أنيـــــس :

ــ موسيقى الشعر العربي ، الأنجلو المصريّة ، القاهـــــــرة مصـــر (ط٣) ١٩٦٥م .

٩٧ــ أحمد أحمد بـــدوي :

ــ الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصليبيّـــة (بمصر والشـــام) دار نهضة مصر ، القاهرة (ط٢) ١٩٧٩م .

ــ الحياة العقليّة في عصر الحروب الصليبيّة (بمصر والشـــام) دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

ــ القاضي الفاضل (دراسة ونماذج) ، مكتبة نهضة مصـــــر القاهرة ، ١٩٥٩م .

٩٨ــ أحمد أميـــــن :

ــ ظهر الإسلام ، مكتبة النهضة المصريّة ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

٩٩ــ أحمد الشايـــب :

ــ الأسلوب ، النهضة المصريّة ، القاهرة (ط٦) ١٩٦٦م .

ــ أصول النقد الأدبي ، النهضة المصريّة ، القاهرة (ط٨) ، ١٩٧٣م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٠ــ أحمد صـــــادق :

ــ تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، القاهرة (ط١) ١٩٧٩م.

١٠١ــ أحمد عبد المجيد الدومي :

ــ صلاح الدّين الأيّوبي الناصر لدين اللّه ، بيروت ، (بلا تاريخ).

١٠٢ــ اليزابث درو :

ــ الشعر كيف نفهمه ونتذوّقه ، ترجمة محمّد الشوش ، بيـــروت (١٩٦١م.

١٠٣ــ بروكلمان (كـــارل) :

ــ تاريخ الأدب العربي ، ترجمة السيّد يعقوب بكر ، دار المعارف القاهرة (ط٢) ١٩٨٣م.

١٠٤ــ بسّام المسلـــــي :

ــ صلاح الدّين الأيوبي ، دار النفائس ، بيروت (ط٧) ١٩٨٦م.

١٠٥ــ تشارلز مورجـــــان :

ــ الكاتب وعالمه ، ترجمة شكري عيّاد ، القاهرة ، (بلا تاريخ) .

١٠٦ــ جب (السيرهاملتون) :

ــ صلاح الدّين ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، ترجمة يوســـف أنيس ، المؤسسة العربيّة للدراسات ، بيروت ، ١٩٧٣م.

١٠٧ــ حامد زيّـــــان :

ــ حلب في العصر الزنكي ، القاهرة ، مصر ، (بلا تاريخ) .

ــ الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلاميّة زمن الحروب الصليبيّـــة ، القاهرة (ط١) ١٩٨٣م.

١٠٨ــ حسن إبراهيـــــم :

ــ تاريخ الدولة الفاطميّة (في المغرب وسورية وبلاد المـــــرب مكتبة النهضة المصريّة ، القاهرة (ط٤) ١٩٨١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٩ــ حسين مؤنـــس :
ــ نور الدّين محمـود ، القاهرة (ط١) ١٩٥٩م.

١١٠ــ خاشع المعاضيـدي :
ــ الحياة السياسيّة في بلاد الشام خلال العصر الفاطمـيّ بغداد (ط١) ١٩٧٥م.

١١١ــ خير الدّين الزركلـي :
ــ الأعلام (قاموس تراجم) ، بيروت (ط٣) ١٩٦٩م.

١١٢ــ دريد عبد القادر نوري :
ــ سياسة صلاح الدّين الأيوبي ، مطبعة الإرشاد ، بغـداد ١٩٧٦م.

١١٣ــ رشيد الجميلـيّ :
ــ دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدّين زنكـي بيروت (ط١) ١٩٧٠م.

١١٤ــ زكي المحاسنـي :
ــ شعر الحرب في أدب العرب ، دار المعارف ، القاهـرة ١٩٦١م.

١١٥ــ سعيد عاشـور :
ــ الحركة الصليبيّة ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، القاهـرة (ط٤) ١٩٨٢م.

١١٦ــ السيّد الباز العريني :
ــ الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيّوبيون) ، دار النهضة العربيّة ، بيروت ، ١٩٦٧م.

١١٧ــ شوقي ضيـف :
ــ عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ، دار المعرفـة القاهرة ، (ط١) ١٩٨٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف، القاهرة (ط٧) ١٩٧٤م.
ـ في النقد الأدبي ، دار المعارف، القاهرة (ط٢) ١٩٦٢م.

١١٨ـ عبد الجليل عبد المهدي:
ـ الحركة الفكريّة في ظلّ المسجد الأقصى (في العصرين الأيّوبي والمملوكي)، مكتبة الأقصى، عمّان الأردن (ط١) ١٩٨٠م.

١١٩ـ عبد الحكيم بلبع:
ـ النثر الفنّي وأثر الجاحظ فيه، مكتبة وهبة، القاهرة (ط٣) ١٩٧٥م.

١٢٠ـ عبد الحميد حسن:
ـ الأصول الفنيّة للأدب، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة (ط٢) ١٩٦٤م.

١٢١ـ عبد القادر الربّاعي:
ـ الصورة الفنيّة في شعر أبي تمام، جامعة اليرموك، إربد الأردن (ط١) ١٩٨٠م.

١٢٢ـ عبد اللطيف حمزه:
ـ أدب الحروب الصليبيّة، دار الفكر العربي، القاهرة (ط١) ١٩٤٩م، وطبعة بيروت، سنة ١٩٨٤م، وهي مصوّرة عن الطبعة الأولى.
ـ الأدب المصري من قيام الدولة الأيّوبيّة إلى مجيء الحملة الفرنسيّة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، (بلا تاريخ).

١٢٣ـ عبد اللّه ناصح علوان:
ـ صلاح الدّين الأيّوبي بطل حطّين ومحرر القدس، بيروت (ط٥) ١٩٨٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٢٤ ــ عبد المنعم محمّد حسنين :
ــ سلاجقة إيران والعراق ،القاهرة (ط١) ١٩٥٩م٠
١٢٥ــ عدنان عليّ النّحوي :
ــ الأدب الإسلاميّ إنسانيته وعالميته ،دار النّحوي للنشر والتوزيع، بيروت(ط١) ١٩٨٧م٠
١٢٦ــ عليّ إبراهيم حسن :
ــ مصر في العصور الوسطى ،القاهرة (ط٢) ١٩٤٩م٠
١٢٧ــ علي الجندي :
ــ شعر الحرب في العصر الجاهليّ ،مكتبة الجامعة العربيّة ،بيروت(ط٣) ١٩٦١م٠
١٢٨ــ عمر رضا كحّاله :
ــ معجم قبائل العرب ،المكتبة الهاشمية ،دمشق ،١٩٤٩م٠
١٢٩ــ عمر عبد الرحمن الساريسي :
ــ نصوص من أدب عصر الحروب الصليبيّة ،دار المنارة السعوديّة (ط١) ١٩٨٥م٠
١٣٠ــ عمر موسى باشا :
ــ أدب الدول المتتابعة ،دار الفكر الحديث ،دمشق ١٩٦٧م٠
١٣١ــ فيليب حتي :
ــ تاريخ سوريّة ولبنان وفلسطين ،ترجمة كمال اليازجي راجعه وأشرف على تحريره جبرائيل جبّور ،دار الثقافة بيروت ،جـ٢ ،١٩٥٩م٠
١٣٢ــ كاستلان (جورج) :
ــ تاريخ الجيوش ،ترجمة كمال دسوقي ،مكتبة النهضة المصريّة ،القاهرة ،١٩٥٦م٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٣٣ــ لينبول (ستانلـــي) :
ــ سيرة القاهرة ،ترجمة حسن إبراهيم حسن ،مكتبة النهضـــة المصريّة ،القاهرة ، ١٩٥٠م٠

١٣٤ــ مجمع اللغة العربيّـــة (مجمع القاهرة) :
ــ المعجم الوسيط ،قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وأحمـــــد حسن الزيّات وآخرون ،المكتبة العلميّة ،طهران،(بلا تاريخ) ٠

١٣٥ــ محمّد جمال سرور:
ــ الدولة الفاطميّة في مصر ،دار الفكر العربي،القاهرة١٩٧٩ م ٠
ــ سياسة الفاطميين الخارجيّة ،دارالفكرالعربي،القاهـــــرة ١٩٧٦م٠

١٣٦ــ محمّد حمدي المنـــاوي:
ــ الوزارة والوزراء في العصر الفاطميّ ،دار المعـــــــارف القاهرة ، ١٩٧٠م٠

١٣٧ــ محمّد راغب الطبّاخ :
ــ أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء،المطبعة العلميّـــــة حلب(ط١) ١٩٢٥م٠

١٣٨ــ محمّد زغلول سلاّم:
ــ الأدب في العصر الأيّوبي ،دار المعارف ،القاهـــــرة (ط١) ١٩٦٧م٠
ــ الأدب في العصر المملوكي ،دار المعارف،القاهـــــرة (ط١) ١٩٧١م٠

١٣٩ــ محمّد سيد كيلانـــي :
ــ الحروب الصليبيّة وأثرها في الأدب العربي بمصـــــر والشام ،القاهرة (ط٢) ١٩٨٤م٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤٠ــ محمّد صالح القزّاز:
ــ الحياة السياسيّة في العراق في العصر العبّاسي الأخير، النّجف، ١٩٧١م.

١٤١ــ محمّد عبد المنعم خفاجي:
ــ النقد العربي الحديث ومذاهبه، مطبعة الفجّالة الجديدة القاهرة، ١٩٧٥م.

١٤٢ــ محمّد العروسي المطوي:
ــ الحروب الصليبيّة في المشرق والمغرب، بيروت، ١٩٨٢م.

١٤٣ــ محمّد غنيمي هلال:
ــ النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.

١٤٤ــ محمّد فؤاد عبد الباقي:
ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المكتبة الإسلاميّة استانبول، تركيا، ١٩٨٤م.

١٤٥ــ محمّد أبو الفضل إبراهيم (وآخرون):
ــ قصص القرآن، المكتبة التجاريّة، القاهرة (ط١) ١٩٦٩م.

١٤٦ــ محمّد كامل حسين:
ــ دراسات في الشعر في عصر الأيّوبيين، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٧م.
ــ في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة (ط٢) ١٩٧٠م.

١٤٧ــ محمّد كرد عليّ:
ــ خطط الشام، مطبعة الترقّي، دمشق، ١٩٢٦م، وطبعة بيروت، ١٩٧١م.

١٤٨ــ محمّد ماهر حمادة:
ــ وثائق الحروب الصليبيّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي مؤسسة الرّسالة، جـ٥، بيروت (ط٣) ١٩٨٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ الوثائق السياسيّة والإداريّة ، (للعهود الفاطميـــــة والأتابكيّة ،والأيوبيّـــة) ، مؤسسة الرسالة ،ج٤ ، بيـــروت (ط٢) ١٩٨٥م٠

١٤٩ـ محمود إبراهيـــم :
ـ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ،مكتبـــة الأقصى ،عمّان ،المكتب الإسلامي ،دمشق ،١٩٧١م٠

١٥٠ـ محمـود مصطفـى :
ـ الأدب العربي في مصر ،من الفتح إلى نهاية العصـــر الأيّوبـي ،دار الكاتب العربي ،مصر،١٩٦٧م٠

رابعا : الدوريّات والمجـــلاّت :*

١٥١ـ عبد القادر الربّاعيّ (البديع الشعري بين الصنعة والخيال) أبحاث اليرمـوك المجلّد الثالث،العدد الثاني ،١٩٨٥م،جامعـــة اليرموك ،إربد ،الأردن٠

١٥٢ـ مصطفى الحيـــاري (حصن بيت الأحزان) دراسات ،المجلد الثالـــث عشر ،العدد الرابع١٩٨٦م،الجامعة الأردنيـــة عمّـــان ،الأردن٠

(*) توجد كذلك مقالات أخرى كثيرة عن القاضي الفاضـــل ،انظر ـ علـــى سبيل المثال ـ مقالـة لمحمّـد خلف اللّـه ،القاضي الفاضـــل كاتـــب الشرق والغرب في زمانه ،مجلّة الهلال ،العدد التاسع،السنة الحاديـــة والثلاثون ،١٩٧٣م ،ورشدي الأشهـب ،القاضي الفاضـــل الفجر الأدبي العدد ،١٨ ،٢٠ ،٢٣ ،سنة ١٩٨٢م ،وغيرهـــا٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : المراجـع الأجنبيّـــــة :

153- Lane Pool (S):

- Ahistory of Egypt in the Middle Ages, London, 1900.

154- - The Encyclopedia of Islam, Vol. II, London , 1960.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الآيات القرآنيّة

الآيـــة	الصفحـــة
١ــ (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها)	٧٩
٢ــ (ولو أنّ قرآنا سيّرت به الجبـــال)	٧٩
٣ــ (مقرّنين في الأصفـــــاد)	١٣٦
٤ــ (وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض)	١٨٢
٥ــ (وقالوا سمعنا وأطعنـــــا)	١٨٣
٦ــ (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود)	١٨٣ ٢١٣
٧ــ (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي)	١٨٣ ٢٠٩
٨ــ (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا)	١٨٣
٩ــ (كما يئس الكفّار من أصحاب القبـــور)	١٨٣
١٠ــ (جاء أمر اللّـــــــه)	١٨٣
١١ــ (غرّكم باللّـــه الغـــرور)	١٨٣
١٢ــ (فأزلهما الشيطان)	١٨٤
١٣ــ (ربّ إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخـــي)	١١٩ ١٨٤
١٤ــ (ولقد زيّنّا السّماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومـــا للشيـاطيـــن)	٢٣٢
١٥ــ (ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد)	٢٣٢
١٦ــ (لا يقاتلونكم جميعا إلاّ في قرى محصّنة أو من وراء جدر)	١٢٧
١٧ــ (وقودها الناس والحجـــارة)	١٤٧
١٨ــ (وسيّرت الجبال فكانت سرابا)	١٨٩
١٩ــ (قل هو اللّـــه أحـــد ، اللّـــه الصمد ....)	٢١٣
٢٠ــ (ثمّ بدّلنا مكان السيئة الحسنـــة)	٢١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢١— (ضربت عليهم الذلّة والمسكنة) ٢١٣
٢٢— (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة
ما أصحاب المشأمة) ٢١٣
٢٣— (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) ٢٥١
٢٤— (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه) ٢٥١
٢٥— (ولمّا سكت عنه الغضب أخذ برأس أخيه) ٢٥١
٢٦— (وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين) ٢٥٦

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأحاديث النبويّـــة

الحديـــث	الصفحـــه
١ــ (اللهمّ إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبـد)	١٨٥
٢ــ (لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ،صدق وعده ...)	١٨٥
٣ــ (بدأ الإسلام غريبا وسيعود ، .....)	١٨٦
٤ــ (الخيل معقود بنواصيها الخير)	٢٣٣
٥ــ (الحرب خُدْعَـــة)	٢٣٤
٦ــ (بعثت بجوامع الكلم ،ونصرت بالرّعب)	٢٣٤
٧ــ (لو أنكم تتوكّلون على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير ...)	٢٣٥

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأشعـــــار *

ـ الهمـــزة ـ

١ـ طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائـر لها نفذ لولا الشعاع من الشعاع أضاءها
(قيس بن الخطيم) ١٨٩

ـ البـــاء ـ

٢ـ إذا ما غزو بالجيش حلّق فوقهـم عصائب طير تهتدي بعصائـب
(النابغة الذبياني) ٢٣٥

٣ـ إذا معضل في الملك أعيا دواؤه غدا حاسما أسبابه حازما طبّا
(ابن الساعاتي) ٥٨١

٤ـ أين الرواية بل أين النجوم وماصاغوه من زخرف فيها ومن كذب
(أبو تمّام) ٢٣٥

ـ الحـــاء ـ

٥ـ لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع درّ على صالحه
(.....) ٥٧٢

ـ الـــدّال ـ

٦ـ بأنّه الحبر النّسيج وحده في علمه ودينه وزهده
(البرمكيّ) ٥٧٨

ـ الـــراء ـ

٧ـ ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدّت من الظفر
(ابن المعتز) ١٨٩

٨ـ يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزاره
(الغزاري) ١٨٦

* فهرس الأشعار الّتي وردت في الرّسالة لغير القاضي الفاضل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ السيـــن ـ

٩ـ يزخرف منها وجهها فهو جنـــة ويخضر منها نضرة فهو سنـــــدس
(ابن سنـــاء) ٥٧١

١٠ـ دع المكارم لا ترحل لبغيتهـــا واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاســـي
(الحطيئـــة) ١٨٧

ـ القـــاف ـ

١١ـ ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم وللسّيف حدّ حين يسطو ورونـــق
(البحتـــري) ٢٣٦

ـ الـــلام ـ

١٢ـ ذو المنطق الصّائـــب في حومـــة الفصـــل
(البلطـــي) ٥٧٩

١٣ـ فلمّا رأوه وحده قبل جيشـــه دروا أنّ كلّ العالمين فضـــول
(المتنبـــي) ٢٣٦

ـ الميـــم ـ

١٤ـ لرأيك هذا النصر للدين ينتمي فلا ينتحله كلّ عضب ولهـــذم
(ابن الـــذروي) ٥٨١

١٥ـ ناحل الجسم ذو خطاب به يصـ غر الدّهر كل خطب جسيـــم
(العماد الأصفهاني) ٥٧٦

١٦ـ ولست مليكا هازما لنظيـــره ولكنّك الإسلام للشرك هـــازم
(المتنبـــي) ١٠٠

١٧ـ تجمّع فيه كلّ لسن وأمّـــة فما تفهم الحدّاث إلاّ التراجـــم
(المتنبـــي) ١٢٨

١٨ـ ما مرّ يوم إلا وعند همـــا لحم رجال أو يولغان دمـــا
(٠٠٠٠٠٠٠٠٠) ١٤٤

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس البلدان والمواقع الجغرافية

ـ الهمزة ـ

١ـ آمد ١١٢

٢ـ الأحزان (حصن) ١١٨ ١٣٠ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢

١٤٤ ١٤٥ ١٨٥ ١٩٧

٣ـ إربد ٢٠٤ ٢٧٨

٤ـ الأردنّ ٠٠٢ ١٢٧ ١٣٠ ١٣٢ ١٤١

٢٧٨

٥ـ إرم ٠٨٩

٦ـ الإسكندرية ٠١٩ ٠٢٣ ٠٤٢ ٠٤٣ ٠٥٤

٠٨٦ ٠٨٧ ١٢٢

٧ـ إنّب ٠١١

٨ـ الأندلس ٠٤١ ٠٤٤ ٠٤٧

٩ـ أنطاكية ٠٠٩ ٠١١

١٠ـ أوروبا ٠٣٧ ١٢٣ ١٢٨

١١ـ أيلة ٠٩٣ ١٤١ ١٤٢ ١٤٤ ١٤٧

ـ الباء ـ

١٢ـ بانياس ٠١٩ ٠٣١

١٣ـ البَرْواء ١٥٣

١٤ـ بَرْزَيَة (حصن) ١٤١ ١٤٣ ١٩٢

١٥ـ بُصْرى ٠٣١

١٦ـ بَعْرين (قلعة) ٠١١

١٧ـ بَعْلَبَك ٠٣١

١٨ـ بغداد ٠١٥ ٠٢٠ ٠٤٧ ٠٧٣ ١٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٤ ١٠٧ ١١٢ ١١٦ ١١٨
١٢٩ ١٣٠ ١٣٢ ١٣٥ ١٤٠
١٥٢ ١٥٣ ١٨٣ ١٨٥ ٢٠٤
٢٥٨ ٢٦٣ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨

١٩ـ بَكّاس ٠٢٥

٢٠ـ بَيْسان ٠٦٢ ٠٦٣ ٠٦٥ ٠٦٦ ١٣٢

٢١ـ بيروت ٠٢٥ ١٠٦ ١٣٠ ١٣٢ ١٤٩
١٥٣ ١٧١ ١٩٨ ٢٠٥ ٢٠٦
٢٠٧ ٢١٥ ٢١٦ ٢٢٠ ٢٥٨
٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣
٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨
٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣
٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨
٢٧٩

ـ التـــاء ـ

٢٢ـ تِبْنِين ٠٣١ ٠٣٢

ـ الجيـــم ـ

٢٣ـ جُبَيْل ٠٢٥

٢٤ـ الجُحْفَة ١٥٣

٢٥ـ الجزيرة ٠١٦ ٠١٩ ٠٢٠ ٠٢٢ ٠٢٣
٠٢٧ ٠٣١ ٠٩٢ ١٠٧ ١١٥
١٩٨

٢٦ـ جسر الخشب ١٣٣

٢٧ـ جَبْتَر ٠١٩

٢٨ـ الجُوريّ ٢٣٠

ـ الحـــــــاء ـ

٢٩ـ الحجـــــــاز ٠٠٥ ٠٣٧ ٠٤٤ ١٤٤ ١٥١
١٥٣ ١٥٤
٣٠ـ حـــــــوران ٠١٩
٣١ـ حطّيـــــــن ٠٠١ ٠٢٣ ٠٢٤ ٠٢٦ ٠٢٨
١١٩ ١٢٠ ١٢٣ ١٢٩ ١٣١
١٣٢ ١٣٣ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧
١٣٨ ١٤٩ ١٥٥ ١٨٢ ١٨٣
١٨٧ ١٩٧ ٢٠٠ ٢١٠ ٢١١
٢١٢
٣٢ـ حلـــــــب ٠٢٠ ٠٢٢ ٠٣١ ٠٣٢ ٠٣٨
٠٤٠ ٠٤١ ٠٤٨ ٠٥١ ٠٥٢
١٠٨ ١٠٩ ٢٧٠
٣٣ـ حمـــــــاة ٠٣١ ١٠٤
٣٤ـ حمـــــــص ٠٢٥ ١٨٩ ٢٠٥
٣٥ـ الحَـــــــوْراء ١٥٣
٣٦ـ الحَـــــــوْف ٠١٣

ـ الخـــــــاء ـ

٣٧ـ الخَابُـــــــور ٠١٩

ـ الـــــــدال ـ

٣٨ـ الـــدّاروم (حصـــن) ٠٣٠ ٠٣١ ١٢٦ ١٤١ ١٤٦
٣٩ـ دمشـــــــق ٠١٦ ٠١٩ ٠٢٠ ٠٢٥ ٠٣٠
٠٣١ ٠٣٢ ٠٣٨ ٠٥١ ٠٥٣
٠٥٤ ٠٥٥ ٠٥٦ ٠٥٨ ٠٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

	٠٧٣	٠٨٣	٠٩٤	٠٩٥	١٣٠
	٢٦٥	٢٦٦	٢٦٧	٢٦٩	
٤٠ـ دمياط	٠٢٢	٠٨٥	١٠٧	١٢٢	١٢٣
٤١ـ ديار بكر	٠١٩	٠٢٢	٠٢٣	٠٢٤	٠٣١
	١٠٧	١١٥			

ـ الـــراء ـ

٤٢ـ رابغ	١٥٣				
٤٣ـ الرَّقَّة	٠١٩				
٤٤ـ الرَّمْلَة	٠٢٣	٠٢٩	١١٨	١٢٧	
٤٥ـ الرُّهَا	٠١١	٠١٩			

ـ السيـــن ـ

٤٦ـ سَرْمِينِيَّة	٠٢٥				
٤٧ـ سِنْجَار	٠٢٧				

ـ الشيـــن ـ

٤٨ـ الشَّام	٠٠١	٠٠٣	٠٠٥	٠٠٩	٠١٠
	٠١٣	٠١٤	٠١٥	٠١٦	٠١٧
	٠١٩	٠٢٠	٠٢١	٠٢٢	٠٢٣
	٠٢٦	٠٢٩	٠٣٠	٠٣١	٠٣٦
	٠٣٧	٠٣٨	٠٣٩	٠٤٠	٠٤١
	٠٤٣	٠٤٤	٠٤٥	٠٤٦	٠٤٧
	٠٤٩	٠٥٣	٠٥٩	٠٦٠	٠٧٢
	٠٨٩	٠٩١	٠٩٤	١٠١	١٠٧
	١١٠	١١٢	١١٥	١١٩	١٢٠
	١٢٢	١٢٤	١٢٩	١٤٠	١٤١
	١٤٢	١٥١	١٥٥	١٧٥	١٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٩— الشُّغْـــــــــر ٠٢٥

٥٠— الشَّوْبَـــــــــك ٠٢٣ ٠٢٤ ٠٤١ ١٥٣ ١٤٥
١٤٦ ١٥٠

ـ الصـــــــــاد ـ

٥١— الصَّعيـــــــــد ١٥٢ ١٥٦

٥٢— صفـــــــــد ٠٩٣

٥٣— صِقِلِّيَّـــــــــة ١٢٢

٥٤— صِهْيَـــــــــوْن ٠٢٥

٥٥— صُـــــــــور ٠٢٦ ٠٢٧ ٠٢٨ ٠٣٠ ١٣١

ـ الطـــــــــاء ـ

٥٦— طَبَريَّـــــــــة ١٣٠ ١٣٢ ١٣٤ ١٨٦ ٢٠٦

٥٧— طَرَابُلُـــــــــس ٠٣٨

ـ العيـــــــــن ـ

٥٨— عبـــدون (ديـــر) ١٨٩

٥٩— العـــــــــراق ٠٤٤ ٢٦١

٦٠— عَسْقَـــــــــلان ٠٠٣ ٠١٤ ٠١٥ ٠٢٣ ٠٢٨
٠٢٩ ٠٣٠ ٠٦٢ ٠٦٣ ٠٦٥
٠٦٦ ٠٨٣ ٠٨٤ ٠٨٦ ١٠٣
١٠٤ ١٠٥ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣
١٤٦ ١٤٧ ٢٠٤

٦١— عَفَـــــــــرَبَـــــــــلا ١٣٢

٦٢— عَكَّـــــــــة ٠٢٦ ٠٢٧ ٠٢٨ ٠٣٢ ٠٥٨
٠٩٣ ١٠٠ ١٠١ ١٠٦ ١١١
١١٧ ١١٩ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

		١٢٧	١٣٥	١٤٢	١٤٩	١٥٠
		١٥١	١٥٣	١٥٤	١٨٢	١٨٤
		١٨٥	١٨٧	١٩٤	١٩٥	١٩٨
		٢٠٢	٢١٥			
٦٣ـ	عـــــــــدن	١٥٢				
٦٤ـ	عَيْـــــــــذاب	١٥٢	١٥٣			

ـ الغيـــــــن ـ

٦٥ـ	غـــــــــزّة	٠٠٩	٠٢٣	٠٢٨	١٢٦	١٤١
		١٤٢	١٤٣	١٤٨	١٨٦	١٨٩
		١٩٤	٢٠٧			

ـ الفـــــــاء ـ

٦٦ـ	فلسطيـــــــن	٠٠١	٠٦٢	١٢٠	١٢٧	١٤١

ـ القـــــــاف ـ

٦٧ـ	القاهـــــــرة	٠٠٣	٠٣٩	٠٤٢	٠٩٧	٠٩٨
		٠٩٩	٠٨٥	٠٨٦	٠٨٧	٢٠٣
		٢٥٧	٢٥٨	٢٥٩	٢٦٠	٢٦١
		٢٦٢	٢٦٣	٢٦٤	٢٦٥	٢٦٦
		٢٦٧	٢٦٨	٢٦٩	٢٧٠	٢٧١
		٢٧٢	٢٧٣	٢٧٤	٢٧٥	٢٧٦
		٢٧٧	٢٧٨	٢٧٩		
٦٨ـ	القـــــــدس	٠٢٨	٠٢٩	٠٣٠	٠٣١	٠٤٠
		٠٤٤	٠٥٣	٠٩٣	٠٧٦	٠٧٩
		١٠١	١٠٣	١٠٤	١١٠	١١٨
		١٢٠	١٢٣	١٢٤	١٢٥	١٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٣٥ ١٣٦ ١٣٨ ١٤١ ١٤٢
١٤٣ ١٤٦ ١٥٥ ١٨٣ ١٨٤
١٨٦ ١٩١ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٧
١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠٨ ٢١١
٢٣٠

٦٩ـ القُسْطَنْطِينِيَّة ١٢٢ ١٥٤
٧٠ـ قِفْط ٠٤٨
٧١ـ قُوص ١٢٦
٧٢ـ القَيْرَوان ٠٤٦

ـ الكاف ـ

٧٣ـ الكَرَك ٠٢٣ ٠٢٤ ٠٣١ ٠٣٧ ١٠٩
١٣٠ ١٣٦ ١٤١ ١٤٣ ١٤٥
١٤٦ ١٥١
٧٤ـ كَوْكَب ١٤١ ١٤٣ ١٤٨

ـ اللام ـ

٧٥ـ اللاذقيَّة ٠٢٥
٧٦ـ اللُّدّ ٠٢٩

ـ الميم ـ

٧٧ـ المدينة (المنوّرة) ٠٤٧ ١٠٤ ١٠٥ ١٥٢
٧٨ـ مصر ٠٠٢ ٠٠٣ ٠٠٤ ٠٠٥ ٠١١
٠١٢ ٠١٣ ٠١٤ ٠١٥ ٠١٦
٠١٧ ٠١٨ ٠١٩ ٠٢٠ ٠٢٢
٠٢٣ ٠٢٩ ٠٣١ ٠٣٢ ٠٣٣
٠٣٤ ٠٣٥ ٠٣٦ ٠٣٧ ٠٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٠٣٩ ٠٤١ ٠٤٣ ٠٤٤ ٠٤٥

٠٤٦ ٠٤٧ ٠٤٨ ٠٤٩ ٠٥٦

٠٦٠ ٠٧٢ ٠٨٣ ٠٨٤ ٠٨٥

٠٨٧ ٠٨٨ ٠٨٩ ٠٩١ ٠٩٣

٠٩٣ ٠٩٥ ٠٩٦ ٠٧٨ ٠٨٠

٠٨١ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١١٢

١٢٦ ١٢٩ ١٣٠ ١٤١ ١٤٢

١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٥

١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٦١ ١٦٣

١٦٥ ١٧٨ ١٦٩ ١٧٢ ١٨١

١٨٥ ١٩٨ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧

٢١٩ ٢٢٨ ٢٣٤ ٢٣٦ ٢٤٠

٢٤١ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٧٠ ٢٧١

٧٩— المقبرة ٠١١

٨٠— المغرب ٠٤٤ ٠٤٦ ٠٤٧ ١٨٤

٨١— مكة ٠٤٧ ١٥١ ١٨٥

٨٢— الموصل ٠١٩ ٠٢٠ ٠٢٧ ٠٤٠ ٠٤١

٠٧٩ ١١٠ ١٩٨ ٢٣٠

— النون —

٨٣— نجم ١٨٨

٨٤— نصيبين ٠١٩

٨٥— النوبة ٠١٥ ٠١٨ ٢١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ الهـــــاء ـ

٨٦ـ الهِنْـــــــد ٠٣٧ ٠٥٢ ٢٦٠

ـ اليـــــاء ـ

٨٧ـ يافـــــا ٠٣٢

٨٨ـ اليَمَـــــن ٠١٨ ٠٢٢ ٠٣١ ٠٨٠ ١٤٨

١٨٥ ١٩٢

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأعـــــلام

— الهمـــــزة —

١— آدم (النبيّ) ١٨٣ ١٨٤

٢— ابن الأثير (ضياء الدّين) ٠٤٦ ٠٥٧ ٠٨٣ ٠٩٥ ١٨٠
٢١٩ ٢٣٦ ٢٤٥ ٢٥٨

٣— ابن الأثير (عزّ الدّيـــن) ٠٠٦ ٠٠٨ ٠٠٩ ٠١١ ٠١٣
٠١٥ ٠١٧ ٠٢٢ ٠٢٥ ٠٢٦
٠٢٧ ٠٢٩ ٠٣١ ٠٣٥ ٠٩٤
٢١٦ ٢٥٨

٤— إبراهيم (النبيّ) ١٨٢ ١٨٤

٥— إبراهيم الأبياري ٢٦٨

٦— إبراهيم أنيـــس ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٧١

٧— إحسان عبّـاس ٠١١ ٠٤٦ ٠٤٨ ٢٦٥

٨— أحمد أميـن ٠٤٦ ٠٤٧ ٢٦٥ ٢٧١

٩— أحمد بـدوي ٠٠٢ ٠٦٢ ٠٧٠ ١٦٧ ٢١٧
٢٧١

١٠— أحمد رفعـت ٠١٤

١١— أحمد الشايـب ٢٧١

١٢— أحمد صادق ٠٣٣ ٢٧٢

١٣— أرناط (صاحب الكرك) ١٥١

١٤— الإسكندرانيّ (عبد الرحمن بن سلامـــة) ٠٧٤

١٥— إسماعيل بن نور الدّيـــن (الملك الصالح) ٠١٩ ١٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٦— الأسنوي (عبد الرحيم بن الحسن) ٠٦٤ ٠٦٥ ٠٦٧ ٠٦٨ ٠٩٧
٠٩٨ ٠٨٣ ٠٨٤ ٠٨٧ ٠٧٦
٠٧٧ ١٨٠ ٢١٧ ٢٥٨
١٧— ابن أبي أصيبعة ٠٤١ ٠٥٧ ٢٥٨
(أحمد بن القاسم)
١٨— الأفضل (عليّ بن صلاح الدّين) ٠٣١ ٠٣٢ ٠٤٦ ٠٩٥ ٠٩٦
١٩— البزابث درو ١٩٢ ٢٧١
٢٠— أيمن فؤاد ٠٠٩

— الباء —

٢١— البحتري (الوليد بن عبيد الطائي) ٠٦٧ ١٨٠ ٢٣٦ ٢٥٨
٢٢— البخاريّ (محمّد بن إسماعيل) ٢٣٤ ٢٥٨
٢٣— البرمكي (الفضل بن يحيى) ٢٢٢
٢٤— البرمكي (محمّد بن هبةالله) ٠٧٤ ٠٧٨
٢٥— بروكلمان (كارل) ٠٦٢ ٠٧٠ ٢٧١
٢٦— ابن برّي (عبد اللّه بن برّي) ٠٥٦
٢٧— بشّار عوّاد ٢٦٨
٢٨— البغدادي (عبد اللطيف ابن يوسف) ٠٤١ ٠٤٢ ٠٤٥ ٠٥٧ ٠٥٩
٠٦٨ ٠٧٢ ٠٧٣ ٠٧٦ ٠٧٩
٠٨٠ ١٩٩ ٢٥٨
٢٩— بلبع (عبد الحكيم) ١٩١
٣٠— البلطي (عثمان بن عيسى) ٠٥٦ ٠٧٩
٣١— بلمظفر بن نصر ٠٥٧
٣٢— البنداري (الفتح الأصفهاني) ٠٤٣ ٢٥٩
٣٣— البندهي (محمّد بن عبد الرحمن) ٠٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ التـــــاء ـ

٣٤ـ ابن تغري‌بردي (يوسف) ٠٦٥ ٢٥٩

٣٥ـ أبو تمّام (حبيب بن أوس ٠٦٧ ١٨٠ ٢٠٤ ٢٣٤ ٢٣٥
الطائي) ٢٥٩

٣٦ـ تورانشاه بن أيّوب ٠١٨

ـ الثـــــاء ـ

٣٧ـ الثعالبي (أبو منصور، ٢٢٠ ٢٥٩
عبد الملك بن محمّد)

ـ الجيـــــم ـ

٣٨ـ الجاحظ (عمرو بن بحر) ١٨٧ ١٩٢ ٢٥٩

٣٩ـ جب (هاملتون) ١٢٦ ٢٧١

٤٠ـ ابن جبير (محمّد بن أحمد) ٠٠٥ ٠٣٧ ٠٣٨ ٠٣٩ ٠٤١
٠٤٢ ٠٤٤ ٠٤٧ ٠٥١ ١٥٢
٢٥٩

٤١ـ الجرجاني (القاضي علي بن ٢١٩ ٢٦٠
عبد العزيز)

٤٢ـ الجماعيلي (عبد اللّـه) ٠٥٨

٤٣ـ ابن جميع (هبة اللّه بن زين) ٠٥٩

٤٤ـ ابن الجوزي (سبط) ٠٤٨ ٠٦٥ ٠٦٨ ٠٧١ ٠٩٨
٠٩٠ ٠٧٧ ١٨١ ٢٦٠

٤٥ـ ابن الجوزي (علي بن عبد الرحمن) ٠١١ ٢٦٠

ـ الحـــــاء ـ

٤٦ـ ابن الحاجب (أحمد) ٠٥٩

٤٧ـ حاجي خليفـة ٢٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٨— الحافظ (أبو الميمون ، عبد المجيد) ٠١٢ ٠١٤ ٠٨٣ ٠٨٤ ٠٨٦

٤٩— حامد زيّان ٠٠٩ ٠٢٢ ٢٧٢

٥٠— ابن حجر (العسقلاني) ٢٦٠

٥١— ابن حجّة الحموي (علي بن محمّد) ٠٦٩ ١٣٥ ١٩٩ ٢٦٠

٥٢— ابن حديد ٠٨٦

٥٣— حسن إبراهيم حسن ٠١٧ ٢٧١ ٢٧٢

٥٤— حسن كامل الصيرفي ٢٥٨

٥٥— الحسني (عليّ بن ناصر) ٢٦١

٥٦— حسين مؤنس ٠١٣ ٢٧١ ٢٧٣

٥٧— الحطيئة (جرول بن أوس) ١٨٧ ٢٦١

٥٨— الحلبي (شهاب الدين محمود) ٢٦١

٥٩— الحنبلي (مجير الدّين عبد الرحمن بن محمّد) ٠١٤ ٢٦١

٦٠— أبو حنيفة النعمان ٢١٧

— الخـــــاء —

٦١— الخبوشاني (محمّد بن الموفّق) ٠٥١

٦٢— خسرو (ناصر علوي) ٢٦١

٦٣— ابن الخطيم (قيس) ٢٦١

٦٤— ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمـــد) ٠٠٨ ٠٠٩ ٠١٠ ٠١٢ ٢٦١

٦٥— ابن الخلّال (الموفـــق يوسف بن محمّد) ٠٨٤ ٠٨٦ ٠٨٧ ٠٨٨ ١٨١

٦٦— ابن خلّكان (أحمد بن محمّد) ٠٠٤ ٠٠٦ ٠١١ ٠٤٠ ٠٤٤

٠٤٦ ٠٥٥ ٠٦٢ ٠٦٤ ٠٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٠٧٠ ٠٧٤ ٠٩٧ ٠٩٨ ٠٨٦
٠٩٥ ١٥٦ ٢٦٢
٦٧— ابن خليفة (عليّ بن خليفة) ٠٥٨

— الـــــذّال —

٦٨— دريد عبد القادر ٠٢٠ ٢٧٣
٦٩— الدلجي (أحمد بن علي) ٢٦٢
٧٠— الدّهان (عليّ بن موسى) ٠٧٤
٧١— الدّومي (أحمد عبد المجيد) ٠٢٦ ٠٣٨ ٢٧٢
٧٢— ابن الدّيباجي (الحسن ابن أحمد) ٠٠٤ ٠٦٢ ٢٦٢

— الـــــذّال —

٧٣— ابن الذروي ٠٨١
٧٤— الذهبي (محمّد بن أحمد) ٠٠٦ ٠١١ ٠٤٠ ٠٤٢ ٠٥٤
٠٦١ ٠٦٢ ٠٦٣ ٠٦٥ ٠٦٧
٠٦٨ ٠٧٢ ٠٨٥ ٠٧٦ ٠٧٨
٠٧٩ ٢٦٢

— الـــــرّاء —

٧٥— الرّباعي (عبد القادر) ١٩١ ٢٠٤ ٢٧٤ ٢٧٨
٧٦— رتشارد (قلب الأسد) ٠٢٦ ٠٢٩
٧٧— ابن رزيك (وزير فاطمي) ٠٢٢ ٢٢٠ ٢٣٨ ٢٤٤
٧٨ رشدي الأشهب ٠٠٢ ٢٧٨
٧٩— ابن رشيق (الحسن القيروانيّ) ٠٦٦ ٠٧١ ٢٦٢
٨٠— رضوان (وزير فاطميّ) ٠١٢
٨١— ابن رفاعة (عبد الرحمن) ٠٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ الـــــزّاي ـ

٨٢ـ الزبرقان بن بدر ١٨٧

٨٣ـ الزبيدي (محمّد مرتضى) ٢٦٢

٨٤ـ ابن الزكي (القاضي محمد بن علي) ٥٥٢

٨٥ـ الزواوي (يحيى بن عبد المعطي) ٥٥٧

ـ السّيـــــن ـ

٨٦ـ ابن الساعاتي (علي بن رستم) ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٢٦٣

٨٧ـ ابن السّاعاتي (عليّ بن أنجب) ٥٤٠ ٥٦١ ٥٩٠ ٥٩٥ ٥٧٧
٢١٦ ٢٦٣

٨٨ـ السّبكي (عبد الوهاب بن علي) ٥٤٠ ٥٦١ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٧
٥٦٨ ٥٩٠ ٥٧٧ ٢١٦

٨٩ـ ست الشام بنت نجم الدّين أيّوب ١٤٧

٩٠ـ السّخاوي (عليّ بن محمّد) ٥٥٥

٩١ـ السّديد (عبد اللّه) ٥٥٨

٩٢ـ سعيد عاشور ٥٠٩ ٥٢٦ ٢٧٣

٩٣ـ ابن السلاّل (وزير فاطميّ) ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥

٩٤ـ السّلَفي (الحافظ أحمد بن محمد) ٥٤٢ ٥٤٦ ٥٥٥ ٥٥٣ ٥٥٤

٩٥ـ سليمان (النبيّ) ١٤٧ ١٨٤ ٢٠٤

٩٦ـ ابن سناء الملك (هبة اللّه) ٥٤٤ ٥٤٦ ٥٥٧ ٥٧١ ٥٧٢
٥٧٣ ٥٨٢ ٢٦٣

٩٧ـ السّهروردي (يحيى بن حبش) ٥٥٢

٩٨ـ سهيل زكّـــار ٢٦٧

٩٩ـ السيّد يعقوب بكر ٥٦٢

١٠٠ـ سيف الإسلام (صاحب اليمن) ١٤٨ ١٩٢

١٠١ـ سيف الدولة الحمداني (علي) ٢٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٢ — سيف الدّين غازي ٠١٠٩

١٠٣ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) ٠١٠ ٢٦٣

— الشيـــــن —

١٠٤ — الشاطبي (القاسم بن فيرة) ٠٥٥ ٠٧٤

١٠٥ — ابن شاكر الكتبي (محمّد) ٠٤٨ ٢٦٣

١٠٦ — أبو شامة المقدسي (عبد الرحمن إسماعيل) ٠٠٤ ٠٠٦ ٠١١ ٠٢٠ ٠٢٤

٠٢٨ ٠٣١ ٠٣٤ ٠٤٠ ٠٤٢

٠٥١ ٠٥٥ ٠٦٨ ٠٩٨ ٠٨٥

٠٨٧ ٠٨٩ ٠٩١ ٠٩٢ ٠٩٤

٠٩٦ ٢١٥ ٢٦٤

١٠٧ — شاور السعديّ (الوزير) ٠١٣ ٠١٤ ٠١٦ ٠٨ ٠٨

٠٨٨ ٠٨٩ ١٥٦ ١٦٨ ٢٢١

٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٤ ٢٤٦ ٢٤٧

٢٤٩

١٠٨ — شجاع بن شاور (الكامل) ٠٨٣ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩

١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤

١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٧٥ ١٧٨

١٦٩ ١٧٢ ٢٢١ ٢٢٨ ٢٣٤

٢٣٥ ٢٣٨ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٤

٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٩

١٠٩ — ابن شداد (بهاء الدين يوسف ابن رافـع) ٠١٢ ٠١٥ ٠٢٨ ٠٢٩ ٠٤٠

٠٤١ ٠٤٣ ٠٤٦ ٠٤٧ ٠٥٣

٠٥٥ ١١٥ ٢٦٤

١١٠ — ابن شداد (عزالدّين محمّد) ٢٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١١١ــ ابن شكر (صفي الدّين) ٠٥٤ ٠٩٨

١١٢ــ شكري عيّـــاد ١٩١

١١٣ــ شكري فيصـــل ٠٤٣ ٠٤٦ ٢٦٥

١١٤ــ ابن شمس الخلافة (جعفر) ٠٧٤

١١٥ــ شوقي ضيـــف ٠٢٠ ٠٤٦ ٠٦١ ٢١٧ ٢٦٥

٢٧٣

١١٦ــ الشهرزوري (محمّد بن عبد الله) ٠٥٥

١١٧ــ شيركوه (أسد الدين) ٠١٤ ٠١٥ ٠١٦ ٠١٧ ٠٢٠

٠٣١ ٠٨٤ ٠٨٨ ٠٨٩ ٠٩٠

١٥٦

ــ الصـــــــاد ــ

١١٨ــ الصفدي (خليل بن أيبك) ٠٠٥ ٢٦٤

١١٩ــ ابن الصلاح (عثمان بن عبد الرحمـــن) ٠٥٥

١٢٠ــ صلاح الدّين (يوسف بن أيّوب) ٠٠١ ٠٠٢ ٠٠٣ ٠٠٤ ٠٠٥

٠٠٦ ٠١١ ٠١٥ ٠١٦ ٠١٧

٠١٨ ٠٢٠ ٠٢١ ٠٢٢ ٠٢٣

٠٢٤ ٠٢٥ ٠٢٦ ٠٢٧ ٠٢٨

٠٢٩ ٠٣٠ ٠٣١ ٠٣٢ ٠٣٤

٠٣٥ ٠٣٦ ٠٣٧ ٠٣٨ ٠٣٩

٠٤٠ ٠٤٤ ٠٤٥ ٠٤٧ ٠٤٩

٠٥١ ٠٥٣ ٠٥٦ ٠٥٨ ٠٥٩

٠٦٨ ٠٧١ ٠٧٢ ٠٩٨ ٠٩٩

٠٨٣ ٠٨٨ ٠٨٩ ٠٩٠ ٠٩١

٠٩٢ ٠٩٣ ٠٩٤ ٠٩٥ ٠٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٠٧٦ ٠٨٣ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢
١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧
١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١٢ ١١٣
١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩
١٢٠ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٥ ١٢٦
١٢٧ ١٢٩ ١٣٠ ١٣٢ ١٣٤
١٣٥ ١٣٨ ١٣٩ ١٤١ ١٤٢
١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩
١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٥ ١٥٦
١٥٧ ١٥٩ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣
١٦٤ ١٦٧ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٣
١٧٩ ١٦٩ ١٨٠ ١٨٢ ١٨٤
١٨٥ ١٨٧ ١٩٤ ١٩٧ ١٩٨
٢٠٠ ٢٠٢ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٨
٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٥
٢١٧ ٢١٨ ٢٢٠ ٢٢٧ ٢٣٠
٢٣٣ ٢٣٥ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩
٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٤ ٢٤٥

— الضـــــــاد —

١٢١ — ضرغام (وزير فاطميّ) ٠١٣ ٠١٤ ٠١٦ ٠٨٨

— الطـــــــاء —

١٢٢ — الطريثيثي (مسعود بن محمد) ٠٥٣
١٢٣ — طلائع بن رزيك (وزير فاطميّ) ٠١٣ ٠١٤ ٠٣٤ ٠٨٦ ٠٨٧
١٥٦ ١٦٦ ١٧٣ ١٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ الظـــــــاء ـ

١٢٤ـ الظافر (إسماعيل ، خليفة فاطمي) ٠١٢ ٠١٣ ٠١٤ ٠١٥ ٠٨٠

١٢٥ـ ابن ظافر (علي الأزدي) ٢٦٤

١٢٦ـ ابن عبد الظاهر (عبد الله) ٢٦٤

١٢٧ـ الظاهر (غازي بن صلاح الدّين) ٠٣١ ٠٣٢ ٠٤٠ ٠٤١ ٠٤٨

١٢٨ـ ابن ظفـر (محمّـد) ٠٥٦

ـ العيـــــــن ـ

١٢٩ـ العادل بن أيّوب ٠٣١ ٠٣٢ ٠٩٨ ٠٩١ ٠٩٦

١٣٠ـ العـاص بن منبـه ١٦١

١٣١ـ العاضد (عبد الله ، الخليفة) ٠١٣ ٠١٤ ٠١٦ ٠١٧ ٠٣٤

٠٣٥ ٠٨٦ ٠٨٨ ٠٨٩ ٠٩٠

٠٨٠ ١٥٦

١٣٢ـ عبّاس (وزير فاطميّ) ٠١٥

١٣٣ـ عبد الجليل عبد المهدي ٢٧٤

١٣٤ـ عبد الحميد حسن ٢٠٦ ٢٧٤

١٣٥ـ عبد اللطيف حمزة ٠٠٢ ١٥٥ ١٨١ ٢١٧ ٢٢٢

٢٧٤

١٣٦ـ عبد المنعم حسنين ٠٠٩ ٢٧٥

١٣٧ـ العثماني (أبو محمّد) ٠٦٧

١٣٨ـ العراقي الخطيب (إبراهيم ابن منصور) ٠٥٢

١٣٩ـ العريني (السيّد الباز) ٢٧٣

١٤٠ـ عزّ الدّين أسامة ١٧٨

١٤١ـ العزيز (عثمان بن صلاح الدّين) ٠٣١ ٠٣٢ ٠٩١ ٠٩٦ ١٦٢

١٧٣ ٢٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤٢ــ ابن عساكر (عبد الرحمن بن محمّد) ٠٥٣ ٠٦٧

١٤٣ــ ابن عساكر (عليّ بن الحسن) ٠٥٣ ٠٦٧

١٤٤ــ العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد اللّــه) ٠٦٧ ٢٦٥

١٤٥ــ ابن عصرون (عبد الله بن محمّد) ٠٥١

١٤٦ــ العكبري (أبو البقاء) ١٠٠ ٢٦٨

١٤٧ــ العلوي (محمد بن محمد) ٠٧٣ ٠٧٤

١٤٨ــ عليّ بن أبي طالب ١٦٠ ١٦١ ١٨٦

١٤٩ــ العماد الأصفهاني (محمّد بن محمّــد) ٠٠٥ ٠٠٦ ٠٠٨ ٠٢٤ ٠٣٦

٠٤٠ ٠٤١ ٠٤٣ ٠٤٤ ٠٤٦

٠٤٨ ٠٤٩ ٠٥٠ ٠٥١ ٠٥٦

٠٥٧ ٠٦١ ٠٦٣ ٠٦٩ ٠٧٣

٠٧٤ ٠٩٧ ٠٨٣ ٠٩١ ٠٩٣

٠٩٣ ٠٧٦ ٠٧٧ ٠٧٩ ٠٨١

٠٨٣ ١١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨

٢٦٥

١٥٠ــ ابن العماد الحنبليّ (عبد الحيّ) ٠٠٦ ٠١٩ ٠٧٨ ١٨٠ ٢٦٥

١٥١ــ عماد الدّين زنكي ٠٠١ ٠١١ ٠٢٢

١٥٢ــ عمارة اليمني ٠٠٥ ٠١٠ ٠٢٠ ٠٣٤ ٠٨٧

٠٨٨ ٠٨٠ ٠٨٣ ١٨٦ ٢٠٢

٢٦٦

١٥٣ــ عمر بن الخطّــاب ١٠٥

١٥٤ــ العمري (محمّد بن عليّ) ٠٠٨ ٢٦٦

١٥٥ــ ابن العميد (الكاتب) ١٨١

١٥٦ــ ابن عنين (محمّد بن نصر) ٠٤٤ ٠٨٣ ٢٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٥٧ــ ابن عوف (عبد العزيز بن محمّد) ٠٦٧
١٥٨ــ عياض (القاضي عياض بن موسى) ٠٤٦ ٠٤٧ ٢٦٧

ــ الفيـــــن ــ

١٥٩ــ الغزالي (أبو حامد) ٠٧٣
١٦٠ــ الغزنوي (أحمد بن محمّد) ٠٥٢ ٠٥٤

ــ الغـــــاء ــ

١٦١ــ الفائـز (عيسى ،خليفة فاطميّ) ٠١٤ ٠٨٠ ١٥٦
١٦٢ــ الفاروقي (محمّد بن عليّ) ٠٦٠
١٦٣ــ أبو الفداء (إسماعيل بن علي) ٠١١ ٠١٩ ٠٦٤ ٢٦٦
١٦٤ــ ابن الفرات (محمّد بـــن عبد الرّحيـم) ٠١٧ ١٩٦ ٢٠٦
١٦٥ــ الفزاري (سهل بن مالك) ١٨٦
١٦٦ــ ابن فضل اللّه (العمري) ٠٩٠ ٠٩١ ٢٥٧ ٢٦٦
١٦٧ــ ابن الفوطي (عبد الرزّاق) ٠٤٦ ٢٦٦
١٦٨ــ الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب) ٢٦٦
١٦٩ــ فيليب (حتي) ٠٤٤ ٢٧٥

ــ القـــــاف ــ

١٧٠ــ ابن قادوس (محمود بن إسماعيل) ٠٨٥
١٧١ــ ابن قاضي شهبة (بدر الدّين) ٠١٦ ٢٦٦
١٧٢ــ القرطبيّ (محمّد بن عمر) ٠٧٤
١٧٣ــ قرقـوش ٠٥١
١٧٤ــ القزّاز (محمّد صالح) ٠٠٨
١٧٥ــ القفطي (عليّ بن يوسف) ٠٤١ ٠٤٨ ٠٥٨ ٢٦٧
١٧٦ــ ابن قلاقس (الشاعر) ٠٨٣ ٢٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٧٧ــ ابن القلانسي (حمزة بن أسد) ٠٠٨ ٢٦٧

١٧٨ــ ابن قلطوبغا (القاسم) ٠٥٢ ٢٦٧

١٧٩ــ القلقشندي (أحمد بن عليّ) ٠٠٤ ٠٠٦ ٠٦٣ ١٢٥ ١٩٠

١٩١ ٢١٠ ٢٦٧

١٨٠ــ قيس بن الخطيم (الشاعر) ١٨٩

١٨١ــ ابن القيسراني (محمّد بن نصر) ٠١٠ ١٠٥ ١١٥ ١٥٩ ١٨٠

١٩٣ ٢٢٢ ٢٣٤

ــ الكـــــاف ــ

١٨٢ــ كاستلان (جورج) ١٤٩ ٢٧٥

١٨٣ــ ابن كاسيبويه (القاضي المؤتمن) ٠٤٩

١٨٤ــ ابن كثير (إسماعيل بن عمر) ٠٠٨ ٠٣٢ ٠٦٤ ٠٦٨ ٠٨٦

٠٩١ ٠٨٠ ٢٦٨

١٨٥ــ كمال دسوقي ١٤٩

١٨٦ــ الكندي (زيد بن الحسن) ٠٥٧ ٠٥٨

ــ الـــــلاّم ــ

١٨٧ــ لؤلؤ (حسام الدّين) ١٥٢ ١٥٣

١٨٨ــ ابن لاشين (محمّد بن عمر) ١٤٧

١٨٩ــ لينبول (ستانلي) ٠١٧ ٠٦٠ ٢٧٦

ــ الميـــــم ــ

١٩٠ــ ابن ماجة (محمّد بن يزيد) ٢٣٣ ٢٦٧

١٩١ــ المتنبيّ (أحمد بن الحسين) ٠٦٧ ١٠٠ ١٢٨ ٢١٩ ٢٢٠

٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٥٩ ٢٦٨

١٩٢ــ المحسن بن صلاح الدّين ٠٩٨ ٠٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٩٣ــ محمّد زغلول سلاّم ٠٠٢ ٠٣٣ ٠٦١ ٠٧١ ١٨٧
١٩٥ ٢٧٦
١٩٤ــ محمّد سيّد كيلاني ٠٠٢ ٢١٧ ٢٧٦
١٩٥ــ محمّد عبده عزّام ٢٣٥ ٢٥٩
١٩٦ــ محمّد فؤاد عبد الباقي ٢٦٨
١٩٧ــ محمد أبو الفضل إبراهيم ٢١٩ ٢٦٥ ٢٦٧
١٩٨ــ محمّد كامل حسين ٢١٧
١٩٩ــ محمّد كرد عليّ ٠٥٨ ١٤٠
٢٠٠ــ محمّد نفش ٠٠٤ ٠٦٢ ٠٧٠
٢٠١ــ محمّد نور الدّين ٠٠٨
٢٠٢ــ محمود إبراهيم ٠٠١ ٠٠٢ ٠٠٦ ٠١٠ ١٥٩
١٩٧ ٢٣٤ ٢٧٨
٢٠٣ــ محمود مصطفى ٢١٧ ٢٧٨
٢٠٤ــ ابن المدوّر (أبو البيان) ٠٥٩
٢٠٥ــ مسلم بن الحجاج ١٨٦ ٢٦٨
٢٠٦ــ ابن مصّال (وزير فاطمي) ٠١٢ ٠١٣
٢٠٧ــ ابن المطران (أسعد بن الياس) ٠٥٨
٢٠٨ــ ابن المعتزّ (عبد الله) ٠٧١ ١٨٩ ٢٦٨
٢٠٩ــ المعافريّ (عبد الجبّار بن محمّد) ٠٥٥
٢١٠ــ المقدسيّ (عبد الغني) ٠٥٤
٢١١ــ المقدسيّ (علي بن عليّ) ٠٥٥ ٠٥٤
٢١٢ــ ابن مقدّم (شمس الدّين) ٠١٩
٢١٣ــ المقريزي (أحمد بن عليّ) ٠٠٨ ٠١٧ ٠٢٣ ٠٢٤ ٠٣٥
٠٣٦ ٠٤٣ ٠٦١ ٠٦٧ ٠٦٨
٠٧٢ ٠٧٤ ٠٨٦ ٠٨٩ ٠٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

	٠٩١	٠٩٥	٠٧٧	٠٧٨	١٨٠
	٢٦٨				
٢١٤ـ ملكشاه (السلجوقي)	٠٠٨				
٢١٥ـ ملك النّحاة (الحسن بن صافي)	٠٥٦				
٢١٦ـ ابن ممّاتي (أسعد بن الخطير)	٠٤٩	٠٥٧	٠٧٣	٠٧٤	
٢١٧ـ ابن منظور (محمّد بن مكرم)	٢٦٨				
٢١٨ـ المنذري (عبد العظيم بن عبد القوي)	٠٦٢	٠٦٣	٠٦٥	٠٦٦	٠٩٧
	٠٩٠	٢١٧	٢٦٨		
٢١٩ـ ابن منقذ (أسامة بن مرشد)	٠٥٩	٢٦٩			
٢٢٠ـ المنهاجي (محمّد بن أحمد)	٠٤٥	٢٥٧	٢٦٩		
٢٢١ـ الموصلي (أبو إسحاق)	٠٧٩				
٢٢٢ـ الميداني (أحمد بن محمّد)	١٨٦	٢٦٩			
٢٢٣ـ ابن ميسّر (محمّد بن عليّ)	٠٠٩				
ـ النّـــــون ـ					
٢٢٤ـ النابغة الذبياني	٢٣٥	٢٦٩			
٢٢٥ـ ابن نباته المصري (محمد بن محمد)	٢٥٧				
٢٢٦ـ ناصر خسرو (علوي)	٠٣٨				
٢٢٧ـ النّاصر لدين اللّه (أحمد بن المستضيء)	١١٢				
٢٢٨ـ ابن النبيه (عليّ بن محمّد)	٠٨٣	٢٦٩			
٢٢٩ـ النّحويّ (عدنان)	١٩١	٢٧٥			
٢٣٠ـ نزار رضـــا	٠٤١	٢٥٨			
٢٣١ـ النّعيمي (عبد القادر بن محمّد)	٠٤٠	٠٥١	٠٦٥	٢٦٩	
٢٣٢ـ نوح (النّبيّ)	١٧٥	٢٣٠	٢٣٣	٢٥١	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٣٣ـ نور الدّين (محمود بن عمـــاد الدّين زنكـــي) ٠٠١ ٠١١ ٠١٣ ٠١٥ ٠١٦
٠١٧ ٠١٨ ٠٢٠ ٠٢٢ ٠٤٠
٠٥٥ ٠٨٥ ١٠٨ ١١٣ ١١٤
١٢٧ ١٧٣ ١٨٦ ٢٠٢
٢٣٤ـ النووي (يحيى بن شرف) ٢٦٨ ٢٧٠
٢٣٥ـ النّويري (أحمد بن عبد الوهاب) ٠٦١ ٠٦٢ ٠٦٤ ٢١٦ ٢٥٧
٢٧٠

ـ الهـــــاء ـ

٢٣٦ـ ابن هشام (عبد الملك) ٢٧٠
٢٣٧ـ الهروي (عليّ بن عليّ) ٠٤١
٢٣٨ـ الهكاري (عيسى بن محمّد) ٠٥١
٢٣٩ـ الهيثميّ (أحمد بن محمّد) ٢٥٧

ـ الـــــواو ـ

٢٤٠ـ ابن واصل (محمّد بن سالم) ٠٠٦ ٠١٣ ٠١٧ ٠٢٤ ٠٦٤
٠٩٧ ٠٩٨ ٠٩٥ ٢٧٠
٢٤١ـ ابن الوردي (عمر) ٠١٤ ٠٦٤ ٠٦٥ ٢١٦ ٢٧٠
٢٤٢ـ وليم (الصّوري) ١٠٨ ١٢٠

ـ اليـــــاء ـ

٢٤٣ـ اليافعي (عبد اللّه بن سلامة) ٢٠٢ ٢٧٠
٢٤٤ـ ياقوت الحمويّ (ياقوت بن عبد اللّـــه ٠٠٦ ٠٤٦ ٠٤٨ ٢٧١
٢٤٥ـ يعقوب بن يوسف (صاحـــب المغرب) ١١٣ ١٢٢ ١٤٩ ١٨٤
٢٤٦ـ يوسف (النبـــيّ) ١٨٣ ١٨٤ ٢٣٣

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويـــات

الموضـــوع :	الصفحـــة :
المقدمـــة :	٠٠١ — ٠٠٧
المدخـــل :	(٠٠٨ — ٠٦٠)
١ــ الوضع السياسي في مصر والشام في القرن السـادس الهجري	٠٠٨ — ٠٣٢
٢ــ الوضع الاجتماعي والاقتصادي	٠٣٣ — ٠٣٩
٣ــ الوضع الثقافي والفكـــري	٠٤٠ — ٠٦٠
الفصل الأول : سيرة القاضي الفاضل :	(٠٦١ — ٠٩٩)
١ــ اسمه ونسبـه	٠٦١ — ٠٦٣
٢ــ مولده	٠٦٤ — ٠٦٦
٣ــ ثقافتـه	٠٦٧ — ٠٧٥
٤ــ الشخصية والأخـلاق	٠٧٦ — ٠٨٢
٥ــ أطوار حياته :	(٠٨٣ — ٠٩٦)
١ــ في ديوان الإنشاء متدرّبا	٠٨٣ — ٠٨٥
٢ــ في دواوين الفاطميين عاملا	٠٨٦ — ٠٨٩
٣ــ في كنف صلاح الدّين	٠٩٠ — ٠٩٤
٤ــ في ظلّ خلفاء صلاح الدّين	٠٩٥ — ٠٩٦
٦ــ وفاتـــه :	٠٩٧ — ٠٩٩
الفصل الثانـي : النثر من حيث المضمون :	(١٠٠ — ١٥٥)
١ــ الحافز الدّيني	١٠٠ — ١٠٦
٢ــ الدعوة إلى الوحدة الإسلاميّة	١٠٧ — ١١٤
٣ــ صورة البطل المسلـــم	١١٥ — ١٢١
٤ــ صورة الجيش الصليبـي	١٢٢ — ١٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥ـ صورة المعركـــة : ..... (١٢٩ — ١٥٥)
١ـ المعارك البريّـة ..... ١٢٩ — ١٣٩
٢ـ حرب الحصون والقلاع ..... ١٤٠ — ١٥٠
٣ـ المعارك البحريـــة ..... ١٥١ — ١٥٥
الفصل الثالث : الشعر من حيث المضمون : ..... (١٥٦ — ١٧٩)
١ـ صورة البطل المسلـــم ..... ١٥٦ — ١٦٨
٢ـ الاستحثاث والاستنهاض ..... ١٦٩ — ١٧٢
٣ـ صورة المعركة في شعره ..... ١٧٣ — ١٧٩
الفصل الرّابـع: التقويم الفنـــــي : ..... (١٨٠ — ٢٥٢)
أوّلا : النثـــر : ..... (١٨٠ — ٢١٨)
١ـ مؤثرات عامّـة : ..... (١٨٠ — ١٩٠)
أ ـ دينيـة ..... ١٨٠ — ١٨٦
ب ـ أدبيّـة ..... ١٨٧ — ١٩٠
٢ـ المفردات اللغظيّـة ..... ١٩١ — ١٩٩
٣ـ الأسلـــوب ..... ٢٠٠ — ٢٠٢
٤ـ الخيال والصورة الفنيّـة ..... ٢٠٣ — ٢٠٩
٥ـ البناء الفنّـي ..... ٢١٠ — ٢١٥
٦ـ الفاصل بين مؤرّخيه وكتّابه ..... ٢١٦ — ٢١٨
ثانيا : الشعـــــر : ..... (٢١٩ — ٢٥٢)
١ـ اللغة والأسلوب ..... ٢١٩ — ٢٣٧
٢ـ الخيال والصورة الشعريّة ..... ٢٣٨ — ٢٤٣
٣ـ البناء الفنـــي ..... ٢٤٤ — ٢٥٢
الخاتمـــة: ..... ٢٥٣ — ٢٥٦
الفهـــارس: ..... (٢٥٧ — ٣١٢)
١ـ المصادر والمراجـــع ..... ٢٥٧ — ٢٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ــ الآيات القرآنيـــة ..... ٢٨٠ — ١٨١
٣ــ الأحاديث النبويـــة ..... ٢٨٢ — ٠٠٠
٤ــ الأشعـــــــار ..... ٢٨٣ — ٢٨٤
٥ــ البلدان والمواقع الجغرافية ..... ٢٨٤ — ٢٩٢
٦ــ الأعـــلام ..... ٢٩٣ — ٣٠٩
٧ــ المحتويـــات ..... ٣١٠ — ٣١٢

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

University of Jordan

Faculty of Graduate Studies.

Arabic Department - (Ph.D)

The Reflections of the Crusades in the Writing of Al - Qadi Al-Fadil

Prepared By:

Hilmi Ibrahim Abdlfattah

Supervised By:

Prof. Mohamoud Ibrahim

\

(Submitted in Partial Fulfilment of the requirements for the Doctor of Philosophy Degree in the Arab literature at the Faculty of Graduate Studies University of Jordan)

1987

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit